

المؤرخ المصرى

دراسات وبحوث فى التاريخ والحضارة



يصدرها قسم التاريخ
كلية الآداب - جامعة القاهرة
العدد السادس والعشرون يناير ٢٠٠٣

بسم الله الرحمن الرحيم

المؤرخ المصري

دراسات وبحوث في التاريخ والحضارة

يصدرها قسم التاريخ
كلية الآداب ـ جامعة القاهرة

العدد السادس والعشرون

يناير ٢٠٠٣م

المراسلات : ترسل البحوث والمقالات باسم السيدة الأستاذة الدكتورة ليلى عبدالجواد إسماعيل رئيس التحرير على العنوان التالي : كلية الآداب ـ جامعة القاهرة (قسم التاريخ) بريد الأورمان ـ محافظة الجيزة.

All Correspondence to be directed to : Editor-in Chief : Prof. Laila A. Esmaeel, Cairo University, Faculty of Arts, Orman, Giza, A.R.E.

قواعد النشر

- ترحب المؤرخ المصري بنشر الأبحاث والدراسات الأصلية ذات المستوى الجاد بعد التحكيم، فضلاً عن مراجعات وعرض الكتب الجديدة.
- تقبل المؤرخ المصري للنشر الأبحاث التاريخية والحضارية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية على ألا يزيد عدد الصفحات عن ٣٠ صفحة مسجلة على ديسك كمبيوتر وفق برنامج (Word) مع نسخة مطبوعة على ورق حجم A4 بما في ذلك الهوامش والجداول وقائمة المراجع، على أن تكتب الهوامش في نهاية البحث.
- المؤرخ المصري لا تنشر بحوثًا سبق أن نشرت أو معروضة للنشر في مكان آخر، وتقوم رئاسة التحرير بإخطار المؤلفين بإجازة بحوثهم للنشر بعد عرضها على هيئة التحكيم.
- تحتفظ المؤرخ المصري لنفسها بحق قبول أو رفض الأبحاث أيًا كان قرار هيئة التحكيم.
- النشر في المؤرخ المصري متاح لأعضاء هيئة التدريس بالجامعات المصرية والعربية والأجنبية وسائر المهتمين بالدراسات التاريخية.
- الآراء الواردة بالمؤرخ المصري تعبر عن وجهة نظر أصحابها.



شكر للسادة الأساتذة الذين شاركوا في تحكيم هذا العـدد، وهـم وفقًا لترتيب البحوث بالمجلة، على التوالي :

١- أ.د. أحمد دراج

٢- أ.د. عطية القوصي

٣- أ.د. ليلى عبدالجواد إسماعيل

٤- أ.د. منى حسن محمود

٥- أ.د. محمد مؤنس (آداب عين شمس)

٦- أ.د. عبدالعليم أبو هيكل

٧- أ.د. أحمد الشربيني

٨- أ.د. محمد عفيفي

٩- أ.د. إسماعيل زين الدين

١٠- أ.د. زاكية محمد رشدي

محتويات العدد



بسم الله الرحمن الرحيم

افتتاحية العدد:

يسرني أن أقدم العدد السادس والعشرين من مجلة المؤرخ المصري للمتخصصين في حقل الدراسات التاريخية وغيرهم في الجامعات العربية والمصرية، والعدد السادس والعشرين يطوف بنا بين صفحات التاريخ بكافة تخصصاته وفروعه، تاريخ إسلامي، تاريخ وسيط، تاريخ حديث بل ومعاصر، كما يجول بنا في رحاب الجامعات العربية والمصرية، إذ شارك في كتابة صفحاته أخوات وأخوة من الباحثين العرب والمصريين، علاوة على ذلك فهو ينقلنا في لحظات من المدينة المنورة وعهد الرسول ﷺ إلى القسطنطينية حاضرة الدولة البيزنطية وأباطرتها في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي، ومن الشرق الإسلامي إلى مغربه، وذلك من خلال البحوث والدراسات التي يحملها بين جنباته.

ولا يفوتني أن أقدم خالص الشكر وعظيم التقدير لكل السادة الأساتذة الذين ساهموا في تحكيم بحوث هذا العدد، وكذلك السيدات والسادة من الباحثين الذين ساهموا في إعداد بحوثه ودراساته.

والله أسأل أن يحقق هذا العدد ـ من خلال بحوثه ودراساته ـ الغرض من ورائه، وعليه قصد السبيل، إنه نعم المولى ونعم النصير.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

رئيس التحرير

أ.د. ليلى عبدالجواد

معاملة الأراضي
في عهـــد الرســـول ﷺ

د. حصة عبدالرحمن الجبر
كلية الآداب - قسم التاريخ
جامعة الملك سعود

مقدمة :

كانت الأراضي في عهد الرسول ﷺ تشمل :

- الأموال الخاصة بالرسول ﷺ، وهي قسمين : القسم الأول أموال مخيريق، وهي سبعة حوائط، وكانت عامة صدقات الرسول ﷺ. القسم الثاني : ما أفاء الله على رسوله من المشركين مما لم يُوجف عليه بخيلٍ ولا ركاب.
- أراضي البلاد المفتوحة في عهد الرسول ﷺ، وقد اعتمدت معاملة الرسول ﷺ لها على نوع فتحها عنوة أو صلحًا، وعلى نوع البلاد، عربية : أي سكانها عربًا، أو غير عربية : أي سكانها غير عرب؛ فالأراضي العربية عليها دفع العشر، والأراضي غير العربية عليها دفع الخراج إذا بقيت في أيدي أهلها.
- اقطاعات الرسول ﷺ، وقد تقيد ﷺ بشرط الإقطاع، وما أخل في ذلك لم يتورع ﷺ، في استرداده.
- حمى الرسول ﷺ، التي كانت لخيل المسلمين للجهاد في سبيل الله مما سنعرض له في هذا البحث.

معاملة الأراضي في عهد الرسول ﷺ

ويشمل البحث فيه :

١- الأموال الخاصة بالرسول ﷺ.

٢- معاملة أراضي البلاد المفتوحة في عهد الرسول ﷺ.

٣- إقطاعات الرسول ﷺ.

٤- حمى الرسول ﷺ.

١- الأموال الخاصة بالرسول ﷺ :

أ- **أموال مخيريق** : كان مخيريق أحد بني النضير حبرًا عالمًا، فآمن برسول الله ﷺ، وأوصى بأمواله لرسول الله ﷺ، في حالة إصابته، وكانت أمواله سبعة حوائط، وهي : الميثب، والصافية، والدلال، وحسنى، وبرقة، والأعوف، ومشربة أم إبراهيم ابن رسول الله ﷺ، وهي : (مارية القبطية)، وشهد مخيريق غزوة أحد وقتل بها فصارت أمواله للنبي ﷺ، وهي عامة صدقات رسول الله ﷺ؛ وقد قال عنه الرسول ﷺ : " مخيريق سابق يهود "[١].

ب- ما أفاء الله على رسوله من المشركين مما لم يُوجف عليه بخيل ولا ركاب : وهي أموال بني النضير، وفدك لأنهم صالحوا الرسول ﷺ على أموالهم وأراضيهم بلا قتال منهم، ولا سفر تكبده المسلمون إليهم[٢].

وقيل جزء من خيبر أيضًا : ففي رواية عن مالك بن أوس بن الحدثان أنه أخبره أن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قال : " كانت لرسول الله ﷺ ثلاث صفايا : مال بني النضير، وخيبر، وفدك؛ فأما أموال بني النضير فكانت حبسًا لنوائبه، وأما فدك فكانت لأبناء السبيل، وأما خيبر فجزأها ثلاثة أجزاء، وقسم جزئين منها بين المسلمين، وحبس جزء لنفسه ونفقة أهله، فما فضل من نفقتهم رده إلى فقراء المهاجرين، وفي الكراع والسلاح في عدة سبيل الله[٣].

وسوف يرد تفصيل فتح هذه الأراضي في فقرة معاملة الأراضي المفتوحة في عهد الرسول ﷺ إن شاء الله.

ج- الصفي الذي كان رسول الله ﷺ يصطفيه لنفسه من كل غنيمة يغنمها المسلمون قبل أن يقسم المال.

د- خمس الخمس بعدها تقسم الغنيمة وتخمس[٤].

٣- معاملة أراضي البلاد المفتوحة في عهد الرسول ﷺ :

اعتمدت معاملة الرسول ﷺ للأراضي المفتوحة على نوع فتحها عنوة أو صلحًا، وعلى نوع البلاد، عربية : أي سكانها عربًا، أو غير عربية : أي سكانها غير عرب؛ فالأراضي العربية عليها دفع العشر، والأراضي غير العربية عليها دفع الخراج[٥] إذا بقيت في أيدي أهلها[٦].

وقد اتبع الرسول ﷺ سياسة خاصة مع أراضي العرب ولم يضع عليها الخراج، بل فرض عليها العشر وله في ذلك هدف سياسي اجتماعي، لأن الخراج يحمل معنى الخضوع والذلة في نظر البعض، وهو يريد للعرب وحدة سياسية[٧]، كما جعل الرسول ﷺ الماء والكلأ والنار مشاعًا بين الناس[٨]. ويبدو أن المقصود بالنار هو الحطب المأخوذ من شجر السَمُر كما هو معروف.

أولاً : الأراضي المفتوحة بدون صلح أو قتال :

وتشمل المدينة المنورة، ومكة المكرمة :

١- المدينة المنورة :

وكانت المدينة أول الفتوح وأعظمها وأجلها؛ هاجر إليها الرسول ﷺ من مكة[٩] مع المسلمين الأوائل، فرارًا من العذاب والإهانة التي كانوا يلاقونها من القرشيين، وهم قلة لا يستطيعون دفعهم[١٠]. ولاشك أن هجرة الرسول ﷺ والمسلمين الأوائل إلى المدينة قد تعتبر فتحًا من نوع خاص، لا عنوة ولا صلحًا، وإنما بقبول أهلها دعوة الإسلام، ونصرهم للرسول ﷺ والمسلمين، ودعوتهم إلى الانتقال إلى بلدهم المدينة بعد الذي أظهروه بالبيعة المعروفة ببيعة العقبة. فأمر النبي ﷺ أصحابه المسلمين بالهجرة إلى المدينة فتلقاه وصحبه أهل المدينة بالترحاب وأنزلوهم على الرحب والسعة.

ومن خصائص المدينة أنها فُتحت بالقرآن كما هو مروي عن مالك بن أنس عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة (رضي الله عنهم) قالت : قال رسول الله ﷺ :

ما يُفتح من مصر أو مدينة عنوة فإن المدينة فُتحت بالقرآن "[١١]، وأن الله تعـالى افتتح منها سائر بلاد الإسلام حتى مكة المشرفة، وأصبحت مركز الفتوح[١٢]. وأن الله بدأ بها في قوله : وقل ربي أدخلني مُدخل صدق وأخرجني مخرج صـدق"[١٣]، فمدخل صدق (المدينة) ومخرجه (مكة)[١٤].

تحريم الرسول ﷺ المدينة :

رُوي عن الرسول ﷺ أنه قال : " إن لكل نبي حرمًا وإني حرّمت المدينة كما حرّم إبراهيم عليه السلام مكة ما بين حرّتيها لا يُختلى خلاها ولا يُعضد شـجرها، ولا يُحمل فيها السلاح لقتال فمن أحدث حدثًا أو آوى محدثًا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يُقبل منه صرف ولا عدل "[١٥]. ورُوي عن جعفر بن محمد عن أبيه أن رسول الله ﷺ دعا للمدينة وأهلها وسمّاها طيبة[١٦].

٢- مكة المكرمة :

أجمعت مصادرنا على أن فتح مكة كان في السنة الثامنة من الهجـرة، وأن الرسول ﷺ منّ بها على أهلها، ولم يقسمها بين الغانمين، ولم يغنم منها مالاً، ولـم يسبِ منها أحدًا[١٧]. ولكن المصادر اختلفت في تحديد نوع فتحها كان عنوة أم صلحًا.

فقد ذكر أبو يوسف أن الرسول ﷺ ذكر أنهم أول من غدر، وخرج يريد مكة مع المسلمين ففتحها الله عليه[١٨]. واعتبر ابن سلام فتحها عنوة حيث أدرجها مـع بلاد العنوة في باب الحكم في رقاب أهل العنوة من الأسارى والسـبي[١٩]. وفـي رواية ابن رجب[٢٠] في أرض العنوة وعلى ما يُستدل به على أن الأرض لا يجب قسمتها : أن النبي ﷺ فتح مكة عنوة على أصح القولين ولم يقسمها بل أطلقها لأهلها ومنّ عليهم بأنفسهم وديارهم وأموالهم حيث أسلموا قبل قسمة ذلك كله، ولم يعوّض أحدًا من الجيش الذي معه عن ذلك شيئًا[٢١].

وقيل : إنه مما يدل على أن فتح مكة عنوة : قوله ﷺ في خطبته بمكة يـوم فتحها " يا معشر قريش ما ترون أني فاعلٌ بكم ؟ قالوا : خيرًا، أخٌ كريم وابـن أخ كريم، قال ﷺ اذهبوا فأنتم الطلقاء "[٢٢].

أما ابن زنجويه فقد جعل لها حكمًا خاصًا حيث يقول : " وقد زعم بعض من يقول أن للإمام في العنوة حكمًا ثالثًا : إن شاء لم يجعلها غنيمة ولا فيئًا وردها على

أهلها الذين أخذت منهم. ويحتج في ذلك بما فعل رسول الله ﷺ - بأهل مكة – حيث افتتحها، ثم ردها عليهم ومنّ عليهم بها "[٢٣].

أما البلاذري واليعقوبي[٢٤] فلم يشيرا إلى نوع فتحها، ولكن يتضح ضمنًا من الروايات أنه صلحًا من خلال تأمين أبي سفيان وداره ودور أهل مكة وقوله لهم اذهبوا فأنتم الطلقاء[٢٥] وهذا يتفق مع رأي ابن زنجويه السابق ذكره.

وأما الماوردي فقد ذكر اختلاف الفقهاء على أمر فتحها على النحو التالي :

أن أبا حنيفة ومالكا ذكرا أن الرسول ﷺ فتحها عنوة فعفي عن الغنائم ومنّ على السبي، أما الشافعي فقد ذكر أن الرسول ﷺ فتحها صلحًا حيث عقد الصلح مع أبي سفيان، ومن شروطه أن من أغلق بابه كان آمنًا، ومن تعلق بأستار الكعبة فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن[٢٦].

أما ابن القيم : فقد جعلها من الأراضي التي أسلم أهلها من غير قتال، فهي أرض عشر، واعتبرها بمنزلة المدينة[٢٧].

ويبدو أنه عدها على هذا الوجه لأن الرسول ﷺ منّ على أهلها ولم يقسمها بين الغانمين، ولم يغنم منها مالاً ولم يسبها، وفي هذا تكريم لمكة وأهلها من الرسول ﷺ ودليل تسامحه وعفوه، وسماحة الإسلام، كما أن في هذا تمييزًا لمكة، ومكانتها حيث حرمها إبراهيم عليه السلام من قبل كما رُوي عن الرسول ﷺ في رواية أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : " إن إبراهيم كان عبدالله وخليله، وإني عبدالله ورسوله، وإن إبراهيم حرّم مكة، وإني حرمت المدينة ما بين لابتيها..."[٢٨].

وقد حرّم إبراهيم عليه السلام مكة – كما مر معنا – ثمّ حرمها الرسول ﷺ بعد الفتح، ودليل ذلك حديث ابن عباس (رضي الله عنه) أن النبي ﷺ قال : " لا يختلى خلا مكة، ولا يُعضد شجرها، فقال العباس : إلا الإذخر فإنه للقيون وطهور البيوت فرخص في ذلك ".

١ – اختلاف الفقهاء في بيع دور مكة وإجارتها :

١- روي عن مالك أنه كره بيعها وكراء دورها، وإن بيعت أو أكريت : لم يفسخ، وقيل : إنه منع ذلك[٣٠].

٢- وروي عن أبي حنيفة أنه منع بيعها وأجاز إجارتها في غير أيام الحج ومنع منهما في أيام الحج لرواية الأعمش عن مجاهد أن النبي ﷺ قال : "مكة حرام لا يحل بيع رباعها ولا أجور بيوتها"[٣١] وفي رواية أخرى أنه نهى عن بيع رباع مكة ... [٣٢].

٣- أما الشافعي فقد روي أنه أجاز بيع دور مكة وكرائها لأنها عنده فُتحت صُلحًا، وقد أقرهم الرسول ﷺ عليها بعد الإسلام، ولم يغنمها، وكانوا يتبايعونها قبل الإسلام وبعده، وضرب مثلاً بدار الندوة وهي أول دار بُنيت في مكة، وأنها صارت بعد قصي لعبد الدار بن قصي، وابتاعها معاوية في الإسلام من عكرمة بن عامر بن هشام بن عبدالدار بن قصي، وجعلها دار الإمارة، فما أنكر بيعها أحد من الصحابة[٣٣].

٤- وأما أحمد بن حنبل فروي عنه جواز ذلك ومنعه، ورواية الجواز أظهر في الحجة، وقيل : إن رواية المنع هي المذهب[٣٤].

وقال سفيان بن سعيد الثوري : "كراء بيوت مكة حرام"، وكان يُشدد في ذلك[٣٥].

وروي عن عبدالله بن عمرو بن العاص قوله : "من أكل كراء بيوت مكة فإنما يأكل في بطنه نارًا"[٣٦].

وروي ابن جريج عن عطاء : أن عمر بن الخطاب كان ينهى أن تُبوّب أبواب دور مكة[٣٧]، وكان يسمح لمن استأذنه لضرورة أو حاجة مثل سماحه لهند بنت سهيل لأنها ذكرت أنها تريد حفظ متاع الحجاج وظهورهم[٣٨]، كما كان عمر ابن عبدالعزيز ينهي عن كراء بيوت مكة[٣٩].

وفي حديث علقمة بن نضلة الكناني : "كانت الدور والمساكن على عهد النبي ﷺ وأبي بكر الصديق وعمر وعثمان (رضي الله عنهما) لا تكرى ولا تباع ولا تدعى إلا السوائب، من احتاج سكن، ومن استغنى أسكن"[٤٠].

٢ – من سمح بكراء دور مكة وبيع رباعها :

من الفقهاء الإمام مالك والشافعي – كما مر معنا – ودلل الشافعي على ذلك بدار الندوة، وأنه لم ينكر بيعها أحد من الصحابة. وأن الخليفتين عمر وعثمان

(رضي الله عنهما) ابتاعا عندما زادا في المسجد من دور مكة وتملك أهلها أثمانها، ولو حُرّم ذلك لما بذلاه من أموال المسلمين ثم جرى به العمل[٤١]، وما زال. ومن ذلك قول عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) عندما علم بالخصومة بين أبي سفيان وعتبة بن فرقد السلمي حول تحديد أراضيهم في مكة : " إن أبا سفيان لقديم الظلم، ليس لأحد حق إلا ما أحاطت عليه جدارته "[٤٢]. وقول الرسول ﷺ لصفوان بن أمية الذي هاجر إلى مكة عندما قيل له أنه لا دين لمن لا يهاجر؛ " ارجع أبا وهب إلى أباطح مكة فقروا على سكناتكم فقد انقطعت الهجرة ... "[٤٣]. وكان طاوس وعمرو بن دينار لا يريان به بأسًا ودللا بأن عمر قد ابتاع دار السجن بأربعة آلاف درهم[٤٤]. وليست مكة تشبه شيئًا من البلاد لما خُصت به[٤٥].

ثانيًا : الأراضي التي فُتحت عنوة :

١- الأراضي غير العربية :

التي سكانها ليسوا عربًا، وهي خيبر، ووادي القرى.

أ- خيبر :

غزا رسول الله ﷺ خيبر سنة سبع من الهجرة، فقاتل أهلها وحاصرهم الرسول ﷺ ما يقرب من الشهر، ثم فتحها عنوة فغنمها الرسول ﷺ وقسّمها بين المسلمين، وذلك بأن عدها غنيمة وفق آية الغنائم " وأعلموا أن ما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل "[٤٦]. وقيل: إن الرسول ﷺ قسّم خيبر على ستة وثلاثين سهمًا، وجعل كل سهم مائة سهم، فعزل نصفها لنوائبه، وما ينزل به، وقسّم النصف الباقي بين المسلمين، وصالح الرسول ﷺ أهل خيبر على الجلاء عن الأراضي وتركها وما فيها للمسلمين، فعرضوا على الرسول ﷺ القيام بما تحتاجه الأرض لخبرتهم في الأراضي وزراعتها فأقرّهم الرسول ﷺ على القيام بأعمال الأراضي وزراعتها مقاسمة على نصف ما يخرج منها من الثمر والحب والنخل والزرع[٤٧].

ب- وادي القرى :

بعد انصراف الرسول ﷺ من خيبر في السنة السابعة من الهجرة، توجه إلى وادي القرى ودعا أهلها إلى الإسلام، فرفضوا، وقاتلوا الرسول ﷺ ففتحها الرسول

ﷺ عنوة، وغنم أموال أهلها، ومتاعهم فخمّس ذلك وترك النخل والأرض في أيدي اليهود وعاملهم مثل أهل خيبر بالمقاسمة على النصف[٤٨].

يتضح أن الرسول ﷺ طبّق على أهل خيبر ووادي القرى حكم القرآن في الفتح، ولكن للضرورة أحكامًا؛ وهي قلة الأيدي العاملة للقيام بأعمال الأرض بسبب حاجة الرسول ﷺ للمسلمين للمشاركة في الجهاد لنشر الإسلام، وقلة عدد المسلمين في بداية ظهور الإسلام، ودليل ذلك أنه في عهد أبي بكر وعمر بن الخطاب (رضي الله عنهما) كثر عدد المسلمين، وتوفر العمال وتمكنوا من عمل الأرض فأجلى عمر اليهود إلى الشام، وقسّم الأموال بين المسلمين، ولو كان في ذلك حرج ما أقدم عمر (رضي الله عنه) على مخالفة عمل الرسول ﷺ، ودليل ذلك ما سنذكره في الإقطاع الذي يختلف حكمه عن ذلك – كما سيرد – كما أن إبقاء الرسول ﷺ أهل خيبر ووادي القرى في البلاد تحقيقًا لطلبهم ومراعاة لمصلحتهم، ونظرًا لمصلحة المسلمين أيضًا وتعاونًا وتسامحًا مع اليهود وللاستفادة من خبرتهم في الزراعة، وهذا دليل آخر على سماحة الإسلام، وحسن تصرف الرسول ﷺ والمرونة في تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية دون مخالفة.

٢- الأراضي العربية التي فتحت عنوة :

وتشمل مكة وهي التي اختلفت في فتحها بين العنوة والصلح؛ وقد تقدم الحديث عنها في القسم الأول من الأراضي المفتوحة في عهد الرسول ﷺ، وهي المفتوحة بدون صلح أو قتال.

ثالثًا : الأراضي التي فتحت صلحًا :

١- الأراضي غير العربية :

وهي التي يسكنها غير العرب وهم اليهود. لما انتقل الإسلام إلى المدينة، ودخل الناس فيه، بدأ الرسول ﷺ بتنظيم المجتمع الجديد، ووضع خير الأسس له، ومن أسس هذا المجتمع :

- المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار.
- معاهدة التعاون بين المسلمين وغير المسلمين : كان سكان المدينة بعد الهجرة ثلاث طوائف : المسلمون، واليهود (بنو النضير، وبنو قريظة،

وبنو قينقاع)، والعرب الذين لم يدخلوا الإسلام. وقرر الرسول ﷺ التأليف بين هذه الطوائف، وخلق جو من التعاون والتسامح بينها، فعقد معاهدة بين المسلمين وغيرهم، ومن بنود هذه المعاهدة : التعاون بين سكان المدينة المسلمين وغيرهم ماديًا وأدبيًا ورد أي اعتداء قد يوجه لمدينتهم(٤٩). وقد نقض هؤلاء اليهود هذه المعاهدة تباعًا، وسوف نستعرض موقف الرسول ﷺ من كل منهم على حدة، ومعاملته لأراضيهم.

بنو النضير :

في السنة الرابعة من الهجرة نقض بنو النضير العهد الذي بينهم وبين الرسول ﷺ فبعث إليهم بالجلاء بسبب غدرهم ونقضهم العهد فرفضوا، فزحف إليهم الرسول ﷺ وحاصرهم خمس عشرة ليلة، ثم صالحوه على أن يخرجوا من البلد، ولهم ما حملت الإبل إلا السلاح والدروع والآلة، ولرسول الله ﷺ أرضهم ونخلهم، وسائر السلاح، فكانت غنائمهم خالصة لرسول الله ﷺ لأنها لم يوجف عليها المسلمون بخيل ولا ركاب، فكان يزرع تحت النخل في أرضهم فيدخل من ذلك قوت أهله وأزواجه سنة، وما فضل جعله في الكراع والسلاح عدة في سبيل الله(٥٠). وفي رواية أخرى كانت غنائمهم لرسول الله ﷺ خالصة ففرقها بين المهاجرين دون الأنصار ما عدا رجلين كانا فقيرين هما : أبو دجانة، سماك بن خرشه، وسهل بن حنيف(٥١).

ووضح البلاذري ذلك بأن الرسول ﷺ قال للأنصار : " ليست لإخوانكم من المهاجرين أموال، فإن شئتم قسمت هذه وأموالكم بينكم وبينهم جميعًا، وإن شئتم أمسكتم أموالكم وقسّمت هذه فيهم خاصة، فقالوا : بل قسّم هذه فيهم، وأقسم لهم من أموالنا ما شئت فنزلت : [وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ](٥٢). وكانت أرضهم أول أرض افتتحها الرسول ﷺ(٥٣).

ويُعلق أحد المؤرخين المحدثين على موقف الرسول ﷺ منهم بقوله : " إن الاكتفاء من بني النضير بالخروج من المدينة ومعهم ثرواتهم كان حكمًا في منتهى التسامح إذ قيس بالعمل الإجرامي الذي دبّره هؤلاء "(٥٤).

بنو قريظة :

كانت بينهم وبين الرسول ﷺ معاهدة على ألا يظاهروا عليهم أحـدًا. وفـي السنة الخامسة من الهجرة نقضوا المعاهدة وأعانوا الأحزاب على الرسول ﷺ فـي غزوة الخندق، فلما فرغ الرسول ﷺ من الأحزاب اتجه إليهم وحاصـرهم خمـس عشرة ليلة، ثم نزلوا على حكمه، فحكم فيهم سعد بن معاذ الأوسي، فحكـم بقتـل البالغين، وسبي النساء والذرية، وأن يقسم مالهم بين المسلمين، فأجاز الرسـول ﷺ ذلك، وقال له : " إنك حكمت بحكم الله " فقتل البالغين، وأبقى من دون ذلك، وقسّـم أرضهم بين المسلمين(٥٥).

فدك :

بعد عودة الرسول ﷺ من خيبر بعث إلى أهل فدك يدعوهم إلـى الإسـلام، وكان رئيسهم رجل منهم يُقال له : يوشع بن نون اليهودي، فصالحوا الرسـول ﷺ على أن لهم رقابهم ونصف الأرض والنخيل، ولرسول الله ﷺ النصف الأخر مـن أرضهم ونخيلهم، فكان نصف فدك خالصًا لرسول الله ﷺ لأنه لم يُوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، وكان ﷺ يصرف ما يأتيه منها إلى أبناء السبيل(٥٦).

٢- **الأراضي العربية :** وهي أراض مُعظم سكانها عرب :

الطائف :

سار الرسول ﷺ بالمسلمين إلى الطائف سنة ثمان من الهجرة، فوجدوا أهلها مستعدين للحصار، ورمتهم ثقيف بالحجارة والنبل، فحاصرهم المسلمون عدة أيام، ثم بعثت ثقيف وفدها فصالحوا الرسول ﷺ على أن يُسلموا ويُقرهم على مـا فـي أيديهم من أموالهم وركازهم، فاشترط رسول الله ﷺ ألا يحشروا ولا يعشـروا، ولا يُعبر طائفهم، ولا يُؤمّر عليهم إلا رجل منهم، واشترط عليهم ألا يكون مالهم مـن ربا أدي إليهم رؤوس أموالهم دونه، وألا يشربوا الخمر. وقد أمـنهم الرسـول ﷺ لأنهم أتوا راغبين في الإسلام، وكانت الطائف تسمى وجّ فلما حُصّنت وبني سورها سُمّيت الطائف(٥٧).

وفي رواية البلاذري : "لما فتحت مكة وأسلم أهلها طمعت ثقيف فيها حتى إذا فتحت الطائف أقرت في أيدي المسلمين، وصارت أرض الطائف مخلافًا من مخاليف مكة"[٥٩].

صلح نجران :

حضر وفد أهل نجران – ويمثله السيد والعاقب – إلى الرسول ﷺ طالبين الصلح، فصالحهما الرسول ﷺ عن أهل نجران على ألفي حلة؛ ألف منها في صفر، وألف في رجب ثمن كل حلة أوقية، والأوقية وزن أربعين درهمًا، وعلى أن يضيفوا رسل رسول الله ﷺ لمدة أقصاها شهر، وعليهم إعارة ثلاثين درعًا، وثلاثين فرسًا، وثلاثين بعيرًا، إذا حصل اضطراب أو ثورة؛ وجعل لهم ذمة الله وعهده ألا يفتنوا عن دينهم ومراتبهم، ولا يجلوا من أرضهم ولا يؤخذ منهم العشر، واشترط عليهم عدم أكل الربا أو التعامل به[٥٩].

اليمـن :

لما بلغ أهل اليمن ظهور النبي ﷺ أتته وفودهم، فكتب لهم كتابًا بإقرارهم على ما أسلموا عليه من أموالهم وأراضيهم، وركازهم، فأسلموا ووجه إليهم رسله وعماله لتعليمهم شرائع الإسلام وسننه، وقبض صدقاتهم، وجزية رؤوس من أقام على النصرانية واليهودية، والمجوسية منهم، وفرض على كل حالم دينارًا من رجل أو امرأة أو قيمته من المعافر[٦٠]. وعليهم دفع عشر إنتاج ما سقي سقيًا طبيعيًا، ونصف العشر على ما سقي بآلة[٦١]. ولم يرد فرض الجزية على النساء سوى في اليمن، ولم أتوصل للسبب.

عُمـان :

في السنة الثامنة من الهجرة بعث الرسول ﷺ أبا زيد الأنصاري، وعمرو بن العاص السهمي بكتاب إلى أهل عُمان يدعوهم إلى الإسلام، وقال : إن أجاب القوم إلى دعوة الإسلام فعمرو الأمير وأبوزيد على الصلاة وأخذ شرائع الإسلام (ويقصد بها الزكاة والعشر باعتبارهم أرض أسلم عليها أهلها)، وتعليمهم القرآن والسنة، فلما قدم أبو زيد وعمرو عُمان أوصلا كتاب الرسول ﷺ إلى القائمين بأمر عُمان : عبد وجيفر ابني الجُلندي، فأسلما ودعوا العرب هناك إلى الإسلام، فأجابوا إليه ورغبوا

فيه، وبقي عمرو وأبو زيد بُعمان حتى تُوفي الرسول ﷺ [٦٢]. أي أنهم أسلموا على أرضهم فأرضهم أرض عشر.

البحرين :

كان على العرب فيها من قبل الفرس على عهد الرسول ﷺ المنذر بن ساوي، فبعث النبي ﷺ في سنة ثمان من الهجرة العلاء بن عبدالله الحضرمي إلى البحرين ليدعوا أهلها إلى الإسلام أو الجزية، وكتب معه إلى المنذر بن ساوي، وإلى مرزبان هجر الفارسي يدعوهما إلى الإسلام أو الجزية، فأسلما وأسلم معهما جميع العرب وبعض العجم ومن لم يسلم صالح عن أرضه، وكتب العلاء بينه وبينهم كتابًا بأن عليهم أن يكفوا المسلمين العمل ويقاسموهم على النصف من الحب والتمر، وأن على كل حالم منهم دينارًا[٦٣]. وفي رواية عن العلاء أنه قال : بعثني رسول الله ﷺ إلى البحرين أو قال إلى هجر فكنت آتي الحائط بين الأخوة قد أسلم بعضهم فآخذ من المسلم العشر، ومن المشرك الخراج[٦٤]. أي أن أهل البحرين قسمان قسم أسلم على أرضه فعليه دفع نصف العشر، وقسم بقي على دينه وصالح المسلمين فعليه الخراج. ودليل ذلك كتاب العلاء لهم.

تبوك وأيله :

توجه الرسول ﷺ إلى تبوك سنة تسع من الهجرة وأقام بها أيامًا فصالحه أهلها على الجزية، وأتاه وهو بها صاحب أيلة وهو يوحنا بن رؤبة وصالحه على أن جعل له من كل حالم بأرضه في السنة دينارًا فبلغ ذلك ثلاثمائة دينار. - وهذا يدل على أن عدد البالغين في أيلة في ذلك الوقت ثلاثمائة شخص - واشترط عليهم ضيافة من يمر بهم من المسلمين، وكتب لهم كتابًا بأن يحفظوا ويمنعوا[٦٥].

تَبَالَه وجَرَش :

أسلم أهل تَبَالة وجَرَش من غير قتال فأقرهم الرسول ﷺ على أن ما أسلموا عليه، وجعل على كل حالم ممن بهما من أهل الكتاب دينارًا، واشترط عليهم ضيافة المسلمين، وولي أبا سفيان بن حرب جرش[٦٦].

أذرح :

صالح الرسول ﷺ أهل أذرح على مائة دينار في كل رجب.

الجرباء :

وصالح ﷺ أهل الجرباء على الجزية وكتب لهم كتابًا.

مقنا :

وصالح ﷺ أهل مقنا على ربع عروكهم – وهي خشب يصطاد عليه – وربع كراعهم وحلقتهم وقال الواقدي : ربع عروكهم، وربع ثمارهم، أو ما أخرجت نخيلهم – وأهل مقنا من اليهود – [٦٧].

دومة الجندل :

بعث الرسول ﷺ خالد بن الوليد سنة تسع من الهجرة إلى أكيدر بن عبدالملك السكوني بدومة الجندل فأخذه أسيرًا وقتل أخاه، وقدم بأكيدر على رسول الله ﷺ فأسلم وكتب الرسول ﷺ له ولأهل دومة الجندل كتابًا بالصلح على أن للمسلمين البارز من الماء القليل والأرض التي لم تحرث ولم تُستخرج والأرض المجهولة، والتي لا آثار بها، والحلقة والدروع، والخيل والبراذين، والبغال والحمير، وحصنهم، ولهم النخل الذي معهم في الحصن، والماء الظاهر الدائم مثل ماء العيون ونحوها، ولا تصدق ماشيتهم إلى في مراعيها ومواضعها؛ ولا تصرف (أي تطرد) الماشية التي تسرح وترعى عن مرعى تريده، ولا تعد الزائدة على ما تجب فيه الزكاة حتى تنتهي إلى الفريضة الأخرى، فتجب عليها الصدقة، ولا يمنعون من الزراعة على أن يقيموا الصلاة لوقتها ويؤتوا الزكاة بحقها عليهم[٦٨].

وهذا دليل على أن هناك فرقًا بين من أسلم طائعًا ومن أكره على الإسلام، وقد أبان الرسول ﷺ ذلك بالفعل عندما طبقه على أهل الطائف بتأمينه اياهم – كما مر معنا – حيث أنهم أسلموا طوعًا[٣٧]، وعلى أهل دومة الجندل عندما أخذ منهم بعض مالهم واستثنى عليهم بالحصن ونزع منهم السلاح والخيل لأن إسلامهم إنما كان بعد أن غلب المسلمون على أرضهم، لذا لا يؤمن غدرهم.

وباستعراض أراضي الصلح هذه، يبدوا أن الرسول ﷺ اكتفى بالجزية منها حيث لم يرد إشارة إلى الأراضي أو الخراج، وهذا دليل على حسن معاملته ﷺ؛ ومما يُلاحظ أيضًا على أراضي الصلح أنه فرض الجزية على غير المسلمين من الذكور، ولم يرد ذكر لفرضها على النساء سوى في اليمن – كما أسلفت – ولم

أتوصل للسبب في ذلك – أما قيمة الجزية فهي واحدة على كل أهل الكتاب ومن شابهم ومقدارها دينار واحد على الشخص، كما أنه ﷺ فرض عليه ضيافة المسلمين في حالة وجودهم لأي أمر وهذا حرص من الرسول ﷺ لتوفير ما يلزم لجند المسلمين في مهماتهم الدينية والعسكرية خارج بلادهم.

٣- إقطاعات الرسول ﷺ:

من شروط صحة الإقطاع أن يكون من أراضي الإمام الخاصة أو الأراضي التي صار حكمها على حسب الشرع، فتصبح الأرض ملكًا لمن دفعت له ويجب عليه دفع العشر[٧٠]. وكان الرسول ﷺ أول حافظ على هذا الشرط، وسوف يتضح ذلك باستعراض روايات إقطاعات الرسول ﷺ.

وقد اقطع الرسول ﷺ أقوامًا وتألفهم على الإسلام، وأعطى من الصدقات من يريد تأليف قلوبهم وعُرفوا (بالمؤلفة قلوبهم) من سادة العرب ورأى النبي ﷺ الصلاح فيما يفعل من ذلك، إذ كان فيه ترغيب للدخول في الإسلام، وعمارة للأرض. وكذلك الخلفاء من بعده أقطعوا من رأوا في إقطاعه صلاحًا للإسلام، ونكاية في العدو[٧١].

١- ومن ذلك ما قاله صفوان بن أمية أن الرسول ﷺ أعطاه يوم حنين وهو أبغض الناس إليه، وما زال يعطيه بعد أن أصبح أحب الناس إليه[٧٢]. ومن ذلك أيضًا إقطاعه ﷺ لمجاعة ابن مرارة أرضا مواتا طلبها، وكان مجاعة ضمن وفد أهل اليمامة[٧٣].

٢- بالإضافة إلى ذلك كان الرسول ﷺ إذا طلب منه أحد المسلمين أن يُقطعه أرضًا لم يكن ﷺ يتردد في ذلك لأنه ﷺ لم يكن يمنع شيئًا يُسأله، ودليل ذلك أن الرسول ﷺ كان قد أقطع سليطًا وهو رجل فاضل من الأنصار لما شعر بأن الأرض شغلته عن متابعة النبي ﷺ وما ينزل عليه من الوحي أعادها إلى النبي ﷺ فقبلها النبي ﷺ فطلب منه الزبير أن يُقطعه إيّاها، فأقطعه إيّاها[٧٤].

٣- إقطاع الرسول ﷺ فرات بن حيان العِجليّ أرضًا باليمامة[٧٥].

ولا يجوز الإقطاع من الأراضي التي أسلم عليها أهلها – لأن من أسلم على شيء فهو له حسب السنة. أما المدينة : حيث أقطع بلال بن الحارث جزءًا كبيرًا من العقيق، وقيل العقيق كله واشترط عليه عمارته وكتب له ﷺ كتابًا، والعقيق من المدينة، علمًا أن المدينة إنما أسلم أهلها راغبين في الإسلام، وأقطع الرسول ﷺ منها وهي على هذه الحال، فيوضح هذا حديث يروى عن ابن عباس (رضي الله عنه) يقول : " إن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة جعلوا له كل أرض لا يبلغها الماء يصنع بها ما يشاء "، والعقيق من ذلك فأقطعها الرسول ﷺ لبلال، ولم يكن ليقطع ﷺ أحدًا شيئًا مما أسلموا عليه بطيب أنفسهم[٧٦] أي طوعًا ورغبة في الإسلام إلا بطيب من أنفسهم كما فعل أهل المدينة من جعلهم للنبي ﷺ كل أرض لا يبلغها الماء. وفي رواية أخرى قيل : إنما أقطع الرسول ﷺ بلال بن الحارث العقيق لأنه من أرض مُزينة ولم يكن لأهل المدينة قط[٧٧].

ويجوز الإقطاع قبل الفتح : حيث كان الرسول ﷺ يُقطع من طلب أرضًا قبل الفتح، ويكتب لهم بذلك كُتبًا، ومثال ذلك :

١- رُوي أن أبا ثعلبة الخشني، قال : " يا رسول الله ﷺ اكتب إليّ بأرض كذا وكذا – أرض هي يومئذٍ بأيدي الروم – قال – فكأنه أعجبه الذي قال، فقال: ألا تسمعون ما يقول ؟ قال : والذي بعثك بالحق لتفتدنّ عليك. قال فكتب له بها "[٧٨].

٢- لما أسلم تميم الداري طلب من الرسول ﷺ أن يُقطعه قريته في بيت لحم فأقطعه إيّاها الرسول ﷺ، وكتب له بها، فلما تولى عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وتم فتح الشام، جاء تميم الداري بكتاب النبي ﷺ إلى عمر فقال عمر (رضي الله عنه) : أنا شاهد ذلك فأعطاه إيّاها[٧٩].

٣- وفي حالة عدم توفر الشروط في الإقطاع كان الرسول ﷺ لا يتردد في استرداده، ومثال ذلك إقطاعه ﷺ لأبيض بن حمال الماربيّ الملح الذي بمأرب ثم استرداده منه، حيث كان قد أقطعه إيّاه وهو عنده أرض موات على أن يُحييها أبيض ويعمرها، فلمّا تبين للنبي ﷺ أنه ماء عد – وهو الذي له مادة لا تنقطع مثل مياه العيون والآبار – لم يتورع في استرداده منه بعد

استطابة نفسه[80]. لأن سنة الرسول ﷺ في الكلأ والماء والنار أن الناس جميعًا فيها شركاء[81]. فكره ﷺ أن يجعله لرجل ينتفع به أو يملكه دون الناس[82].

٤- ولا يجوز استعادة إقطاعات الرسول ﷺ ممن أقطعهم إلا إذا أخلوا بشروطها، ومثال ذلك : أن الرسول ﷺ لما أقطع بلال بن الحارث المزني العقيق عندما طلب منه ذلك، اشترط عليه الرسول ﷺ أن يعمره ولكنه لم يعمل به شيئًا، فلما كانت خلافة عمر (رضي الله عنه) قال له : أنّ رسول الله ﷺ أقطعه ليعمر ولم يُقطعه ليحجر فما عمل به شيئًا فهو له، وما لم يعمل به أخذ منه ليُقطع بين الناس لإخلاله بشرط الإحياء والعمل، فلم يعمل فيه بلال شيئًا فأخذ منه عمر ما عجز عن عمارته وقسّمه بين المسلمين[83].

وذكر أبو يوسف أنّ عمرًا قال له : " إنك لا تستطيع أن تعمل ذلك، فطيّب له أن يقطعها ما خلا المعادن فإنه استثناها "[84].

أما إذا كان الإقطاع دون قيد أو شرط فلا يجوز استرداده من صاحبه، مثال ما روي عن الرسول ﷺ أنه أقطع أناسًا من مُزينة أو جُهينة أرضًا فعطلوها ولم يعمروها فجاء قوم فأحيوها فخاصم الجهنيون أو المزنيون إلى عمر (رضي الله عنه) فقال لهم : لو كانت قطيعة منه أو من أبي بكر لردها عليهم، ولكنها قطيعة من رسول الله ﷺ[37]. وهذا دليل على عدم جواز استرداد إقطاعات الرسول ﷺ التي أقطعها بدون قيد أو شرط، وقد حافظ الخلفاء رضي الله عنهم على ذلك. لكن في حالة العقيق فقد استرده عمر (رضي الله عنه) لعدم الوفاء بشرطه.

٤- حمى الرسول ﷺ:

مذهب الحمى لله ورسوله ﷺ يكون في وجهين :

١- أن تحمى الأرض للخيل الغازية في سبيل الله وقد طبق ذلك الرسول ﷺ حيث روى عن ابن عمر أنه قال : " حمى رسول الله ﷺ النقيع وهو موضع معروف بالمدينة لخيل المسلمين "[86]. وأنه قال ﷺ " لا حمى إلى لله ورسوله "، وقيل أن النبي ﷺ حمى قاع النقيع لخيل المسلمين[87]. وقال: هذا

حماي وأشار بيده إلى القاع وهو قدر ميل في ستة أميال حماه لخيل المسلمين من الأنصار والمهاجرين(٨٨). وحمى النقيع على عشرين فرسخا من المدينة وهو صدر وادي العقيق وهو أخصب موضع هناك، وقيل : إنه من ديار مزينة، وهو أول الأحماء وأفضلها وأشرفها، أحماه الرسول ﷺ لخيل المسلمين وركابهم، فلما صلى الصبح أمر رجلا وصاح بأعلى صوته فكان مدى صوته بريدًا ثم جعل ذلك حمى طوله بريد وعرضه ميل(٨٩).

والنقيع بالنون، وذكره الماوردي بالباء حيث قال : حمى رسول الله ﷺ بالمدينة وصعد جبلا بالبقيع، ثم أشار إلى أن ابن سلام ذكره بالنون (النقيع)(٩٠). وذكر السمهودي أنه بالباء كبقيع الغرقد، ثم قال : إن الرواة وأهل المعرفة اختلفوا في ضبطه فوقع عند أكثر رواة البخاري بالنون(٩١) والراجح أنه بالنون كما ذكر ذلك بصراحة ياقوت الحموي في معجم البلدان(٩٢).

٢- أن تحمى الأرض لنعم الصدقة إلى أن توضع في مواضعها وتفرق في أهلها، وقد طبّق ذلك الرسول ﷺ وعمر (رضي الله عنه)(٩٣). كما روى أن النبي ﷺ حمى الربذة للصدقة، كما في حديث ابن عمر قال : " حمى النبي ﷺ الربذة لإبل الصدقة "(٩٤).

الخاتمة

الخلاصة في هذا البحث الذي يدور حول معاملة الأراضي في عهد الرسول ﷺ أن الأراضي في عهد الرسول ﷺ كانت تشمل الأموال الخاصة بالرسول ﷺ وهي : أموال مخيريق، وما أفاء الله على رسوله من المشركين مما لم يُوجف عليه بخيلٍ ولا ركاب، وهي : أموال بني النضير، وفدك، وجزء من خيبر، ثم الصفي الذي للرسول ﷺ من كل غنيمة يغنمها المسلمون، ثم خمس الخمس، ثم معاملته ﷺ للأراضي المفتوحة صلحًا أو عنوةً، والأراضي الخاصة وتشمل المدينة، ومكة لأن لهما مكانة خاصة فقد حرّم ابراهيم عليه السلام مكة، ثم حرّم الرسول ﷺ المدينة، ثم إقطاعات الرسول ﷺ، وأمثلة تطبيقية عليها مع ملاحظة تقيده ﷺ بشروط بالإقطاع، وما أخل في ذلك لم يتورع ﷺ في استرداده، ثم حماه ﷺ لخيل المسلمين للجهاد في سبيل الله.

الهوامش :

١- البلاذري : أحمد بن يحيى (ت ٢٧٩ هـ)، فتوح البلدان، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٣٩٨هـ، ص٣١؛ السمهودي : علي بن عبدالله : (ت ٩١١ هـ)، وفا الوفا بأخبار دار المصطفى، مطبعة الآداب والمؤيد بمصر، ١٣٢٦هـ، ج٢، ص ص ١٤٢-١٥٤.

٢- ابن سلام : أبو عبيد القاسم (ت ٢٢٤هـ)، الأموال، مؤسسة ناصر للثقافة، دون ذكر المكان، ١٩٨١م، ابن زنجويه : حميد (ت ٢٥١هـ)، كتاب الأموال، تح. شاكر فياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ١٤٠٦هـ، ج١، ص٩٠؛ البلاذري : فتوح البلدان، ص٣١-٣٤؛ كرد علي : محمد : الإسلام والحضارة العربية، لجنة التأليف والترجمة، والنشر، القاهرة، ١٩٦٨م، ج٢، ص٩٥.

٣- ابن سلام : الأموال ص١١؛ البلاذري، فتوح البلدان، ص٣٣، ٤٣،٣٤.

٤- ابن سلام : الأموال، ص١١؛ ابن زنجويه : كتاب الأموال، ج١، ص٩١؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص٣١؛ جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، دار مكتبة الحياة، بيروت، بدون تاريخ، ج١، ص٢١٧.

٥- أبو يوسف : يعقوب بن إبراهيم (ت ١٨٢هـ)، كتاب الخراج، تح. محمد البنا، دار الإصلاح، دون ذكر مكان، ١٣٩٨هـ، ص١٢٩، ١٣٥؛ الدوري: عبدالعزيز، النظم الإسلامية، بدون بيانات، ص١٠٢، ١٠٥.

٦- والخراج يؤخذ غلتها وتختلف نسبة حسب قدرتها الإنتاجية، فقد كان النصف مثلا في خيبر – كما سنرى –.

٧- أبو يوسف : كتاب الخراج، ص١٢٩؛ الدوري : النظم، ص١٠٢.

٨- يحيى بن آدم : يحيى بن آدم القرشي (ت ٢٠٣هـ)، كتاب الخراج، دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ، ص١٠١؛ ابن سلام : الأموال، ص١٢٠؛ قدامه : قدامه بن جعفر (ت ٣٣٧هـ)، الخراج وصناعة الكتابة، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨١م، ص٢١٦.

٩- قدامه : الخراج وصناعة الكتابة، ص٢٥٦.

١٠- جرجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي، ج١، ص٤٩.

١١- البلاذري : فتوح البلدان، ص٢١؛ قدامه، الخراج وصناعة الكتابة، ص٢٥٦؛ السمهودي، وفا الوفا، ج١، ص٥٣.

١٢- السمهودي : وفا الوفا، ج١، ص٥٣.

١٣- المصدر نفسه، ص٥٣.

١٤- المصدر نفسه، ص٥٣.

١٥- البلاذري : فتوح البلدان، ص٢١-٢٢؛ قدامه : الخراج وصناعة الكتابة، ص٢٥٦؛ السمهودي : وفا الوفا، ج١، ص٦٢.

١٦- قدامه : الخراج وصناعة الكتابة، ص٢٥٦.

١٧- أبو يوسف : كتاب الخراج، ص٤٠٨؛ ابن سلام : الأموال، ص٧٩؛ البلاذري : فتوح البلدان، ص٥٢-٥٥؛ اليعقوبي، أحمد بن جعفر (ت٢٨٢هـ)، تاريخ اليعقوبي، دار بيروت، بيروت، ١٤٠٠هـ، ج٢، ص٥٩-٦١؛ ابن رجب : عبدالرحمن بن أحمد (ت ٧٩٥ هـ)، الاستخراج لأحكام الخراج، دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ، ص٢٧؛ الماوردي: علي بن محمد (ت ٤٥٠ هـ)، الأحكام السلطانية، المكتبة التوفيقية، مصر، بدون تاريخ، ص١٨٤.

١٨- أبو يوسف : كتاب الخراج، ص٤٠٨.

١٩- ابن سلام : الأموال، ص٧٩.

٢٠- ابن رجب : الاستخراج لأحكام الخراج، ص٢٧.

٢١- المصدر نفسه والموضع نفسه.

٢٢- ابن زنجويه، كتاب الأموال، ج١، ص٢٠٢؛ البلاذري : فتوح البلدان، ص٥٥؛ الماوردي : الأحكام السلطانية، ص١٨٤؛ الفاسي : تقي الدين محمد : شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، عيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر، ١٩٥٦م، ج١، ص٣٩؛ العقد الثمين، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، بدون تاريخ، ج١، ص٣٣.

٢٣- ابن زنجويه : كتاب الأموال، ج١، ص٢٠٠.

٢٤- البلاذري : فتوح البلدان، ص٥٥؛ اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٥٩-٦١.

٢٥- المصادر نفسها والمواضع نفسها.

٢٦- الماوردي : الأحكام السلطانية، ص١٨٤-١٨٥.

٢٧- ابن قيم الجوزيّة : شمس الدين محمد بن أبي بكر (ت ٧٥١ هـ)، أحكام أهل الذمة، تح. صبحي الصالح، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨١م، ج١، ص١٠٢.

٢٨- أبو يعلي : أبو يعلي محمد بن الحسين الفراء الحنبلي (ت ٤٥٨ هـ)، الأحكام السلطانية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٣هـ، ص١٩٢.

٢٩- البلاذري : فتوح البلدان، ص٥٥؛ الماوردي : الأحكام السلطانية، ص١٨٦م.

٣٠- الفاسي : شفاء الغرام، ج١، ص٣١؛ العقد الثمين، ج١، ص٣١.

٣١- ابن زنجويه : كتاب الأموال، ج١، ص٢٠٤؛ البلاذري : فتوح البلدان، ص٥٥، ٥٧؛ الماوردي : الأحكام السلطانية، ص١٨٥؛ الفاسي : شفاء الغرام، ج١، ص٣٢؛ العقد الثمين، ج١، ص٣٢-٣٣.

٣٢- الأزرقي : محمد بن عبدالله : أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تح. رشدي ملحس، دار الأندلس، بدون مكان ولا تاريخ، ج٢، ص١٦٣.

٣٣- الماوردي : الأحكام السلطانية، ص١٨٥؛ الفاسي : شفاء الغرام، ج١، ص٣٢؛ العقد الثمين، ج١، ص٣٣.

٣٤- الفاسي : شفاء الغراء، ج١، ص٣٢.

٣٥- البلاذري : فتوح البلدان، ص٥٧.

٣٦- ابن زنجويه : كتاب الأموال، ج١، ص٢٠٥؛ الأزرقي : أخبار مكة، ج٢، ص١٦٣، الفاسي : شفاء الغرام، ج١، ص٢٧.

٣٧- ابن زنجويه : كتاب الموال، ج١، ص٢٠٦؛ الأزرقي : أخبار مكة، ج٢، ص١٦٣-١٦٤.

٣٨- الأزرقي : أخبار مكة، ج٢، ص١٦٤.

٣٩- ابن زنجويه : كتاب الأموال، ج١، ص٢٠٦؛ البلاذري : فتوح البلدان، ص٥٦؛ الأزرقي : أخبار مكة، ج٢، ص١٦٤؛ ابن القيّم : أحكام أهل الذمة، ج١، ص١٢٩.

٤٠- ابن زنجويه : كتاب الأموال، ج١، ص٢٠٥؛ الأزرقي: أخبار مكة، ج٢، ص١٦٣؛ الفاسي: شفاء الغرام، ج١، ص٢٨؛ العقد الثمين، ج١، ص٣٢.

٤١- الماوردي : الأحكام السلطانية، ص١٨٥؛ الفاسي : شفاء الغرام، ج١، ص٢٦.

٤٢- الأزرقي : أخبار مكة، ج٢، ص١٦٥.

٤٣- المصدر نفسه والموضع نفسه.

٤٤- الأزرقي : أخبار مكة، ج٢، ص١٦٥-١٦٦؛ الفاسي : شفاء الغرام، ج١، ص٢٦-٢٧.

٤٥- ابن زنجويه : كتاب الأموال، ج١، ص٢٠٨؛ ابن القيّم : أحكام أهل الذمة، ج١، ص١٣٠.

٤٦- الأنفال: ٤١.

٤٧- أبو يوسف : كتاب الخراج، ص٧٠، ١١٤؛ ابن سلام : الأموال، ص٣١، ٥٢؛ ابن زنجويه : كتاب الأموال، ج١، ص٩٤-٩٥؛ البلاذري : فتوح البلدان، ص٣٦، ٣٨-٤٠؛ قدامه : الخراج وصناعة الكتابة، ص٢٥٨؛ ابن القيم : أحكام أهل الذمة، ج١، ص١٨١.

٤٨- البلاذري : فتوح البلدان، ص٤٧-٤٨؛ قدامه : الخراج وصناعة الكتابة، ص٢٦١.

٤٩- جرجي زيدان : تاريخ التمدن، ج١، ص٤٩؛ شلبي : أحمد، موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٨م، ج١، ص٢٤٦ ، ٢٤٨.

٥٠- ابن سلام : الأموال، ص١١؛ البلاذري : فتوح البلدان، ص٣١-٣٣؛ اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٤٩؛ شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي، ج١، ص٢٦٣-٢٦٥.

٥١- البلاذري: فتوح البلدان، ص٣٣؛ اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٤٩.

٥٢- الحشر : ٩.

٥٣- البلاذري : فتوح البلدان، ص٣٠، ٣٣-٣٤.

٥٤- شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي، ج١، ص٢٦٥.

٥٥- البلاذري : فتوح البلدان، ص٣٤-٣٦؛ اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٥٢-٥٣؛ قدامه : الخراج وصناعة الكتابة، ص٢٥٧.

٥٦- ابن سلام : الأموال، ص١١؛ ابن زنجويه : كتاب الأموال، ج١، ص٩٤-٩٥؛ البلاذري : فتوح البلدان، ص٤٢-٤٣؛ قدامه : الخراج وصناعة الكتابة، ص٢٥٩.

٥٧- البلاذري : فتح البلدان، ص٦٦-٦٧؛ قدامه : الخراج وصناعة الكتابة، ص٢٦٨-٢٦٩؛ ابن فهد : محمد بن محمد : اتحاف الورى بأخبار أم القرى، تح. فهيم شلتوت، جامعة أم القرى، مركز البحث العلمي، مكة، ج١، ص٥٥٨-٥٦٤.

٥٨- البلاذري : فتوح البلدان، ص٦٨.

٥٩- البلاذري : فتح البلدان، ص٧٥-٧٦؛ قدامه : الخراج وصناعة الكتابة، ص٢٧٢-٢٧٣.

٦٠- البلاذري : فتوح البلدان، ص٧٩-٨٠، ٨٢-٨٣؛ قدامه : الخراج وصناعة الكتابة، ص٢٧٥، ٢٠٤؛ ابن القيّم : أحكام أهل الذمة، ج١، ص٥٢.

٦١- أبو يوسف : كتاب الخراج، ص١٢٨؛ قدامه : الخراج وصناعة الكتابة، ص٢٠٤.

٦٢- البلاذري : فتوح البلدان، ص٨٧؛ أنساب الأشراف، تح. محمد حميد الله، معهد المخطوطات، بالاشتراك مع دار المعارف بمصر، ١٩٥٩م،

ص٥٢٩؛ اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٧٨؛ قدامــه : الخــراج وصناعة الكتابة، ص٢٧٦.

٦٣- البلاذري : فتوح البلدان، ص٨٩-٩١؛ قدامه : الخراج وصناعة الكتابة، ص٢٧٨؛ ابن القيّم : أحكام أهل الذمة، ج١، ص٣.

٦٤- البلاذري : فتوح البلدان، ص٩٠؛ قدامه: الخراج وصناعة الكتابة، ص٢٧٨.

٦٥- البلاذري : فتوح البلدان، ص٦٩-٧١؛ قدامه : الخراج وصناعة الكتابة، ص٢٧٠؛ الدوري : النظم الإسلامية، ص١٠٣.

٦٦- البلاذري: فتوح البلدان، ص٧٠، قدامه : الخراج وصناعة الكتابة، ص٢٦٩.

٦٧- البلاذري : فتوح البلدان ص٧١-٧٢؛ قدامه : الخراج وصناعة الكتابة، ص٢٧٠.

٦٨- البلاذري : فتوح البلدان، ص٢٧٢-٢٧٣؛ قدامه : الخــراج وصــناعة الكتابة، ص٢٧٠-٢٧٢؛ ابن القيّم : أحكام أهل الذمة، ج١، ص٣.

٦٩- لمعرفة الفرق بين من أسلم طوعًا ومن أسلم بعد الغلبة على أرضه فــي التطبيق بتفصيل أكثر، انظر : قدامه : الخراج وصناعة الكتابة، ص٢١١.

٧٠- قدامه : الخراج وصناعة الكتابة، ص٢١٨؛ الخوارزمي : محمــد بــن أحمد: مفاتيح العلوم، مكتبة الكليات الأزهريــة، القــاهرة، ١٤٠١هــ، ص٤٠؛ الماوردي : الأحكام السلطانية، ص٢١٦؛ الــدوري : تــاريخ العراق الاقتصادي في القرن ٤هــ، بدون بيانات، ص٤٠.

٧١- أبو يوسف : كتاب الخراج، ص١٣١، ١٣٣-١٣٤؛ محمد كرد علــي : الإسلام والحضارة العربية، ج٢، ص٩٩.

٧٢- خليفة بن خياط : خليفة بن خياط (ت ٢٤٠ هــ)، تاريخ خليفة بن خياط، تح. أكرم العمري، دار العلم، دمشق وبيروت، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٣٧٩هــ، ص٩٠؛ محمد كرم علي، ج٢، ص٩٩.

٧٣- البلاذري : فتوح البلدان، ص٩٧-٩٨.

٧٤- ابن سلام : الأموال، ص١١٧؛ ابن زنجويــه : كتــاب الأمــوال، ج٢، ص٦١٣-٦١٤؛ قدامه : الخراج وصناعة الكتابة، ص٢١٥-٢١٦.

٧٥- ابن سلام : الأموال، ص١١٧؛ ابن زنجويه : كتاب الأموال، ج١، ص٦١٤.

٧٦- أبو يوسف : كتاب الخراج، ص١٣٢-٣٣؛ ابن سلام : الأموال، ص١١٧، ١١٩-١٢٠؛ السمهودي: وفا الوفا، ج٢، ص١٩٠-١٩١.

٧٧- ابن سلام : الأموال، ص١١٩-١٢٠؛ السمهودي : وفا الوفا، ج٢، ص١٩١.

٧٨- ابن سلام : الأموال، ص١١٧-١١٨؛ ابن زنجويه : كتاب الأموال، ج٢، ص٦١٦.

٧٩- أبو يوسف : كتاب الخراج، ص٤١٢-٤١٤؛ ابن سلام : الأموال، ص١١٧-١١٨.

٨٠- ابن سلام : الأموال، ص١٢٠؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص٨٤؛ قدامه: الخراج وصناعة الكتابة، ص٢١٦.

٨١- أبو يوسف : كتاب الخراج، ص١١٥؛ يحيى بن آدم : كتاب الخراج، ص١٠١؛ ابن سلام : الأموال، ص١٢٠؛ قدامه : الخراج وصناعة الكتابة، ص٢١٦.

٨٢- ابن سلام : الأموال، ص١٢٠؛ البلاذري : فتوح البلدان، ص٨٤.

٨٣- أبو يوسف : كتاب الخراج، ص١٣٢-١٣٣؛ يحيى بن آدم : كتاب الخراج، ص٩٣؛ ابن سلام، الأموال، ص١١٧؛ قدامه : الخراج وصناعة الكتابة، ص٢١٤؛ السمهودي : وفا الوفا، ج٢، ص١٩٠-١٩١.

٨٤- أبو يوسف : كتاب الخراج، ص١٣٣.

٨٥- أبو يوسف : كتاب الخراج، ص١٣١؛ يحيى بن آدم : كتاب الخراج، ص٩١.

٨٦- ابن سلام : الأموال، ص١٢٥؛ ابن زنجويه : كتاب الأموال، ج٢، ص٦٦٦.

٨٧- ابن سلام : الأموال، ص١٢٤؛ ابن زنجويه : كتاب الأموال، ج٢، ص٦٥٩؛ الماوردي : الأحكام السلطانية، ص٢١٠؛ السمهودي : وفا الوفا، ج٢، ص٢٢١.

٨٨- الماوردي : الأحكام السلطانية، ص٢١٠.

٨٩- السمهودي : وفا الوفا، ج٢، ص٢٢١-٢٢٢.

٩٠- الماوردي : الأحكام السلطانية، ص٢١٠.

٩١- السمهودي : وفا الوفا، ج١، ص٢٢١.

٩٢- ياقوت : شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الحموي (ت ٦٢٦ هـ)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٣٩٧هـ، ج٥، ص٣٠١.

٩٣- ابن سلام : الأموال، ص١٢٥-١٢٦؛ ابن زنجويه : كتاب الأموال، ج٢، ص٦٦٧؛ السمهودي : وفا الوفا، ج٢، ص٢٢٢.

٩٤- ياقوت : معجم البلدان، ج٢، ص٣٠٨؛ السمهودي : وفا الوفا، ج٢، ص٢٢٢.

نقفوروس بطريرك القسطنطينية (٨٠٦-٨١٥م) ومؤلفه " التاريخ المختصر "

د.هانئ عبد الهادى البشير
كلية الآداب ـ جامعة حلوان

ساهم رجال الدين البيزنطيون بنصيب وافر فى كتابة تاريخ الإمبراطورية البيزنطية فى العصور الوسطى، ويرجع ذلك إلى أن الكنائس والأديرة صارت مراكز الثقافة الرئيسة فى العالم البيزنطى، منذ تم الاعتراف بالمسيحية شريعة ومنهاجا فى القرن الرابع الميلادى.

وكان أول عمل تاريخى دينى فى تلك الفترة المبكرة، ما كتبه يوسابيوس Eusabius القيصرى ـ أسقف قيصرية (حوالى عام ٢٦٠-٣٤٠م) وصديق الإمبراطور قسطنطين الأول ـ بعنوان تاريخ الكنيسة. ثم أكمل كل من سقراط وسوزومين Sozomen[١] وثيودوريت Theodoret فى القرن الخامس الميلادى كتاب يوسابيوس[٢]. ولا يعنى هذا أن كتابة التاريخ كانت حكرا على رجال الدين، بل شاركهم عدد من رجال الدولة أو غيرهم. فكتب بروكوبيوس Procopius السكرتير والمستشار القانونى للإمبراطور جستنيان الأول Justinian I (٥٢٧-٥٦٥م) كتب " التاريخ السرى"[٣] وغيره من الأعمال الأخرى، وكتب أجاثياس Agathias المؤرخ والشاعر " التاريخ " فى خمسة أجزاء عالج فيها أحداث الفترة ٥٥٢- ٥٥٨م، وأكمل المؤرخ ميناندر بروتكتور Menander Protector ذلك العمل فى كتابه " التاريخ " وغطى فيه الفترة بين عامى ٥٥٨-٥٨٢م[٤]، وبدأ ثيوفيلاكت سيموكاتا Theophylact Simokates من حيث انتهى ميناندر بروتكتور ممثلا ذلك فى مصنفه بعنوان " التواريخ " والذى غطى فيه عصر الإمبراطور موريس Maurice (٥٨٢-٦٠٢م)[٥]. ثم حدث انقطاع مفاجئ فى

الكتابة التاريخية الحولية فى القرنين السابع والثامن للميلاد، لذا يعتبر ما كتبه كــلا من الراهب البيزنطى ثيوفانيس بعنوان "Χρονογραφια" (التاريخ الزمنى)، والبطريرك نقفوروس بعنوان "Ιστορια συντομοσ" (التاريخ المختصــر)، المصدران الرئيسان لتاريخ هذين القرنين. وإذا كان الراهب ثيوفانيس وحوليته قــد حظيا بالعديد من الدراسات من قبل المحدثين[٦]، فإن البطريرك نقفوروس وكتابه لم يحظيا بنفس القدر من الاهتمام، ربما بسبب الإيجاز الذى يطغى على ذلك العمــل التاريخى الهام، وهنا تكمن مشروعية هذا البحث.

النشأة والتعليم :

ولد نقفوروس فى مدينة القسطنطينية قبل : عام ٧٥٠م أو عام ٧٥٨م علــى عهــد الإمبراطــور قســطنطين الخــامس كوبرونيمــوس Constantine V Copronymus (٧٤١-٧٧٥م) من أب يدعى ثيــودور Theodore وأم تــدعى ايودكيا Eudocia[٧]. شغل والده ــ الذى ينحدر من أسرة عريقة ــ منصب سكرتير Asekretis[٨] بالقصر الإمبراطوري، وكان من مؤيدى عبادة الأيقونــات[٩]؛ لــذا استدعاه الإمبراطور قسطنطين الخامس وحاول ــ من خلال التهديد والوعيد ــ أن يثنيه عن هذه العبادة، ولما فشل فى ذلك نفاه إلى قلعة بيموليســا Pimolissa فــى بونطس Pontus على نهر هاليس Halys بالجزء الشمالى مــن منطقــة اماســيا Amaseia[١٠].

ولا نعرف التاريخ الدقيق لهذه الأحداث، لكنها تمت فى ستينات القرن الثامن الميلادى ؛ ذلك أن الإمبراطور قسطنطين الخامس لم يظهر عداءه لعبادة الأيقونات عقب انتصاره على غريمه أرتافاسدوس Artavasdos عام ٧٤٣م[١١] أو حتى بعد عقد مجمع هيريا Hiereia عام ٧٥٣-٧٥٤م. وكان أول ذكر للاضطهادات التــى قام بها الإمبراطور قسطنطين الخامس ضد الأيقونيين فى عام ٧٦١م، كما وقع أول حدث نفى جماعى ــ على نحو مشابه لما حدث مع ثيــودور ــ لكــل الأشــراف ورجال الدين الذين أيدوا عبادة الأيقونات فى عام ٧٦٠م[١٢]، مما يرجح هذا الرأى.

وبعد فترة قصيرة ــ وعلى أمل أن يكون المنفى قد جعله يعدل عن رأيه ــ، قام قسطنطين الخامس باستدعاء ثيودور من منفاه، لكن أصر ثيودور على موقفه، لذا نكل به ونفاه إلى نيقيه Nicaea فى بيثينيا. وظل بها إلى أن توفى فى عام ٧٦٧م. أما إيودكيا التى شاركت زوجها عناء المنفى، فقد امتد العمر بها لبعض الوقت حتى شاهدت ابنها ــ الذى كان يكن لها احتراما كبيرا ــ بطريركا لمدينة القسطنطينية، ثم قضت نحبها هى ومن تبقى من أخوة نقفوروس، الذين لم نعرف عددهم، أثناء توليه هذا المنصب على عهد الإمبراطور نقفوروس الأول Nicephorus I (٨٠٢-٨١١م)[١٣].

على أى حال، لم تذكر سيرة نقفوروس إذا ما كان صاحب والديه إلى المنفى، أم أنه ظل فى العاصمة لدى أحد الأقارب أو الأصدقاء. كذلك لم تذكر إلا معلومات ضئيلة عن طفولته والتعليم الذى تلقاه منذ صغره[١٤]. وهى معلومات توضح أنه بدأ تعليمه بين السادسة والثامنة من عمره، حيث تعلم فى مدرسة القصر الإمبراطورى، التى كانت مخصصة لتعليم وإعداد من سيعملون فى الوظائف الإمبراطورية الهامة. فتعلم فى المرحلة الأساسية ــ وفقا لنظام التعليم البيزنطى فى القرن الثامن الميلادى ــ القراءة وقواعد اللغة. وبعد الانتهاء من هذه المرحلة درس الشعر والبلاغة وأصول اللغة. وكانت الخطوة التالية هى دراسة الفلك والهندسة والموسيقى والحساب، ثم درس فى النهاية وهو شاب الفلسفة[١٥]. ومن جانبه نجح نقفوروس بترنيمه العذب فى كتاب المزامير فى كسب عطف الإمبراطور ليو الرابع Leo IV (٧٧٥ ــ٧٨٠م) حتى صار واحدا من الحاشية المقربة من الإمبراطور دون أن يشغله ذلك عن مواصلة تعليمه، الذى أهله للسير على خطا والده. فالتحق بالعمل فى الشئون المدنية، ثم تقلد منصب السكرتير الإمبراطورى[١٦].

وعلى الرغم من أن تعليم نقفوروس كان علمانيًا منذ البداية، إلا أنه خصص جزءًا كبيرًا من إنتاجه الأدبى بين عامى ٨١٤-٨٢٠م، للجدل الفلسفى اللاهوتى فى محاولة منه إثبات أن عصر مناهضة الأيقونات لم يكن عصر تقدم وازدهار بقدر ما كان ضعف واضمحلال[١٧]، مما يدل على أنه درس اللاهوت وأنه كان رجل دين محنك. ولاشك فى أنه تأثر وتعلم من تاراسيوس Tarasius، الذى شغل منصب

السكرتير الإمبراطورى الأول فمنصب بطريرك كنيسة القسطنطينية بين عامى ٧٨٤-٨٠٦م، حيث عمل تحت إمرته فى كلتا الوظيفتين. إضافة إلى ذلك، كان نقفوروس قد عكف أثناء عزلته بالدير الذى بناه على شاطئ البسفور، على ترنيم المزامير وقراءة الإنجيل والأدب العلمانى والتعلم بشكل عام كى يتمكن من دحض الأضاليل ومباراة المارقين[١٨]. يتضح مما سبق أن نقفوروس تعلم منذ صغره وعاش وعمل بالبلاط الإمبراطورى وعلى مقربة من كبار رجال الدولة مما أكسبه خبرة كبيرة ستكون خير سند له فى مستقبله الوظيفى وإنتاجه الفكرى.

نقفوروس البطريرك :

سطع نجم نقفوروس للمرة الأولى فى المجمع المسكونى الثامن الذى عقد فى نيقيه عام ٧٨٧م، بهدف إعادة عبادة الأيقونات فى الإمبراطورية البيزنطية. ففى هذا المجمع حظى نقفوروس ــ وهو بعد لم يبلغ الثلاثين من عمره ــ بشرف السفر مع ممثلى البطريركيات الخمس، وعهد إليه بإلقاء البيان العام للمجمع وقراءة الترجمة اليونانية لخطاب البابا الموجه للأباطرة قسطنطين السادس Constantine VI وإيريني Eirene. مما يدل على أن نقفوروس كان موافقا على سياسة البطريرك طاراسيوس والإمبراطورة إيريني ويتمتع بثقتهما. وأثبت من خلال دوره هذا أنه كان خطيبا مفوها، يتمتع بدهاء يتناسب مع كونه صاحب مكانة مرموقة بالبلاط الإمبراطوري[١٩]. وظل نقفوروس بعد مجمع نيقيه يعمل بالخدمة الإمبراطورية بعض الوقت، إلى أن شعر ــ وفقا لما يذكره صاحب سيرته ــ من أنه كان يريد الخلاص بالبعد عن ضجيج الحياة فى مدينة القسطنطينية. لذلك ذهب إلى الدير الذى أسسه على أحد الجبال قريبًا من ضفاف (بحر مرمرة) Propontis أملا فى أن يصبح راهبا[٢٠].

ولم توضح المصادر التاريخ أو الدوافع الحقيقية التى جعلت نقفوروس يعتزل الحياة فى العاصمة البيزنطية. إن ستار القدسية والرهبانية الذى أضفى على هذا الاعتزال ليس إلا ستارا يخفى هذه الدوافع ؛ ذلك أن هناك تطورا طرأ على الوضع السياسى فى البلاط الإمبراطورى الذى عاش نقفوروس فى دهاليزه. فالإمبراطورة إيريني بعد أن غلبت عليها شهوة الحكم أمرت فى ١٥ أغسطس عام ٧٩٧م بسمل

عينى ابنها قسطنطين السادس، الذى كان يؤيده نقفوروس، وصارت صاحبة الكلمة الأولى فى حكم الإمبراطورية. وردا على تأييد نقفوروس لابنها سـمحت لغريمـه ثيودور ستوديت Theodore The Studite بالعودة إلى القسطنطينية(٢١). لذا ترك نقفوروس العاصمة وظل فى عز... إلى أن تمت الإطاحة بإيريني عام ٨٠٢م على أيدى نقفوروس وزير الخزانة Quaestor، الذى اعتلى العرش باسـم نقفـوروس الأول، حيث تم استدعاء نقفوروس ليعود إلى العاصمة. وتم تعيينه ــ رغم تمنعه ــ لإدارة ملجأ للفقراء والأيتام بالقسطنطينية(٢٢). ولا يستبعد أن يكـون البطريـرك طاراسيوس قد لعب دورا كبيرا فى ترشيح تابعه السابق لهذا المنصب الرفيـع ذى الطبيعة شبه الدينية، كى تكون له مشاركة ولو جزئية فى إدارة إحدى المؤسسـات الخيرية التابعة للكنيسة، مما يؤهله لتولى منصب دينى أعلى قدرا فى المستقبل(٢٣).

لم يضن القدر طويلا على نقفوروس بمثل هذا المنصب الرفيع. ففى الثـامن عشر من فبراير عام ٨٠٦م توفى البطريرك طاراسيوس بعد أن شـغل منصـب بطريرك القسطنطينية لأكثر من عشرين عامـا، فأسـف رجـال الـدين ومعهـم الإمبراطور نقفوروس الأول لوفاته(٢٤). وأصبحت الحاجة ماسة لتعيين بطريـرك جديد خلفا له. ويوضح تدخل الأباطرة البيزنطيين فى مثل هذه الظـروف لتعيـين رجال الدين وخاصة البطريرك ــ المرجع الدينى الأول فى البلاد ــ، طبيعة العلاقة بين الدولة والكنيسة فى الإمبراطورية البيزنطية، وهى علاقة حسم الصراع فيهـا منذ فترة مبكرة لصالح الدولة ممثلة فـى شـخص إمبراطورهـا. فـالإمبراطور البيزنطى جمع بين يديه السلطتين الدنيوية والدينية. ففى الوقت الذى كان يحكم فيه ويقود الجيوش ويعقد المعاهدات، كان يتدخل فى شئون الكنيسة، إما لحل مشاكلها أو الدعوة لعقد المجامع الدينية أو لترشيح رجال الدين وعلى رأسـهم البطريـرك، أو لغير ذلك من الأمور الدينية البحتة.

وفقا لأحد النصوص التى نقلهـا لنـا الـبعض عـن قسـطنطين السـابع بورفيروجنيتوس Constantine VII Porphyrogenitus فى كتابه الشهير عن " المراسم البيزنطية " ويتعلق بتنصيب أحد البطاركة فى النصف الأول مـن القـرن العاشر الميلادى، فإن كبار الأساقفة ــ حتى ذلك الحين ــ كانوا يشاركون فقط فى

عملية الانتخاب، فى حين كان الأساقفة العاديين لا يتمتعون بمثل هذا الحــق، أمــا العنصر العلمانى فحسم دوره فى الانتخابات الأسقفية منذ فترة طويلة من الــزمن، بأنه كان دورا ضعيفا. بيد أن أكثر ما يلفت النظر فى عملية ترشيح البطريرك فى هذه المرة، هو تدخل الإمبراطور ذاته ؛ ذلك أنه كان يستطيع وبكل بساطة أن ينحى أى مرشح ويعين بدلا منه مرشحه هو، ودائما ما كان يحدث ذلك. فأثنــاء عمليــة التعيين ــ التى كانت تتم على مرحلتين ــ : الأولى وهى الانتخاب، والثانية التــى تتم فيها طقوس التنصيب وخلع اللقب على المرشح شريطة أن يحدث ذلك فى أحد أيام الآحاد أو الإجازات الرسمية، كانت هناك مرحلة وسيطة ثالثة بين المــرحلتين السابقتين يتدخل الإمبراطور خلالها لفرض إرادته، وإن كان ذلك غيــر رســمى، ولكنه كان فعالا وحاسما(٢٥).

ذلك أن الإمبراطور نقفوروس طلب من كبار رجال الدين ترشــيح الرجــل المناسب لهذا المنصب ليتم التصويت عليه وسيؤخذ هو بــرأى الأغلبيــة. وكــان الإمبراطور يعلم أنه لابد أن يضع فى الاعتبار رأى رهبان أكبر دير وهــو ديــر ستوديو. ولكسب ودهم والحيلولة دون معارضتهم، كتب لأكبر اثنين من أبــائهم ــ وهما: أفلاطون وابن أخيه ثيودور Theodore ــ يطلب منهمــا ترشــيح رجــل مناسب. فرد ثيودور بالثناء على الإمبراطور موضحا أنه لا يعلم أحد أهل لتــولى البطريركية، ثم ذكر ثلاثة شروط يجب أن تتوفر لدى أى مرشح : يجب أن يكــون قادرا على تحرى أحكام الرب وعلى تنفيذها بشجاعة، وأن يكون قد تدرج فى السلك الكنسى من قبل، وأن يكون على دراية تامة بمختلف أركان الحيــاة الدينيــة كــى يستطيع مساعدة الآخرين. ثم اقترح فى النهاية أن يكون المرشح من أحد الآباء أو النساك، مستبعدا أى فكرة لاختيار رجل علمانى(٢٦).

رغم أن المصادر لا تذكر صراحة أن الإمبراطور كان لــه مرشــحه هــو الآخر، إلا أن سير الأحداث يخالف ذلك. فاختيار رجل علمانى طرحه على ذهــن نقفوروس الأول تجربة البطريرك طاراسيوس. فمن هذه التجربة وجد الإمبراطور أن رجل الدين العلمانى النشأة، أكثر تسامحا واعتدالا من رجل الدين الصميم، كمــا أنه أكثر استعدادا لتفهم وجهة نظر الإمبراطور بشأن السياسة الكنســية والتجــاوب

معها. ولذا تشبث بذلك الطراز من الرجال ووقع اختياره على سميه نقفوروس كى يتولى منصب البطريرك، ولم لا ؟ وقد رأى فيه مقـدرة وكفـاءة إداريـة عاليـة وحرص على السير على نهج طاراسيوس فى تسييس الأمور الدينية، إضافة إلى ما يتمتع به من أخلاق سامية ومواهب عديدة على رأسها الخطابـة(٢٧). ولا نعـرف السبب الحقيقى الذى جعل الإمبراطور بعد ذلك يرفض أبـرز المرشـحين، وهـو ثيودور ستوديت بعد ترشيح عمه أفلاطون له، وهو ترشيح حظى بتأييـد معظـم رجال الدين. وربما يرجع ذلك ــ من وجهة نظر الباحث ــ إلى ما عـرف عـن ثيودور من آراء متشددة، حيث كان يرى أن الإمبراطور البيزنطى مجـرد حـام للكنيسة، وأن الكنيسة لابد أن تكون مستقلة، وأن الرهبان لهم الحق فى التعبير عن رأيهم فى إدارة بطريركهم أو أسقفهم وإذا لم تحظ أعمـال البطريـرك بمـوافقتهم امتنعوا عن مناصرته(٢٨).

وعندما علم الإمبراطور نقفوروس الأول بمعارضـة كـل مـن أفلاطـون وثيودور ــ آباء دير ستوديو ــ تعيين مرشحه وأنهما يخططان لإحداث شقاق داخل الكنيسة، عقد العزم على نفيهما من العاصمة وحل دير ستوديو. إلا أنه تراجع عن ذلك تحت ضغط من بعض المقربين الذين حذروه من مغبة مثل هذا التصـرف، إذ أن عددًا كبيرًا من رهبان الدير المذكور يدينون بالولاء التام لثيودور وحـده، وأن تصرفه هذا سيظهر تعيين البطريرك الجديد على أنه غير قـانونى. لـذا اكتفـى الإمبراطور بسجن أفلاطون وثيودور لمدة أربعة وعشرين يوما حتى يمكن مرشحه من المنصب المقدس(٢٩). ثم مضى الإمبراطور فى تنفيذ خطـوات تعيـين سـميه نقفوروس، دون أن يتردد فى الإطاحة بمنافسيه، غير أن نقفوروس ترك العاصـمة واتجه إلى أحد الأديرة زهدا فى هذا المنصب، مثلما يتضح من سيرته الذاتية(٣٠).

لكن سير الأحداث ومشاركة نقفوروس فيها وحرصه ــ فى بعض الأحيان ــ على مجاراة الأباطرة والسير فى ركابهم، يجعل مـن الصـعب التصـديق بـأن نقفوروس كان زاهدا بالفعل فى منصب البطريرك، لأنه لو كان كذلك لما حضـر إلى العاصمة عندما أرسل إليه الإمبراطور، يطلب حضوره على وجـه السـرعة، ولما قبل بتولى هذا المنصب. صحيح أنه حضر على مضض وتردد طويلا ــ وفقا

لسيرته الذاتية ــ فى قبول عرض الإمبراطور[٣١] لكن ــ من وجهة نظر الباحث ــ كان ذلك نوعا من الدهاء الذى تمتع به نقفوروس، فتمنعه كان ليمتص غضب رجال الدين الساخطين عليه وعلى سيده من ناحية، وليتلذذ مــن ناحيــة أخــرى بثنــاء الإمبراطور عليه ورجائه ألا يرفض طلبه وألا يترك العاصمة مرة أخرى وأن يفكر فى خلاص الآخرين " لا ينبغى أن تفكر فى خلاصك وحدك، بل يجب أن تفكر فى خلاص الآخرين أيضا "[٣٢]، وربما ليخفى عدم صبره على تحمــل قســوة حيــاة الرهبانية التى اتخذها ملاذا بعيدا عن دنيا الناس من ناحية ثالثة. لكــن فــى كــل الأحوال، أثبت نقفوروس أنه كان يعرف من أين تؤكل الكتف واستطاع أن يتعامل مع الأحداث بصبر وتؤدة واستغل الظروف لصالحه خير استغلال.

ففى غضون بضعة أيام أضفى الإمبراطور نقفوروس الأول عليه الصــبغة الدينية، وذلك بترقيته إلى أعلى الدرجات الدينية. حيث اصطحبه إلى دير القديسين سرجيوس Sergius وباخوس Bacchus[٣٣] حيث رسم راهبًا فى الخــامس مــن شهر ابريل، ثم اصطحبه إلى البلاط البطريركى لترقيته شماس فى التاسع من نفس الشهر، ثم رقى قسًا فى اليوم التالي. وفى يوم الأحد الثانى عشر من أبريل قام ثلاثة من كبار الأساقفة ــ وهم نيقولاس Nicholas (رئيس أساقفة قيصرية فى قبادوقيا Cappadocia)، وليو (كبير أساقفة هراقليا Heraclea فــى تراقيــا Thrace) وتوماس (رئيس أساقفة تسالونيكا Thessalonica) ــ بترقيته بطريركا فى كنيسة أيا صوفيا[٣٤]. وبالطبع جرى كل ذلك بإيحاء من الإمبراطور وتحت رقابته، إلا أن كل ذلك لم يحل دون تعرض سميه للنقد اللاذع الذى سبق أن تعــرض لــه ســلفه طاراسيوس من قبل رجال الدين، وذلك الذى تعرض له خلفه البطريرك فوتيــوس Photius نحو منتصف القرن التاسع الميلادى، فكلاهما كان علمانيًا وتولى أعلــى منصب دينى فى الإمبراطورية البيزنطية[٣٥]. وهو نقد لــم يعــره البطريــرك أو الإمبراطور أدنى اهتمام.

وهكذا يدين البطريرك نقفوروس بتعيينه إلى السلطة العلمانية، لذا صار مــن المتوقع أن تحدد هذه الحقيقة العلاقة بين البطريرك والإمبراطور طوال مدة بقاء كل منهما فى منصبه. فحينما احتاج البطريرك للــدعم الإمبراطــورى فــى مواجهــة

معارضة كبار رجال الدين، وجد الإمبراطور إلى جواره لدرجة أن الإمبراطور فكر فى نفى آباء ديرا ستوديو وهدم الدير نفسه[٣٦].

ومن وجهة نظر البعض كان تصرف الإمبراطور تصرفا حكيما – على المدى القصير – على أساس أنه ضيق الهوة بينه وبين البطريرك بعد أن أصبح الاثنان فى خندق واحد. لكن على المدى البعيد أدى تصرف الإمبراطور إلى اتساع عمق الهوة بينه وبين رجال الدين، لأن تنصيب سميه العلمانى أحدث صدع فى بناء الكنيسة بعد أن انقسم رجالها بين مؤيد ومعارض، وانعكس ذلك بدوره على العلاقة بين الدولة والكنيسة، وهى علاقة غلب عليها الشقاق والخلاف وتسبب الانشغال بها وبحلها فى ضياع الكثير من الممتلكات البيزنطية وفى تقليص روابط بيزنطة مع الغرب الأوربى[٣٧]. ولم لا ؟ ومثل هذا الخلاف عانت منه بيزنطة أمدا طويلا، وإن لم يكن بنفس القدر الذى عاناه الغرب الأوربى فى العصور الوسطى.

نقفوروس وإدارة شئون الدولة :

لم يكن بطريرك القسطنطينية بمثابة مستشار الإمبراطور للشئون الدينية فحسب، بل كان له رأي مسموع فى السياسة العامة للإمبراطورية كذلك، أو بمعنى آخر لم يكن دور البطريرك قاصرًا على كونه رئيس الكنيسة، بل كان له دور فى إدارة الشئون السياسية للدولة، وهو دور لا يمكن تجاهله بأى حال من الأحوال[٣٨]. لكن هذا الدور اختلف من عصر إلى آخر، ويرجع ذلك لظروف كل عصر وطبيعة العلاقة بين البطريرك والإمبراطور البيزنطى ،أو بالأحرى العلاقة بين السلطتين الدينية والدنيوية.

بالنسبة للإمبراطور نقفوروس الأول، لم يتمكن المؤرخون من تكوين رأى قاطع بشأنه وبشأن الدور الذى لعبه فى تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، لأن صاحب المصدر البيزنطى المعاصر والوحيد لمعلوماتنا عنه، وهو الراهب ثيوفانيس، كان متحيزا ضده بشدة، ربما – من وجهة نظر الباحث – بسبب سياسة نقفوروس الأول السيئة وفرضه ضرائب باهظة أثناء إعداده للحملات العسكرية ضد الأعداء دون أن يستثنى منها الكنائس والأديرة، مما جعل ثيوفانيس لا يتوانى عن تشويه صورته فى حوليته الشهيرة[٣٩]. ومع ذلك يرى بعض المؤرخين أننا لا يمكن إنكار

الدور الذى لعبه نقفوروس الأول ــ سواء كقائد عسكرى قدير أم أدارى كفأ ــ، فضلا عن كونه مسيحي مستقيم وإمبراطور يؤمن بسمو المنصب الإمبراطورى[٤٠]. ولكى يثبت نقفوروس الأول ــ بعد تولى البطريرك الجديد منصبه ــ أن الإمبراطور البيزنطي لا تحكمه القوانين الكنسية، دعا لعقد مجمع يضم رجال الدين والعلمانيين أيضا، من أجل الاعتراف بزواج قسطنطين السادس وثيودوت Theodote، وهو الزواج الذى سبق أن حرمه رهبان دير ستوديو واعتبروه مخالفا للقوانين الكنسية وسخطوا بسببه على البطريرك طاراسيوس ووقعوا عقوبة الحرمان على القس جوزيف الذى باركه أنذاك[٤١].

لذا ليس غريبا ألا نجد البطريرك نقفوروس يؤثر كثيرا فى الشئون السياسية على عهد الإمبراطور نقفوروس الأول. ويبدو ذلك جليا من كلمات الرسالة التى أرسلها البطريرك نقفوروس عام ٨١١م إلى البابا ليو الثالث، يعتذر فيها عن عدم إرساله خطاب تنصيبه بطريرك فى وقت سابق ويطلب من البابا أن يتفهم أن الأمر ليس بسبب الإهمال، لكن عقلية السلطة ــ يقصد الإمبراطور ــ القاسية المتعنتة هى التى حالت دون عمل اللازم فى الوقت المناسب[٤٢]. ومع ذلك هناك حدث سياسى لابد أن يكون البطريرك نقفوروس قد تورط فيه بشكل أو بأخر، ففى فبراير عام ٨٠٨م، حدث تمرد فى القسطنطينية وعقد المتمردون العزم على تتويج وزير الخزانة البطريق أرسابير Arsaber إمبراطورا. ولم يكن المتمردون من العلمانيين البارزين فحسب، وإنما كان بينهم أساقفة ورهبان ورجال دين من الكنيسة العظمى ــ كنيسة آيا صوفيا ــ ومن أفراد حاشية البطريرك نقفوروس نفسه على وجه التحديد. ولا شك فى أن البطريرك ظل على ولائه لسيده، وإلا ما تردد الإمبراطور أن يوقع به نفس المصير الذى حل بالمتآمرين من تعذيب ونفى[٤٣].

هذا التطور الطبيعى زاد من أهميته تردى الوضع فى البلاط الإمبراطورى؛ ذلك أن ستاوراكيوس Stauracius ــ ابن نقفوروس الأول وخليفته على العرش الإمبراطورى ــ كان قد أصيب بجرح بالغ فى المعركة التى قتل فيها والده، ولكنه نجح فى الهروب إلى أدرنة Adrianople. وهناك تحامل على نفسه وألقى خطبة على الناجين معه من القادة والجنود، انتقد فيها والده وسوء تدبيره الذى أودى

بحياته، وأملا فى شفائه نادى هؤلاء الجنود به إمبراطورا. أما رجال البلاط فى العاصمة البيزنطية، فقد فقدوا الأمل فى شفائه وفى قدرته على حكم الإمبراطورية، لذا كانوا يحبذون ارتقاء ميخائيل رانجاب Michael Ranghbe ــ زوج بروكوبيا Procopia ابنة نقفوروس الأول ــ العرش الإمبراطورى، فى حين تريث البطريرك نقفوروس حتى عاد ستاوراكيوس إلى القسطنطينية، ولما رأى تدهور صحته بشكل بدد أى أمل فى شفائه، نصحه أن يتقرب إلى الله برد المبالغ التى جباها والده من الناس ومن الكنائس دون وجه حق[٤٤]. وأملا فى كسب رضاء البطريرك وموافقته على ما كان ينويه بالتخطيط لتولى زوجته ثيوفانو Theophano العرش لعدم استطاعته القيام بأعباء الحكم، وافق ستاوراكيوس على رد ما يستطيع رده من أموال. إلا أن هذه الموافقة لم تحقق آمال ستاوراكيوس ومخططه، بأن يعيد عهد كعهد الإمبراطورة ايريني بتولى زوجته العرش. وكان ذلك مخطط أحمق، لأنه جاء فى وقت كان يهدد فيه الخان البلغارى كروم العاصمة الإمبراطورية من ناحية، وكانت المفاوضات البيزنطية مع شارلمان، تمر بمرحلة حرجة مما جعل الفرنجة يغالون فى مطالبهم من بيزنطة من ناحية أخرى[٤٥].

عند هذا الحد لعب البطريرك نقفوروس دورا فعالا ؛ بأن انضم لمؤيدى ميخائيل رانجاب، وبادر معلنا أن الأوضاع تستوجب أن يعلن ميخائيل رانجاب نفسه إمبراطورا. ولاشك فى أن هذا التصرف كان صحيحا أبان تلك المحنة التى كانت تمر بها الإمبراطورية البيزنطية. وفى الثانى من شهر أكتوبر عام ٨١١م تم إجراء انتخابات بواسطة مجلس السناتو، الذى وافق على تعيين ميخائيل إمبراطورا. حينئذ طلب البطريرك نقفوروس من ميخائيل رانجاب بعض المطالب كشرط لتتويجه أهمها : ألا يلطخ يديه بدماء المسيحيين، وألا يصدر أى أوامر تتعلق برجال الدين أو الديريين على حد سواء إلا بمشورته. فلما وافق ميخائيل رانجاب على هذه المطالب وقدم للبطريرك تعهدا مكتوبا بهذه الضمانات، توجه البطريرك نقفوروس فى نفس اليوم[٤٦].

وبعد انتهاء مراسم التتويج أخبر ستاوراكيوس ــ وهو على فراش المرض بما حدث ــ وأنه يتحتم عليه من الآن أن يرتدى زى الرهبان وينتقل إلى أحد

الأديرة ليقضي هناك ما تبقى من حياته. وينقل لنا الراهب البيزنطي ثيوفانيس مشهد ستاوراكيوس المأساوي عند سماعه هذه الأنباء، فعندما اقتـرب مـن البطريـرك نقفوروس نظر إليه ستاوراكيوس نظر المغشي عليه، معاتبا إياه وكأنه قد خانه قائلا " لن تجد صديقا أفضل مني "[٤٧].

كان ميخائيل الأول ــ وفق رأي الكنيسة ــ رجلا ورعا مستقيما، وكان شغله الشاغل هو إصلاح مساوئ العهد السابق، التي بسببها هلك الإمبراطور نقفوروس. فبدأ باستدعاء بعض المنفيين من رجال الدين من منفاهم وأدان بعضـهم الأخـر، وبهذا نجح في رأب الصدع بين البطريرك نقفوروس ومعارضيه من رجال الدين. أيضا حرص الإمبراطور على تأييد عبادة الأيقونات، في وقت كان اللاأيقونيون ما يزالون أقوياء في العاصمة، وكان الجيش ما يزال ــ هو الآخر ــ مخلصا لذكرى الأباطرة اللاأيقونيين الذين سبق أن قادوه من نصر إلى آخر. كما أبـدى ميخائيـل الأول رغبته في التفاهم مع روما. ومع ذلك لم يكن ميخائيل الأول جديرا بمنصـبه سواء كقائد عسكري أم اداري، إلا أن هذه الاعتبارات في نظر البطريـرك كـان يفوقها في الأهمية أن ميخائيل الأول كان مرشحه، ويتصرف في الأمـور الدينيـة وفقا لما يمليه عليه كبطريرك[٤٨].

وسرعان ما توالت الأحداث لتضع الإمبراطور الجديد في اختبـار صـعب وتثبت أن البطريرك نقفوروس كان سياسيا قديرا له آراؤه الصائبة عنـد مواجهـة بعض الأزمات التي تعرضت لها الإمبراطورية أبان تلك الفترة. ذلـك أن الخـان البلغاري كروم Krum (٨٠٣-٨١٤م) كان يهدد بالاستيلاء علـى القسـطنطينية، ولكي يرجع عن تهديده، أرسل سفراءه في شهر سبتمبر عام ٨١٢م يعرض علـى البيزنطيين إحلال السلام مقابل تجديد اتفاقية عام ٧١٦م بين الجـانبين[٤٩]، ولكـن رفض أعضاء مجلس الشيوخ والمتشددون من رجال الدين العرض البلغاري، فـي حين كان للبطريرك نقفوروس رأي مخالف، حيث نصح الإمبراطور بقبول العرض البلغاري حقنا للدماء وإنقاذا للأسرى البيزنطيين فـي بلغاريـا، ممـا يُظهـر أن البطريرك نقفوروس لم يكن بمعزل عن الحياة السياسية وعما يدور داخل مجلـس الشيوخ، وقد أثبتت الأحداث صواب رأيه. ذلك أن الإمبراطـور انصـاع لـرأي

أعضاء مجلس الشيوخ ورفض العرض البلغارى، وقاد الجيش لمحاربة البلغار مما أدى إلى نشوب معركة فرسنيكيا Versinicia بين البيزنطيين والبلغار، وحينئذ لم يجد البطريرك أمامه سوى أن يؤم الناس للصلاة في كنيسة الرسل من أجل تحقيق النصر. إلا أن الدائرة دارت على الجيش البيزنطى في تلك المعركة في شهر يونيو عام ٨١٣م، وعاد ميخائيل الأول على أثر الهزيمة إلى القسطنطينية وأعرب عن رغبته في التنازل عن العرش وتنصيب خليفة له[٥٠]. وهكذا جنى ميخائيل الأول ثمار رفضه نصح البطريرك نقفوروس، وكان الثمن غاليا حيث لم يجد أمامه بد من التخلى عن الحكم وتركه لغيره ينعم به.

من جانبه أيد البطريرك نقفوروس ميخائيل الأول في قراره حفاظا عليه وعلى أبنائه، ولكنه في نفس الوقت كان سعيدا بهذا القرار لأنه سينتهز هذه الفرصة ويلعب دور صانع الأباطرة الذى سبق أن لعبه عقب مقتل الإمبراطور نقفوروس الأول عام ٨١١م، فرشح للمنصب ليو الأرمنى استراتيجوس ثغر الأناتوليك Anatolicus بعد أن اتضحت الصورة أمامه. وقام نقفوروس في الثانى عشر من شهر يوليو – وهو اليوم التالى لحلق شعر ميخائيل الأول وزوجته وأولادهما ومغادرتهم العاصمة إلى أحد الأديرة – بتتويج ليو الأرمنى إمبراطورا، تلبية لرغبة رجال الجيش الذين نادوا به إمبراطورا وطالبوه بالسهر على أمن البلاد والدفاع عن المسيحيين[٥١].

وجدير بالذكر، أن المؤرخين اختلفوا حول موقف البطريرك نقفوروس تجاه ليو الأرمنى – الذى اعتلى العرش باسم ليو الخامس – : ذكر بعضهم أن البطريرك طلب منه قبيل تتويجه إقرارا رسميا يؤكد فيه على أنه لن يجرى أي تغييرات على الوضع الدينى الحالى، وأنه سيظل على أرثوذكسيته الصحيحة. فوافق ليو وأعطاه مكتوبا بذلك. في حين ذكر بعضهم الآخر أن ما قدمه ليو للبطريرك لم يكن سوى وعود غير واضحة[٥٢].

ويؤيد الباحث الرأى الأخير، صحيح أن المؤرخ المعاصر ثيوفانيس كتب حوليته الشهيرة عند اعتلاء ليو الخامس العرش لذا حرص ألا يذكر شيئا قد يسئ إلى الإمبراطور الجديد، ولكن – وفقا لما ذكره المؤرخ بيورى – لو كان ليو قد

وقع — مثل ميخائيل الأول — على وثيقة رسمية لذكرها ثيوفانيس بالتأكيد. لكن من الممكن أن يكون ليو قد تصرف بشكل جعل البطريرك يعتقد أنه على أتم استعداد للتوقيع على أى وثيقة عقب تتويجه[٥٣]. وهذا رأى يمكن قبوله فى ضوء ما عرف عن ليو الأرمنى من مكر وخداع، ويكفى أن نعلم أن انسحابه هو وجنوده من أرض المعركة عند لقاء البيزنطيين بالبلغار عند فرسنيكيا كان من الأسباب المباشرة لهزيمة البيزنطيين، مما جعل أصابع الاتهام تشير إلى أنه كان يخطط لاعتلاء العرش، ونجح بالفعل فى مخططه وأقنع البطريرك بشكل أو بآخر بقبول كل شروط تتويجه[٥٤].

البطريرك نقفوروس فى المنفى :

كان وصول ليو الخامس (٨١٣-٨٢٠م) إلى العرش تتويجا لجهود مضنية بذلها اللاأيقونيون للعودة إلى سدة الحكم كى يفرضوا أفكارهم ومعتقداتهم من جديد. ومع ذلك ورغم مقت ليو الخامس الشديد لعبادة الأيقونات، فإنه اضطر — تحت ضغط الخطر الداهم الذى شكله البلغار بمحاولتهم الاستيلاء على القسطنطينية — لإخفاء ميوله اللاأيقونية كى يحظى بتأييد ومباركة البطريرك وأنصار الأيقونيين. لكن بعدما هزم البلغار عند مدينة مسمبريا Mesmbria فى عام ٨١٣م وأبرم معهم هدنة بعد ذلك لمدة ثلاثين عاما، وجد أنه لم يعد مضطرًا لإخفاء ميوله اللاأيقونية. فأفصح عن ذلك وأمر بتشكيل لجنة تبحث من جديد فى أمر عبادة الأيقونات ومدى خطورتها على مستقبل الإمبراطورية البيزنطية[٥٥]. فأمر حنا هيليلاس John Hylilas الملقب بحنا النحوى[٥٦] أن يجمع كل المستندات التى تخدم إدانة عبادة الأيقونات وفى مقدمتها أعمال مجمع عام ٧٥٣-٧٥٤م الموجودة بسجلات الكنائس[٥٧].

من ناحية أخرى حاول الإمبراطور كسب البطريرك نقفوروس إلى جانبه، وأملا فى هز مقاومة الحزب المعارض له، عقد مؤتمرا فى القصر الإمبراطورى ترأسه هو وطالب فيه بإجراء مناقشة مع معارضيه. حينئذ وجد البطريرك نفسه متورطا من جديد فى الصراع الذى تجدد حول عبادة الأيقونات جنبا إلى جنب مع المعارضة القديمة بزعامة ثيودور ستوديوت. فكلاهما أيد عبادة الأيقونات واحتج

على التدخل الإمبراطورى فى أمور العقيدة. لكن الذى ظهر بشكل أوضح فى هذه المرحلة عما كان عليه الحال فى القرن الثامن الميلادى، هو ازدياد تشابك الأمور الدينية والسياسية. فقد كانت السلطة الإمبراطورية تسعى للسيطرة على الحياة الدينية، مما حتم عليها مجابهة مقاومة عنيفة من قبل الكنيسة وعلى رأسها البطريرك نقفوروس[٥٨].

أنكر الحاضرون على الإمبراطور تدخله فى شئون الكنيسة قائلين " إن الرب قد ذكر فى كنيسته الرسل أولا، ثم الكهنة، ثم المبشرين " ولم يذكر الأباطرة فى أى موضع، بل يجب أن يذعن هؤلاء الأباطرة لرجال الدين ولا يغتصبوا منزلتهم "، مما أغضب الإمبراطور وجعله ينهى الاجتماع فجأة، وأصدر قرارا فى اليوم التالى بمنع أى نقاش فى المسائل الدينية. إلا أنه عاد مرة أخرى ـــ بعد أن انتهت اللجنة المشكلة لبحث مسألة عبادة الأيقونات من عملها، واستدعى البطريرك نقفوروس فى مقابلة خاصة فى القصر الامبراطورى فى شهر ديسمبر عام ٨١٤م، وأخبره بأن الجيش يرفض هذه العبادة، وعرض عليه حلا وسطا لإرضاء الجنود ؛ بأن تظل الصور المقدسة فى أماكنها، فقط تمنع الأضواء عنها ويتوقف إشعال البخور أمامها مع عدم السجود لها كذلك[٥٩].

لكن البطريرك نقفوروس لم يقبل بالحل الوسط؛ لأن مثل هذا الحل يعنى الهزيمة، وحينئذ ذكره ليو بأن عبادة الأيقونات ليس لها ذكر فى الإنجيل، المرجع الأساسى للأرثوذكسية، إلا أن نقفوروس أصر على موقفه، وذكر الإمبراطور بأن هذه العبادة أوحى بها الروح القدس فى العهود التالية.

ولم تستمر المقابلة بين الإمبراطور والبطريرك طويلا، تلك المقابلة التى بدا خلالها نقفوروس حازما والإمبراطور مهذبا، حتى هذه اللحظة لم يكن ليو الخامس مستعدا لاتخاذ أى موقف متشدد تجاه البطريرك نقفوروس، بل كان ما يزال يأمل فى تغيير موقف البطريرك؛ أيضا لم ييأس البطريرك من تغيير موقف الإمبراطور، لذا كتب رسائل لبعض المقربين من الإمبراطور مثل ثيودوسيا Theodosia زوجة ليو الخامس، واللغثيث Logothete ـ مراقب الحسابات ـــ العام وغيرهما راجيا

إياهما أن يقنعاه بالعدول عن موقفه. لكن ذهبت كل هذه الآمال والمحاولات أدراج الرياح وتشبث كل طرف برأيه وأصر عليه[٦٠].

أصدر الإمبراطور مرسوما بمنع الموالين للبطريرك من عقد أي لقاءات أو اجتماعات سرية، ووضعهم كالمتآمرين تحت رقابة شديدة، يشرف عليها والي المدينة نفسه وفرض الإقامة الجبرية على البطريرك نقفوروس في قصره، ووضعه هو الآخر تحت حراسة مشددة يشرف عليها البطريق المدعو توماسThomas. وحينئذ سقط البطريرك فريسة للمرض. إلا أن البطريرك لم يستسلم للمرض، وما لبث أن شفي من مرضه مع بداية صوم عيد الفصح عام ٨١٥م، في الوقت الذي انعقد فيه مجمع كنسي في العاصمة. وحاول زوار البطريرك خلال مرضه إقناعه ببعض التنازلات، ولكنه رفض، فأصدر المجمع الكنسي قرارا بعزله من الكرسي البطريركي وتولية آخر مكانه[٦١].

إثر ذلك أشاع بعض أعداء ليو الخامس أن الإمبراطور يدرس بجدية فكرة إعدام نقفوروس، وأن نقفوروس أرسل يرجو الإمبراطور ليو الاكتفاء بعزله حرصا على مصلحته. لكن بنظرة موضوعية لم يكن هناك سبب وجيه يدعو للاعتقاد بأن الإمبراطور كان سيقوم بإعدام نقفوروس لأنه لو فعل ذلك لن يجني شيئا، وسيزيد من عداوة بعض فئات الرعية له. لذا كان نفي نقفوروس خارج العاصمة كافيا، ويحقق أهداف الإمبراطور. من جانبه كان نقفوروس راغبا في الاستقالة من منصبه والرحيل إلى دير أجاثوس Agathos ـــ الذي بناه شمال خريسوبوليس Chrysopogisعلى ضفاف البسفور ـــ رغبة في الآخرة وزهدا في دنيا الناس، إلا أن الإمبراطور رأى ضرورة نفيه لمسافة أبعد ليكون بعيدا عن مسرح الأحداث، لذلك كلف بارداسBardas ابن أخيه بترحيله إلى دير الشهيد ثيودور في أعلى البسفور من الجانب الأسيوي. وفي عيد الفصح ـــ الأول من شهر ابريل ـــ نصب ثيودوتوس كاسيتراسTheodotos Kassiteras ـــ وهو من رجال البلاط ويمت بصلة قرابة للإمبراطور قسطنطين الخامس ـــ بطريركا[٦٢].

لا توجد أي معلومات عن نقفوروس في منفاه، ولعل ذلك (أي النفي) هو السبب في عدم ذكر كاتب سيرته أي معلومة بهذا الصدد، لكن من المفترض أن

نقفوروس ذاق مرارة المنفى، يكفى أنه كان فى شبه عزلة عن العالم، ومع ذلك لم يفقد الأمل في العودة من منفاه وتولى منصبه مرة أخرى، خاصة بعد أن اعتلى ميخائيل الثانى Michael II(٨٢٠-٨٢٩م) العرش. ولكن إصراره على مسألة عبادة الأيقونات، حال دون تحقيق هذه الأمنية، وظل نقفوروس فى منفاه نحو ثلاثة عشر عاما إلى أن توفى فى أبريل عام ٨٢٨م[٦٣] ضاربا أروع الأمثلة فى الدفاع عن عبادة الأيقونات والتمسك بها حتى النزع الأخير، حتى أطلق عليه البيزنطيون لقب المعترف، أى المعترف بعبادة الأيقونات[٦٤].

نقفوروس المؤرخ :

ترك نقفوروس عملين تاريخيين هامين : أحدهما يعرف بـ "التاريخ الزمنى المختصر" χρονογραφικον συντομον[٦٥] والآخر بعنوان "التاريخ المختصر" Ιστορια συντομοσ، وهو الذى سنقصر الحديث عليه ؛ ذلك أن شهرة البطريرك نقفوروس بين دارسى العصور الوسطى ترجع بالدرجة الأولى إلى هذا الكتاب[٦٦]. ولن نبالغ إذا قلنا أن كتاب نقفوروس يعتبر من أهم مصادر التاريخ البيزنطى خلال الفترة من مقتل موريس عام ٦٠٢م حتى زواج ليو الرابع الخزرى من ايريني عام ٧٦٩م[٦٧]. صحيح أنه أقل تفصيلا من حولية ثيوفانيس، لكنه يضارعها فى الأهمية التاريخية ويفوقها بما تميز به من موضوعية وحيادية أكبر، بل وذهب البعض إلى القول أن هذا الكتاب كان سببا من أسباب تولى صاحبه منصب البطريرك ؛ ذلك أن الإمبراطور نقفوروس الأول ــ الذى كان مراقبا للحسابات قبل تولى العرش ــ كان يقدر العلم مثلما يقدر الكفاءة الوظيفية، ويبدو أن هذا الكتاب ترك انطباعا طيبا لدى نقفوروس الأول عن سميه العالم والمؤرخ، لذا حباه بهذا المنصب المرموق[٦٨].

كتب نقفوروس مؤلفه " التاريخ المختصر " باللغة اليونانية التى تشبه اليونانية القديمة إلى حد كبير ، وقام أناستاسيوس Anastasios ــ أمين المكتبة البابوية بروما ــ فى القرن التاسع الميلادى بترجمته إلى اللغة اللاتينية تحت عنوان : "Breviarum Rerum Post Mauricuim Gestarum" (مختصر تاريخى لما حدث بعد الإمبراطور موريس)، ثم قام بعض المحدثين بتقسيم نصه إلى مقاطع

وفقرات بشكل عشوائي[٦٩]. ومؤخرا قام المؤرخ الإنجليزي كيريل مانجو C.Mango بترجمته إلى اللغة الإنجليزية تحت عنوان (التاريخ المختصر Short History)[٧٠].

ورد نص هذا الكتاب في مخطوطتين إحداهما بلندن والأخرى بالفاتيكان، وكلتاهما تبدأ بمقتل الإمبراطور موريس عام ٦٠٢م[٧١]، وهي بداية لها ما يبررها ؛ ذلك أن سلفه ثيوفيلاكت سيموكاتا صاحب كتاب " التواريخ " توقف عند مقتل الإمبراطور موريس، فأراد نقفوروس أن يبدأ من حيث توقف سلفه. وتؤدى هذه الأطروحة إلى نتيجتين : الأولى، أن الكتابة التاريخية الحولية التي كانت مستمرة، توقفت لعدة أجيال ــ شأن غيرها من المجالات الأخرى ــ بسبب الغزوات العربية. الثانية، أن الكاتب الذي عاش في القرن الثامن الميلادي وأراد أن يكمل عمل ثيوفيلاكت سيموكاتا، لم يستطع أن يحذو حذو الأخير ويكتب تاريخ بنفس الإحساس وعلى نفس المنوال، وإنما اقتنع نقفوروس بمجرد تسجيل الأحداث على النحو الذي ذكره[٧٢]. ولكن متى كتب نقفوروس تاريخه المختصر ؟

لم يذكر نقفوروس إجابة قاطعة لهذا السؤال، مما جعل المؤرخين في حيرة من أمرهم وحاولوا ــ سواء عن طريق الاستنتاج، أم بناء على ما ورد في ثنايا الكتاب من إشارات ــ أن يقدموا بعض التواريخ الافتراضية. رأى بعضهم وبشيء من التحفظ، ان أنسب تاريخ هو ثمانينات القرن الثامن الميلادي، وذلك بناء على موقف نقفوروس المتعاطف ــ على غير المتوقع ــ مع البطريرك بيروس Pyrrhos (٦٣٨-٦٤١م). ففي الوقت الذي يؤكد ثيوفانيس أن بيروس تعاون مع مارتينا في دس السم للإمبراطور قسطنطين الثالث ولذا تم عزله ونفيه إلى شمال إفريقيا[٧٣]، أظهر نقفوروس بيروس على أنه كان صديقا مخلصا لهرقل، ولم يضع السم لابنه قسطنطين الثالث، وإنه أجبر على ترك منصبه. صحيح أن نقفوروس لم يكن من مؤيدي المونوثيليتية Monothelete[٧٤] التي كان بيروس زعيمها، لكن نقله المعلومة من مصدر مؤيد للمونوثيليتية دون أن يعلق عليها أو يغير فيها، يعتبر تقصير منه، والتفسير الوحيد لذلك هو أن نقفوروس كان ما يزال علمانيا حديث السن قليل الخبرة بالشئون الدينية ولم يعرف أن بيروس كان هرطوقيا، وتتواكب

حداثة سن نقفوروس هذه مع ثمانينات القرن الثامن[٧٥] ولكن قبل عـام ٧٨٧م، لأن نقفوروس لم يذكر ما يدل على معرفته بعودة عبادة الأيقونات رسـميا فـي ذلـك العام[٧٦].

في حين رأى بعضهم الآخر أن كلمة سكان القسطنطينية، التي قالوا فيها : " أيتها السيدة الفاضلة، ليس بمقدورك اسـتقبال البرابـرة أو أي مبعـوثين أجانـب يحضرون إلى البلاط أو تستطيعين عقد محادثات معهم. حاشا لله أن تصل الدولـة الرومانية إلى مثل هذا الحال "، كانت موجهة إلى الإمبراطورة ايريني Eirene لا إلى مارتينا في القرن السابع، لذا فإن عام ٧٩٠م أو بعده بقليل هو التاريخ الأفضل لكتابة التاريخ المختصر[٧٧].

بينما رأى فريق ثالث أن في قول نقفوروس : أن بانونيا Pannonia كانت ما تزال تحت حكم الأفار ـــ دليل على أن التاريخ المختصر كتب قبل عام ٧٩٦م، وهو العام الذي استولى فيه شارلمان على بانونيا وأخضع الأفار، فـي حـين رأى فريق رابع أنه كتب في عام ٨٢٠م، ولكن في كل الأحوال، من المستبعد تمامـا أن كان لدى نقفوروس وقت فراغ كـاف لإنجـاز مثـل هـذا العمـل إبـان فتـرة بطريركيته[٧٨].

لكن لو سلمنا بأن التاريخ المختصر تمت كتابته في العقد الثامن من القـرن الثامن الميلادي، فلماذا لم يطلع عليه ثيوفانيس عند كتابة حوليته في بدايـة القـرن التاسع الميلادي، وبالمثل لو تمت كتابته في عام ٨٢٠م، فلماذا لم يعتمد نقفـوروس على حولية ثيوفانيس، التي انتهى صاحبها من كتابتها في عـام ٨١٥م ؟ المـؤرخ كيريل مانجو الذي طرح هذه الأسئلة وغيرها[٧٩] لم يقدم لها حلا مقنعا، مما يعنـي أن الأمر جد معقد وأن ندرة المعلومات انعكسـت بشـكل أو بـآخر علـى فكـر نقفوروس، وجعلته يضن علينا ببعض المعلومات التي كان بوسعه أن يذكرها، فكان بإمكانه أن يذكر تاريخ إنجازه هذه المصدر الهام، ولكنه أبى ـــ سواء عن عمـد أم غير ذلك ـــ إلا أن يترك الأمر غامضا وسيظل كذلك حتى تبدده جهود المؤرخين.

على أي حال، يمكن تقسيم ما كتبه نقفوروس في هذا الكتاب إلى قسـمين : الأول يشمل الفترة بين عامي ٦٠٢-٦٤١م، الثاني يشمل الفترة بين عامي ٦٦٨-

٧٦٩م. وبمقارنة القسم الأول بالمعلومات التى وردت بالحوليات الفصحية وحولية ثيوفانيس، يتضح أنه ليست بينه وبين الحوليات الفصحية أى صلة من ناحية، كما أن نقاط تلاقيه مع ثيوفانيس ضئيلة للغاية من ناحية أخرى. اعتمد نقفوروس فى هذا القسم على مصدر أو اثنين على الأكثر، يرجح أن أحدهما كان حولية خاصة بمدينة القسطنطينية. يؤيد ذلك قصر المعلومات وبشكل غير مترابط على العاصمة البيزنطية دون غيرها، وما أبداه صاحب هذه الحولية من تعاطف مع المونوثيليتية(٨٠). لكن سرعان ما توقف صاحب هذه الحولية ـ لسبب أو لآخر ـ فجأة عند شهر أكتوبر عام ٦٤١م، فالمعلومات التى تغطى الفترة التالية لوفاة هرقل لم تكن بنفس القدر من التفاصيل التى كانت عليه قبيل وفاته عام ٦٤١م(٨١). ووجدنا القسم الأول ينتهى هو الآخر فجأة فى منتصف الأحداث، فبعد أن ذكر وجود هرقلوناس Heraklonas ومارتينا فى السلطة، والقائد فالنتينوس Valentinos معسكرا بجيشه فى خلقدونية، وتنصيب وبولص Paul بطريركا للقسطنطينية (فى شهر أكتوبر من عام ٦٤١م) انتقل النص فجأة ليذكر ما يلى : " لذلك تم قتل قسطنطين على يد خدمه الخاص عن طريق الخيانة "، المقصود هنا هو قنسطانز الثانى Constans II (٦٤١-٦٦٨م) وكان ذلك فى عام ٦٦٨م(٨٢). مما يعنى أن هناك فجوة فى الأحداث تصل إلى سبع وعشرون عاما، مما جعل بعض المؤرخين يفترض أن هناك صفحتان من النص سقطتا سهوا. إلا أن هذا الافتراض ليس صحيحا، لأن ثيوفانيس لم يذكر هو الآخر شيئا ذا قيمة عن نفس الفترة(٨٣). وبالتالى هناك سبب مجهول حال بين كل من نقفوروس وثيوفانيس وبين التأريخ لهذه الفترة.

أما القسم الثانى، فيلاحظ أن نقفوروس يتفق فى كثير منه مع ما كتبه ثيوفانيس، وما كتبه نقفوروس ولم يرد لدى ثيوفانيس قليل جدا، أى أنهما اعتمدا على مصادر واحدة، لا تزيد عن مصدرين، الأول : تمت كتابته فى الربع الأول من القرن الثامن الميلادى وامتد تاريخه حتى عام ٧٢٠م فقط ؛ لأنه بعد هذا التاريخ توجد ثغرة فى معلومات كل من نقفوروس وثيوفانيس عن مدينة القسطنطينية. الثانى : كان حولية خاصة بمدينة القسطنطينية. ويرى بعض المؤرخين أنها كتبت قبل وفاة قسطنطين الخامس وكتبها أحد اللاأيقونيين، يؤيد ذلك، أنه عند ذكرها أى نصر عسكرى للأباطرة اللاأيقونيين يحاول كل من ثيوفانيس ونقفوروس التقليل من

شأنه أو يحذفانه، وعندما تتحدث – مثلا – عن الرخاء فى عهد ليو الثالث وقسطنطين الخامس نجدهما يذكرانه، لكن بشكل لا يثير أى قدر من الإعجاب بهذين الإمبراطورين تحيزا ضدهما[٨٤]. وهو رأى غير دقيق تماما، ذلك أنهما نقلا عن نفس الحولية أيضا تشبيه صاحبها للإمبراطور قسطنطين الخامس – فى ظلمه وجشعه – بميداس Midas جديد، سخرية منه[٨٥]، مما يؤيد وجهة النظر الأخرى التى ترى عكس ذلك، وهو أن صاحب هذا المصدر المشترك، كان من المؤيدين لعبادة الأيقونات، وكتبه عقب وفاة قسطنطين الخامس، حيث أدان كل أفعال الأباطرة اللاأيقونيين دون أن يحذف أو يقلل من شأن إنجازاتهم المختلفة[٨٦].

أيضا، رغم أن نقفوروس وثيوفانيس كانا معاصرين بعضهما البعض، وينتميان لحزب كنسى واحد، ويعتمدان على مصادر واحدة خاصة للفترة بين عامى ٦٦٨-٧٦٩م، فهناك بعض المعلومات التى وردت لدى نقفوروس ولم ترد لدى الأخر، ولا يرجع هذا لتقصير ثيوفانيس بقدر ما يرجع إلى أن نقفوروس اطلع على وثائق لم يطلع عليها ثيوفانيس[٨٧]. يعنى كل ذلك، أن الخلافات بين المؤرخين بشأن مصادر نقفوروس وثيوفانيس لم تنته، وأن الأمر ما يزال يحتاج للمزيد من البحث والدراسة لحسم هذه المسألة.

أيا كان الأمر، يتضح من خلال كتاب التاريخ المختصر، أن البطريرك نقفوروس كان مؤرخا على درجة عالية من الثقافة والوعى التاريخى، وكان موضوعيا ودقيقا فى معلوماته، وحرص فى بعض الأحيان على نقد هذه المعلومات. فانتقد – على سبيل المثال – الزواج الفاسق لهرقل من مارتينا ابنة أخته ماريا Maria[٨٨]. أيضا انفرد ببعض المعلومات التى لم ترد لدى نظيره ثيوفانيس، مثل ظهور البلغار على مسرح التاريخ فى شبه جزيرة البلقان وعلاقتهم المبكرة مع بيزنطة فى بداية القرن السابع الميلادى[٨٩]. أيضا يتميز أسلوب نقفوروس بالسلاسة والوضوح والابتعاد عن الألفاظ المبتذلة، من ذلك مثلا : أنه فى الوقت الذى يصف فيه ثيوفانيس البلغار بالأمة النتنة ويصم بعض الأباطرة البيزنطيين بالخنوع ويصف تصرفاتهم بالذل والعار[٩٠]، تجد نقفوروس يترفع عن ذكر هذه الألفاظ[٩١].

لكن يؤخذ على نقفوروس ـ شأن غيره من مؤرخي بيزنطة ـ أنــه قصــر معلوماته على مدينة القسطنطينية، ولم يخرج عن أسوارها، إلا للحديث عن نصــر حققته الجيوش البيزنطية، أو للإشارة إلى إحدى نجاحات الدبلوماسية البيزنطية بين جيران الإمبراطورية، أو توضيح جهود بعض البعثات التبشيرية إجلالا للمسيحية. أيضا سرد نقفوروس أحداثه دون ذكر لأى تواريخ أو للأباطرة الذين جــرت فــى عهدهم. كذلك اتصفت معلومات نقفوروس بالإيجاز الشديد، الذى وصل إلــى حــد الاقتضاب فى بعض الأحيان ،فنجده يؤرخ لعهد كعهد الإمبراطور فوقاس فى جملة واحدة[٩٢].

إلا أن كل ذلك لا يقلل من شأن ما كتبه نقفوروس، فقد أثنى عليه كثير مــن المحدثين[٩٣]، وما يزال كتابه يحتل مكانة عظيمة بين مصادر التــاريخ البيزنطــى بصفة عامة، وعند التأريخ للقرنين السابع والثامن الميلاديين بصفة خاصة.

الهوامش :

١- عن سوزومين، انظر: رأفت عبدالحميد " المؤرخ الغزاوي في القرن الخامس الميلادي "، بحث منشور في أعمال ندوة " فلسطين عبر عصور التاريخ "، مركز البحوث والدراسات التاريخية، القاهرة، ١٩٩٦م، ص٨٥-١٢٨.

٢- هارى إلمر بارنز : تاريخ الكتابة، ص ٦٩-٧٨. ولمعرفة ما كتبه يوسابيوس، انظر : يوسابيوس القيصرى : تاريخ الكنيسة، ترجمة مرقس داود، القاهرة، ١٩٧٩م.

٣- ترجم إلى العربية وقام بالترجمة صبري أبو الخير، نشر في عين، ٢٠٠١م، وعن بروكوبيوس، انظر أيضا، نيكول، معجم التراجم البيزنطية، ترجمة وتعليق، حسن حبشي، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص٢٠١-٢٠٢.

٤- عنهما، انظر: نيكول، معجم التراجم البيزنطية، ص٢٧٢-٢٧٣.

٥- يعتبر كتابه ذيلا على كتاب ميناندر، وعنه انظر أيضا : نيكول، معجم، ص٢٢٢.

٦- من هذه الدراسات على سبيل المثال، انظر :

Grumel, LaChronographie de Theophanes,pp.396-408; Proudfoot,Theo-phanes,367-439;Conrad. Theophanes,pp.1-44.

7- Nikephoros. , Short History,p.1 ; Vita Nicephori.,Col.39; Alexander.,. ,The Patriarch Nicephorus,p.54; ODB.,3,p.1477.

٨- عن هذا المنصب انظر : Bury., Adminstrative,pp.97-98.

٩- عندما تم الاعتراف بالمسيحية فى القرن الرابع الميلادى، أخذ المسيحيون يزينون الكنائس بصور السيد المسيح والعذراء مريم والقديسين، بعدما رأى آباء الكنيسة أن الصور هى إنجيل الأمى؛ إذ إنه يقرأ فيها ما لا يقدر على فهمه من الكتاب المقدس. وبالتدريج احتلت الأيقونات أو الصور والتماثيل المقدسة قدرا كبيرا من التبجيل فى قلوب الكثيرين من أتباع الكنيسة وصل إلى حد العبادة. ومن جانبها استخدمت الإدارة البيزنطية مثل هذه العبادة لتحقيق أغراضها الخاصة. فها هو الإمبراطور هرقل عندما اتجه من شمال أفريقيا

لتولى الحكم فى القسطنطينية، علق على سفنه صور العذراء. أيضا استخدمها الجنود لتؤازرهم فى دفاعاتهم وحروبهم ضد الأعداء، فقد علق المدافعون عن القسطنطينية عام ٦٢٦م صنوفا من الأيقونات على أسوار العاصمة كى تساعدهم فى مواجهة حصار الأفار والفرس لها. وعلى هذا النحو ظل استخدام الأيقونات ساريا طوال القرن السابع والربع الأول من القرن الثامن الميلادى، كتعاويذ تطرد الشياطين والأرواح الشريرة وتساعد على هزيمة الأعداء. لكن رغم هذه المساعدة ظل أعداء الإمبراطورية يقتطعون أجزاء من جسدها يوما بعد الآخر، كما حلت بالإمبراطورية العديد من الكوارث فتعالت الأصوات أن السبب وراء ذلك هو انتشار عبادة الأيقونات. لذا وبتأثير من رجال الدين فى آسيا الصغرى ــ مسقط ليو الثالث الأيسورى ــ أخذ الإمبراطور ليو الثالث يحارب عبادة الأيقونات وهو ما اصطلح علية بالحركة اللاأيقونية، بهدف تطهير المسيحية من شبه عبادة الأوثان، وأصدر أول قرار عام ٧٢٦م ــ رغم معارضة بطريرك القسطنطينية جرمانوس والبابا جريجورى الثانى ــ يقضى بتحريم عبادة الصور والأيقونات وتدميرها. وسار ابنه وخليفته قسطنطين الخامس على نفس السياسة، ولكنه كان أشد عنفا وضراوة من أبيه. وخلال العصر اللاأيقونى الذى امتد ما يقرب من قرن من الزمان عانت الإمبراطورية البيزنطية الأمرين من جراء هذه الخلافات الدينية، مما كان له آثاره السيئة فى الداخل والخارج، انظر :

Nikephoros.,Short History, pp. 129 - 131; Theophanes., The Chronicle,p.558.

انظر أيضا : حسنين ربيع : دراسات، ص ١٠٩-١١٢؛ هسى : العالم البيزنطى، ص ١٣٢-١٣٥ ؛ وسام فرج : دراسات، ج١ص١٧٢-١٧٣.

10- Nikephoros.,Short History,p.1;Alexander.,The Patriarch Nicephorus. p.55; ODB, 3,p.1477.

١١- كان أرتافاسدوس قد ساعد ليو الثالث فى الوصول إلى العرش. وعرفانا منه بالجميل زوجه ليو من ابنته وأنعم عليه بلقب كوروبلاط Curopolates وترقى إلى أن صار قائدا لثغر الأوبسيق. لكنه تمرد عقب وفاة ليو الثالث

وانتهز فرصة خروج قسطنطين الخامس لمحاربة المسلمين فى الشرق ونجح فى دخول العاصمة وظل حاكما للإمبراطورية ما يقرب من ستة عشر شهرا، إلى أن نجح قسطنطين الخامس فى إنزال الهزيمة به ودخل القسطنطينية فى نوفمبر عام ٧٤٣م، وبعد أن شهر بأرتافاسدوس وابنيه امر بسمل عيونهم. بمقارنة رواية كل من نقفوروس وثيوفانيس بشأن هذا التمرد، يتضح أن هناك تشابها كبيرا بينهما، إلا أن رواية نقفوروس اتسمت بالتحيز لصالح أرتافاسدوس. ذكر نقفوروس أيضا أن أرتافاسدوس تمرد بمجرد أن سمع بوفاة ليو الثالث، أى فى شهر يونيو عام ٧٤١م وليس فى العام التالى كما ذكر ثيوفانيس، انظر :

Nikephoros, ShortHistory, pp. 133 - 139, 213 - 214; Theophanes, The Chronicle, pp .575, 578; Vasiliev, Ahistory, p. 260.

انظر أيضا : السيد الباز العرينى : الدولة، ص١٨٣-١٨٥.

12- Nikephoros, Short History, p.155; Theophanes, The Chronicle, p.605; Alexander, The Patriarch Nicephorus, pp.55-56.

على سبيل المثال، عندما سجن القديس ستيفن الأصغر، الذى ظل بالسجن وفقا لسيرته نحو أحد عشر شهرا، وجد بالسجن نحو ٣٤٢ راهبا من مختلف الأماكن وكلهم تعرضوا للتعذيب والنفى بسبب معارضتهم لعبادة الأيقونات، انظر :

Nikophorius, Short History, pp. 155,222; Vita Stephanium, Col.1160; Al-exander, The Patriarch Nicephorus, p.65.

13- Nikephoros, Short History, p. 1; Vita Theodori Studitae Cols. 1143-1174; Alexander, The Patriarch Nicephorus, p.56.

١٤- يذكر كاتب سيرته أنه : " كان يعزف على القيثارة - لكن ليس كبيثاجوراس Pythagoras أو أرسيتوكسينوس Aristoxenos الدجال، ولكن تلك ذات المائة وخمسون وترا ـ كتاب المزامير، انظر :

Vita Nicephori, Col. 58; Alexander, The Patriarch Nicephorus, p.57.

15- Vita Nicephori. Col.58; Alexander. The Patriarch Nicephorus, pp.56-58.

16- Nikephoros, Short History, p.1; Alexander, The Patriarch Nice-phorus, pp.57-58.

17- Nikephoros., Short History, p.2; Vita Nicephori. ,Col.54.

أهم عملين من أعمال نقفوروس اللاهوتية همـا الــ Third Antirrheticus
المنشور ضمن مجموعة أعمال الآباء اليونانيين ج ١٠٠، والـــ Refutatio et Eversio
الذى لم ينشر بعد، انظر: Nikephoros., Short History, p.2

ولمعرفة نبذة عن إنتاج نقفوروس الأدبى، انظر : Blake., Littéraire,pp.1-15

18- Nikephoros, Short History, p.1; Vita Nicephori ,Cols .54-55; Dvornik, Les Légendes, p.351; Alexander, The Patriarch Nicephorus, pp.58-59.

19- Nikephoros. , Short History, p.1 ; Alexander.,The Patriarch Nicepho- rus, pp. 60-61.

20- Nikephoros, Short History, p. 1; Vita Nicephori, Col.54; Alexander, The Patriarch Nicephorus, pp. 61-62.

٢١- عن هذه الأحداث راجع :

Nikephoros, Short History, p. 1; Alexander, The Patriarch Nicephorus, pp. 62-63.

٢٢- عن اللقب الذى يحمله مدير مثل هذا الملجأ، انظر :

Bury., Administrative,p.103.

23- Nikephoros, Short History, p.1; Alexander, The Patriarch Nicephorus, pp. 63-64.

24- Nicephoros, Short History, p.1; Theophanes,The Chronicle, p. 661; Vita Nicephori, col.62; Alexander, The Patriarch Nicephorus, p.65; Bury, Eastern Roman, p.32.

25- Alexander., The Patriarch Nicephorus,pp.65-66.

26- Bury. , Eastern Roman ,pp.32-33.

27- Vita Nicephori, Col. 63; Bury, Eastern Roman, p.32; Ostrogorsky, State, p.166; Alexander, The Patriarch Nicephorus, pp.66-68.

28- Bury.,Eastern Roman,33

وانظر أيضا: السيد الباز العريني : الدولة، ص ٢٧٦ حاشية رقم ٢.

29- Theophanes, The Chronicle, p. 661; Bury, Eastern Roman, 33; Alexan. der., The Patriarch Nicephorus,p.70.

30- Vita Nicephori. ,Col.63.

31- Vita Nicephori. ,Col.63.

32- Vita Nicephori. ,Cols.63-66.

٣٣- أسس هذا الدير الإمبراطور جستنيان الأول في ضاحية هورميذداس Hormisdas الشهيرة، ويعد ثاني أكبر أديرة في العصمة البيزنطية، انظر :

Alexander., The Patriarch Nicephorus,p.69.

34- Nikephoros, Short History, p. 2; Theophanes, The Chronicle, p. 661; Vita Nicephori, Col. 63; Alexander, The Patriarch Nicephorus, pp. 68-69; Bury, Eastern Roman, pp.33-34.

35- Bury, Eastern Roman, p.190; Alexander, The Patriarch Nicephorus, p.69.

36- Theophanes, The Chronicle, p. 661; Alexander, The Patriarch Nicep- horus, p.70.

37- Alexander,The Patriarch Nicephorus,p.70

38- Alexander,The Patriarch Nicephorus,p.71.

39- Theophanes., The Chronicle,p.655.

40- Alexander.,The Patriarch Nicephorus,pp.71-73.

41- Ostrogorsky., State, pp.160-166.

42- Vita Theodori Studitae, col.992; Alexander, The Patriarch Nicephor- us, p. 73.

43- Theophanes, The Chronicle, p. 664; Bury, Eastern Roman, p. 14; Ale-xander, The Patriarch Nicephorus, p. 74.

44- Theophanes, The Chronicle, pp. 674,677; Treadgold, The Byzantine Revival, p.175.

45- Theophanes, The Chronicle, p.674; Jenkins, Byzantium, p.126; Tread-gold, The Byzantine Revival, p.175.

كان الإمبراطور نقفوروس الأول قد تجاهل دعوى شارلمان فى اتخاذ اللقب الإمبراطورى، وأظهر العداء الصريح له والبابوية التى كانت تشد أزره. ولم يثن ذلك شارلمان عن عزمه التوسع على حساب الممتلكات البيزنطية فى ايطاليا، ونجح ابنه بيبن فى أن يستولى على البندقية عام ٨١٠م، رغم ما تعرض له من هجوم شديد من قبل الأسطول البيزنطى. إلا أن الحكومة البيزنطية غيرت من موقفها المتشدد من شارلمان وأرادت الدخول معه فى مفاوضات من أجل استعادة أملاكها التى فقدتها، انظر :

Bury. , Eastern Roman,p.323; Ostrogorsky., State,p.176.

انظر أيضا: ديفز : شارلمان، ص ١٨٧؛ السيد الباز العرينى: الدولة، ص ٢١٧.

46- Theophanes, The Chronicle, pp. 675,677; Jenkins, Byzantium, p. 127; Bury, Eastern Roman, p.20.

47- Theophanes, The Chronicle, p. 677; Jenkins, Byzantium, p.127.

48- Theophanes, The Chronicle, p. 683; Diehl, Nicephorus1, p.29; Jenkins, Byzantium, p.127.

49- Theophanes., The Chronicle, p.684.

نصت أهم بنود اتفاقية عام ٧١٦م بين البيزنطيين والبلغار على ما يلى : أن تمتد الحدود البلغارية حتى منطقة ميلونا Mileona بثيم تراقيا، إلزام البلاط الإمبراطورى بدفع ــ سنويا للعاهل البلغارى ــ كمية من الأقمشة والمنسوجات الحريرية تتراوح قيمتها بمائة ألف قطعة ذهبية (نوميسما)، يتم

تبادل الأسرى وإعادة اللاجئين من البلدين، حرية تنقل التجار بين الجانبين، انظر : هانئ البشير : بلغاريا، ص ٤٨.

ولمزيد من المعلومات حول هذه الاتفاقية وما جرى حولها من خلافات بين المؤرخين، انظر : هانئ البشير : بلغاريا، ص ٤٨-٥١.

50- Theophanes, The Chronicle, p. 684; Vita Ignatius, Col. 490; Bury, Eastern Roman, pp. 348-349; Jenkins, Byzantium, p.128.

انظر أيضا: هانئ البشير : بلغاريا، ص٩٤-٩٩.

51- Theophanes, The Chronicle, p. 686; Vita Nicephori, Cols. 78-79; Diehl, Nicephorus I, p.29; Alexander. The Patriarch Nicephorus, pp.77-78.

52- Ostrogorsky, State, p.179; Alexander, The Patriarch Nicephorus ,p.78.

53- Bury., Eastern Roman,p.56,note no.1.

٥٤- لمزيد من التفاصيل، انظر : هانئ البشير : بلغاريا، ص ٩٨-٩٩.

55- Nikephoros., Short History,p.2; Diehl., Nicephorus1,pp.29-30.

٥٦-حنا هيليلاس أو النحوى أرمنى الأصل مثل الإمبراطور ليو الخامس، وكان من أبرز وأنشط الأعضاء الستة الذين تشكل منهم المجلس الاستشارى الخاص بالإمبراطور، انظر :

Alexander.,The Patriarch Nicephorus.pp.126-127.

لمزيد من التفاصيل، انظر:

Alexander, The Patriarch Nicephorus, note F,pp. 235 f.

57- Treadgold, The Byzantine State, p.432; Diehl, Nicephorus1, p.30; Jenkins, Byzantium. p.128.

انظر أيضا : وسام فرج : دراسات،ص١٩٣-١٩٤.

58- Ostrogorsky., State,p.179; Diehl.,Nicephorus I,p.30.

59- Vita Nicephori, Cols, 76-92; Every, Patriachate, p.97; Bury, Eastern Roman, p.62; Diehl, Nicephorus I,P.30.

60- Bury.,Eastern Roman,pp.62,66.

61- Vita Nicephori,Col.39; Bury, Eastern Roman, pp.66-67.

62- Vita Nicephori, Cols, 126-134; Bury, Eastern Roman, pp.67-68; Tr-eadgold, The Byzantine State, p.432; Alexander, The Patriarch Nicepho-rus, pp. 147-148; Ostrogorsky, State, 179; Every, Patriachate, p.98.

انظر أيضا : السيد الباز العرينى : الدولة، ص ٢٢٦.

63- Vita Nicephori, Cols, X,39; Alexander, The Patriarch Nicephorus, pp. 148-150,155.

64- Vita Nicephori., Cols,IX-X,39.

65- Nikephoros., Short History,p.2.

لم تنظر طبعة دى بور (ليبزج ١٨٨٠م) بعين الاعتبار ــ وفقا لرأى المؤرخ الإنجليزى كيريل مانجو ــ إلى النسخ السلافية أو أقدم أربع مخطوطات يونانية لهذا العمل، الذى هو عبارة عن مجموعة من الجداول الحولية التى تتضمن العناصر الآتية :

(١) التسلسل الزمنى للعهد القديم بدءا من أدم وحتى الأسر البابلى Babylonian.

(٢) ملوك فارس من كيروس Cyrus حتى فتح الإسكندر Alexander.

(٣) البطالمة حتى عهد كليوباترا Celeopatra.

(٤) أباطرة روما من يوليوس قيصر Julius Caesar حتى ميخائيل الثانى Michael II.

(٥) الإمبراطورات الرومانيات، بدءا من ثيودورا Theodora وهيلينا Helena زوجتا قسطنطيوس كلوروس Constantius Chlorus.

(٦) ملوك قبائل بنى إسرائيل العشرة فى ساماريا Samaria .

(٧) كبار كهنة اليهود من هارون Aaron وحتى استيلاء الرومان على بيت المقدس.

(٨) أساقفة القسطنطينية من أندريو Andrew حتى ثيودوتوس Theodotos المناهض لعبادة الصور.

(٩) باباوات روما.

(١٠) أساقفة بيت المقدس.

(١١) أساقفة الإسكندرية.

(١٢) أساقفة إنطاكية.

(١٣) قائمة بالقوانين الكنسية الغامضة ومجموعة الكتب المشكوك فى صحتها وتتعلق بالعهدين القديم والجديد مع عدد من الأسفار التى وردت فى كل منها، انظر : Nikephoros., Short History,p.3

66- Vita Nicephori, Cols, IX-X; Alexander, The Patriarch Nicephorus ,p. 157.

67- Haldon, Byzantium, p.1; Alexander, The Patriarch Nicephorus, p.157; Ostrogorsky, State, p.79.

68- Treadgold., State, p. 561; Ostrogorsky., State, p.80.

69- Nikephoros, Short History, p.6; Treadgold, State, p.561.
انظر أيضا : وسام عبد العزيز فرج : العلاقات، ص٢٧ ؛ هانى البشير : بلغاريا، ص٤.

٧٠- تعتبر ترجمة كيريل مانجو أحدث ترجمة لكتاب التاريخ المختصر، بدأ مانجو الترجمة بدراسة موجزة عن نقفوروس وكتابه، وذيلها بتعليق موجز يتناسب وإيجاز المختصر ذاته. حرص مانجو فى ترجمته على الدقة العلمية بأن أورد النص اليونانى فى صفحة تقابله الترجمة الإنجليزية فى الصفحة الأخرى، وهى الترجمة التى اعتمد عليه البحث محل الدراسة.

71- Alexander.,The Patriarch Nicephorus,p.157.

فى الوقت الذى تتوقف فيه مخطوطة لندن عند عام ٧١٣م ، تستمر معلومات مخطوطة الفاتيكان حتى عام ٧٦٩م، ومع ذلك فالجزء المشترك بمخطوطة الفاتيكان، إن هو إلا إعادة نسخ لمخطوطة لندن، انظر :

Alexander.,The Patriarch Nicephorus,pp.157-158.

72- Alexander.,The Patriarch Nicephorus,pp.157-158.

73- Nikephoros, Short History, p.8; Theophanes, The Chronicle, p.461.

٧٤- ظهرت المونوثيليتية فى عهد الإمبراطور هرقل (٦١٠-٦٤١م)، عندما حاول إنهاء الخلافات الدينية بين المونوفيزيتيين (أصحاب الطبيعة الواحدة فى مصر وبلاد الشام وأرمينية) والأرثوذكس (أصحاب الطبيعتين فى القسطنطينية)، فجاءت المونوثيليتية كصيغة توفيقية بين معتقدات الجانبين، لذا كانت تعنى — من الناحية اللغوية — أن طبيعتى السيد المسيح الإلهية والبشرية تتسمان بإرادة واحدة؛ انظر : عمر كمال توفيق : الدولة البيزنطية، ص ١٠٨ ؛ هانئ البشير : الدولة، ص ٥٤.

75- Nikephoros., Short History ,pp.11-12,75.

76- Alexander.,The Patriarch Nicephorus,p.162.

77- Nikephoros, Short History, pp. 9,79; Alexander, The Patriarch Nicep-horus, p.162.

78- Nikephoros, Short History , pp. 8,87; Bury, Later, II,p.450, note. no1.

79- Nikephoros, Short History, p.12.

80- Nikephoros., Short History,pp.12-14.

81- Nikephoros., Short History,pp.12-14.

٨٢- عن هذه الأحداث، انظر : Nikephoros., Short History,p.85.

83- Theophanes. , The Chronicle,pp.475-491.

84- Nikephoros, Short History, p16; Alexander, The Patriarch Nicephorus, pp.158-159.

85- Nikephoros, Short History, p161; Theophanes, The Chronicle, p.611; Ostrogorsky, State, p.130, note, no.1.

لمعرفة مدى التشابه الكبير بين معلومات ثيوفانيس ونقفور فى كتابيه التاريخ المختصر، والتاريخ الزمنى المختصـــر χρονογραφικον συντομον عند نقلهم عن هذا المصدر، انظر مقارنة بعض النصوص التى أوردها بول اسكندر Alexander.,The Patriarch Nicephorus,pp.160-161.

86- Alexander, The Patriarch Nicephorus, pp. 159-162.

87- Nikephoros.,Short History,pp.15-16.

٨٨- لمعرفة هذه الأحداث، انظر : Nikephoros.,Short History,p.53

٨٩- هانئ البشير : بلغاريا، ص ٥ ؛ هارى إلمر بـــارنز : تـــاريخ الكتابـــة، ص ١٣٢.

٩٠- لمعرفة هذه الأحداث، انظر : Theophanes.,The Chronicle,pp.489-499

91- Nikephoros, Short History, pp. 89-91

٩٢- لمعرفة ما كتبه نقفوروس عن فوقاس، انظر :

Nikephoros.,Short History,p.35.

93- Treadgold, State, p.561; Ostrogorsky, State, p.80-81; Alexander, The Patriarch Nicephorus, p229.

انظر أيضا : هارى إلمر بارنز : تاريخ الكتابة، ص١٣٢.

قائمة المصادر والمراجع والمختصرات

أولا : المصادر والمراجع الأجنبية :

Alexander, **The patriarch Nicephorus**	P. Alexander , The patriarch Nicephorus of Constantinople Ecclesiastical policy and Image worship in the Byzantine Empire, Oxford.1958.
Blake, **Littéraire**	P.R.Blake." Note Sur L'activite Litteraire de Nicéphore I Patriarche de Constantinople " **B**, XIV(Bruexlles.1939) pp.1-15 .
Bury, **Later**	J.B.Bury, Ahistory of the Later Roman Empire from Arcadiusto Irene , London, 1889.
Bury.**Administrative**	J.B.Bury. The Imperial Administrative System in The Ninth Century, with a revised text of the Kletorologion of Philotheos, New York.1911.
Bury.**Eastern Roman**	J.B.Bury , Ahistory of the Eastern Roman Empire , from the fall of Irene to the accession Basil I. London.1912.
B	Byzantion .(Bruexlles).
BF	Byzantinische Forschungen.((Amsterdam)
BSL	Byzantinoslavica (Prague).
CMH	Cambridge Medieval History,(Cambridge).
Conrad, **Theophanes**	L.Conrad , "Theophanes and Arabic Historical Tradition : Some Indictions of Intercultural Transmission " **BF**,15 (Amsterdam.1990)pp.1-44.

Diehl, **Nicephorius**	Ch. Diehl , " From Nicephorius I to fall of the Phrygian Dynasty " **CMH** .ed Bury,J.B,IV (Cambridge, 1927),pp.27-48.
Dvornik,**Les légendes**	Fr. Dvornik . "Les légendes de Constantin et de Méthode vues de Byzance" , **BSL**, Supplementa.I (Prague.1933).
EO	Échos d'Orient (Cnstantinople and Paris)
Every, **Patriarchate**	G.Every , The Byzantine Patriarchate ,451-1204, London,1962.
Grumel, **La Chronographie**	V.Grumel ," L'année du Monde dans la Chronographie de Theophanes " **EO** ,(Constantinople and Paris,1934)pp.396-408.
Haldon , **Byzantium**	J. Haldon, Byzantium in The Seventh Century,London ,1990.
Jenkins, **Byzantium**	R,Jenkins, Byzantium, The Imperial Centries, AD 610-1071. London.1966.
Nikephoros **Short History**	Nikephoros Patriarch of Constantinople , Short History . Text ,Trans, and Comm By Cyril Mango .Washington,1990.
ODB	Oxford Dictionary of Byzantium (Oxford, 1991).
Ostrogorsky, **State**	G.Ostrogorsky, History of The Byzantine State ,Eng Trans by Hussey, J,Oxford, 1956.
PG	Patrologia Graeca (Paris,Trunholti)
Proudfoot, **Theophanes**	A.Proudfoot," The Sources of Theophanes for the Heraclian dynasty " **B**,44 (Bruexelles.1974)pp.367-439.

Theophanes,**The Chronicle**	Theophanes , The Chronicle of Theophanes Confessor, Byzantine and Near Eastern History A284-813, Trans with Introduction and Commentary by Mango.C and Scott.R. with the assistance of Greatrex.G. Oxford, 1997.
Treadgold,**The Byzantine Revival**	W.Treadgold .The Byzantine Revival, 780-842.Clifornia,1988.
Treadgold, **State**	W.Treadgold .Ahistory of the Byzantine State and Society, Clifornia,1997.
Vasiliev, **Ahistory**	A.Vasiliev , Ahistory of The Byzantine Empire,324-1453,Madison,1952.
Vita Ignatius	Vita Ignatius , Archiepiscopi Constantinop-olitani , **PG**, 105 ed Migne.JP,Paris, 1964,Cols.487-574.
Vita Nicephori	Vita Nicephori by Ignatius Diaconus, **PG**, 100.ed Migne .J.P, Paris,1964.Cols,38-160.
Vita Stephanium	Vita Sancti Stephani Junioris, Monachi et Martyris. **PG**.100 ed Migne .J.P, Paris, 1964. Cols.1069-1186.
Vita Theodori Studitae	Vita et Conversatio Sancti Patris Nostri et Confessoris Theodori Praepositi Studitarum , **PG**,99 ed Migne .J.P, Paris, 1964.Cols,114-1854.

ثانيا : المصادر والمراجع العربية والمعربة :

السيد الباز العرينى، **الدولة** الدولة البيزنطية ، القاهرة ، ١٩٦٠م.

حسنين محمد ربيع، **دراسات** دراسات فى تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية ، القاهرة ، ١٩٨٣م .

ديفز ، **شارلمان** شارلمان ، ترجمة د/ السيد الباز العرينى ، القاهرة ١٩٥٨م .

عمر كمال توفيق، **الدولة البيزنطية** تاريخ الدولة البيزنطية ، تقديم:محمود سعيد عمران، الإسكندرية ، ٢٠٠٣م .

نيكول، **معجم** معجم التراجم البيزنطية، ترجمة وتعليق حسن حبشي، القاهرة، ٢٠٠٣م.

هارى إلمر بارنز ، **تاريخ الكتابة** تاريخ الكتابة التاريخية ، الجزء الأول ، ترجمة : د. محمد عبد الرحمن برج ، مراجعة د. سعيد عبدالفتاح عاشور ، القاهرة ١٩٨٤م .

هانئ عبدالهادى البشير ، **بلغاريا** بيزنطة وبلغاريا، ٦٨١-١٠١٨م ، دار النهضة العربية ، ٢٠٠١م .

هانئ عبدالهادى البشير ، **الدولة** الدولة البيزنطية ، ٦٤١-٧١١م ، دار النهضة العربية ، ٢٠٠٢م .

هسى ج.م ، **العالم البيزنطى** العالم البيزنطى، ترجمة وتعليق وتقديم، د. رأفت عبد الحميد محمد، الطبعة الثالثة، القاهرة، ١٩٨٤م.

وسام عبدالعزيز فرج، **دراسات** دراسات فى تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية، ٣٢٤-١٠٢٥م، ج١، الإسكندرية، ١٩٨٤م.

يوسابيوس القيصرى **تاريخ الكنيسة** تاريخ الكنيسة، ترجمة مرقس داود، القاهرة، ١٩٧٩م.

الإصلاح الداخلي في الولايات الإسلامية في عهد الوليد بن عبدالملك

د. آمنة بنت حسين جلال
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
جامعة أم القرى ــ مكة المكرمة

مقدمة :

نشأ النظام الإداري للدولة الإسلامية، منذ وضع الرسول ﷺ قواعد النظام السياسي بالمدينة على أسس التشريعات التي جاء بها القرآن الكريم، مع ما اقتضاه الجهاد في سبيل نشر الإسلام من أمور تنظيمية.

شهد عصر الدولة الأموية دخول أعداد كبيرة من أهالي الأمصار المفتوحة في الإسلام.

وطبقت القواعد التي وضعها الخليفة عمر بن الخطاب للتنظيم الإداري طوال عهد الخلفاء الراشدين. وبقيام الدولة الأموية اقتضى الوضع السياسي الجديد القائم على أساس الخلافة الوراثية تنظيمًا إداريًا جديدًا قام الخليفة معاوية بن أبي سفيان بوضع أسسه.

كان قوام هذا النظام الجديد التنسيق بين النظامين السياسي والإداري. واتخذ من أجل تحقيق هذا الغرض النظام الإداري اللامركزي سبيلاً لإعادة الاستقرار إلى الدولة الإسلامية في ظل وضعها الجديد.

وكان النجاح في اختيار الرجال الذين سيتولون تنفيذ السياسية الإدارية الجديدة هو الضمان لسلامة التطبيق، ولذا حرص الخليفة معاوية بن أبي سفيان على أن يكون هؤلاء الرجال من أتباعه المخلصين. وكان معاوية بحكم نشأته على دراية وخبرة بالبيوتات الكبرى في مدن الحجاز وخارجها، فوقع اختياره على أبناء ثقيف

من أهل الطائف لتشكيل إدارته الجديدة ونبغ من بني ثقيف على عهده المغيرة بن شعبة الذي تولى إمرة الكوفة، وزياد بن أبيه الذي تولى " إمرة البصرة " فحملا لواء النظام الإداري اللامركزي في الدولة الأموية.

وقد اقتضى تطبيق هذا النظام إعادة التقسيم الإداري للدولة بما يحقق للأمويين السيطرة الفعلية على الأمور في الأمصار.

كما اقتضى حصول الولايات على أكبر قدر من الاستقرار في شئونها المالية. ومنح أمراء الولايات حرية التصرف في الشئون الإدارية والمالية معًا. واقتضت الضرورة ضم شؤون المال في الولاية إلى الأمير أو تفويض تعيين عمال الخراج من قبله.

وحين بدأ تعريب الدواوين في خلافة عبدالملك بن مروان تم تعريب ديوان الخراج في كل ولاية باعتباره الديوان المشرف على الموارد المالية كلها. الأمر الذي يسر للولاة العرب الإشراف التام على شئون ولاياتهم المالية.

وفي عهد الوليد بن عبدالملك تم تعريب ديوان الخراج في مصر وأسند الإشراف عليه إلى أخيه عبدالله بن عبدالملك بن مروان سنة ٧٨هـ/٧٠٧م والي مصر أنذاك. وتبع ذلك تعريب باقي الدواوين في بلاد المغرب على يد موسى بن نصير وكان أخر الدواوين التي تم تعريبها ديوان الخراج في خراسان سنة ١٢٤هـ.

هذا، فضلاً عن أثر هذا التعريب في ميدان نشر اللغة العربية في الأمصار المفتوحة وما نتج عن ذلك من آثار في ميدان الحضارة الإسلامية.

كما اقترن تعريب ديوان الخراج بسك عملة جديدة من أجل ضبط المعاملات المالية بين الولايات ودعم النظام المالي للدولة، وقد أفاد النظام المالي للدولة الأموية من هذا الاستقلال النقدي بتخلصه من التبعية النقدية. وكفلت النقود الجديدة العدالة لكل من الرعية والخراج الخاص بالدولة، وأجمع المؤرخون على أن الوزن الذي سكت عليه تلك النقود كان على الوزن الشرعي الذي كان سائدًا على عهد الرسولﷺ من العملات السليمة أنذاك وهي الدرهم الفارسي والدينار البيزنطي.

وسوف نعرض في هذه الدراسة للإصلاح الداخلي الذي قام به الخليفة الوليد ابن عبدالملك في الولايات الإسلامية فقد تميز عصر الوليد بأنه عصر قطف ثمار جهود أبيه، فقد تسلم دولة هادئة مستقرة فاتجهت همته إلى ميدان الفتوح والجهاد وبرز في عهده قواد أكفاء، كما اهتم بالإصلاحات الداخلية والعناية بالإنشاء والتعمير، ويوجز ابن الأثير أهم جهود الوليد في ميدان الإصلاحات الداخلية بقوله " كان الوليد عن أهل الشام من أفضل خلفائهم : بنى المساجد مسجد دمشق، ومسجد المدينة على ساكنها الصلاة والسلام، والمسجد الأقصى ووضع المنابر، وأعطى المجزومين وضعهم من سؤال الناس، وأعطى كل مقعد خادمًا وكل ضرير قائدًا، وفتح في ولايته فتوحًا عظامًا منها الأندلس وكاشغر والهند، وكان صاحب بناء، واتخذ المصانع والضياع فكان الناس يلتقون في زمانه ليسأل بعضهم عن بعض عن البناء ".

وقد نال إقليم الحجاز اهتمام الوليد فقد أمر واليه على المدينة المنورة عمر بن عبدالعزيز بتوسعة مسجد الرسول ﷺ فأدخل بيوت أزواج الرسول ﷺ في المسجد إلا حجرة عائشة، كما اهتم بحفر الآبار.

وكان من أهم عوامل نجاح الوليد أعماله الإصلاحية استعانته بعمر بن عبدالعزيز منذ ولاه المدينة المنورة سنة ٨٨هـ، فعقب قدومه إليها دعا عشرة من فقهاء المدينة وقال لهم " إني إنما دعوتكم لأمر تؤجرون عليه وتكونون فيه أعوانًا على الحق، ما أريد أن أقطع أمرًا إلا برأيكم أو برأي من حضر منكم، فإن رأيتم أحدًا يعتدي أو بلغكم عن عامل لي ظلامه فأخرج الله على من بلغه ذلك إلا بلغني فخرجوا يجزونه خيرًا ".

وقد أحيا بهذا سيرة عمر بن الخطاب طوال فترة ولايته التي استمرت حتى سنة ٩٣هـ.

كما عرف الوليد للعلماء من أمثال سعيد بن المسيب قدرهم، ونالوا احترامه ورعايته. وقد توفى الوليد بالشام عام ٩٦هـ بعد أن مكث في الخلافة نحو عشر سنوات.

وسنحاول في هذه الدراسة إلقاء الضوء على جوانب الإصلاحات الداخلية في عهده.

نسب الوليد ومولده :

هو أبو العباس[1] الوليد بن عبدالملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف[2].

وأمه ولادة بنت العباس بن جزء بن الحارث بن زهير بن جزيمة بن رواحة ابن ربيعة بن مازن بن الحارث بن قطيعة بن عبسى بن بغيض[3].

كان مولده سنة خمسين من الهجرة[4] وكـان أكبـر أولاد عبـدالملك بـن مروان[5].

توليه الخلافة :

وكان عبدالملك قد أخذ البيعة لنفسه ثم لأخيه عبدالعزيز بن مروان من بعـده إلا أنه ما لبث أن حولها إلى ابنه الوليد[6].

وقد كان من حسن طالع الوليد أن عمه عبدالعزيز توفى في حياة عبـدالملك فأخذ البيعة للوليد من بعده ثم لسليمان[7].

ولما حضرته الوفاة دخل عليه ابنه الوليد فتمثل عبدالملك قائلا :

كم عائذا رجلاً وليس يعوده • إلا ليعلم هل تراه يموت ؟[8].

وتمثل أيضًا :

ومستعبر عنا يريد بنا الردي • ومستعبرات والعيوان سواجم

فبكى الوليد فقال ما هذا تحن حنين الأمة، إذا أنا مت فشمر وتجلد والبس جلد النمر. وضع سيفك على عاتقك، فمن أبدى ذات نفسه فاضرب عنقه ومـن سـكت مات بدائه[9]. وقيل إن عبدالملك لما أدركه الموت جمع أبناءه وأوصاهم بتقوى الله ونهاهم عن الفرقة والاختلاف وأوصاهم بإتباع أمر أخاهم مسلمة بن عبدالملك لعقله وحكمته وقوته[10].

ثم أوصاهم بوصايا خبير بالأمور عالم بالأحوال فقال : " وكونوا في الحرب أحرارًا وللمعروف منارًا فإن الحرب لم تدن منية قبل وقتها وإن المعـروف يبقـى أجره وذكره وشكره، واحلوا في مرارة ولينوا في شدة "[11].

ثم خص عبدالملك الوليد بولاية العهد والخلافة من بعده بوصية خاصة جـاء فيها : " يا وليد اتق الله فيما أخلفك فيه واحفظ وصيتي وخذ بأمري وانظر إلى أخي

معاوية فإنه ابن أمي، وقد ابتلى في عقله ما علمت، ولولا ذلك لأثرتــه بالخلافــة، فصل رحمه واحفظني فيه وانظر إلى أخي محمد بن مروان فأقره على الجزية ولا تعزله وانظر أخاك عبدالله فلا تؤاخذه وأقره في عمله بمصر وانظر إلى ابن عمنــا هذا علي بن عبدالله بن عباس فإنه قد انقطع إلينا بمودته وهواه ونصيحته وله نسب وحق فصل رحمه واعرف حقه. وانظر الحجاج فأكرمه، فإنه هو الذي وطــأ لكــم المنابر وهو سيفك يا وليد، ويدك على من ناوأك فلا تسمعن فيه قولة أحد، وأنــت إليه أحوج منه إليك[١٢]. وأدع الناس إذا أنا مت إلى البيعة فمن قال برأسه هكذا فقل بسيفك هكذا ثم تمثل بقول عدي بن زيد :

فهل من خالد إذا ما هلكنا • وهل بالموت يالناس عار

ثم قُبِضَ عبدالملك[١٣].

ومن المؤكد أن وصية عبدالملك هذه كانت تحديدًا لملامح السياســة العامــة للوليد بن عبدالملك إذ أخذ يطبق هذه الوصايا الإدارية الهامة بدقة وإتقان.

وبعد أن فرغ الوليد من دفن عبدالملك انصرف عن قبره حتى صعد المنبــر وخطب الناس قائلا " إنا لله وإنا إليه راجعون " والله المستعان على مصيبتنا بموت أمير المؤمنين والحمد لله على ما أنعم به علينا من الخلافة ثم نزل فبايعه الناس[١٤].

وقيل إن أول من بايعه عبدالله بن همام السلولي حيث قام للبيعة وهو يقول :

الله أعطاك التي لا فوقها • وقد أراد الملحدون عوقها

عنك ويأبى الله إلا سوقها • إليك حتى قلدوك طوقها

ثم بايعه وتتابع الناس على الوليد فبايعوه بالخلافة[١٥].

وقيل إن الوليد أعلن عن سياسته التي رسمها له عبدالملك بن مــروان فــي مرضه الذي مات فيه وأعلن أخذه الناس بالشدة وإجبارهم على الطاعة[١٦].

وهكذا دانت الخلافة لسلطان الوليد وسيطر على أمور الدولة الإسلامية فبــدأ عهدًا جديدًا وكانت أيام الوليد غُرَّة في جبين الدولة الأموية[١٧].

وأهم ما يميز عصر الوليد هو قيامه بالإصــلاح الــداخلي فــي الولايــات الإسلامية وتدعيم سلطان الدولة مستخدمًا في ذلك مجموعة من القادة العظام الــذين فتحوا الفتوح العظيمة وأضافوا إلى المملكة الإسلامية بلادًا واسعة، واستردوا هيبتها

بين الأمم المجاورة لها(١٨) والحق يقال إن الوليد تسلم الخلافة بعد أن وطد له عبدالملك الأمور، فقضى على الخارجين عليه، وأخضع العراق والحجاز والأمصار التي عارضته، كما أصلح عبدالملك النظام الإداري بصورة كبيرة فعرب الدواوين في الدولة الإسلامية ثم سك الدينار الإسلامي وكان لذلك عظيم الأثر في تحقيق الاستقرار الاقتصادي في عهد الوليد بن عبدالملك(١٩).



صورة ضوئية لدينار إسلامي سك في عام ٧٦هـ في عهد عبدالملك بن مروان.
عبدالرحمن فهمي : موسوعة النقود العربية.

وإذا ما أردنا الحديث عن الوليد بن عبدالملك كخليفة من أقوى خلفاء بني أمية وأكثرهم غزوًا وفتحًا فإننا نحتاج إلى التعرف على هذا الخليفة أولا، حيث إن مصادر التاريخ الإسلامي تعطينا صورة مبهمة عن شخصية الوليد وأخلاقه وعلمه(٢٠).

فالمصادر تذكر ضعف الوليد عن الأخذ بأصول اللغة واللحن في كلامه حيث حملت لنا العديد من خطبه التي اتسمت باللحن والوهن(٢١).

أعتقد أن هناك الكثير من الروايات المدسوسة من أعداء الإسلام على خلفاء بني أمية واتهامهم بأشياء الغرض منا التقليل من شأنهم والحط من قدرهم ويبدو لي أن في هذا مغالطة والمعروف أن الخلفاء والأمراء كانوا يهتمون بتأديب وتعليم

أبنائهم، وأن العرب حتى هذا التاريخ لم يكونوا يلحنون حتى العامة منهم كانوا يتحدثون العربية الفصحى، كما أن الذي ذكر ذلك السيوطي وهو مؤرخ متأخر لماذا لم يذكر هذا الطبري والواقدي ؟ وقد عرف عن الوليد أنه كان ميالاً للإصلاحات الداخلية وحبه للعلم والعلماء والغزو حتى وصلت فتوحاته إلى الأندلس والصين وغيرها ويعتبر عصره غرة في تاريخ الدولة الأموية وكان عصره من أزهى عصور بني أمية فكان باب فتح في عالم الثقافة والعمارة والغزو والعلاقات الدبلوماسية وغيره.

كما رسخت شدة الوليد التي كانت ضرورية لاستتباب سلطان الدولة وقمع المعارضين ودحر الخارجين على سلطان الوليد صفة السطوة والتجبر التي وصف بها[٢٢].

وإذا كانت هذه الشدة، ضرورة من ضروريات إدارة الولايات فإن الوليد كان لين القلب في بعض المواقف[٢٣].

وكان الوليد يميل إلى سؤال العلماء والتفقه عليهم، ويعرف قدرهم ويذكر اليعقوبي موقفه من الفقيه سعيد بن المسيب عندما زار المدينة المنورة بعد حج عام ٩١هـ، وكان سعيد بن المسيب بالمسجد، واقترب الوليد من مجلسه، ولم يتحرك سعيد من مجلسه ولم يقم فحياه الوليد ورد عليه سعيد التحية وهو جالس، فقال الوليد " هذا بقية الناس "[٢٤].

وقيل إن الوليد[٢٥] " أول من منع الناس من ندائه باسمه "[٢٦] ومع ذلك كان الوليد متعبدًا كان يختم القرآن مع انشغاله بأمور الخلافة كل ثلاثة أيام وقيل كل سبعة فإذا كان في رمضان ختمه سبع عشرة مرة[٢٧].

وكان الوليد حسن الخلق سهل الطباع ما لم يغضب كان يمر بالبقال فيقف عليه فيأخذ حزم البقل فيقول بكم هذه فيقول بفلس فيقول زد فيها[٢٨].

ومن صفاته وأخلاقه إكرام أهل الطاعة وحبهم ووصالهم جاءه رجل من بني مخزوم يسأله في دينه، فقال نعم إذا كنت مستحقًا لذلك، قال الرجل يا أمير المؤمنين وكيف لا أكون مستحقًا مع قرابتي قال الوليد : أقرأت القرآن ؟ قال : لا، قال أدن مني، فدنا منه، فنزع عمامته بقضيب وقرعه وأسنده إلى من يحفظه القرآن[٢٩].

وقام آخر فقال يا أمير المؤمنين إن علي دينًا، فقال أقرأت القرآن ؟ فقال نعم، فاستقرأه عشر آيات من الأنفال وعشر آيات من براءة فقرأ، فقال الوليد نعم نقضي عنكم ونصل أرحامكم على هذا[٣٠].

وكان الوليد يعطف على الأيتام ويكفلهم ويعلمهم على نفقته الخاصة ومن بيت المال، واهتم كذلك بالمرضى والعميان، ورتب لهم من يقودهم وأعطى الفقراء والضعفاء المال الكثير[٣١]. وقد أشار إلى ذلك السيوطي بقوله : " وكان من فضائل الوليد بن عبدالملك أنه كان يعطي للفقراء أموالا عظيمة تغنيهم عن سؤال الناس"[٣٢].

كما كان يحرص على تفقد أحوال الرعية من ذلك أنه في إحدى جولاته التفقدية : " وجد يومًا رجلا فقيرًا فسأل عن حاله وقرر له من بيت المال "[٣٣].

وبلغ اهتمام الوليد بالمرضى أن شيد بيمارستانًا للمجزومين والمقعدين وجعل لهم فيه من يداويهم ويخدمهم[٣٤].

وكان الوليد محبًا للنكاح مزواجًا عفيفًا قال وقد ذكر عنده قوم لوط فقال والله ما أظن أن أحدًا يرتكب تلك الفاحشة لولا أن الله ذكرها في كتابه[٣٥].

الخلافة والبلاط في عهد الوليد بن عبدالملك :

من الثابت أن نظام الخلافة تغير في العصر الأموي عن عصر الخلفاء الراشدين وتغيرت تبعًا لذلك الطريقة التي يتم بها اختيار الخليفة والنمط الذي يسير عليه في معاملة الرعية[٣٦].

حيث أسقط الحكم الأموي من اعتباره بعض المبادئ الأساسية التي قام عليها الحكم الإسلامي في عصر الراشدين إذا أن الأصل أن يختار الخليفة من خلال البيعة المشروعة، وهذا يعني تفويض الأمر للأمة وحق الرقابة والمتابعة للحاكم والالتزام بالشورى كمبدأ لاختيار الحاكم[٣٧].

ومنذ عصر معاوية بن أبي سفيان مؤسس الدولة الأموية اعتمد الحاكم على النمط الوراثي وتحول الحكم الإسلامي من نظام الخلافة الذي يعتمد على الشورى إلى نظام وراثي، وما يرتبط به من ولاية العهد.

وقد أدت هذه المتغيرات بلاشك إلى إحداث ردود فعل عكسية على الساحة السياسية، وظهرت حركات المعارضة السلمية والمسلحة التي استنزفت من جهد الأمة المسلمة الكثير من العناء والدماء، واستنزفت كذلك مواردها وإمكانيات التنمية فيها(٣٨).

والحق يقال كان الأمويون ملوكًا لكنهم كانوا على مذهب أهل الإسلام في الحكم، يسيرون بالعدل، ويأخذون الناس باللين، ولا يجنحون إلى العنف إلا عندما تحملهم إليه الخشية من افتراق كلمة المسلمين(٣٩).

وقد حاول الأمويون اتخاذ بدائل تربط الأمة بالحاكم وترفع عنه صفة الاستبداد المطلق وتمتص قدرا كبيرًا من المعارضة لهم والتذمر منهم ومن هذه البدائل نظام الوفود الذي التزم به الأمويون في استقبال وفود القبائل وزعمائها ومشاورتهم عند اتخاذ القرارات الهامة كالبيعة بالخلافة أو ولاية العهد(٤٠).

إلا أن عصر الوليد بن عبدالملك كان أكثر عهود بني أمية استقرارًا في نظم الحكم، حيث انكسرت فيه شوكة المعارضة السياسية، واستقرت فيه أحوال الولايات الإسلامية، وامتلكت الخلافة جيوشًا قوية وقادة أكفاء حفظوا للدولة حدودها، بل زادت مساحتها من خلال الفتح ما لم يشهد التاريخ الإسلامي مثله إلا في عهد عمر ابن الخطاب رضي الله عنه(٤١).

كما يمكننا القول أن سلوك الوليد في إدارة دفة الحكم في الدولة الأموية يتوافق مع ما ذكره ابن خلدون عن مهام الخليفة حيث قال : " فاعلم أن الخطط الدينية الشرعية من الصلاة والفتيا والقضاء والجهاد والحسبة كلها مندرجة تحت الإمامة الكبرى التي هي حق الخلافة، فإنها الإمام الكبير، والأصل الجامع، وهذه كلها متفرعة عنها وداخلة فيها على العموم. فنظر الخلافة وتصرفها في سائر أحوال الملة الدينية والدنيوية وتنفيذ أحكام الشرع على العموم "(٤٢).

ويستفاد من ذلك أن الخليفة هو المسئول عن رعاية الشئون الدينية والدنيوية فهو الذي يأمُّ الناس في الصلاة ويُجَمِّعُ بهم أو يرسل من ينوب عنه ويعين الولاة والقضاة وسائر العمال في الولايات الإسلامية، يعاونه في ذلك طاقم إداري كبير(٤٣).

الوزارة في عهد الوليد :

الوزير هو مستشار الخليفة الذي يستشيره في مهام الأمور، وساعده الذي يعينه في الأمور العامة، وإذا كانت الوزارة عرفت بمعناها في العصر الإسلامي الأول وفي صدر الدولة الأموية، فإن ما يشهد به التاريخ أن رجالا قد لقبوا بالوزراء ومارسوا أعمال الوزارة كأمثال زياد بن أبيه في خلافة معاوية وروح بن زنباع الجذامي في عهد عبدالملك بن مروان.

فإنني أرى الحجاج بن يوسف الثقفي وزيرًا للوليد بن عبدالملك بلا منازع يؤيد ذلك ما نقلته مصادر التاريخ الإسلامي من شواهد تؤكد مكانة الحجاج في عهد الوليد ومنها :

- وصية عبدالملك بن مروان للوليد عند وفاته، وما كان فيها من ذكر الإحسان إلى الحجاج ومعرفة قدره وعدم تقديم أحد عليه(٤٤).
- ومنها أن عمر بن عبدالعزيز شكى الحجاج وظلمه وعسفه بأهل العراق إلى الوليد وأن الحجاج أرسل إلى الوليد يذكر له أن عمر بن عبدالعزيز أضعف سلطان الأمويين بالحجاز مما دفع الوليد إلى عزل عمر من المدينة وتولية عثمان بن حيان المريّ وكان ذلك بمشورة الحجاج(٤٥).
- ومن ذلك دخول الحجاج إلى الوليد وخلوته به ونصحه حتى في الأمور التي تتعلق بأهله وزوجاته(٤٦).
- أن الحجاج كان مخلصًا للوليد أشد الإخلاص، حريصًا على صيانة الدولة الأموية حتى أنه ذكر أنه يرجوا النجاة في الأخرة بفضل إخلاصه للخليفة(٤٧).

الحاجب :

وكان مما استحدثه الأمويون في نظام الحكم الحجابة، وربما كان ذلك بعد تحول الحكم إلى النمط الوراثي، وخشية الحركات السياسية المعارضة والتي كانت تهدد حياة خلفاء بني أمية.

وكان الخلفاء الأمويين يختارون الحاجب بعناية كبيرة، واعتمدوا في ذلك على ذويهم، وقد نصح عبدالملك بن مروان أخاه عبدالعزيز بن مروان حين ولاه مصر

(٦٥هـ=٨٦هـ) بقوله : " وانظر حاجبك فليكن من خير أهلك فإنه وجهك ولسانك ولا يقفن أحد ببابك إلا أعلمك مكانه حتى تكون أنت الذي ترده أو تأذن له"[٤٨].

الكاتب :

وهو شخص أمين يختاره الخليفة لكتابة رسائله وقراءة ما يرد عليه من المكاتبات ويختاره الخليفة من أهله وذويه، ويجب أن يكون مخلصًا للخليفة حافظًا لأسراره[٤٩]. وكان كاتب عبدالملك وربما الوليد من بعده محمد بن يزيد الأنصاري، ولاه عبدالملك الكتابة والحجابة بمشورة الحجاج سنة ٨٥هـ[٥٠].

الولايات الإسلامية في عهد الوليد بن عبدالملك :

بلغت الدولة الإسلامية أقصى اتساع لها في عهد الوليد بن عبدالملك، وقد عمد الوليد كسابقيه من خلفاء بني أمية إلى تعيين الأمراء المخلصين لهم كولاة على ولايات الدولة الإسلامية، واسندوا لهم مهام الإمارة، وهي حماية الولاية وقيادة الجيوش وجمع الخراج والزكاة والضرائب وتأمين سبل الحج وإقامة الحدود وشعائر الإسلام وتعيين القضاة وسائر العمال في الولايات[٥١].

وقد بلغت الولايات الإسلامية في عهد الوليد ست ولايات كبرى وهي :

١- ولاية الشام[٥٢].
٢- الحجاز واليمن وأواسط بلاد العرب.
٣- مصر السفلى والعليا.
٤- العراقان (عراق العرب والعجم).
٥- بلاد الجزيرة وتتبعها أرمينيا وأذربيجان وبعض بلاد وسط آسيا.
٦- ولاية أفريقية وتشمل كل أفريقية الشمالية غرب مصر وبلاد الأندلس وجزر سردنية وصقلية والبليار ومركزها القيروان، وقد أناب والي أفريقية واليًا من قبله لحكم طنجة وجزر البحر المتوسط وبلاد الأندلس.

أهم ولاة الوليد :

اهتم الوليد بأمراء الولاة في عهده واختارهم بدقة وعناية وأراد بذلك الحفاظ على أجواء الاستقرار التي سادت الخلافة الأموية بعد قضاء والده عبدالملك على الثورات وحركات المعارضة والتي شغلته لأكثر من عقد من الزمن[٥٣].

ولاية العراق في عهد الوليد :

عندما تولى الوليد الخلافة عام ٨٦هـ كان الحجاج[٥٤] بن يوسف واليًا على العراقيين بعراق العرب والعجم، وذلك منذ ولاه اياها عبدالملك عام ٧٥هـ. وقد ذكر المسعودي أن عبدالملك أرهقه العراق فقال لقادته من لي بالعراق فلم يجبه أحد فكرر ذلك فلم يجبه إلا الحجاج فأرسله إليها[٥٥]. وكان الحجاج قوي البأس ثابت القواد فتمكن من إخضاع العراق وإجبار أهله على الطاعة بعد طول ثورة على سلطان الأمويين وكان الحجاج قد ولي العراق بعد وفاة بشر بن مروان ودخل في أثنى عشر راكبًا على النجائب حيث دخل الكوفة وقد انتصف النهار[٥٦].

وبدأ الحجاج بالمسجد فدخله وصعد المنبر وهو متلثم بعمامة حمراء وجمع الناس وخطبهم خطبة تعد من عيون الأدب العربي وتضع الحجاج من مشاهير خطباء العرب وفصحائهم[٥٧].

ويبدوا أن الحجاج في بداية الأمر تولى العراق وحده ولم تكن له إمرة المشرق إلا بعد أن استقر حكم الأمويين بالعراق[٥٨].

واهتم الحجاج بتعيين الولاة على أمصار العراق وأقسامه فولى على البصرة الجراح بن عبدالله، وعلى قضائها عبدالرحمن بن أذينه، وعلى الكوفة زياد بن جرير بن عبدالله، وعلى قضائها أبى بكر بن أبى موسى، وكان واليه على خراسان قتيبة بن مسلم[٥٩].

وكان الحجاج في إمارته على العراق جبارًا عنيدًا قتل من أهل العراق مائة وعشرين ألفًا صبرًا حتى ضعفت جباية العراق، وقل خراجه ومـوارده وهجره سكانه إلى الحجاز وبلاد المغرب[٦٠].

ولاة الوليد على الحجاز :

عندما تولى الوليد الخلافة[٦١] كان على بلاد الحجاز هشام بن إسماعيل[٦٢] وذلك منذ ولاه عبدالملك بن مروان إمارة الحجاز، وكان ذلك في سنة ثلاثة وثمانين من الهجرة[٦٣]، وظل في الولاية أربع سنوات، فلما تولى الوليد الخلافة عزله سنة ٨٧هـ وأوقفه للناس[٦٤]، وتولى المدينة والحجاز بعده عمر بن عبدالعزيز[٦٥].

وكان عمر بن عبدالعزيز واليًا عادلاً محبًا للعلم والعلماء مؤثرًا للعدل مستشيرًا لأهل الفقه والرأي، ولي المدينة فجمع الفقهاء وأشركهم معه في الأمر قائلاً : " إنما دعوتكم لأمر تؤجرون عليه وتكونون فيه أعوانًا على الحق لا أريد أن أقطع أمرًا إلا برأيكم أو برأي من حضر منكم فإن رأيتم أحدًا يتعدى أو بلغكم عن عامل لي ظلامة فأحرج الله من بلغه ذلك إلا بلغني "[٦٦].

واهتم عمر في ولايته بالإصلاح الداخلي فعمر البيت الحرام وحفر بئرًا للحجيج وزاد في المسجد النبوي ووسعه[٦٧].

إلا أن الحجاج وشى بعمر لدى الوليد وأشار عليه بعزله عن الحجاز وتولية خالد بن عبدالله القسري على مكة وعثمان بن حيان المريّ على المدينة[٦٨].

فأما خالد بن عبدالله القسري فإنه كان من خطباء العرب وفصحائهم، وكان جبارًا عنيدًا أخضع أهل الحجاز لسلطان الوليد وأخذهم بالريبة، خطب الناس يومًا فكان مما قال : " أيها الناس أيهما أعظم خليفة الرجل على أهله أو رسوله إليهم ؟ والله لا تعلمون فضل الخليفة، إن إبراهيم خليفة الرحمن استسقاه، فسقاه ملحًا أُجاجًا!! وأن الخليفة استسقاه ــ يعني الوليد ــ فسقاه عذبًا فراتًا "[٦٩].

وكان عثمان بن حيان المريّ واليًا على المدينة بعد عمر بن عبدالعزيز، وظل عليها وكان مخلصًا للحجاج يرى أن الشدة هي التي تخضع الناس لسلطان الحاكم فأخذ الناس بالشدة حتى كسرهم وأولهم[٧٠].

وأما ولاية مصر :

فإن عبدالله بن عبدالملك وليها في حكم أبيه عبدالملك وظل فيها في بداية حكم الوليد حيث أقره عليها وفي عهده تحولت الدواوين في مصر من القبطية إلى العربية[٧١].

وفي عام ٩٠هـ عزل الوليد، عبدالله بن عبدالملك عن مصر وولي عليها قرة بن شريك[٧٢]. وعندما تولى الإمارة بمصر أمره الوليد ببناء جامع الفسطاط والزيادة فيه ففعل وقد همت الإباضية بقتله لكن أمرهم انكشف فقبض عليهم وقتلهم وظل في حكم مصر حتى مات عام ست وتسعين من الهجرة[٧٣].

وأما ولاية أفريقية والأندلس وجزر البحر المتوسط :

فقد وليها موسى بن نصير[٧٤] سنة تسع وسبعين وظل عليها طوال خلافة عبدالملك ثم سليمان ومات في خلافته وفتح بلادًا كثيرة يأتي في مقدمتها الأندلس وجزر البحر المتوسط[٧٥].

ولاية اليمن وأواسط بلاد العرب :

أما اليمن فكان عليه محمد بن يوسف الثقفي أخو الحجاج، وكان ظالمًا معتديًا، فعن وهب بن منبه أنه صلى هو وطاووس المغرب خلف محمد يوسف، فلما انتهى قام طاووس فشفع بركعة ثم أعاد وكان من جوره يأمر بلعن عليّ على المنبر[٧٦].

الإصلاح الداخلي :

كان عصر الوليد عصر بناء وتشييد فقد اهتم هو وولاته على الأمصار بالعمران حتى كان ذلك من دواعي فخر الوليد، فحدث أهل الشام يومًا فقال : " يا أهل الشام كنتم تفخرون على الناس بأرضكم وهوائكم وفاكهتكم وحماماتكم فأردت أن تكون الخامسة لكم مسجدكم "[٧٧].

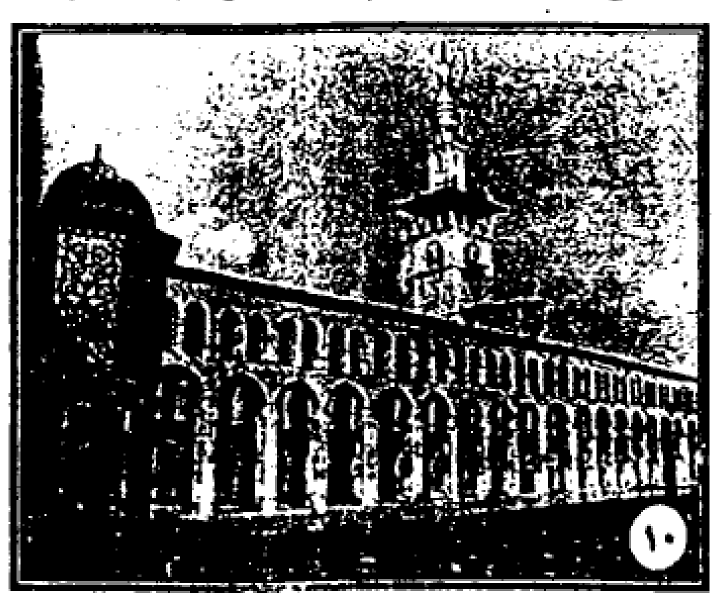
وفي عصر الوليد ازدهرت العمارة الإسلامية ففي سنة ٨٨هـ بالمدينة المنورة أمر الخليفة عمر بن عبدالعزيز أن يوسع المسجد النبوي، وأن يجعله مائتا ذراع في مثلها وذلك بأن يدخل بيوت أزواج النبي ﷺ في البناء، وأن يشتري ما حوله من الدور، وأن يضمها إليه، وأرسل له المال اللازم لذلك وأمده بالعمال وما يحتاجه من أدوات البناء[٧٨].

وكذلك أوصى الخليفة عامله بالحجاز عمر بن عبدالعزيز بتسهيل السبل وتمهيدها للتيسير على الحجيج، وأمره كذلك بتوفير المياه للناس بالمدينة فحفر بئرًا وجعل به فوارة فرفع الماء ووفره للناس، وعندما زار الوليد المدينة أعجبته فأوقف عليها عمالاً يصلحونها ويحافظون عليها[٧٩].

وفي مصر أمر الوليد عامله عليها ــ قرة بن شريك ــ بتوسعة الجامع العتيق فوسع وزاد فيه زيادة عظيمة وزينه وأحسن عمارته[٨٠].

وفي فلسطين أكمل الوليد مسجد قبة الصخرة وزينه وجعل عليه القبـة إذ أن والده عبدالملك شيد مسجد القبة وتوفى قبل اكتماله فشيد الوليد القبة عليه وجمله[٨١].

وفي دمشق كان المسجد الأموي درة العمران في عهد بني أميـة وحـديث معاصريه وسلفهم إلى يومنا هذا، فقد اجتهد الوليد أن يجعلـه أيـة فـي الجمـال والعمران ودليلاً على براعة الفنان المسلم وقوة العمارة الإسلامية وعطائها[٨٢].



صورة ضوئية لواجهة المسجد الأموي بدمشق.
زكي محمد حسن : الفن الإسلامي، القاهرة، ١٩٧٧م.

ويذكر بعض المؤرخين أن موضع المسجد في العصر الرومـاني كـان هيكـل لجوبيتر ثم أقام ثيودسيوس الأول على أنقاضه كنيسة يوحنا المعمدان (٣٧٩م) وعند الفتح الإسلامي لبلاد الشام فتحت مدينة دمشق عام ١٤هـ ودخلها المسلمون عنوة ثم صالحوا على نصفها فأصبحت المدينة قسمين أحدهما فتح عنوة والأخر صلحًا[٨٣].

وكان القسم الشرقي من المدينة فتح عنوة، وجعل أبو عبيدة النصف الشرقي من كنيسة يوحنا مسجدًا وترك النصف الباقي في أيدي النصارى وكان المسـلمون إذا صلوا في المسجد تأذوا من سماع كلام النصارى في الكنيسة فشكوا ذلك للوليـد فعزم على ضم بقية الكنيسة إلى المسجد وتعويض النصارى عن ذلك[٨٤].

وعندما عرض الأمر على النصارى بدمشق رفضوا وتمنعوا عليه، ثم أجابوا بعد ذلك ونزلوا على رأي الخليفة[٨٥].

وعندما شرع الوليد في بناء الجامع الأموي، بدأ بنفسه فهدم الكنيسة ثم جمع أمهر العمال والصناع من الهند وفارس والقسطنطينية وأفريقية ومصر وبلاد العراق حتى قيل أن هذا المسجد شيده، أثنى عشر ألف عامل أتموه في ثمان سنين وقيل خصص لبنائه خراج أرض الخلافة سبع سنين[٨٦].

ويذكر المؤرخون أن الوليد أنفق على بناء المسجد الأموي بدمشق أموالا طائلة يذهب البعض إلى جعلها خمسة ملايين وستمائة ألف من الدنانير، ويذكر البعض أنها تجاوزت ذلك فبلغت أحد عشر مليونا ومائتي ألف دينار[٨٧].

ونظرًا لاهتمام الخليفة بهذا البنيان ـــ للمسجد الجامع بدمشق ـــ وإنفاقه عليه بسخاء حتى غدى في غاية الجمال والروعة، وقد ذكر بعض المؤرخين أن ملك الروم أرسل للوليد عند بناء المسجد لماذا فعلت ما لم يفعله أبيك عبدالملك ؟ ألجهل منه أم لتعد منك ؟ فقال الوليد أريد أن أجيبه فقال له الفرزدق الشاعر المشهور يا أمير المؤمنين أجبه بقوله تعالى : [فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا][٨٨].

وقد تغنى الشعراء بهذا البناء الفخم وهذا العمل الجليل من الوليد فامتدحه الفرزدق قائلاً :

فرقت بين النصارى في كنائسهم	والعابدين مع الأسحار والعتم
وهم جميعًا إذا صلوا وأوجههم	شتى إذا سجدوا لله والصنم
وكيف يجتمع الناقوس يضربه	أهل الصليب مع القرآن لم تنم
فهمت تحويلها عنهم كما فهما	إذ يحكمان لهم في الحرث والغنم
فهمك الله تحويلا لبيعتهم	عن مسجدٍ فيه يتلى طيب الحكم

ومن إصلاحات الوليد الداخلية وضع المنارات على الطرقات. وما حقق الأمن لعابري السبل والمسافرين ووضع علامات يعرف بها المسافر مقدار ما قطعه من الطريق وما تبقى منه[٨٩].

الفتوحات الإسلامية في عهد الوليد بن عبدالملك وما رافقها من إصلاحات :

يعد عصر الوليد بن عبدالملك من أكثر العصور الإسلامية فتحًا، فقد امتـدت فيه الفتوحات شرقا حتى بلغت الصين والهند ودانت له هـذه الأقـاليم بالطاعـة، وصالحته على أداء الجزية وتوجهت جيوشه شمالا فأوغلت في أراضـي الدولـة البيزنطية، وتحركت غربًا فأخضعت الشمال الإفريقي، وعبرت البحـر المتوسـط فافتتحت بلاد الأندلس.

كان عهد الوليد عهد الفتوحات الكبرى ساعده على ذلك عدة أمور منها :

استقرار الأوضاع الداخلية بعد أن وطد عبدالملك أركان الدولة وقضى علـى معارضيها.

وتوفر للوليد مجموعة من القادة كانوا من ذوي الخبرة والاقتدار ما لم يتوفر لغيره من الخلفاء، وكانوا خير عون له في إتمام حركة الفتوحات لنشر الإسلام في ربوع المعمورة، وكانت روح الجهاد العامرة والرغبة في نيل الشهادة في سبيل الله دافعًا إيمانيًا له عظيم الأثر في جهاد الجيوش الإسلامية سواء كانت جيوش الخلافة النظامية أو جيوش المتطوعة المسلمين ومن انضم إلـيهم مـن الـبلاد المفتوحـة حديثًا(٩٠).

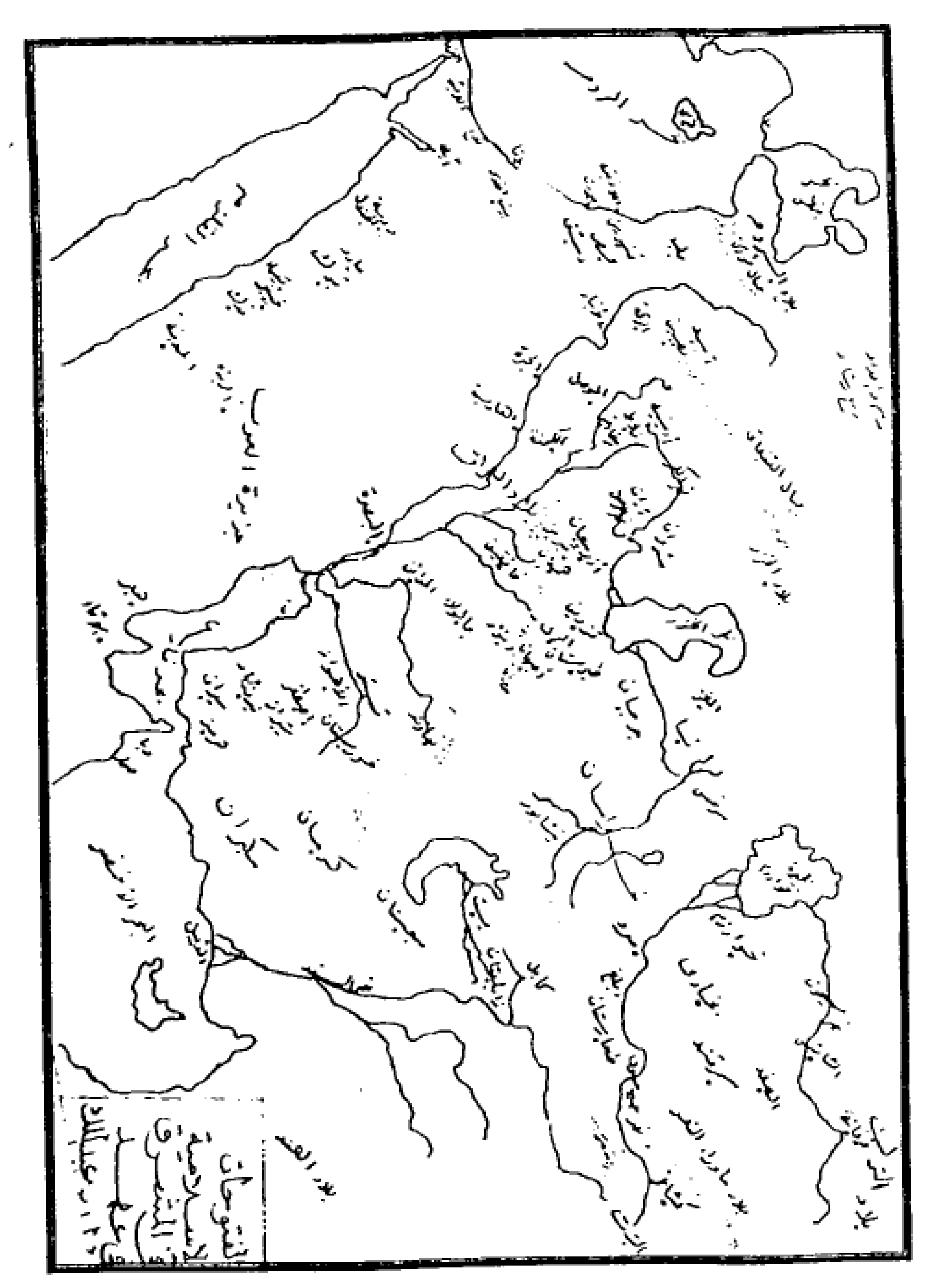
أولاً : الفتوحات في بلاد ما وراء النهر وما رافقها من إصلاحات :

تولى قتيبة(٩١) بن مسلم الباهلي إمارة خراسان في عام ٨٦هـ حيث أرسـله إليها الحجاج بن يوسف الثقفي أمير العراقيين واليًا عليها، وعندما وصـلها جمـع الجند وعرضهم ثم خطبهم ودعاهم إلى الجهاد في سبيل الله رغبة في نصرة الدين وإعلاء كلمة الله واليقين بنصره وجنته، وذكرهم بآيات الجهاد وعالمية الإسلام في خطبة طويلة كان لها عظيم الأثر في نفوس الجند، وبث الحماسة فيهم(٩٢). ثم خرج بهم واستخلف على مرو(٩٣)، وكانت عاصمة الولاية، ثم توجه إلى بلخ(٩٤) وكانـت انتقضت على الحكم الأموي، ودانت له الطلقان(٩٥) والصـنغانيات(٩٦)، وآخـرون وشومان(٩٧) ودانت له كل أقاليم طخارستان(٩٨).

وفي سنة سبع وثمانين خرج قتيبة بجنده يريد غزو " بيكند "[99] التي كانت مدينة حصينة فحاصرها حصارًا شديدًا واحتال لها حتى تمكن من فتحها بعد مشقة وعناء ووجد بها غنائم وسلاحًا وفيرًا فوزعه على الجند، ثم عاد بعد ذلك إلى مرو، وفي غنائم بيكند وما وجد فيها الكميت.

ويوم بيكند لا تحصى عجائبه وما نجا مما أخطأ العدد

وفي سنة ثمان وثمانين تقدم قتيبة بجنده فغزا نومشكث ورامينية[100]، وصالح أهلها على الجزية، ثم إنه التقى بجيش للترك من أهل الصغد[101] وفرغانة[102]، ويذكر الطبري أن الترك كانوا مائتي ألف إلا أن الله نصر المسلمين لما صبروا وشددوا على عدوهم[103]، وقد اقترن هذا النصر بعمارة المساجد ودور العلم لتعليم الناس هناك أمور دينهم.



زكي محمد حسن : الفن الإسلامي، القاهرة ١٩٧٨م

فتح بخاري :

وفي عام ٨٩هـ خرج قتيبة يريد فتح بخاري إلا أنه لم يتمكن من ذلك فأرسل إلى الحجاج فقال له : صورها لي ثم أرسل إليه الحجاج يأمره بالعودة بالجيش إلى مرو وأن يستعد أتم الاستعداد، وأن يأتيها بخطة محكمة أرسلها إليه ففعل قتيبة، وفي عام تسعين خرج إليها، وحاصرها وكان الترك قد جمعوا ببخاري جموعًا كبيرة وخرجوا للقاء المسلمين وتمكنوا من إلحاق هزيمة جزئية بقوات قتيبة الذي عمد إلى بث الحماسة في جنوده ونادى على قبيلة تميم قائلا : " يا بني تميم إنكم اليوم بمنزلة الحطمة من الناس فيوم كأيامكم أبى لكم الفداء " وكان لهذه الكلمات أثرها فحمل بنو تميم بخيلهم ورحلهم حتى عبروا النهر إلى عدوهم سباحة وجعلوا بعد ذلك على النهر جسرًا عبر عليه من بني تميم ثمانمائة يرجون الشهادة أو النصر وحاربوا الترك حتى ردوهم مهزومين وعبر المسلمون بعد ذلك ولحقوا بالترك وصالح قتيبة أهل بخاري ودانت له بالطاعة[١٠٤]، وعمرها بالمساجد ودور العلم حتى أصبحت منارة إشعاع لنشر الإسلام هناك.

وتمكن قتيبة من غزو شومان وكسر ونسف وذلك بعد حصار حصونها وضربها بالمنجنيق حتى تمكن من هزيمة ملكها وفتحها عنوة ثم أكد قتيبة صلحه مع طرخون ملك الصغد وعاد إلى بخاري ومنها إلى مرو[١٠٥].

فتح سجستان :

وتقدم قتيبة يريد غزو سجستان وبلاد رتبيل ملك الترك فوصلها فأرسل إليه رتبيل يدين له بالصلح والطاعة فقبل ذلك منه ورجع[١٠٦]، وفعل بها قتيبة ما فعله لغيرها من المدن من الإصلاحات الدينية والإدارية.

فتح خوارزم :

وفي سنة ٩٣هـ فتح قتيبة بلاد خوارزم[١٠٧] ومنها مدينة الفيل[١٠٨]، ثم غزا سمرقند[١٠٩]، ومدائن الصغد وفتحها وشيد بها مسجدًا، وقد أعانه في غزوه هذا أهل بخاري[١١٠] وخوارزم وغيرها[١١١].

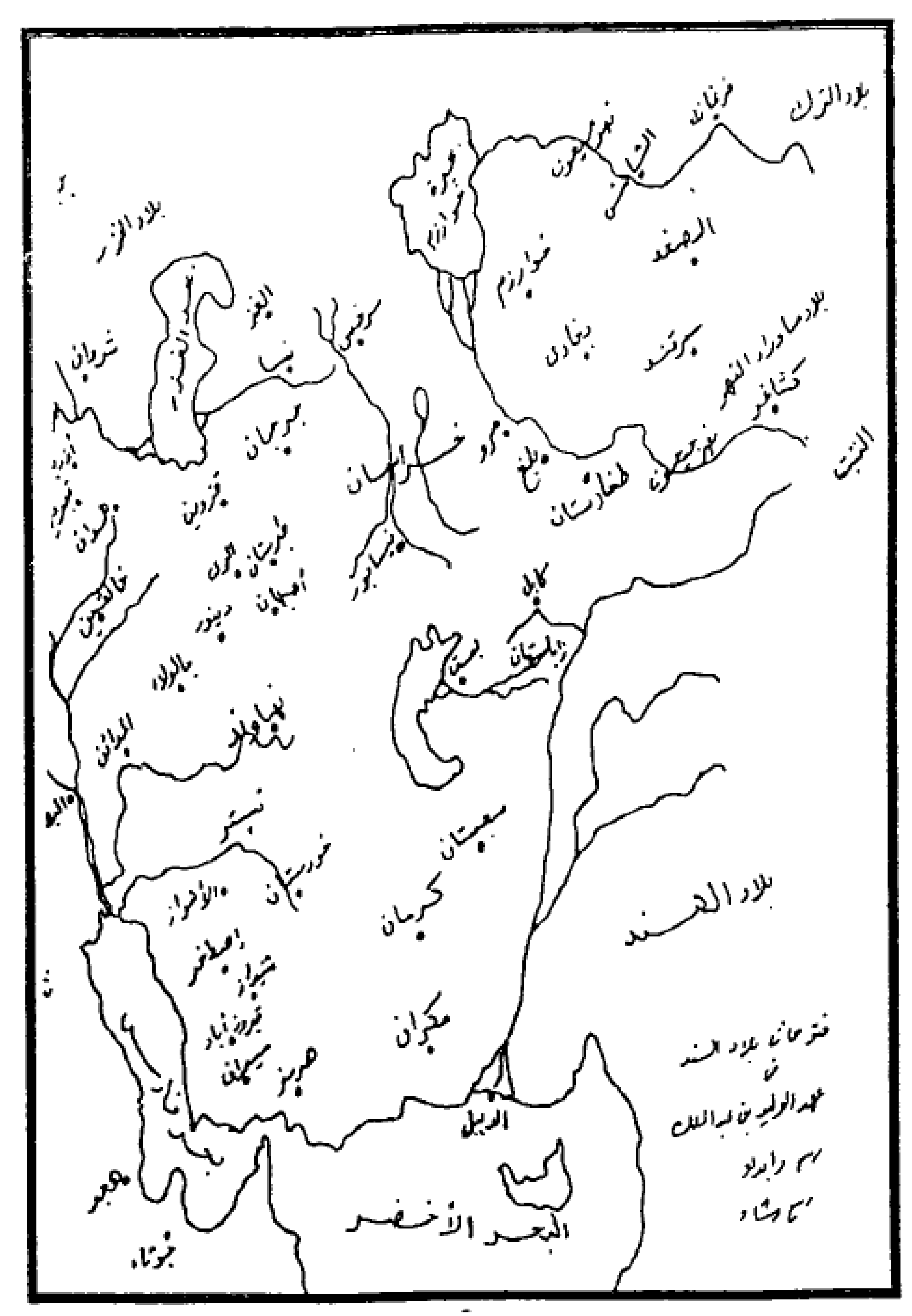
فتح الشاش وفرغانة :

وبعد أن قضى قتيبة بقية عام ٩٣هـ بمرو خرج في عام ٩٤هـ يريد غزو الشاش[١١٢]، وفرغانة، وقد انضم إليه عشرون ألفا من أهل بخاري وخوارزم ونسف وغيرها فوجههم إلى الشاش وتوجه بجنوده إلى فرغانة ففتح خخنده[١١٣]، ثم توجه إلى كاشان[١١٤] ففتحها ووصل إليها جند الشاش فبشروه بفتحهم فقفل راجعًا إلى مرو[١١٥].

فتح كشاغر وغزو الصين :

وفي سنة ٩٥هـ خرج قتيبة يريد مواصلة الغزو فلما بلغ الشاش وافته الرسل بخبر وفاة الحجاج فحزن لذلك وعاد، وجاءته رسالة الوليد التي عزاه فيها ودعاه إلى مواصلة الجهاد والغزو، وذكره المثوبة والأجر[١١٦].

فلما دخلت سنة ٩٦هـ خرج قتيبة بجنده قاصدًا كشاغر[١١٧]، وهي أدنى مدائن بلاد الصين، فلما بلغ فرغانة بلغه موت الوليد بن عبدالملك فسار حتى وصل كشاغر وفتحها[١١٨]، ثم أرسل إليه ملك الصين يريد أن يتعرف على الإسلام ويسعى إلى الصلح فأرسل إليه قتيبة وفدًا من أثنى عشر رجلا عليهم هبيرة بن المشمر الكلابي، فوصلوا إلى ملك الصين وحادثهم ثلاثة أيام ثم ردهم، فلما خبر أمرهم حاول تهديدهم قائلا : " انصرفوا إلى صاحبكم فليرجع إلى بلاده، فإني قد عرفت حرصه وقلة أصحابه، وإلا بعثت عليه من يهلكه ويهلككم " فرد عليه أمير الوفد قائلا كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك وأخرهم في منابت الزيتون، وكيف يكون حريصًا من خلف الدنيا قادرًا عليها وغزاك وأما تخويفك إيانا بالقتل فإن لنا أجالا إذا حضرت فأكرمها القتل، فلسنا نكرهه أو نخافه " ويبدو أن ملك الصين قد هاب الوفد وخشي من لقاء قتيبة فصالحه وأرسل إليه الجزية وفدية مالية ضخمة، ونفذ للوفد ما أراد من مطالب ثم غادروا قافلين إلى قتيبة[١١٩].



زكي محمد حسن: الفن الإسلامي، القاهرة، ١٩٧٨م

ثانيًا : فتوحات بلاد السند :

كانت بلاد السند هدفًا للفتوحات الإسلامية منذ امتداد الفتوحات الإسلامية إلى بلاد الفرس في عهد الخلفاء الراشدين، وقد حاول الأمويون مد الفتوحات الإسلامية إلى هذه البلاد وكانت أهم الجهود نتحها على عهد الوليد بن عبدالملك حيث أرسل والي العراق الحجاج بن يوسف الثقفي، محمدًا بن القاسم بن محمد(١٢٠) إلى بلاد السند على رأس حملة عسكرية كبيرة(١٢١).

ومع أن المصادر التاريخية لا تمدنا تفاصيل هذه الحملة إلا أن الشواهد التاريخية تؤكد أنها كانت حملة ضخمة حيث تكونت من جنود محمد بن القاسم في بلاد فارس، ثم أمده الحجاج بستة آلاف مقاتل(١٢٢).

وأمد الحجاج الجيش بالمعدات والمؤن الضرورية حتى الخيوط والمسالي والخيوط المنقوعة في الخل لحاجة الجيش إليها في هذه الفتوحات(١٢٣).

وبعد أن تكامل جيش محمد بن القاسم توجه إلى مكران وجعلها نقطة انطلاق حملته وقاعدة الفتح الإسلامي في بلاد الهند، ومنها جعل محمد بن القاسم جيشه قسمين أحدهما بري والأخر بحري ثم تحرك من مكران قاصدًا الديبل(١٢٤). ففتح في طريقه قنزبور وأرمائيل(١٢٥).

وعندما وصل محمد بن القاسم إلى الديبل وجدها مدينة حصينة ووجد بها بدًا(١٢٦) وهو منارة عظيمة تكون فيها الأصنام، فحاصر الجيش الإسلامي المدينة وضربها بالمنجنيق، وكانت رسل القائد لا تنقطع عن الحجاج يطلعه على أخبار الفتح ويستشيره فيما يجدُّ من أمور، ولما طال الحصار خرج جند داهر ملك الهند لقتال المسلمين فهزم الله أهل الشرك ووضع المسلمون السلالم على الأسوار وفتحوا المدينة وقتل عامل داهر بالمدينة(١٢٧).

وبعد أن أتم محمد بن القاسم فتح المدينة توقف فيها فشيد بها مسجدًا وأنزل فيها حامية من أربعة آلاف مقاتل واتخذها قاعدة بحرية للمسلمين في المحيط الهندي وقاعدة للعمال ومقر الحكومة(١٢٨).

ثم توجه محمد بن القاسم إلى البيرون فدخلها وقبل صلح أهلها ثم سار يفتح المدن حتى وصل قرب مهران واستعد له داهر ملك السند وحشد له حشودًا كبيرةً.

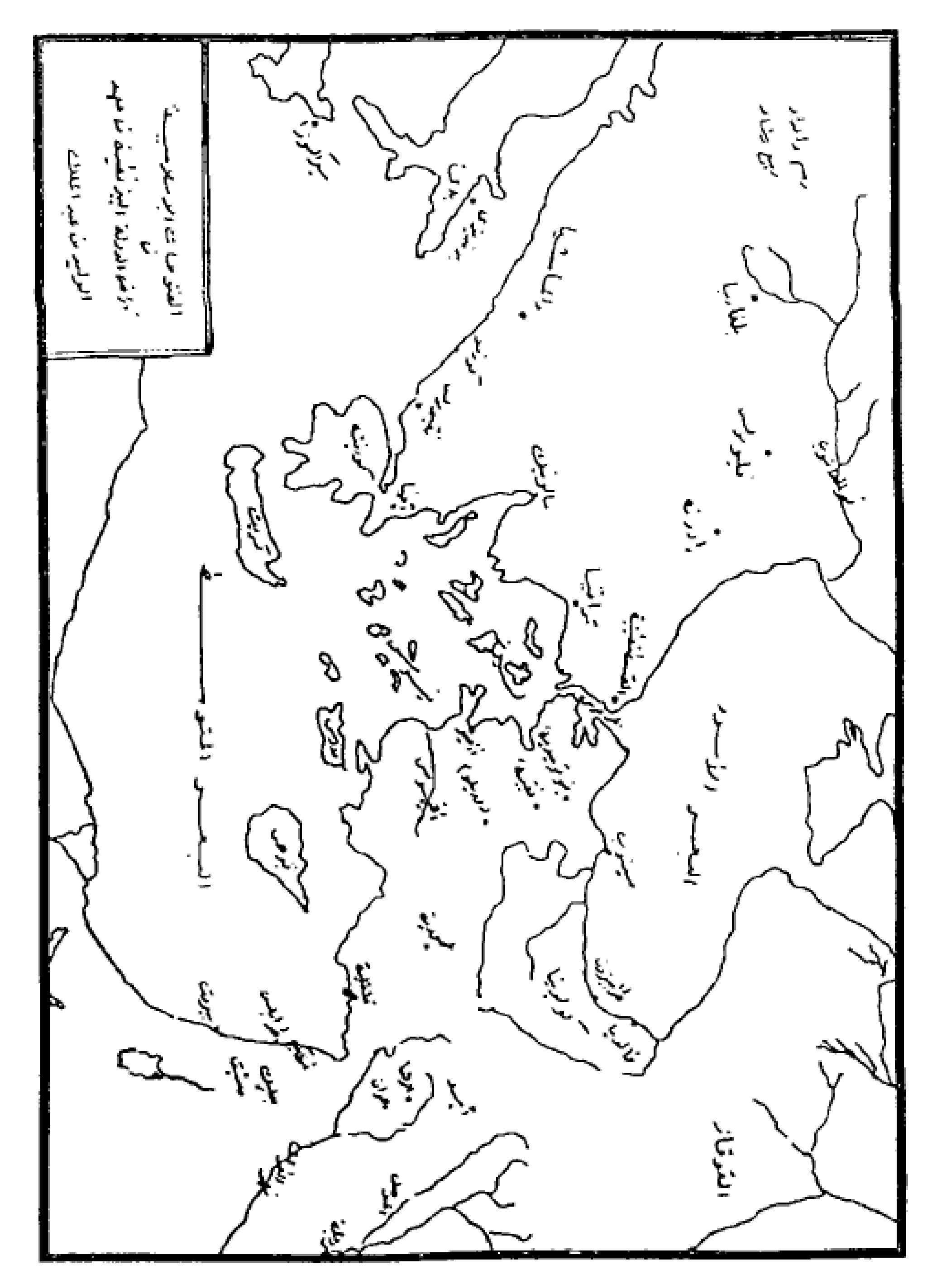
ورغم كل هذه الانتصارات العظيمة التي حققها محمد بن القاسم إلا أنه كان يعلم أن المعركة الحاسمة لم تقع بعد، وأن داهر يريد أن يباعد خطوط المواصلات والإمدادات الخاصة بالمسلمين في بلاد السند ثم ينقض عليهم[١٢٩].

وعندما عبر محمد بن القاسم نهر مهران[١٣٠]، وجد داهر ملك السند في جموعة، وقد أقبل على فيل ضخم وحوله قادته على الفيلة فاقتتل الفريقان قتالا شديدًا لم يسمع بمثله، وحينما أقبل المساء نصر الله المسلمين وقُتِلَ داهر، قتله أحد المسلمين وأخذ يفخر بذلك قائلا[١٣١] :

الخيلُ تشهدُ يومَ داهرَ والقنا	ومحمدِ بن القاسم بن محمدِ
أني فرجتُ الجمعَ غيرَ مفردِ	حتى علوتَ عظيمهم بمهندِ
فتركتهُ تحت العجاج مجدلا	متعفر الخدين غيرًا موسدِ

وبعد ذلك تقدم الجيش الإسلامي حتى وصل إلى الرور[١٣٢] فصالح أهلها ثم واصل سيره حتى وصل إلى الملتان[١٣٣] فاستولى عليها بعد حصار طويل، ثم واصل زحفه حتى بلغ الكرج وبرهمًا وهناك لقي دوهر وهزمه واستولى على بلاده، ثم بلغه موت الوليد ابن عبدالملك فتوقف الفتح الإسلامي عند هذا الحد وقد امتدح يزيد بن الحكم محمد ابن القاسم وفتوحه فقال[١٣٤] :

إن الشجاعة والسماحة والندىَ	لمحمدِ بن القاسم بن محمدِ
قادَ الجيوشَ لسبع عشرةَ حجةً	يا قربَ ذلكَ سؤددًا من مولدِ



زكي محمد حسن : الفن الإسلامي، القاهرة، ١٩٧٨م

ثالثا : فتوحات بلاد الروم :

تعد الجبهة الشمالية من الجبهات الهامة والتي شهدت نشاطًا عسكريًا واضحًا خلال عهد الوليد بن عبدالملك وإذا كانت الحملات الإسلامية على أراضي الدولة البيزنطية عاصمة البيزنطيين، ولذلك جردت الحملات العسكرية التي تخدم هذا الهدف وتمهد له من خلال الاستيلاء على الطريق البري عبر دروب الثغور الشمالية فيما وراء جبال طوروس(١٣٥).

ويعد مسلمة بن عبدالملك أشهر القادة الذين أشرفوا على الحملات العسكرية على الجبهة الشمالية في عهد الوليد بن عبدالملك(١٣٦)، فمنذ مبايعة الوليد بالخلافة أمر أخاه مسلمة بقيادة الجيوش المتجهة إلى الثغور الشمالية. ففي عام ٨٦هـ خرج مسلمة إلى إقليم ثغور الشام واتجه لفتح الحصون الجنوبية لدولة الروم البيزنطيين، وقد نجح القائد الأموي مسلمة بن عبدالملك في مد الفتوحات الإسلامية إلى داخل أراضي الدولة البيزنطية حتى سمى " ناب بني أمية "(١٣٧)، وربما كان من المهم أن نشير إلى أن الخليفة جعل لابنه العباس على بعض القوات الغازية في الجبهة الشمالية وأن العباس كان عونًا لعمه مسلمة في غزو هذه الثغور البيزنطية حتى سمى العباس " فارسُ بني أمية "(١٣٨).

ومن الواضح أن القوات الإسلامية عملت على فتح بعض الحصون الهامة وكسر شوكة المستعربين التابعين للروم والذين أطلقت عليهم المصادر اسم الجراجمة(١٣٩).

وبعد أن سيطرت القوات الإسلامية على حصن بولق وحصن الأخرام(١٤٠)، وكانت المدينة الهامة التي حاول الجيش الإسلامي الزاحف السيطرة عليها هي مدينة طونة التي كانت تعد المفتاح الحقيقي للطريق المؤدي إلى القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية(١٤١).

وعندما وصل الجيش الأموي إلى " طونه " حاول الروم حمايتها فأرسلوا إليها الإمدادات والتي وصلت إلى خمسين ألفا من الجند غير أن جيش الخلافة أباد هذه القوات البيزنطية، وشدد الحصار على المدينة واقتحمها ونادى مسلمة على

المسلمين يريد إثارتهم فنادى فيهم " يا أهل القرآن " فاشتدوا على البيزنطيين حتى اضطروهم إلى الاستسلام، وفتحت المدينة على أيدي المسلمين أواخر عام ٨٨هـ[١٤٢].

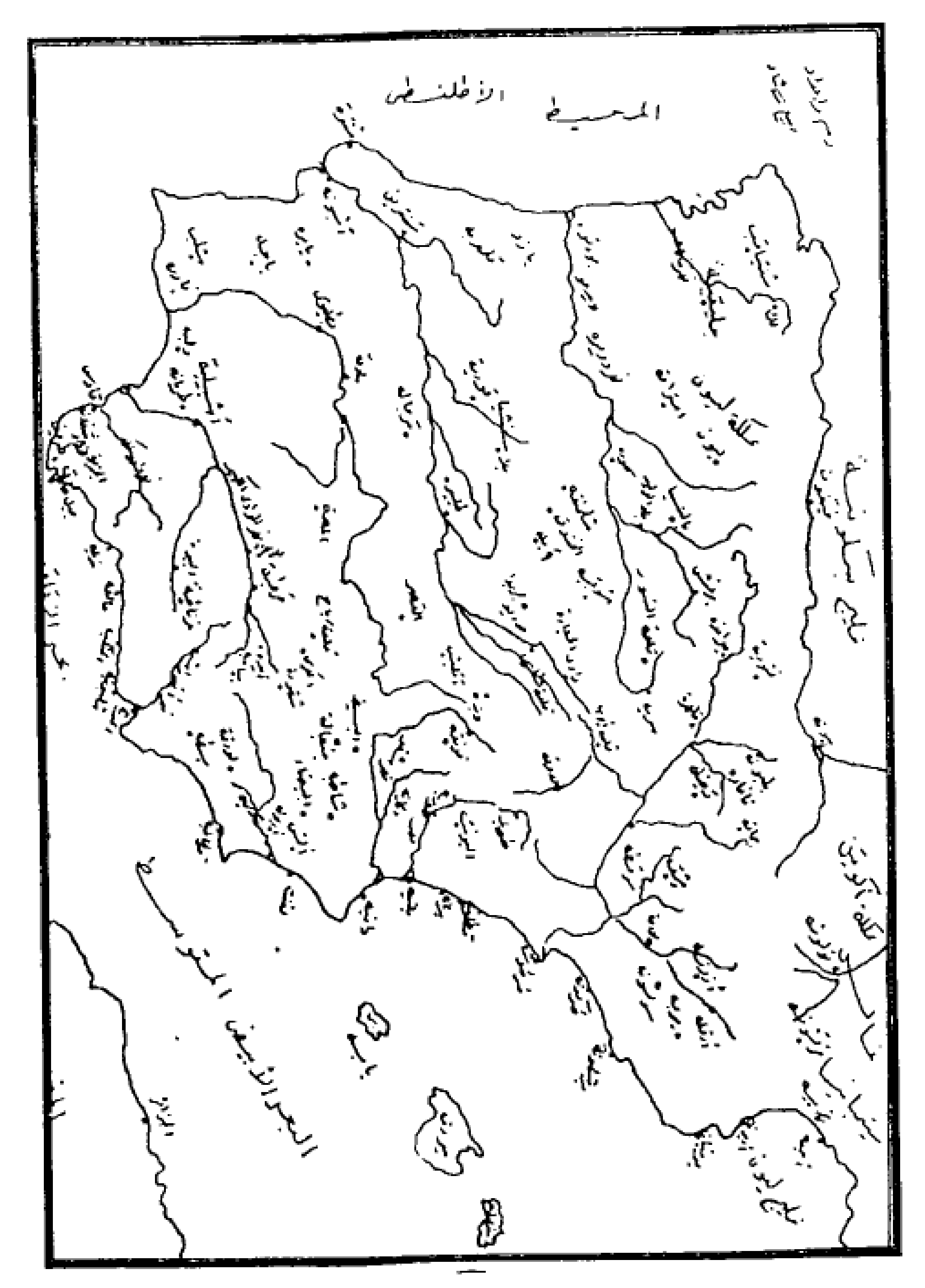
وبعد أن استكمل مسلمة فتح طوانه ترك العباس بن الوليد بها ثم تقدم إلى "عمورية"[١٤٣]، وحاصرها وشدد عليها وتمكن من فتحها[١٤٤].

ثم تقدم مسلمة تجاه هرقلة[١٤٥] ففتحها ثم تابع سيره ففتح قمونية ثم استولى على سائر حصونها[١٤٦].

أما العباس بن الوليد فإنه تمكن من فتح عدة حصون في الطريق الواقع بين أنطاكية وطرسوس وساعده في ذلك بعض إخوته من أبناء الوليد بن عبدالملك[١٤٧]، وفي عام ٩٤هـ تمكن مسلمة بن عبدالملك من فتح سندرة وهي من بلاد الروم[١٤٨].

وفي عام ٩٥هـ فتح العباس بن الوليد حصن طولس والمرزبانيين[١٤٩].

وهكذا تمكن المسلمون خلال عهد الوليد من تمهيد الطريق البري لغزو القسطنطينية وأعد الخليفة الوليد الأساطيل الإسلامية لمساندة الجيوش في التقدم نحو العاصمة غير أنه توفى عام ٩٦هـ واستكمل الخليفة الأموي سليمان بن عبدالملك المحاولات الأموية ـ لفتح ـ عاصمة الروم[١٥٠]. والملاحظ أن هذه الفتوحات قد توجت بكثير من الإصلاحات التي كان المسلمون يحرصون على إحداثها فيما يفتحونه من المدن والحصون كتشييد المساجد وإصلاح المرافق العامة، وإقامة دور العلم لتعليم الناس أمور دينهم.



زكي محمد حسن : الفن الإسلامي، القاهرة، ١٩٧٨م

رابعًا : فتوح الأندلس وجزر البحر المتوسط :

تولى موسى بن نصير ولاية أفريقية عام ٨٩هـ خلفًا لحسان بن النعمان الذي وصل بالفتوحات الإسلامية في المغرب الإسلامي إلى أبعد مدى[١٥١].

وفي الواقع أن موسى بن نصير كانت لديه خبرة كافية بدروب أفريقية والمغرب الأقصى، تكونت خلال توليه القيادة الإسلامية في هذه الأنحاء، خلال ولاية عبدالعزيز بن مروان على مصر وأفريقية، حيث قضى على ثورات البربر وأخضع قبائلهم، ثم توجه إلى طنجة ففتحها، ثم ولي عليها نائبًا عنه طارق بن زياد الليثي[١٥٢].

وكان من إصلاحات موسى ببلاد المغرب تشييده لترسانة بحرية على سواحلها، كما أنشأ أسطولا ضخمًا لحماية الثغور الإسلامية، ومد حركة الفتوحات عبر البحر المتوسط[١٥٣].

وقد تمكن هذا الأسطول من فتح عدد كبير من جزر البحر المتوسط مثل ميروقة، ومنروقة، وصقلية، وسردينية[١٥٤].

وفي الواقع أن بلاد الأندلس كانت تعاني من مشكلات عديدة قبل الفتح الإسلامي حيث اشتد الحكم القوطي ضد السكان وتعددت الثورات ضد القوط هؤلاء الحكام، خاصة عندما علم سكانها باقتراب الفتح الإسلامي[١٥٥]، وساعد المسلمون في فتح الأندلس بعض الشخصيات الأندلسية التي كانت ناقمة على التسلط القوطي بها من أمثال يوليان حاكم سبتة والمضيق، والذي سهل للمسلمين عملية العبور والتوغل في بلاد الأندلس انتقامًا من لزريق الحاكم القوطي بالجزيرة آنذاك[١٥٦].

وكان موسى حكيمًا حذرًا فقد حرص قبل الشروع في غزو هذه البلاد الحصينة، أن يختبر الطريق، فجهز حملة صغيرة تبلغ خمسة آلاف مقاتل بقيادة طريف بن مالك، وصلت إلى أطراف بلاد الأندلس وتمكنت من دخولها واشتبكت مع القوط في معارك جانبية، ثم عادت إلى قواعدها سالمة بعد أن كونت فكرة متكاملة عن مدى استعداد القسط العسكري والنفسي[١٥٧].

وفي شهر رجب سنة ٩٢هـ/٧١١م جهز موسى جيشًا من العرب والبربر بلغ سبعة آلاف مقاتل بقيادة طارق بن زياد الليثي حاكم طنجة فتوجه إلى الجزيرة

فعبر المضيق وفتح الجزيرة الخضراء بعد أن هزم القوط وولوا هاربين، وهزم جيشًا أرسله لزريق للقاء المسلمين عند الفرنتيره، وعند ذلك جمع لزريق جمعًا كبيرًا يفوق التسعين ألفًا من الجند وتوجه للقاء طارق بن زياد الذي أرسل بدوره إلى موسى بن نصير يطلب منه المدد فأمده بخمسة الاف مقاتل[١٥٨].

وعند وادي لكه التقى الجمعان، وكان القوط أضعاف المسلمين، وكان المسلمون يقاتلون الأعداء في مفاوز وهضاب شاهقة، لكن قائدهم الجريء تقدم إلى المعركة الحاسمة بحزم وشجاعة، واشتبك المسلمون بالقوط في شهر رمضان عام ٩٢هـ واستمرت المعركة سبعة أيام وفي نهايتها تم النصر للمسلمين وهُزم لزريق، ويقال أنه لقي حتفه غرقًا في النهر[١٥٩].

وبعد هذا الانتصار تمكن طارق من مواصلة فتوحاته حتى سيطر المسلمون بعد ذلك على كامل الجزيرة، بل إن موسى بن نصير فكر في السير إلى القسطنطينية عبر الأندلس شرقًا حتى يصل إليها ويصل فتوح الأندلس بالشام[١٦٠].

والمعروف أن المسلمين شرعوا منذ وصولهم إلى بلاد الأندلس في إقامة الكثير من المشاريع الإصلاحية، حيث حرصوا على عمارة المساجد ودور العلم لتعليم الناس هناك أمور دينهم، إضافة إلى ما شهدته الجزيرة بعد ذلك من قيام مدن إسلامية لا تزال تحمل أسماء عربية حتى اليوم كغرناطة وبلد الوليد وغيرها، كما أن الشواهد الحضارية الضخمة لا تزال معالمها قائمة حتى الآن ويأتي في طليعتها قصر الحمراء الذي يعد معلمًا حضاريًا بارزًا ليؤمه السواح من كل مكان حتى اليوم.

الخاتمة :

من خلال الدراسة يتضح أن الوليد بن عبدالملك كما وصفه ابن الأثير أنه من أفضل خلفاء الأمويين، بنى المساجد واتخذ المصانع والضياع، واستعان بأفضل الولاة، امتدت في عصره الدولة الإسلامية إلى أبعد الحدود، وزادت هيبة الإسلام، ودانت له بلاد المشرق والمغرب.

وفي عصره تكون النظام الإداري الإسلامي واستقر على الوضع الذي عرفته الحضارة الإسلامية خلال العصرين الأموي والعباسي.

وكانت منشأته الداخلية من أعظم ما شيد في الحضارة الإسلامية، فازدهرت حركة العمران وشيدت المدن الجديدة، واكتملت القيروان، وواسط القصب، وأتم عمران مساجد قبة الصخرة، واهتم بالمسجد النبوي فوسعه وزاد فيه زيادة كبيرة، وفي مصر وسع الجامع العتيق وعمره على أحسن ما تكون العمارة، وفي حاضرة الخلافة دمشق شيد الجامع الأموي الكبير والذي عد آية من آيات العمارة الإسلامية.

وبعد، فإن عصر الوليد بجوانبه المختلفة يحتاج إلى دراسات تاريخية وافية، توقفنا على حقائق الحضارة الإسلامية في عصر الدولة الأموية.

الخلفاء الأمويون

١- معاوية بن أبي سفيان	ربيع الأول ٤١هـ / ٧ مايو ٦٦١م
٢- يزيد الأول بن معاوية	٦٠هـ / ٦٧٩م
٣- معاوية الثاني بن يزيد	٦٤هـ / ٦٨٣م
٤- مروان الأول بن الحكم	٦٤هـ / ٦٨٣
٥- الوليد الأول بن عبدالملك	٦٥هـ / ٦٨٤م
٦- الوليد الأول بن عبدالملك	٨٦هـ / ٧٠٥م
٧- سليمان بن عبدالملك	٩٦هـ / ٧١٤م
٨- عمر بن عبدالعزيز	٩٩هـ / ٧١٧م
٩- يزيد الثاني بن عبدالملك	١٠١هـ / ٧١٩م
١٠- هشام بن عبدالملك	١٠٥هـ / ٧٢٣م
١١- الوليد الثاني بن يزيد	١٢٥هـ / ٧٤٢م
١٢- يزيد الثالث بن الوليد	١٢٦هـ / ٧٤٣م
١٣- ابراهيم بن الوليد	١٢٦هـ / ٧٤٣م
١٤- مروان الثاني بن محمد	١٢٧هـ / ٧٤٤م

ولاة مكة في العصر الأموي

١- عتبة (عنبسة) بن أبي سفيان	٤١هـ / ٦٦١م
٢- خالد بن العاص بن هشام	٤٢هـ / ٦٦٢م
٣- عبدالله بن خالد بن أسير	٤٤هـ / ٦٦٤م
٤- خالد بن العاص بن هشام	٤٥هـ / ٦٦٥م
٥- مروان بن الحكم ابن أبي العاص	٤٨هـ / ٦٦٨م
٦- عمرو بن سعيد بن العاص، الأشدق	٥٣هـ / ٦٧٢م
٧- ثورة عبدالله بن الزبير	٦١هـ / ٦٨٠م
٨- الحارث بن حاطب الجمحي	٦٦هـ / ٦٨٣م
٩- الحجاج بن يوسف بن عقيل بن مسعود بن عامر بن متعب	٧٣هـ / ٦٩٢م
١٠- مالك بن كعب بن عمر بن سعد بن عوف بن ثقيف	٧٧هـ / ٦٩٦م
١١- الحارث بن خالج بن العاص بن هشام المخزومي	٨٠هـ / ٦٩٩م
١٢- أبو يزيد خالد بن عبدالله بن يزيد بن أسد بن كوز القسري	٨١هـ / ٧٠٠م
١٣- عمر بن عبدالعزيز	٨٦هـ / ٧٠٥م
١٤- خالد بن عبدالله القسري	٩٣هـ / ٧١١م
١٥- عبدالعزيز بن عبدالله بن خالد بن أسير	٩٦هـ / ٧١٤م

نوابه :

- نافع بن علقمة الكناني
- يحيى بن الحكم بن أبي العاص
- هشام بن إسماعيل المخزومي
- أبان بن عثمان بن عفان

١٦- طلحة بن داود بن عبدالله بن خالد	٩٧هـ / ٧١٥م
١٧- عبدالعزيز بن عبدالله بن خالد	٩٧هـ / ٧١٥م

نوابه :

- محمد بن طلحة بن عبدالله بن عبدالرحمن بن أبي بكر
- عروة بن عياض بن عدي النوفلي
- عبدالله بن قيس بن محزمة بن المطلب
- عثمان بن عبدالله بن سراقة

١٨- عبدالرحمن بن الضحاك بن قيس الفهدي ١٠٣هـ/٧٢١م

١٩- عبدالواحد بن عبدالله النضري ١٠٤هـ/٧٢٣م

٢٠- إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي ١٠٦هـ/٧٢٤م

٢١- محمد بن هشام بن إسماعيل المخزومي ١١٤هـ/٧٣٢م

نائبه :

- نافع بن علقمة الكناني

٢٢- يوسف بن محمد بن يوسف الثقفي ١٢٥هـ/٧٤٢م

٢٣- عبدالعزيز بن عمر بن عبدالعزيز ١٢٦هـ/٧٤٣م

٢٤- عبدالواحد بن سليمان بن عبدالملك ١٢٧هـ/٧٤٤م

٢٥- محمد بن عبدالملك بن مروان ١٣٠هـ/٧٧٤م

٢٦- الوليد بن عروة بن محمد بن مروان ١٣١هـ/٧٤٨م

الهوامش :

١- السيوطي : تاريخ الخلفاء، ط دار الفجر للتراث الإسلامي، القاهرة، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ص١٧٧.

٢- محمد بن جرير الطبري : تاريخ الأمم والملوك، ط الدار العلمية، بيروت، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ع٣، ص٦٦٧.

٣- المرجع السابق : ج٣، ص٦٦٨.

٤- ويبدو أن هناك إغفالاً في المصادر لتاريخ ميلاد الوليد بن عبدالملك ولم أجد تاريخ مولده إلا في تاريخ الإسلام، للذهبي، ج٣، ص٣٦، وذكره الخضري في : محاضرات الأمم الإسلامية، ج١، ح٢، ص٣٦٠.

٥- ابن كثير : البداية والنهاية، مج٥، ج١٠، ص١٨٠.

٦- قال روح بن زنباع دخلت على عبدالملك، وهو مهموم، فقلت مالك أبا الوليد، فقال : فيمن أوليه أمر العرب، فلم أجده، فقلت : أين أنت من الوليد؟ قال : إنه لا يحسن النحو، فسمع ذلك الوليد فقام من ساعته وجمع أصحاب النحو، وجلس معهم في بيت ستة أشهر ثم خرج وهو أجهل مما كان، فقال عبدالملك : أما إنه قد أعذر. انظر السيوطي : تاريخ الخلفاء، ص١٧٨؛ وابن الكثير : البداية والنهاية، مج٥، ج١٠، ص١٨١.

٧- لما أراد عبدالملك أن ينقل البيعة من أخيه عبدالعزيز إلى ابنه الوليد أمر النابغة الشيباني أن يقترح ذلك في حضرة الناس فقال :

لابنك أولى بملك والده	ونجم من قد عصاك مطروح
داود عدل فأحكم بسيرته	ثم ابن حرب فإنهم نصحوا
وهم خيار فأعمل بسنتهم	واحي بخير واكدح كما كدحوا

فتبسم عبدالملك ولم يتكلم، فعلم الناس أن ذلك أمره، انظر أحمد حسن الزيات : تاريخ الأدب العربي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الخامسة، ص٦٥.

٨- الطبري : تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٦٦٦.

٩- الذهبي : تاريخ الإسلام، ج٣، ص٥٣.

١٠- هو مسلمة بن عبدالملك بن مروان وأمه أم ولد، وقد ثار حمله في القسطنطينية في عهد أخيه سليمان بن عبدالملك نهاية الروم، انظر الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٣٦٦.

١١- الذهبي : تاريخ الإسلام، ج٣، ص٥٣؛ السيوطي : تاريخ الخلفاء، ص٢٢٠.

١٢- الذهبي : تاريخ الإسلام، ح٣، ص٤.

١٣- كان للحجاج بن يوسف فضل على دولة بني أمية فهو الذي دعم سلطانهم في بلاد العراق وما لحق به من الولايات وأخضع المعارضين لبني أمية من الشيعة والخوارج والزبيريين، وغيرهم. انظر في ذلك الطبري : تاريخ الملوك، ج٣، ص٢١٠؛ والسيوطي : تاريخ الخلفاء، ص١٦٥؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٣، ص٥١.

١٤- الطبري : تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٦٦٩.

١٥- الطبري : نفس الصفحة.

١٦- يذكر الطبري : إعلان الوليد عن سياسته في خطبة البيعة حيث قال : أيها الناس عليكم بالطاعة ولزوم الجماعة فإن الشيطان مع الفرد، أيها الناس من أبدى لنا ذات نفسه ضربنا الذي فيه عيناه ومن سكت مات بدائه، الطبري: تاريخ الأمم والموك، ج٣، ص٢٦٧؛ البداية والنهاية، مج٥، ج١٠، ص١٨١.

١٧- محمد الخضري : حاضرات في تاريخ الأمم الإلامية، ج١٠، ص٣٦١.

١٨- من أهم قادة الوليد بن عبدالملك في تاريخ الفتح الإسلامي كل من (محمد بن القاسم الثقفي، فاتح الهند ــ وقتيبة بن مسلم الباهلي، فاتح بلاد ما وراء النهر وقاهر الصين ــ وموسى بن نصير، فاتح الأندلس ــ ومسلمة بن عبدالملك، صاحب الفتوح العظيمة في بلاد ما وراء النهر) انظر الطبري: ج٣، ص٦٨١ وما بعدها؛ وكذلك السيوطي : تاريخ الخلفاء، ص١١٧؛

وكذلك الخضري : محاضرات في تاريخ الدولة الأموية، ج١، ص٣٦٢؛ محمد عبدالله عنان : دولة الإسلام في الأندلس، ج١، ص٤١؛ وحسنين محمد ربيع : دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، ص٩٥؛ صفاء حافظ: حملات المسلمين البرية على أرض الروم في آسيا الصغرى في عهد الوليد ابن عبدالملك؛ المؤرخ المصري، العدد التاسع، يوليو ١٩٩٢م، ١٣١.

١٩- الطبري : تاريخ الأمم والملوك، ح٢، ص٥٠٨ وما بعدها؛ السيوطي : تاريخ الخلفاء، ص١٧٤؛ الذهبي : تاريخ الإسلام، ج٣، ص٥١، حسنين محمد ربيع : دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، س٩٣-٩٦؛ وكذلك انظر د. ضيف الله يحيى الزهراني : دار السكة نشأتها وأعمالها وإدارتها، مجلة الدارة السعودية، العدد الثاني، عام ١٤١٥هـ، ص١٠٧.

٢٠- انظر ترجمة الوليد بن الطبري : تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٦٦٩؛ ابن الكثير : البداية والنهاية، ج٥، ص١٨٠؛ وكذلك السيوطي : تاريخ الخلفاء، ص١٧٧.

٢١- يذكر السيوطي : أن الوليد كان لحانا فيقول قرأ الوليد على المنبر يا ليتُها كانت القاضية، وتحت المنبر سليمان بن عبدالملك وعمر بن عبدالعزيز فقال سليمان وددتها والله، السيوطي : تاريخ الخلفاء، ص١٧٨.

٢٢- أخرج أبو نعيم في الحلية، عن ابن شوذب : قال عمر بن عبدالعزيز، وكان الوليد بالشام والحجاج بالعراق، وعثمان بن جبارة بالحجاز، وقرة بن شريك بمصر، امتلأت الأرض والله جورًا، انظر السيوطي : تاريخ الخلفاء، ص١٧٨.

٢٣- المصدر السابق.

٢٤- اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي، ج٣، ص٢٩.

٢٥- السيوطي : تاريخ الخلفاء، ص١٧٨.

٢٦- السيوطي : المصدر السابق، ص٢٢٣؛ ولعل ذلك يرجع إلى رغبته في حفظ هيبة الخلافة في وقت يخشى عليها من تطاول الخصوم.

٢٧- ابن كثير : البداية والنهاية، مج٥، ج١٠، ص١٨١.

٢٨- المصر السابق نفس الجزء والصفحة؛ الطبري : تاريخ الأمم والملوك، ج٤، ص٢٨.

٢٩- الطبري : المصدر السابق، ج٤، ص٢٦.

٣٠- الطبري : المصدر السابق، ج٤، ص٢٩.

٣١- ابن كثير : البداية والنهاية، مج٥، ج١٠، ص١٨١.

٣٢- قال ابراهيم : " رحم الله الوليد وأين مثله بنى مسجد دمشق، وكان يعطيني قطع الفضة، فأقسمها على قراءة بيت المقدس " ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٠، ص١٨١.

٣٣- السيوطي : تاريخ الخلفاء، ص١٧٨؛ ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٠، ص١٨١.

٣٤- انظر ابن كثير : البداية والنهاية، مج٥، ج١١، ص١٨٥.

٣٥- انظر السيوطي : تاريخ الخلفاء، ص١٧٩؛ والبداية والنهاية، ج١٠، ص١٨٧؛ والخضري : محاضرات في تاريخ الدولة الأموية، ص٣٦٨.

٣٦- محمد الطيب النجار، محمد مصطفى النجار : الدولة الأموية والعباسية، مطبعة جامعة الأزهر، ١٩٦٨م، ص١٦٧.

٣٧- محمد عبدالحميد الرفاعي : النظم السياسية والاجتماعية في الإسلام، ط دار الثقافة العربية، القاهرة، ١٤١١هـ/١٩٩١م، ص١٥٢.

٣٨- د. عماد الدين خليل : حول القيادة والسلطة في التاريخ الإسلامي، ط دار الثورة، القاهرة، ١٩٨٥م، ص٤٤.

٣٩- يؤكد ذلك ابن خلدون فيقول : " وكذلك كان مروان بن الحكم وابنه وإن كانوا ملوكًا فلم يكن مذهبهم في الملك مذهب أهل الباطل والبغي، وإنما كانوا متحرين لمقاصد الحق جهدهم إلا في ضرورة تحملهم على بعضها، مثل خشية افتراق كلمة المسلمين، الذي هو أهم لديهم من كل مقصد، يشهد

لذلك ما كانوا عليه من الإتباع والإقتداء، وما علم السلف من أحوالهم ومقاصدهم، انظر المقدمة، ط المكتبة التوفيقية، ص٢٢٨.

٤٠- محمد عبدالحميد الرفاعي : مرجع سابق، ص١٥٢.

٤١- صفاء حافظ عبدالفتاح : حملات المسلمين البرية على أراضي الدولة البيزنطية في عهد الوليد بن عبدالملك، مقالة بمجلة المؤرخ المصري، آداب القاهرة، العدد التاسع، يوليو ١٩٩٢م، ص١٣؛ محمد الخضري : محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية، ج١، ص٣٦١.

٤٢- ابن خلدون : المقدمة، ص٢٤١.

٤٣- محمد عبدالحميد الرفاعي : النظم السياسية والاقتصادية في الإسلام، ص٨٣.

٤٤- ذكر الذهبي وصية عبدالملك للوليد وما جاء فيها : " انظر الحجاج فأكرمه، فإنه هو الذي وطأ لكم المنابر، وهو سيفك يا وليد ويدك على من ناوأك فلا تسمعن فيه قولت أحد وأنت إليه أحو منه إليك .." الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٣، ص٥٤.

٤٥- الطبري : تاريخ الأمم والملوك، ج٤، ص١٩.

٤٦- ذكر المسعودي أن الحجاج دخل على الوليد فنصحه في أمر زوجاته ونسائه قائلا له : " يا أمير المؤمنين دع عنك مفاكهة النساء بزخرف القول فإنما هي ريحانة وليست بقهرمانة فلا تطلعهن على سرك ولا تطعهن في غير أنفسهن ولا تشغلهن بأكثر من زينتهن وإياك ومشاورتهن فإن رأيهم إلى أفن وعزمهن إلى وهن وأكفف عليهن من أبصارهن بحجبك ولا تملك الواحدة منهن من الأمور ما يجاوز نفسها ولا تطمعها أن تشفع عندك لغيرها ولا تطل الجلوس معهن فإن ذلك أوفر لعقلك وأبين لفضلك "، المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر، ط المكتبة العصرية، لبنان، ١٩٨٩م، ج٣، ص١٦٨.

٤٧- ذكر أبو علي القالي كتاب الحجاج إلى الوليد عند وفاته وكان في أخره :

إذا ما لقيت الله عني راضيًا   فإن شفاء النفس فيمـا هنالـك
وحسبي بقاء الله من كل ميتٍ   وحسبي حياة الله من كل هالـك

انظر ذيل الأمالي والنوادر، ط الهيئة المصرية للكتاب، القـاهرة، ١٩٧٦م، ص١٩١. .

٤٨- ابن خلدون : المقدمة، ص٢٩١.

٤٩- ابن طباطا الفخري : في الآداب السلطانية، ص١١٥.

٥٠- الطبري : تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٦٦.

٥١- الماوردي : الأحكام السلطانية، ص٢٨، ٢٩.

٥٢- وتضم قسرين وحمص ودمشق والأردن وفلسطين، وقد خضعت إدارة هذه الولاية للخلفاء الأمويين مباشرة لوجود عاصمة الخلافة في دمشق.

٥٣- الطبري : تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٣٢٤ وما بعدها.

٥٤- هو الحجاج بن يوسف بن الحكم بن أبي عقل بن مسعود الثقفي، ويُكنى بأبي محمد، ولد سنة أربعين أو إحدى وأربعين، روى عن ابن عباس ومسرة بن جندب وأسماء بنت الصديق وابن عمر، وكان له بدمشق أدر (دور) ولـي إمارة الحجاز ثم ولي العراق عشرين سنة وتوفى بها عام ست وتسـعين، الذهبي : تاريخ الإسلام، ج٤، ص١٠٧.

٥٥- المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجـوهر، ج٣، ص١٦١؛ الطبـري : تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٥٤٧.

٥٦- الطبري : المصدر السابق، نفس الصحفة.

٥٧- ونص الخطبة أوردته المصادر، انظـر الطبـري : المصـدر السـابق، ص٤٨خـ، والمسعودي : مروج الذهب، ج٣، ص١٦٤.

٥٨- ذكر الطبري : أن الحجاج تولى إمارة العراق دون حراسـان وسجسـتان، انظر تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٥٤٧.

٥٩- الطبري : المصدر السابق، ج٣، ص١٨٤.

٦٠- ابن كثير : البداية والنهاية : مـج٥، ج١٠، ص١٨٥، الإسكندرية، ج١، ص٣٦٩.

٦١- الخضري : المرجع السابق، نفس الصحفة.

٦٢- هو هشام بن إسماعيل بن الوليد بن المغيرة حمو عبدالملك بن مروان وأميره على المدينة، يُكنى أبو الوليد المخزومي، الذهبي : تاريخ الإسلام، ج٣، ص٨٢.

٦٣- الطبري : المصدر السابق، ج٣، ص٦٤٩.

٦٤- الطبري : المصدر السابق، ص٦٤٩؛ الذهبي : تاريخ الإسلام، ج٣، ص٨٣؛ ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج٤، ص١٠٦.

٦٥- هو عمر بن عبدالعزيز بن مروان بن الحكم ابن أبي العاص ابن أمية، أمير المؤمنين، أبو حفص القرشي، ولد سنة ستين وتوفي سنة ١٠١هـ؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٤، ص٥٩ وما بعدها، وكذلك ابن عبدالحكم، سيرة عمر بن عبدالعزيز، أبو الحسن الندوي، خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبدالعزيز، ط المختار الإسلامية، القاهرة.

٦٦- ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج٤، ص١٠٦.

٦٧- الطبري : تاريخ الأمم والملوك، ج٤، ص٤٥.

٦٨- ذكر ابن الأثير أن عمر حينما خرج من المدينة وجل وقال : " إني أخاف أن أكون من نفتهم المدينة "، ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج٤، ص١٢٩.

٦٩- ابن الأثير : المصدر السابق، ج٤، ص١٣٣.

٧٠- الطبري : المصدر السابق، ج٤، ص٢٢، ٢٣.

٧١- ابن تغري بدري : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط القاهرة، ١٩٥٦م، ج١، ص٢١٠.

٧٢- هو قرة بن شريك بن مرثد بن حرام العبسي القنسويني أمير مصر من قبل الوليد وكان ظالمًا جبارًا، الذهبي : تاريخ الإسلام، ج٣، ص١٧٧.

٧٣- الذهبي : تاريخ الإسلام، ج٣، ص١٧٨.

٧٤- هو أبو عبدالرحمن اللخمي أمير المغرب، كان مولى امرأة من لخم وكـان أعرج وقيل أنه ولد سنة تسع عشرة وتوفى وهو يحج مـع سـليمان بـن عبدالملك، انظر الذهبي : تاريخ الإسلام، ج٤، ص١٩٢.

٧٥- المصدر السابق، نفس الصفحة.

٧٦- الذهبي : تاريخ الإسلام، ج٣، ص١٨٣.

٧٧- ابن كثير : البداية والنهاية، مج٥، ج١٠، ص١٨٣.

٧٨- الطبري : تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٦٧٧؛ محمـد السـيد الوكيـل، الأمويون بين الشرق والغرب، ج١، ص٤١٢.

٧٩- المصدر السابق، نفس الصفحة.

٨٠- الذهبي : تاريخ الإسلام، ج٣، ص١٧٧.

٨١- ابن كثير : البداية والنهاية، مج٥، ج١، ص١٧٥.

٨٢- ول ديورانت : قصة الحضارة، مج٧، ج١٣، ص١٥٧.

٨٣- السيوطي : تاريخ الخلفاء، ص١٠٧.

٨٤- ول ديورانت : قصة الحضارة، مج٧، ج١٣، ص١٥٧.

٨٥- ابن كثير : البداية والنهاية، مج٥، ج١، ص١٦٣.

٨٦- ول ديورانت : المرجع السابق، ص١٥٨.

٨٧- ابن كثير : البداية والنهاية، مج٥، ج١٠، ص١٦٥؛ محمد السيد الوكيـل، الأمويون بين الشرق والغرب، ج١، ص٤١٨، ٤١٩.

٨٨- المصدر السابق، مج٥، ج١٠، ص١٦٨.

٨٩- البداية والنهاية، مج٥، ج١٠، ص١٦٥.

٩٠- يذكر الشيخ الخضري هؤلاء القادة فيقول : " اشتهر في عهد الوليـد بـن عبدالملك أربعة من القادة كان لهم بالغ الأثر في الفتح الإسلامي وهم محمد

بن القاسم بن محمد الثقفي، قتيبة بن مسلم الباهلي، موسى بن نصير، مسلمة ابن عبدالملك بن مروان "، انظر المرجع السابق، ج١، ص٣٦١.

٩١- هو أبو حفص قتيبة بن مسلم بن عمرو بن الحصين بن ربيعة الباهلي، وكان من الشجاعة والحزم والرأي بمكان، انظر الذهبي : تاريخ الإسلام، ج٣، ص١٧٧.

٩٢- ذكر الطبري نص الخطبة وجاء فيها : " إن الله أحلكم هذا المحل ليعز دينه ويذب بكم عن الحرمات ويزيد بكم المال استفاضة والعدو وقعا ووعد نبيه النصر بحديث صادق وكتاب ناطق فقال : [هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ] .."، انظر الطبري: مصدر سابق، ج٣، ص٦٧٠.

٩٣- مرو : وتسمى مرو العظمى وهي أشهر مدن خراسان وقصبتها وبينها وبين نيسابور سبعون فرسخ، الحموي، ج٥، ص١١٢، ١١٣.

٩٤- بلخ : مدينة مشهورة بخراسان وهي أكثر خيرًا وغلة تحمل غلتها إلى خراسان وخوارزم وينسب إليها الكثير من العلماء، الحموي، ج١، ص٤٧٩.

٩٥- طالقان : أكبر مدينة بإقليم طخارستان ولها نهر كبير وبساتين خرج منها جماعة من الفضلاء وبينها وبين مدينة مرو ثلاث مراحل، ياقوت : معجم البلدان، ج٤، ص٦.

٩٦- الصانغيان : من قرى مرو ينسب إليها أبو حمزة الصانغاني الأديب، الحموي، ج٣، ص٣٩٠.

٩٧- شومان : بلد بالصغانيان من وراء نهر جيحون، وتشتهر بالزعفران، ينسب إليها أبو بكر الشوماني، الحموي، ج٣، ص٣٧٣، ٣٧٤.

٩٨- الطبري : المصدر السابق، ج٣، ص٦٧١؛ السيوطي : تاريخ الخلفاء، ص١٧٨.

٩٩- بيكند : بلدة بين بخاري وبيكند وتكثر بها الرباطات وبها سور حصين ومسجد، الحموي، ج١، ص٥٣٣.

١٠٠-رامينية : قرية تقع في بخاري، الحموي، ج٣، ص١٨.

١٠١-الصغد : وهي كورة عجيبة قصبتها سمرقند وتسمى صعد سمرقند، وتعتبر من جنان الدنيا لكثرة أشجارها وأنهارها، الحموي، ج٣، ص٤٠٩.

١٠٢-فرغانة : مدينة وكورة واسعة بما وراء النهر قريبة من تركستان وهي كثيرة الخير وبينها وبين سمرقند خمسون فرسخ، الحموي، ج٤، ص٢٥٣.

١٠٣-الطبري : المصدر السابق، ج٣، ص٦٧٧.

١٠٤-الخضري : مرجع سابق، ج١٠، ص٣٦٥.

١٠٥-الطبري : المصدر السابق، ج٤، ص٩.

١٠٦-الطبري : المصدر السابق، ج٤، ص١١.

١٠٧-خوارزم : وهي مدينة عظيمة في خراسان وعصامتها الجرجانية وتشتهر بشجر التوت وهي كثيرة العمران ومتصلة بمدن أخرى، الحموي، ج٢، ص٣٩٥.

١٠٨-الفيل : هي مدينة في ولاية خوارزم ويطلق عليها الآن كركانج، الحموي، ج٤، ص٢٨٦.

١٠٩-سمرقند : مدينة معروفة ويقال أنها من مدن ذو القرنين وهما قصبة الصغد، الحموي، ج٣، ص٢٤٦، ٢٤٧.

١١٠-بخاري : وهي أعظم مدن ما وراء النهر وهي قاعدة الدولة السامانية وهي كثيرة البساتين واسعة الفاكهة، الحموي، ج١، ص٣٥٣.

١١١-الخضري : المرجع السابق، ج١، ص٣٦٦.

١١٢-الشاش : وهي قرية بمدينة الري، وهي وراء سيحون وجيحون وقريبة من أرض الترك، وقد خرج منها علماء أجلاء، الحموي، ج٣، ص٣٠٨.

١١٣-خخندة : وهي منطقة في ما وراء ا لنهر، وتشتهر بجمالها وكثرة فواكهها وفي وسطنها نهر حاري. الحموي، ج٢، ص٣٤٧.

١١٤-كاشان : هي مدينة تقع في إقليم ما وراء النهر، وهي من المدن العظمى، الحموي، ج٤، ص٤٣٠.

١١٥-الطبري : المصدر السابق، ج٤، ص٢١.

١١٦-المصدر السابق، ج٤، ص٢٦.

١١٧-كاشغر : تقع في وسط بلاد الترك وأهلها مسلمون، الحموي، ج٤، ص٤٣٠.

١١٨-عبدالشافي عبداللطيف : الدولة الإسلامية في العصر الأموي، ط دار الوفاء، القاهرة، ١٩٨٤م، ص٣٦٥.

١١٩-الطبري : تاريخ الأمم والملوك، ج٤، ص٣٢.

١٢٠-هو محمد بن القاسم بن محمد ابن عم الحجاج وأحد الأبطال المعروفين تولى قيادة هذه الحملة وعمره سبعة عشرة سنة ففتح بلاد السند وله وقائع مشهورة، انظر الذهبي: تاريخ الإسلام، ج١، ص١٦.

١٢١-الطبري : تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٦٨١.

١٢٢-عبدالشافي محمد عبداللطيف : العالم الإسلامي في العصر الأموي، دار الوفاء، القاهرة، ط الأولى، ١٩٨٤م، ص٣٥٨.

١٢٣-المرجع السابق، ص٣٥٩.

١٢٤-الديبل : مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند وتفضي بها مياه لهور ومولتان فتصب في البحر، الحموي، ج٢، ص٤٩٥.

١٢٥-المرجع السابق، ص٣٦٠.

١٢٦-بدا : وهو صنم في بناء عظيم تحت منارة عظيمة مرتفعة، ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج٤، ص١١١.

١٢٧-الخضري : المرجع السابق، ص٣٦٣.

١٢٨-عبدالشافي عبداللطيف : الدولة الإسلامية في العهد الأموي، ص٢٦١.

١٢٩-الخضري : المرجع السابق، ص٣٦٤.

١٣٠-مهران : موضع لنهر السند وهو وادي يمتد من الجنوب إلى الغرب حتى يقع أسفل السند ويصب في بحر فارس وهو نهر عظيم تجري فيه السفن، الحموي، ج٥، ص٢٣٢.

١٣١-المرجع السابق، نفس الصفحة.

١٣٢-الرور : مدينة ناحية السند قريبة من المكان وعليها سوران وتقع على نهر مهران، الحموي، ج٣، ص٧٩.

١٣٣-الملتان : هي مدينة من نواحي الهند قرب غزنة هلها مسلمون، الحموي، ج٥، ص١٨٩.

١٣٤-الذهبي : تاريخ الإسلام، ج٣، ص٩٦١.

١٣٥-صفاء حافظ : المرجع السابق، ص٢٢، ٢٣.

١٣٦-الخضري : المرجع السابق، ص٣٦٥.

١٣٧-صفاء حافظ : المرجع السابق، ص٢٤.

١٣٨-حفلت المصادر بالحديث عن فتوحات العباس بن الوليد في أراضي الدولة البيزنطية، انظر على سبيل المثال، الطبري : المرجع السابق، ج٣، ص٦٧٦؛ السيوطي : تاريخ الخلفاء، ص١٧٨.

١٣٩-الذهبي : تاريخ الإسلام، ج٣، ص١٢.

١٤٠-الذهبي : تاريخ الإسلام، ج٣، ص١٣.

141- Barthold : Histoire des Turco d'Asia Centrale.

١٤٢-الطبري : تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٦٧٦.

١٤٣-عمورية : بلد في بلاد الروم فتحها المعتصم سنة ٢٢٣هـ وكانت من أعظم فتوح الإسلام، الحموي، ج٤، ص١٥٨.

١٤٤-الذهبي : المصدر السابق، ج٣، ص١٧.

١٤٥-هرقلة : مدينة في بلاد الروم فتحها الرشيد عنوة بعد حصار شديد ورماها بالنار، الحموي، ج٥، ص٣٩٨.

١٤٦-ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج٤، ص١١٠؛ ويذكر في الطبري قمودية؛ صفاء حافظ، المرجع السابق، ص٣٣.

١٤٧-المرجع السابق، ص٣٥.

١٤٨-الذهبي : تاريخ الإسلام، ج٣، ص٩٨.

١٤٩-الطبري : المصدر السابق، ج٤، ص٢.

١٥٠-سعيد عبدالفتاح عاشور : أوربا في العصور الوسط، ط الأنجلو، القاهرة، ١٩٩١م، ج١، ص١٤٩؛ حسنين محمد ربيع، مرجع سابق، ص٨٦؛ Muir : W.T: The Caliphate its rise declire and Fall, p.37.

١٥١-تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٦٤٧.

١٥٢-محمد عبدالله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ج١، ص٢٣.

١٥٣-المرجع السابق، ص٢٤.

١٥٤-السيوطي : تاريخ الخلفاء، ص١٧٨؛ ابن الأثير : الكامل، ج٤، ص١٢٥.

١٥٥-محمد عبدالله عنان : المرجع السابق، ص٢٥.

١٥٦-المرجع السابق، ص٢٦، ٢٧.

١٥٧-ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج٤، ص٥٦٢؛ محمد عبدالله عنان : مرجع سابق، ج١، ص٤١.

١٥٨-المرجع السابق، ج١، ص٤٢.

١٥٩-ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج٤، ص١٢٦.

١٦٠-محمد عبدالله عنان، المرجع السابق، ج١، ص٥٧، ٥٨.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر :

١- **ابن الأثير : عزالدين أبي الحسن بن أبي الكرم (ت ٦٣٠هـ)** : الكامل في التاريخ، دار بيروت للطباعة، ١٩٨١م.

٢- **الأزرقي : محمد بن عبدالله بن أحمد الأزرقي** : أخبار مكة وما جاء في من الآثار، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٩م.

٣- **ابن أعثم : أبو محمد أحمد بن أعثم الكوفي** : كتاب الفتوح، مطبعة دار الندوة.

٤- **البلاذري : أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ/٧٩٢م)** : فتوح البلدان، القاهرة، ١٩٣٢م.

٥- **ابن تغري بردي : أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي (ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م)** : النجوم الزاهرة في لمول مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية.

٦- **الحموي : شهاب الدين أبي عبدالله ياقوت** : معجم البلدان، بيروت، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

٧- **ابن خلدون : عبدالرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م)** : العبر وديوان المبتدأ والخبر، المكتبة التوفيقية بالقاهرة.

٨- **ابن خلكان** : شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن أبي بكر (ت٦٨١هـ/١٢٧١م) : وفيات الأعيان، بولاق، ١٩٦١م.

٩- **الدينوري : أبو حنيفة أحمد داود الدينوري** : الأخبـــار الطـــوال، وزارة الثقافة، مصر، ١٩٨١م.

١٠- **الذهبي : الإمام شمس الدين الذهبي** : تاريخ الإسلام ووفيات المشـــاهير والأعلام، القاهرة، ١٩٩٧م.

١١- **السيوطي : عبدالرحمن بن أبي بكر جلال الدين (ت٩١١هـ/١٥٠٥م)** : تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمـــة، القـــاهرة، ١٣٥١هـ.

١٢- **القالي : أبو علي القالي** : ذيل الأمالي والنوادر، طبعة الهيئة المصـــرية العامة للكتاب، ١٩٧٦م.

١٣- **الكتبي : محمد بن شاكر الكتبي** : فوات الوفيات، دار الثقافة، بيروت.

١٤- ابن كثير : **الإمام الحافظ عماد الدين أبو الفداء إســماعيل بـــن كثيـــر** : البداية والنهاية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٣٧م.

١٥- **الكندي** : كتاب الولاة والقضاء.

١٦- **المسعودي : أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت٣٤٦هـ/٩٥٦م).**

١٧- **أبو نعيم** : حيلة الأوليات وطبقات الأصفياء، القاهرة، ١٣٥٤هـ.

١٨- **اليعقوبي : أحمد بـــن يعقـــوب بـــن جعفـــر بـــن دهـــب بـــن واضـــح (ت٢٨٢هـ/٨٩٥م)** : تاريخ اليعقوبي، بيروت، ١٩٨٣م.

ثانيًا : المراجع :

١- **أبو الحسن الندوي** : عمر بن عبدالعزيز خامس الخلفاء الراشدين، القاهرة، ١٩٨٩م.

٢- **حسن إبراهيم حسن** : تاريخ الإسلام السياسي، ط بيروت، ١٩٩٦م.

٣- **حسنين محمد ربيع** : دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، القاهرة، ١٩٩٢م.

٤- **سعيد عبدالفتاح عاشور** : أوربا في العصور الوسطى، ط الأنجلو المصرية، ١٩٩١م.

٥- **صفاء حافظ عبدالفتاح** : حملات المسلمين البرية على أراضي الدولة البيزنطية؛ مقال بمجلة المؤرخ المصري، القاهرة، العدد ٩ يوليه ١٩٩٢م.

٦- **ضيف الله يحيى الزهراني** : دار السكة نشأتها وأعمالها وإدارتها، مجلة الدارة، العدد ٢ عام ١٤١٥هـ.

٧- **عبدالشافي عبداللطيف** : الدولة الإسلامية في العصر الأموي، ط.د. الوفاء، القاهرة، ١٩٨٤م.

٨- **علي إبراهيم حسن** : الموجز العام للتاريخ الإسلامي، النهضة العربية، ١٩٨٨م.

٩- **عماد الدين خليل** : حول القيادة والسلطة في التاريخ الإسلامي، القاهرة، ١٩٨٥م.

١٠- محمد عبدالحميد الرفاعي : النظم السياسية والاجتماعية في الإسلام، دار الثقافة العربية، القاهرة، ١٤١١هـ.

١١- محمد الطيب النجار : الدولة الأموية، ط جامعة الأزهر، ١٩٦٨م.

١٢- محمد عبدالله عنان : دولة الإسلام في الأندلس، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠١م.

١٣- محمد السيد الوكيل : الأمويون بين الشرق والغرب، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.

١٤- مصطفى نجيب بك : حماة الإسلام، ط وزارة المعارف، القاهرة، ١٩٥٣.

١٥- ول ديوارنت : الحضارة، ترجمة محمد عبدالهادي أبو ريدة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠١م.

ثالثًا : المراجع الأجنبية :

1- Barthold A.: Histoire des Turco Centhale Brill, 1986.
2- Muir : W.T: The Caliphate its rise decline and Fall, London, 1915.

مدينة طبنة من ظهور الفاطميين

حتى حركة سبيبه

د. إلهام حسين دحروج

باحثة في التاريخ الإسلامي

تمهيد :

كنت بصدد نشر بحث لى فى مجلة المؤرخ المصرى "مدينة طبنة من قبل الفتح الإسلامى حتى معركة سبيبه ٤٥٧هـ - ١٠٧٩م" وتفضلت د. ليلى عبد الجواد رئيسة قسم التاريخ بكلية الآداب جامعة القاهرة مشكورة بإعطائى عدد يناير ٢٠٠٣ من مجلة التاريخ والمستقبل التى يصدرها قسم التاريخ بكلية الآداب جامعة المنيا حيث قرأت بحثا بعنوان "طبنة قاعدة الزاب المغربى ١٤٤- ٢٣٩هـ - ٧٦١-٩٠٦م" من إعداد د. صلاح عيد خليفة مدرس بقسم التاريخ بكلية الآداب جامعة المنيا.والحقيقة أن إنجاز بحيث عن هذه المدينة المندثرة يدل على مدى المجهود المبذول فيه والذى يستحق كل شكر وتقدير. ود. صلاح عيد قد اختار حقبة تاريخية غاية فى الأهمية ولدى بعض إضافات فى الحقبة اللاحقة لهذا البحث القيم فقد اتضح بعد دراسة متعمقة أن مدينة طبنة كانت مركزا ثقافيا ممتازا فقد خرج منها علماء وفقهاء منهم من هاجر للأندلس وأحتل مراكز هامة فيها ومنهم من هاجر إلى إفريقية أو إلى مصر واستقر بها أو إلى المشرق ليدرس العلم. إلى جانب دورها التاريخى فى عهد بنى زيرى وغير ذلك مما سيتضح فى بحثى الذى تغير عنوانه إلى: "مدينة طبنة من ظهور الفاطميين حتى معركة سبيبه ٤٥٨هـ ١٠٧٩م".

مقدمة :

إن مدينة طبنة من مدن إفريقية الأولية التى عايشت الإنسان منذ القدم بأفراحه وآلامه.

فقد أدت دوراً فعالاً فى مجريات الحوادث التاريخية عبر فتـرات التـاريخ المختلفة، إذ كانت إحدى الحصون الرئيسية فى بلاد المغرب الأوسط وبالأخص فى منطقة الزاب على شط الحضنة Hodna وهى تتميز بأرضها الخصبة وكثرة المياه والزروع كما وصفها ابن حوقل، ويرويها نهر القيروان وسجلماسة. وقد سهل لهـا موقعها الحيوى الاتصال بالمدن الكبيرة المختلفة سواء فـى إفريقيـا أو المغـرب الأقصى فهى كانت مركزاً تجارياً متميز فنشأ بينها وبين باقى أقطار شمال إفريقـا والسودان وغانة وغيرها أنواع من التبادل التجارى المباشر وغير المباشر. كـذلك كانت طبنة مركزاً صناعياً هاماً وقد كانت الأقاليم المجاورة لهـا تسـتورد منهـا الصناعات المختلفة وتستورد منها العمال المهرة فى البناء كذلك مواد البناء. كانت طبنة مركزاً اقتصادياً وصناعياً إلى جانب موقعها الإستراتيجى كحصن عسـكرى لمراقبة المناطق حولها وكخط هجوم ودفاع إلى جانب أنه كان لها تاريخاً وثقافـة متميزة فقد امتازت بعلمائها فى مجالات متعددة كالفقه والأدب والشعر ومنهم مـن رحل إلى الأندلس ومنهم من رحل إلى الشرق لينهل من علوم الحـديث والفقـه و القراءات ثم رجع لينشر علمه فى الأندلس.

لقد تضاءل نجم طبنة شيئاً فشيئاً بعد معركة سبيبه بين القبائل العربية الهلالية ودولة بنى حماد إذ سيطر العرب على منطقة الدولة الحمادية وما حولهـا بعـد أن دمروها وأرغموا بنى حماد على اختيار بجاية كعاصمة ثانية لهم وكان ذلك فى عام ٤٥٧هـ ١٠٨١م فلا نجد لها ذكرا كثيراً فالإدريسى وهو من رجال القرن السادس من الهجرة الثانى عشر من الميلاد، يصفها بأنها بلدة حسنة لكن بعد هذا التاريخ لم يرد لها أى ذكر فى أى مصدر إلا فى كتاب "المن بالإمامة" لعبد الملك بن صاحب الصلاة المتوفى ٥٩٤هـ ١١٩٨م(*). مجرد ذكر فى الهامش للمحقق عن أن الزاب وعاصمته طبنة لم يرد أنها قد انطمثت فى هذا التاريخ، ولا يتضح أى دور لها منذ ذلك لحين لكننا نقرأ عن "المسيلة" وهى المدينة التى بناها الفاطميون فى غرب طبنة

وعلى أرضها وكذلك بلدة صغيرة مازالت إلى اليوم "وهى بريكة" وهى أيضا جزء من طبنة. فقد أصبحت طبنة أطلالاً وتاريخا مطمورا تحت التراب، ويعرف تاريخ طبنة بالنسبة لنا من خلال بعض الروايات والنصوص التاريخية لمدينة الزاب، ومن خلال دراسة حفريات تلك المدينة والنتائج التى سيتوصل إليها العلماء نستطيع أن نعرف الدور الذى لعبته مدينة طبنة آنذاك فتلك محاولة لتجسيد حضارة طبنة وإخراجها من الروايات إلى الحقائق الملموسة، فأطلال مدينة طبنة الأثرية تمثل مراحل تاريخية مختلفة فهذه الأطلال الأثرية سواء من خلال التنقيب أو الصور تمثل عصر ما قبل التاريخ والعصر الرومانى والبيزنطى والعصر الإسلامى الذى يمثل عصر ما قبل التاريخ والعصر الرومانى والبيزنطى والعصر الإسلامى الذى يمثل عصر الازدهار لهذه المدينة الإسلامية وهذه الأطلال المتناثرة هنا وهناك هى الوثائق الحضارية المادية التى يجب الاهتمام بكل ظاهرة حضارية فيها توجد فمثلا هناك الشقف الفخارية التى عثر عليها مبعثرة وهذه دليل واضح على أن هذه المدينة كانت إحدى المراكز الصناعية الإسلامية الكبرى فى منطقة المغرب الأوسط إضافة إلى هذا فإن هذه الفخاريات التى عثر عليها تمثل أساليب مختلفة لمدرسة طبنة الفنية فى العصر الإسلامى.

لقد دقق المنقبون فيها فوجدوا أنها عبارة عن بقايا لأوانى فخارية مثل السلطانيات أو أطباق أو أكواب وهى تمثل أحد علامات هذه الصناعة أما فى مجال الفخاريات ومختلف مجالات الصناعات الأخرى ؛ كصناعة البناء فقد وجدت آثار كثيرة لبنايات عديدة وآبار كثيرة بها قنوات قد تكون صهاريج لجمع الماء وتوزيعه وهى مختلفة من حيث مادة البناء وطريقة الإنجاز، وهنا يأتى دور المختصين فى الآثار فى التعرف على هذه البنايات والتعرف على خصائص كل بناية منها والمهام التى بنيت من أجلها وقبل أن تندثر أو تزول فقد زال فعلا الكثير منها أما عن طريق التكسير أو الدفن تحت التراب. وهناك باب لطبنة نقل إلى جامع عقبة أثناء حصار المعز بن باديس عند محاصرته لقلعة بنى حماد لقلعة بنى حماد سنتين كاملتين ثم أثنائهما نقل باب من أبوابها إلى جامع عقبة ووجد أن طرازه إسلامى[١] عليه مسحة بيزنطية. وهناك صورة جوية التقطتها بعثة كابتن بارادايز Paradiz[٢] كشفت عن تقسيمات شتى وقديمة جداً. ثم كشفت هذه الصور عن أهمية طبنة كنقطة

مراقبة لكل المنطقة من حولها إلى جانب أهميتها العسكرية توجد الأهمية الزراعية والصناعية المذكورة. ولا يبقى لنا إلا أن نقول أننا لا نبحث عن تاريخ طبنة لكننا نستطيع أن نقول أن التاريخ يبحث عن مدينة طبنة.

الوضع السياسي :

فى عهد أبى العباس عبد الله إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب ٢٨٩-٢٩٠هـ/ ٩٢٠-٩٠٣م، بدأت قوات أبى عبد الله الشيعى تنتشر فى بلاد الزاب وحول طبنة واستطاع أن يستولى على بعض مدن الزاب مثل "ميلة" وفى تلك الأثناء كانت دولة الأغالبة تعانى من سكرات نهايتها وهذا لم يمنع محاولة الحرب على أبى عبد الله الشيعى بعد تغلبه على مدينة "بلزمة" لكنها كانت محاولات بدون نتيجة إذا استفحل أمر الدعوة وقدوم الفاطميين بعد ذلك ، ولقد توطد نفوذ أبى عبد الله الشيعى بعد تغلبه على مدينة "بلزمة" ثم على قاعدة الزاب وهى طبنة التى دخلها بالأمان فى آخر ذى الحجة ٢٩٣هـ- ٩٠٦م[٣] ولما كان بطبنة وإليها أبو المقارع الحسن بن أحد حاجب الأمير الأغلبى[٤] فى ذلك الوقت يعنى أن أهل البسالة والنجدة لم يعنوا شيئاً وهذا ما جعل الكتّاب اعتبار القضاء على العرب القيسية فى بلزمة، الذين يذلّون كتامة، أثناء عهد الأمير الأغلبى إبراهيم بن أحمد أول مقدمات الخلل الذى أدى إلى نهاية الدولة الأغلبية وإلى جانب الحروب التى أدت إلى نهاية الدولة الأغلبية ومحاولاتها اليائسة لاستعادة طبنة والزاب فى حوزتها[٥].

كانت هناك حرب تسير متوازية مع الفاطميين تلك الحروب ألا وهى حرب الدعاية للمذهب الشيعى فى كل المغرب ويبدو أن عبد الله الشيعى قد اكتسب القلوب فى بلدان إقليم الزاب بفضل دعايته الذكية مما يتعلق بالدعوة إلى الرجوع بالإسلام إلى نقائه الأول على عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم)، ويدل على ذلك أنه بعد أن استقر فى طبنة يرفض أموال الجباية، العشور التى تقدم له حسب النظام الضرائبى الأغلبى، ويقول فى ذلك "إنما العشر حبوب وهذا عينى" ويأمر برد إلى كل رجل ما أخذ فيه، وقال لا إن سنة العشور معروفة كما قال على مال الخراج هذا مال لا خير فيه ولا قبالة، ولا خراج على المسلمين فى أموالهم ثم يأمر ثقات أهل طبنة برده على أهله وبذلك أصبح[٦] أهل طبنة مسرورين ورجوا أن يستعمل

فيهم الكتاب والسنة ومن هذا المنطلق إنتشرت أفعاله هذه فى جميع الأنحاء فتاقت نفوس الناس فى إفريقية وكاتبوه ودخلوا فى طاعته.

ويتضح دور طبنة التى لم تكن قاعدة الزاب فقط بل قاعدة لبث الدعوة الشيعية فى البلاد الإفريقية، وكذلك القاعدة العسكرية للفاطميين، لأن أبا عبد الله الشيعى لما دخلها كان معه عسكر كثير قد أحاط بطبنة من كل الجهات فحوصر من فيها وأولهم وإليها حسن بن أحمد بن نافذ المعروف بأبي المقارع وشيب بن شداد قائد الخيول لها وغيرهم "زحف إليهم الأوليا من كل جانب فنقبوا برجاء من بروج السور فسقط ودخل جميع الأولياء منه[٧]. ففز عسكر طبنة ودخلوا حصناً قديماً مبنياً بالحجارة فى داخل المدينة واستولى الأوليا على المدينة وما فيها والغالب منهم تجاراً فأمنهم أبو عبد الله[٨] ثم توالت البلاد التى سقطت بين أيدى الشيعة مثل "بلزمة" "ودار ملول" وهى على بعد مرحلة من طبنة وبها حصن متين قديم يقوم لحماية المنطقة ككل[٩]. عين أبو عبد الله الشيعى عاملاً له على طبنة هو يحيى بن سليمان[١٠] إن فتح طبنة المحصنة بأيدى أبا عبد الله الشيعى أو بمعنى آخر أصبح سقوطها فى أيدى الشيعة مؤكداً عام ٢٩٣هـ/٩٠٥م، مما سمح للشيعى أن يتحكم فى منطقة حصينة وهامة استراتيجياً واقتصاديا وهى ما حول طبنة وبلاد الزاب فى تخوم المملكة، ومهدت لسقوط رقادة حاضرة الدولة الأغلبية التى سقطت بعد سقوط طبنة بثلاث سنوات[١١].

اعتلى الفاطميون عرش إفريقية لعشرات السنين وامتد نفوذهم وقوى بعد أن انقضت على الدويلات القائمة حينئذ وكانت متزامنة مع الدولة الأغلبية مثل دولة بنى رستم فى تاهرت وبنى مدرار فى سجلماسة، وهكذا نجح الفاطميون الشيعة فى الوصول إلى عرش الخلافة بعد هذا الجهاد الطويل الذى كان أوله فى الكتمان ثم أصبح فى العلن عن طريق الحرب[١٢] وفى ربيع الأخر من عام ٢٩٧هـ- ٩١٠م أعتلى عرش الخلافة الفاطمية خليفتها الأول عبد الله المهدى الذى بنى حاضرة جديدة وهى "المهدية" بدلاً من القيراوان كى تكون حصناً منيعاً له ولأسرته آل الفاطميين وكذلك خاصتهم وحاشيتهم والمهدية كانت أول أهداف الفاطميين فى المغرب وكان بناؤها عام ٣٠٥هـ ٩١٧م بعد تولى عبيد الله الخلافة بثمانى

سنوات[١٣]. وقد تزامن قيام الدولة الفاطمية الشيعية مع بداية انتشار المذهب الشيعي إلى جانب بداية ضعف الدولة العباسية التى تجزأت أملاكها الشاسعة وتحولت إلى دويلات مستقلة على سبيل المثال بالنسبة للمغرب: الدولة الأغلبية التى قضى عليها الفاطميون رغم مقاومتها التى كنت أضعف من إمكانيات الدعاة الشيعة العسكرية والسياسية؛ والدعاية لمذهبهم الشيعي. "المذهب الشيعى" أو "التشيع" لفظ فى اللغة أصلها من المشايعة وهى المتابعة والمطاوعة، والشيعة هم فرقة من الأفراد تابعوا علياً وأهل بيته حتى صار هذا اللفظ خاصاً بهم[١٤].

تحولت الشيعة بعد ذلك إلى فرق كل واحدة منها تدعو إلى إمام بعينه وأبرزها الإسماعيلية التى كتب لها الانتصار فى المغرب[١٥]، فقد كانت بلدان المغرب بعيدة عن بغداد مركز الخلافة العباسية ويسكنها قبائل بربر متمردة دائماً بدليل أن فتح المغرب استغرق عشرات السنين. لكن بعد إسلام البربر أصبحوا مجاهدين إلى جانب العرب لكن الخلافة الأموية فى عصر الولاة أساءت إليهم بالتفرقة بينهم وبين العرب ، ومنذ ذلك الحين أصبح المغرب ملجأ للخارجين على الخلافة فى المشرق فأصبح فيه الخوارج الأباضية والصفرية. كذلك أتى إلى المغرب الأدارسة العلويون الذين ساعدهم بعض قبائل البربر مثل قبيلة زناته وكان الأدارسة سنيين، كما كانت قبائل أخرى مثل قبيلة كتامة منحازة ومتضامنة مع الشيعيين[١٦].

كل ذلك إلى جانب أن الناس فى المغرب اعتنقوا المذهب المالكى الذى انتشر بإفريقيه والمغرب والأندلس إثر التقاء الناس بالإمام مالك وبشيوخه ومن مثله وتلاميذه من بعده أثناء الحج، كما نهلوا العلم من المدينة المنورة أيدى علمائها وفى رأى ابن خلدون أن البداوة كانت غالبة على أهل المغرب والأندلس ولم يكونوا يعانون الحضارة التى لأهل العراق، وكانوا إلى أهل الحجاز أميل لمناسبة البداوة ولهذا لم يزل المذهب المالكى غضاً عندهم ولم تأخذه تنقح الحضارة كما وقع فى غيره من المذاهب[١٧].

ومما زاد من إعجاب الناس فى المغرب بالمالكية القدوة الحسنة من أمثال البهلول بن راشد وسحنون بن سعيد جبر ناصبت قبيلة زناتة العداء للدولة

الفاطمية[١٨] وقد استقرت الكثير من بطون زناتة فى المغرب الأوسط بجبال الأوراس ومنطقة الزاب وحول طبنة وحتى لقد سمى مغرب زناتة. بدأ هذا العداء حينما انتهك أبو عبد الله الشيعى حرمة أراضيها وأرسل أربعة عشر رجلا من كتامة برسالة إلى الإمام القاضى عبيد الله وهو موجود بسجلماسة فاجتاز ذلك الوفد مضارب زناتة وهو فى طريقه إلى سجلماسة وعلم بذلك محمد بن خزر أمير مغراوة الزناتية وصاحب السلطة الفعلية فى تلك الناحية من افريقيه حتى تلمسان فأرسل قوة من فرسانه: انتظروا الوفد الشيعى فى طريق عودته فى منطقة الزاب[١٩] وقرب مدينة طبنة، هاجم فرسان زناتة رجال كتامة وقتلوهم عن أخرهم بحثا عن الرسالة التى يحملونها من الإمام الإسماعيلى إلى داعيته أبى عبد الله الشيعى، ولكنهم لم يعثروا عليها، وتحمل أحد رجال كتامة على نفسه، وهو جريح وأوصل الرسالة إلى عامل طبنة من قبل الداعى أبى عبد الله- فترك العامل طبنة وأسرع إلى لقاء أبى عبد الله الذى كان فى باغاية وقتذاك وسر فى نفسه على أن زناتة لم تطلع على الرسالة. وعزم بعد رجوعه على تأديبها والانتقام من زعيمها محمد بن خرز الزناتى[٢٠]. وصار هناك صراعات وانتقامات بين الشيعة وزناتة وقضى الفاطميون السنوات الأولى من حكمهم فى صراع مرير مع قبيلة زناتة التى أبت الخضوع لهم وكانت دائمة الثورة عليهم وكان عبد الله الشيعى قد أعد جيشا كبيرا للتقدم به نحو سجلماسة ليحضر الخليفة عبيد الله الذي سجنه اليسع بن مدرار -لتنصيبه خليفة فخرج الشيعي علي تاهرت حاضرة المملكة الرستمية فى نفس الوقت قاعدة هامة من قواعد قبيلة زناتة وأعلن الأمان لأهلها وأثمنها ليدخلها وهو يضمر الغدر لهم، فما إن تمكن منها حتى غدر بأهل بيت الرستمين وأميرهم وقتلهم وعلق رؤوسهم على باب رقادة-الحاضرة المؤقتة قبل بناء المهدية للفاطميين - كذلك أحرق دواوينهم ثم ولي لي تاهرت أبا حميداش بن صولات اللهيعى وهو أحد أتباع الفاطميين الأوفياء[٢١].

ولقد أقلقت زناتة راحة الفاطميين فما أن ينتهوا من حرب معها فى مكان ما فى المغرب الأوسط حتى تثور بطون أخرى منها فى مكان آخر أمن يحتمى له لذا كان بناء المهدية بتحصيناتها القوية- أما فى المغرب الأوسط فظلت فيه القلاقل التى تشنها قبائل زناته[٢٢] فقد كان الزعيم الزناتى محمد بن خزر يدرك أهمية تاهرت

بالنسبة للقبائل الزناتية لذ لم تكف محاولاته لتخليصها من أيدى الفاطميين وزحف عليها بجيشه سنة ٣١٤هـ ٩٢٦م وحاصر المدينة لما امتنعت عليه. وأما الخليفة الفاطمى فقد أرسل جيشاً جراراً يقوده أحد زعماء قبيلة كتامة وصل إلى مدينة طبنة التى عليها أحد أتباع الفاطميين آنذاك ليكونوا فى مواجهة جيش بن خزر الذى ما أن رأى استعداد الجيش فى طبنة- انسحب إلى الصحراء وأبقى أخاه عبد الله على رأس جيش على مقربة من طبنة فى وادى مطماطة وتلك خطة فيها كمين للجيش الفاطمى كعادة زناتة فى حروبها وهى إيقاع الجيش الفاطمى بين جيش محمد ابن خزر وبين جيش أخاه عبد الله بن خزر أو استدراجهم نحو الصحراء لكن الجيش الفاطمى فضل حرب جيش عبد الله وانتصرت فيها زناته بعد انضمام قبائل لماية لها. وقتل الكثير من قواد كتامة وبذلك خرجت طبنة والزاب من أيدى الفاطميين وأصبحت تحت حكم الزناتيين[٢٣].

لم يكن خروج الزاب من قبضة الفاطميين بالحدث الذى يتجاوز عنه الخليفة الفاطمى فمنطقة الزاب لها أهمية تجارية كبرى فهى معبر للتجارة مع السودان وباقى إفريقيا فضلاً عن أهميتها الإستراتيجية- استعد الجيش الفاطمى الذى أعده الخليفة عبد الله وعهد بقيادته إلى ولى عهد أبى القاسم- وخرج لمحاربة زناته بقيادة محمد بن خزر، لاستعادة منطقة الزاب وكان خروجه فى عام ٣١٥هـ ٩٢٧م[٢٤]. وفى طريقه سار إلى مضارب كتامة ليتزود بأعداد كثيرة منهم فى جيشه وتقدم إلى مواطن بنى برزا الزناتيين فى منطقة الزاب (هذه المنطقة فى غرب طبنة وهى التى بنيت عليها المسيلة) وأخضعهم ثم واصل هذا الجيش المسيرة لإخضاع منطقة الزاب كلها. وأقام بها شهرين متحفزاً لزناتة وزعيمها محمد خزر الذى انسحب بجيشه إلى الصحراء عندئذ وجد أبو القاسم أنه لا فائدة ولا عنده المقدرة على المغامرات فى الصحراء- فرجع إلى المهدية دون مواجهة محمد بن خزر وهنا نجدنا أمام تفكير أخر للفاطميين هو إنشاء قاعدة فاطمية دائمة وعلى مقربة من طبنة تكون حاجزاً لصد هجمات زناتة المفاجئة وفى نفس الوقت حصن مراقبة للزاب ونقطة هجوم سريعة على زناتة فى منطقة الزاب، كذلك قرر أبو القاسم بناء مدينة المحمدية التى أصبحت المسيلة فيما بعد فاختار أحد أتباعه المخلصين ليتولى عملية البناء. وهو على جعفر بن على الأندلسى[٢٥].

ولم يكن بناء مدينة المسيلة قضية بناء أو معمار بقدر ما كانت قضية مذهبية فنحن لا نجد تفاصيل دقيقة عن أسلوب بنائها أو طابعها المعمارى لكنهـا بالتأكيـد كانت تخدم الهدف الذى أنشأت من أجله هو فى الحقيقة هدفان: التجارة مـع مـن حولها وكنقطة مراقبة وخط دفاع أى التحصينات المنيعـة والمخـازن التجاريـة ومخازن لتخزين تموين الجيوش. فالمسيلة إذن تمثل فترة تاريخية لضمان نجـاح وهيمنة المذهب الشيعى فى المغرب الأوسط وقاعدة اقتصادية فـى نفـس الوقـت ونقطة اتصال بالحضارة الفاطمية مباشرة. كانت المحمدية خطـة لبنـى كمـلان "فأخرجهم منها إلى فحص القيروان كالمتوقع منهم أمرا، لذلك أحب أن يكونوا قريبا منه، وهم كانوا أصحاب بنى يزيد الخارجى[٢٦] أمر أبو القاسم أو الخليفة القائم فيما بعد على بن حمدون بالقيام على بناء المحمدية وأن تتخذها دارا وينزلها مع قبيلـة عجيسة وجماعة من العبيد وهى أرض فيها مياه جارية وفحوص كثيـرة واسـعة الزرع[٢٧] وبنيت فيها قصور كثيرة للوالى وأسرته ومن المؤكـد أن أحـدها كـان مخصصا لنزول ولى العهد أو الخليفة. لقد بدأ نجم طبنة يتضاءل فيما بعد قليلا قليلا ولكن بعد زمن من بناء المسيلة التى أعدت للحاميـات الفاطميـة مكانـا لمراقبـة الأوراس وقبائل زناتة، مثلما أعدت من قبل فى طبنة وقد ظهر هذا جليا إبان فتنـة أبى مزيد مخلد بن كبداد الخارجى وحروبه الطاحنة[٢٨] مع الخلافة الفاطمية التـى كادت أن تطيح بهذه الخلافة الفتية وقتها فقد عمت الفتنة وصارت الحـروب فـى بلدان كثيرة شملت أنحاء بلاد المغرب وشغلت هذه الثورة الطاحنة عصر "القـائم" كله وهو أبو القاسم ولى عهد أبى عبد الله، ثم عامين من عهد ابنه أبـى العباسـى إسماعيل المنصور ٣٣٤-١٣٤١هـ/٩٥٣-٩٦٤م[٢٩].

وكان لهذه الثورة مراحل متعددة استنزفت قوى الجيوش المغربيـة وأنهكـت الدولة الفاطمية وبخاصة إذا عرفنا مواكبة عدة ثورات لها فى جميع الأنحاء مثـل ثورة طالوت ابن القرشى الذى جمع جوله الكثير من البربر وأهمهم أنه ابن الشيعى وزحف بهم إلى مدينة طرابلس ولكنه لم ينجح فى أن يتولاها إذا قام أهلها مع الجند بالمقاومة والتصدى له حتى قتلوه[٣٠]، وبعثوا برأسه إلى الخليفة القائم إلى جانـب تلك الثورات وقد تزامن ذلك مع الأوبئة والمجاعات والغلاء فى الـبلاد[٣١]. ولـو تساءلا عن وضع طبنة فى هذا كله فإنه كما ذكرنا سابقا أن الحاميـات الفاطميـة

المتمركزة في حصون طبنة والمسيلة كانت مكلفة بمراقبة القبائل الأوراسية ومنعها من أى تقدم لكن القادة من الخوارج المقيمين فى معاقلهم بجبل الأوراس حرصوا على الإفلات من السلطة الفاطمية وقد مكنوا طوال عشر سنوات من حشد أعداد كثيرة من الإتباع والتأهب ضد ثورتهم العظيمة[٣٢].

وقد اندلعت ثورة أبى يزيد فى أواخر جمادى الأولى ٣٢٢هـ أواخر يناير ٩٤٤م بتنظيم غارات على مدينة "بغاية" فصدرت تعليمات فاطمية إلى عامل طبنة آنذاك "لبون بن تصولا" لنجدة بغاية وحاول ابن تصولا إدخال الرعب فى قلوب رؤساء القبائل الأوراسية لحثهم على تسليم المتمرد أبى يزيد المتمتع برعايتهم لكن ابن مصولا كاد يسقط فى براثنهم[٣٣] فى كمين نصبه له الثائرون فى قلب الجبل فلم يجد وسيلة للخلاص غير التحصن فى باغايا التى جدد أبو يزيد من هجومه عليها. ونلاحظ أن طبنة والمسيلة كانت طوال فتنة وثورة الخارجى[٣٤] أبى يزيد نقطتا تعبئة عسكرية وإنطلاقة لمهاجمة هذا العدو إلى أن تحقق النصر عليه بعد جهد جهيد وفى أثناء مراحل القتال الأخير إنضمت للفاطميين قبيلة صنهاجة وعلى رأسهم زيرى بن مناد[٣٥] وكذلك قبيلة زناتة برياسة محمد بن خزر وقد تم القضاء على أبى يزيد فى قلعة شاكر فى جبل المعاضيد القريب إلى حد ما بين طبنة والمسيلة حصناً للفاطميين آنذاك[٣٦] لكن طبنة لم تهنأ بهذا النصر إذ ما لبث أن حاول الفضل بن أبى يزيد الخارجى الثأر لأبيه فى الإستيلاء على هذه المدينة، وساعده فى ذلك معبد بن خزر الزناتى، ثم مناوشة الجيش الفاطمى فى ناحية المسيلة، تمكن من حشد الكثير من الأنصار فى جبل الأوراس والزاب ثم إلى سائر الأنحاء فى الزاب إلى قفصة حتى أصبحت هذه المدينة مهددة أيضاً.

لم يمض حينئذ سوى أقل من شهر على عودة الخليفة المنصور إلى إفريقيا حتى رجع إلى ساحة القتال ومعه ابنه وولى عهده (الذى سيسمى فيما بعد بالمعز لدين الله) رحل من المنصورية التى كان قد أتم بناءها تيمناً بنصره على أبى يزيد وبعد مناوشات سددت إلى قوات الفضل الضربة القاضية أثناء تحصنه بحصن ماواس الذى سقط فى أيدى جيش الفاطميين بقيادة الخليفة المنصور وابنه وولى عهده[٣٧] وأرسلت كتائب الجيش من طبنة والمسيلة وكذلك أرسلت رسائل النصر

وهذا الفتح المبين أبى عامل القيروان لينشرها على الملأ كذلك أتته القبائل مهنئة طائعة[٣٨].

من خلال ما سبق نفهم أن بطون زناتة أذعنت بالطاعة للخلافة الفاطمية مرغمة ورغم فشل ثورة ابن يزيد مخلد الزناتى وقد كادت تبلغ النجاح لولا استبسال قبيلة كتامة فى الدفاع وإنضمام صنهاجة للفاطميين وقد أخضعت زناتة إفريقيا بالسطوة والقهر ولكن زناتة المغرب استعادت سيادتها عليه ولقد شغلت هذه الثورة عصر الخليفين "القائم بأمر الله" و"المنصور بالله" الذى قضى بعد ذلك المدة الباقية فى عهده فى إصلاح ما أفسدته هذه الثورة وإعادة تنظيم شئون الخلافة الفاطمية وبعد وفاته سنة ٣٤١هـ ٩٥٣م أعتلى عرش الخلافة ولى عهده معد الذى أتخذ لقب المعز لدين الله وسيكون بعهده من أعظم عهود الفاطميين[٣٩]. وهو الذى رحل إلى مصر وترك شئون إفريقية فى أيدى بنى زيرى. توغل النفوذ الزناتى فى المغرب الأوسط فلما كانت طبنة معقلاً للفاطميين فقد أنشأ الزناتيون من بنى يفرن مدينة أفكان كمعقل للزناتين وأفكان تقع على بعد ثلاث مراحل من شرق تاهرت[٤٠] وانتقلت إليها بطون زناتة وبعض الأهالى من حولها لكن أصبح معظمها من بطون زناتة فعمرت وتمدنت واتسعت. وبنى لها جامع وحمامات وفنادق وقصور[٤١] وكان لها سور مرتفع جداً وعريض[٤٢] وقد أتخذها زعيم بنى يفرن[٤٣] الزناتين كمعسكر له ومركزاً لإمارته طوال حياتها كونها بين أهله وعصبيته فتكون أكثر أمناً وحماية له والأنصار[٤٤] ومما زاد هذه الحماية أن استولى على مدينة وهران[٤٥] القريبة من أمكان ووهران كانت قبائلها خاضعة للفاطميين. لكنها كانت ذات أهمية كبيرة بالنسبة للأندلس إذا كانت ميرة أهل ساحل الأندلس منها وقد كانت خطراً على الزناتين لخضوعها للفاطميين انتهز زعيم زناتة فرصة طلب خليفة الأندلس إخضاعها فأضرم فيها النار بعد أن نقل أهلها إلى مدينة أفكان وأجبرت القبائل من حول زهران علي خلع الطاعة للفاطمين لذا كان خطر الزناتين في المغرب الأوسط يتزايد شيئا فشيئا – حتى صار زيري بن مناد[٤٦] الذي قاد جموع صنهاجة لمهاجمة زناته المغرب الأوسط.

اختار زيري من مناد مكانا يقيم فيه مركزا له[47] للوقوف أمام زناته فكان اختياره موقعا حصينا علي المنحدرات الجنوبية لجبل طيطري الواقعة آخر أفريقية من جهة المغرب لبناء معسكر يكون مقرا وحصنا له ومقرا لتجمع انصاره، وجيوشه وسماها أشير أو قلعة أشير الذي بدء في بنائه(٣٢٤/٩٣٦) وأصبحت مدينة أشير حاجزا بين بطون زناته المنتشرين في المغرب الأوسط والمناطق الخاضعة للفاطمين بإفريقية والتي كانت زناته دائمة الهجوم عليها مما زاد في العداء[48] بينهم عمل زيري بن مناد الصنهاجي علي أن يحكم مراقبة بطون زناته المغرب الأوسط فجدد مدينة (مليانه) أكثر لتشرف علي مضارب زناته بالمغرب الأوسط وأسكنها ولده بلكين مع بعض قوته إلي جانب إقامة حصون مرتبطة ببعضها بين مليانه واشير فاستطاع أن يرد عدوان الزناتيين عن إفريقية[49].

وكانت هذه المدن أو الحصون المتقاربة دافعا قويا لزيري بن مناد المخلص للفاطميين وأن يقاتل زناته قتالا متواصلا ويفرض هيمنته علي المغرب الاقصي الأوسط لكن تزامن مع ذلك اندلاع ثورات الزناتيين في المغرب الأقصي حتى أن الخليفة المعز لدين الله الفاطمي كلف قائده جوهر الصقلي القيام بحملة عسكرية أخري إلي المغرب الأقصي ويقال أنه يقتسم قيادة عدة معارك في المغرب الأوسط مع الأمير الصنهاجي زيري بن مناد[50].

توفي زيري بن مناد وتولي القيادة بعده ابنه بلكين بن زيري الذي أخذ بثأر أبيه وطارد الزناتين في جميع أنحاء في معارك ضارية حتى انتصر عليهم انتصارا حاسما وأجلاهم بعيدا مما جعل المعز لدين الله يستقبله استقبالا حسنا ويعهد إليه بولاية المغرب أثناء غيابة إذ رحل إلي مصر بعد ذلك[51] سماه يوسف وكناه أبا الفتوح ولقبه سيف الدولة [52] ظل بلكين علي ولاية المغرب بعد وفاة الخليفة المعز لدين الله. تولى بعده الخليفة العزيز بالله فأقر بلكين على ولايته[53] ولما بلغه أن "خزرون بن فلفل بن جزر الزناتي" قد زحف إلي سجلماسه وقتل المعتز بالله المدراري واستولي عليها فبدأ بلكين بحصار ..بيته ولما استعصت عليه ذهب إلي فاس فأستولي عليها وبعد معارك ملك سجلماسه وبلاد الهبط كلها ثم ذهب لشماله مركز برغواطة ومقرها وقتل أمير مرغواطة فاغتنمت زناته الفرصة انشغاله

بير غواطه واستعادت مناطق نفوذها ثم توطدت سيطرتهم بعد وفاة بلكين سنة ٣٧٣هـ/٨٣م[٥٤] حيث تمكن زيري بن عقبة الزناتي الملقب بالقرطاس من السيطرة علي فاس بعد انتصاره علي جيوش المنصور ابن بلكين والتي أرسلها تحت قيادة أخيه بطوفت سنة ٣٧٤ هـ/٩٨٤م[٥٥] كما تمكن بن خرزون من فرض سيطرته علي سجلماسه ودخل في طاعة الأمويين وبعد وفاته سنة ٣٧٣هـ/٩٨٣م عقد الأمويين لأبنه و"أنو دين" علي سجلماسه[٥٦] بذلك نجد أنه أصبح للزناتين دولتان في فاس وسجلماسه فضلا عن دولة بني يفرن في سلا في القرن ٣هـ. بهذا قد تكونْ حاجزا زناتيا يفصل بين الصنهاجيين الذين يظهرون الولاء للفاطميين وبين الأمويين في الأندلس.

وانتظر سعيد بن خزرون من الأمويين أن يمنحوه نصيبا في المغرب الأقصي فوجدهم قد أختصرا زيري بن عطية وأخاه مقاتلا بمزيد من التكرمة فلحق نظراؤها الغيرة من ذلك[٥٧] عندئذ فكر سعيد بن خرزون تفكيرا جديدا مختلفا فتحول عن طاعة الأمويين وانطلق مع ابنه وروٌ متجها إلي أشير لمقابلة المنصور بن بلكين النصهاجي والدخول في طاعته مستغلا إحسان المنصور إلي الخارجين عنه إذا ما طلبوا منه الأمان وقدموا شواهد إخلاصهم له[٥٨]. ولما أحسن المنصور لقاء سعيد بن خزرون فتلقاه بالقبول وأعطاه وأرضاه كان ذلك في عام ٣٧٩هـ ومكث سعيد وابنه مدة فقال المنصور له" يا سعيد هل تعرف من هو أكرم مني؟ قال نعم "ومن هو" قال "أنا" قال له المنصور ولم ذلك؟ فقال (أو يقال) لأنك جدت علي بالمال وجدت أنا عليك بنفسي. فولي سعيد هذا طبنه[٥٩] وقدم علي المنصور بعد ذلك جماعة من الزناتين فأكرمهم واعطاهم وزوج المنصور ابنته من وروٌ بن سعيد[٦٠].

وأصبحت طبنه بذلك في ولاية بني خزرون الزناتين. وقد أدارسعيد ابن خزرون إمارة طبنة وأظهر في ذلك الاخلاص والكفاءة وفي عام ٣٨٢هـ وفد سعيد علي المنصور في القيروان فاحتفل به وأنزله معه في قصره ثم توفي سعيد في رجب من نفس العام فاستدعي المنصور ابنه فلفل ليوليه العهد بدلا من أباه الراحل على إمارة طبنه فرجع من عند المنصور محملا بالأرزاق والأحمال بعد أزفت إليه

ابنه المنصور[٦١] وظل فلفل ابن سعيد علي ولايته للمنصورين بلكين حتى تـوفى سنة ٣٨٦هـ ٩٩٦م- فخلف المنصور ابنه باديس الذى جدد لفلفل ولايتـه علـى طبنة[٦٢] وبدون مقدمات حدثت إضطرابات كثيرة شملت المغرب من أقصاه إلـى أدناه. وترك بنو خزرون فجأة طبنة بعد مناوشات وقد شك الخليفة الزيـرى فـى ولاءهم ولكنهم إتجهوا ناحية القيراون وطرابلس[٦٣] حيث أقاموا فيها دويلـة بنـى خزرون. فى غمار تلك الأحداث برز بنو حماد الدين أنتصروا فى المغرب الأوسط على زناتة ثم أسسوا دولة بنى حماد فدخلت طبنة ضمن أملاكهم، بعـد أن كانـت رجعت إلى بنى زيرى بعد أن تركها بنى خزرون. لقد كان هناك صراعُ فى أسره بنى زيرى[٦٤] كانت له وجوها كثيرة لكنه إنتهى بالصلح بين بنى حماد وبنى زيرى وأصدر المعز منشوراً يقضى بتعيين القائد ابن حماد عاملاً على المسـيلة وطبنـة ومرسى الدجاج ومقره ودلمة وبلزمه وسـوق حمـزة (بـويرة) وأعطـاه بنـودا وطبولا[٦٥] بمقتضى ذلك المنشور أعترف المعز بإبن حماد ملكـا مسـتقلا علـى المسيلة وطبنة والزاب واشير وتاهرت وكل أعمال المغرب الأوسط التى سـيتمكن من فتحها بعد طرد زناتة منها.

وبذلك انقسمت دولة بنى زيزى إلى فرعين مستقلين فرع له ملـك إفريقيـة وطرابلس وهو بنى باديس بنى زيرى وفرع له ملك المغرب الأوسط هو بنى حماد بن زيرى أصحاب القلعة لو نظرنا إلى الأرض التى بنيـت عليهـا هـذا القلعـة الحصينة- التى كانت أول حاضرة لدولة بنى حماد- سنجدها عبارة عـن هبـوط منتظم يشكل إمتداد لجبل تفريس أو جبل كيانة إلى السـهول الخضـراء لطبنـة والمسيلة ووراء جبل تفريست حيث تنفتح سهول الحضنة على إمتـداد البصـر[٦٦] التى منها طبنة والمسيلة ومن قول البكرى نفهم أن طبنة تعتبر الطريق الرئيسـى للقلعة كما هى الطريق الرئيسى للقيراون وكذلك من القيروان وكذلك من القيـراون للقلعة[٦٧] فمعنى ذلك أن العرب فى عام ٤٥٧هـ[٦٨] عندما عاثوا فساداً فى المغرب الأوسط فلما أرادوا أن يقوضوا حكم بنى حماد وحاضرتهم هـدموا أهـم المـدن والطرق إليها وبعد هذا التاريخ وتلك المعارك لم يعد لطبنة ذكر[٦٩].

تحصينات طبنة وأهميتها منذ عهد البيزنطيين (الروم) :

لكى يمكننا دراسة تلك التحصينات ينبغى أن نذكر بايجار كيف نظم البيزنطيون (الروم) خطتم الدفاعية لإنتزاع الممتلكات الإفريقية التابعة للأمبراطورية الرومانية وبلاد النصارى من أيدى الوندال، وكيف ركزوا من اجل ذلك جهازا دفاعيا سيظل طويلا بعد ذلك فى هذا الصدد نجد أن شارل ديل Diehl وصف الجهاز الدفاعى المذكورة وصفا مفصلا(٧٠). ذلك أن السياسة التى طبقها الولاة ثم الأمراء الأغالبة فى إفريقية قبل قيام الخلافة الفاطمية لصد البربر الذين تم إجلاؤها إلى المناطق الجبلية من الأطراف الصحراوية فى جبال نفوسة ودمر جنوبا، وجبال أوراس والحضنة غربا، هذه السياسة الدفاعية هى تطوير للسياسة التى أتبعها البيزنطيون وقبلهم الرومانيون، لحماية الأراضى الخاضعة لسلطانهم فى شرق وغرب المغرب، حيث يتمكن العرب بدورهم من السيطرة على الجموع البربرية المقيمة فى الجبال والفيافى إلى حد كبير فأصلحت التحصينات التى أقيمت فى عهد الإمبراطورية الرومانية و البيزنطية، ثم تعززت وتطورت فى عهد الأغالبة وبناء على ذلك فقد أضطر البربر المقيمون والرحل الخاضعون لرقابة الحاميات المسيطرة على سلسلة القلاع والحصون القائمة فى مناطقهم، إلى الاعتراف بسلطة الأغالبة ثم الفاطميين ولكنهم كانوا ينتظرون دوما وأبدا الفرصة السانحة لإستئناف غاراتهم المعهودة من قبل وشق عصا الطاعة أو الخروج عن السلطان(٧١). أعتمد الحاكم العسكرى فى العهد البيزنطى ثم الوالى والأمير فى العهد الإسلامى على المنشآت المحصنة لوضع إفريقية فى مأمن من القبائل التى تهددهم.

أحتفظت التحصينات البيزنطية المطابقة للتحصينات الرومانية التى أقيمت فى القرن الأول من الميلاد، بقيمتها الدفاعية فى شكل منحرف ممتد من الجنوب الشرقى إلى الجنوب الغربى على هيئة مجموعات من القلاع من بينها المراكز المحصنة المنيعة، مثل تيبه وطبنة وسطيف كما أن هناك خط الدفاع الثانى مهمته القيام غربى بلدة الأربس بدور الحاجز المقام على الطريق المفضية عبر وادى ملاق وسهول مرماجنة إلى مدن إفريقية وكذلك القيروان وقرطاجة والواقع أن خط الدفاع المذكور هو الأول الذى أقيم فى نوميديا القديمة لحماية الطرق الرئيسية الرابطة بين قرطاجنة وقسنطينة ومنطقة التل، قبل أن يحتل القائد البيزنطى سولومون نواحى جبال أوراس وشط الحضنة وسطيف سنة ٥٣٩ من الميلاد. وقد

كان ذلك الخط المرتكز على قلعتى قالمة وقسنطينة، يضم عددا من المراكز المحصنة الضخمة والشاهقة، من بينها تيفاش وتيجس وطبرقة وتاسدوق، الواقعة فى عرض نوميديا بين شقبنارية (الكاف) ووادى الرمل[٧٢].

وهكذا فقد كانت مقاطعة إفريقية الرومانية، ثم مقاطعة الأمبراطور جيستنيانوس وقواده الذائعى الصيت بيليزاريوس شولومون وتروجليتا، مغطاة بشبكة من القلاع الواقعة فى السواحل وفى نواحى الحصنة القاحلة وسهول الهضاب العليا، وفى وسط سياسب قمودة وسفوح جبال أوراس وأطلس، وهى لم تزل محتفظة بها فى حالة جيدة حتى العصر الفاطمى فى المغرب فى مطلع القرن الذى يهمنا، أى عصر "التالق الفاطمى"[٧٣]. لقد كانت البنية الأساسية الخارقة للعادة المتكونة من المنشآت العسكرية، ومن بينها القلاع المنيعة، تمثل بالنسبة للفاطميين أى أصحاب إفريقية الجدد جهازاً دفاعياً رائعاً يمكن إستخدامه ضد أهل الجبال والصحارى من البربر المتعذر قهرهم وهذا من شانه أن يغنى الفاطميون كما كان الأمر من قبل بالنسبة إلى الأغالبة- عن إقامة منشآت دفاعية وقلاع وحصون جديدة غربى البلاد المتحضرة. بل يكفيهم أن يقيموا فى قلب بلاد الزاب فى سفح جبل الحضنة وسط إقطاعات بنى كملان وغيرهم من أهل هوارة، مدينة محصنة جديدة، هى المسيلة التى سيولوها إلى أسرة عربية من أتباعهم هى أسرة بنى حمدون، يتمثل دورها فى مراقبة تحركات زناتة والتصدى لهم ويكفيهم أيضاً بذلك أنهم شيدوا فى جبال طيطرى مدينة أشير العتيدة التى سيتخذها حلفاؤهم الصنهاجيون ورئيسهم زيرى بن مناد، قاعدة لبلادهم[٧٤].

فبفضل المسيلة الواقعة على الحافة الجنوبية من الحصنة، وفى تخوم تلك المساحات الشاسعة التابعة لبلاد الزاب المنيعة الخاضعة لسلطان الزناتيين الرحل، وبفضل أشير الواقعة من الناحية الشمالية الغربية فى أعلى وادى الشلف، الذى يشق مع نهر مجردة جبال الأطلس الشمالية، تمكن خط الدفاع الممتد من الشرق إلى الغرب والمتركب من القلاع التى أقامها البيزنطيون للدفاع عن بلاد قسطنينة ووادى سيبوس وجميع مناطق وادى مجردة الأعلى، من استرجاع قيمته الاستراتيجية. وكذلك الشأن بالنسبة إلى الحاجز بالأخر الذى أقامه القائد البيزنطى

الشهير سولومون بعد احتلال نواحى الحضنة وأوراس وسطيف، وجعل منه جهازاً دفاعيا يمتد من الجنوب الشرقى إلى الشمال الغربى فى شكل قوس، إنطلاقـا مـن باغاية على حافة جبل أوراس الشمالية عبر الحضنة عن طريق طبنة والزاب حتى ساحل البحر عن طريق سطيف وميلة وذلك بمساعدة كتامة أنصارهم. وكل ما سبق يوضح لنا موقع طبنة الاستراتيجى وأهميتها فى تحصينات المغرب الأوسط[٧٥].

لمحة تاريخية :

كانت طبنة من المراكز الصناعية الهامة خلال العصر الإسلامى فى المغرب الأوسط[٧٦]، إضافة إلى أن الفخاريات التى وجدت فى طبنة وما حولها تمثل أساليب مختلفة لمدينة طبنة الفنية لقد كان الفنان المسلم فى طبنة وغيرها. يميل إلى التجريد دائما ويضفى العناصر الفنية الأشكال الهندسية والعناصر البنائية فالكتابات العربية وهذه البقايا تمثل إحدى علامات هذه الصناعة الجيدة فى هذه المدينة وقد وجـدت البعثة أن زخارف بعض هذه البقايا الخزفية والفخارية تشبه إلى حد كبير زخارف سدراته[٧٧] كما إكتشفت علماء الآثار فى تنقيباتهم ما يدل على وجود ثـلاث مـدن متداخلة فى مكان طبنة- مدينة طبنة البربرية وأثارها، ومدينـة طبنـة الرومانيـة المتميزة بأثار لمواجل فيها وبقايا تنظيمات الرى الرومانية المتميزة وبقايا سـور بيزنطى، وكذلك مدينة طبنة الإسلامية بقطع الخزف والزجاج المنقوش والمزخرف زخرفة إسلامية رائعة. أما سدراته ففى أرض لقوم البربر وهى فـى الصـحراء وتمر عليها القوافل الآتية من تلمسان ولقد أسقطت الدولة الفاطمية دولة الرستميين وحاضرتها تيهرت هاجروا إلى وادى طبنة أو إلى الجنوب الغربى وأسسول مدينة الكريمة ودخلوا مدينة ورجلان- أو ورقلة- وهناك على بعد أربعة عشر كيلو متر جنوبا أخذوا فى تأسيس عاصمتهم الجميلة سدرات المعروفة عند البربر باستدرائن ذات المدينة العظيمة فإنشاوا بها قصورهم البديعة والمنازل الرفيعة وأقـاموا بهـا البساتين والمزارع والمنشأت الضخمة ونشروا فيها من الرفاهية والحضـارة مـا أعجب منه العلماء اليوم ولقد شرع علماء الآثار من ١٩٥١ فى الكشف عن هـذه المدينة التى غطتها الرمال فعثروا فى بحوثهم الحفرية على آثار جليلة قيمـة مـن مبان عجيبة ونقوش مزخرفة وخطوط كوفية وأشـكال هندسـية وأوان متنوعـة

ووجدت بين آثار هذه المدينة بعض التحف المعروضة بالمتحف الجزائرى وهى آية ناطقة على تقدم الفن الإسلامي بالجزائر لروعتها كذلك وجدت قطع وتحف ثمينة[٧٨].

وتدل البقايا المعمارية التى وجدت فى سدراته التى هى من آثار الأباضية على أن الطابع المعمارى فى المغرب الأوسط آنذاك كان متأثراً بالفن العراقى المشرقى وكان هذا هو الغالب في كل عمائر المغرب الأوسط. ولقد أسفرت الحفائر التى أجراها علماء الآثار الفرنسيون أمثال تارى وفوشيه وفان برشم عن آثار بقايا مسجد ويعتقد تارى أن بيت صلاة هذا المسجد كانت تعلوه قباب بيضاوية الشكل ملتصق بعضها ببعض، وأنه كان يشتمل على ثلاث صفوف من الدعائم الإسطوانية، وكان أحد جدرانه مزيناً بطاقات ظهرا فيها جوفات مقوسة تعلوها أنصاف قباب مسطحة. كما أسفرت الحفريات عن كشف دور وبيوت كانت مزينة بزخارف رائعة تشبع زخارف أمراء العراق. وقوامها العناصر الهندسية التى تتألف من مربعات وحمامات مستوية وفصوص من العناصر النباتية التى تقوم على الفروع المموجة التى تتوزع فيما بينها التوريقات[٧٩] وقد أشتهرت طبنة بالمعمار وكان فيها أبرع البنائين ولما أراد زيرى بن مناد بناء مدينة أشير برضاء الخليفة الفاطمى الذى أوفد إليه الفنيين ووضع على ذمته مهندساً معمارياً لا مثيل له فى إفريقية كما أمده بالمعدات والحديد، إلى جانب استقدام البنائين والصناع المهرة من طبنة والمسيلة[٨٠]. ومن أهم آثار طبنة الموجودة للأن باب لمدينة طبنة أهداه المعز باديس إلى مسجد عقبة بن نافع عندما كان محاصراً لقلعة بنى حماد طوال سنتين كاملتين وكان قد حاصر المنطقة كلها من أول مدينة طبنة حتى قلعة بنى باديس أو حماد وقد إختلفوا على المغرب الأوسط وفيما بينهم وكان فى نيتهم الاستقلال بالمغرب الأوسط- وطلع عليهم باديس بالحصار حتى حاصر المنطقة كلها ولكن باديس مات أثناء هذا الحصار وتولى ابنه المعز ولاية المغرب[٨١].

الوضع الإداري :

أوضحت حركات المعارضة والأحداث السياسية للخلافة العباسية أن الكفاءة العسكرية للولاة ليس هما المطلب الوحيد لمن يلى أمور إفريقية[٨٢] وإنما الحاجة

إليهما إلى جانب الدراية السياسية وقوة العصبية ويتضح هذا من اختيار العباسيين لأسرة المهالبة ثم الأغالبة لتحقيق هدفهم فى تسكين إفريقية وبخاصة أن العباسيين قد استعانوا بهم فى حروب المشرق وإدارة ولايته وحققوا هناك نجاحاً عجز عنه كثيرون[٨٣]. ولى العباسيون المهالبة والأغالبة فى الحجابة وأمور السياسة[٨٤] ووضح بما لهم من حنكة ودراية وكفاءة عسكرية عن أنهم من اليمنية وغالبية القبائل العربية التى أستقرت بإفريقية من اليمنية أيضاً[٨٥] لذا وجبت الاستعانة بهم فى إفريقية التى لم يكف أهلها وجندها عن التمرد والعصيان ليقروا أمورها ويسكنوا أهلها ويبسطوا سلطان الخلافة العباسية عليها، ويضيفوا نفوذاً للخلافة العباسية سبق أن أمدوه من قبل وكذلك أضافوا مجداً لأسرتهم إلى جانب ما حققوه فى المشرق[٨٦].

وقد حقق أبناء هذه الأسرات هدف الخلافة[٨٧] العباسية فى المغرب كاملاً، وضربوا بيد من حديد على حركات التمرد والعصيان ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً بفضل ما أوتوا من كفاءة عسكرية وحنكة سياسية وقوة العصبية[٨٨]. إتسم حكم المهالبة والأغالبة لإفريقية بمظاهر سياسية مختلفة عما سبق فى إفريقية فقد أعادوا للبلاد الاستقرار بعد أن أخمدوا حركات الخوارج فى إفريقية وأضطروهم للإستكانة والرضا بالغلبة أو الخروج بأنفسهم ناجين عن إفريقية، مجتمعين بالدول الخارجية التى تأسست بالمغرب آنذاك فى سجلماسة[٨٩] وتاهرت[٩٠] (أوتيهرت). وكذلك اتسم عهد الأغالبة بالتقدم والإزدهار وقد ظهر ذلك واضحاً فى طبنة. وتخبرنا الوثيقة الثالثة من مجموعة الوثائق الفاطمية[٩١] عن نظام الحكم فى الأقاليم فى العصر الفاطمى، وتحدد أنواع الموظفين الذين يعاونون الوالى فى إدارة شئون الحكم فى ولايته وهم:

١- متولى الحكم- أى القاضى.

٢- متولى الدعوة الهادية – أى الداعى.

٣- المستخدم فى الخطبة العلوية (أى خطيب المسجد الجامع- أمامه).

وتتمثل القاعدة التى أتبعها الفاطميين فى إدارة الولايات والإمارات بنوع إمارة الاستكفاء[٩٢]. كان العمال الذين عينتهم الدولة الفاطمية بعد أن استقرت فى

إفريقية يعملون بأمانة على حد تعبير أبن حوقل[٩٣]. ويخبرنا الداعى إدريس[٩٤] أن الخليفة الفاطمى قد عين "وجوه كتامة على مدن إفريقية إلى حيث بلغت طاعته وقسم على كتابه" لكل عسكر منهم ناحية[٩٥]. ولما كانت القاعدة الإدارية أكثر أتبعها الفاطميون هى إمارة الاستكفاء[٩٦] وذلك يعنى قدر التمتع بسلطات مطلقة لأنهم يمثلون الخليفة فى أعمالهم (أى ولاياتهم) ويتصرفون بكامل حريتهم فى تكوين الجيش وتسليحه فى قاعدة ولايتهم لما لهم من الصلاحيات العسكرية والمالية والدينية الواسعة كانت تتمثل فى حفظ النظام وجمع الضرائب[٩٧]. ولا تسعفنا المصادر بأسماء عمال طبنة والزاب فى فترة حكم الفاطميين فى إفريقية وظلت طبنة قاعدة الزاب حتى بنيت السلطة المسيلة التى أصبحت قاعدة للزاب وأضطلع طبنة قاعدة للزاب وأضطلع بولايتها بعد بنائها أسرة بنى حمدون[٩٨] بعد أن تم بنائها على رأس جيش[٩٩] من الجند والقواد لحماية المسيلة من هجمات قبائل زناتة ثم يحيى بن حمدون وكان جعفر ويحيى قد خلفا والدهما وخدما الخلافة الفاطمية فى المغرب إلى أن خرجا على طاعة الفاطميين رحلا إلى الأندلس[١٠٠].

وقد تكون طريقة الإدارة أختلفت بعد رحيل الفاطميين إلى مصر وتحول إفريقية إلى إدارة تابعة لمصر على رأسها أمير. ويشير النويرى أنه فى عام ٣٦١هـ طلب المعز الفاطمى من يوسف بلكين بن زيرى القدوم عليه وأن يكف عن القتال وإلا يتعرض لزناتة أو غيرها فى هذا الوقت ويستعمل اللين معهم. "فأمتثل يوسف كما أمره المعز به ورد على زناته سباياهم وتجهز للمسير إليه واستعمل على تاهرت وأشير والمسيلة وبسكره وطبنه وباغاية ومجانة عمالاً من عبيده[١٠١]. وهذا يدلنا أنه بعد رحيل بنى حمدون للأندلس أن أصبحت كل نواحى الزاب مستقلة بذاتها وأهم هذه النواحى طبنة بما أن يوسف مسؤول أمام الخليفة المعز عن المغرب الأوسط وبخاصة الزاب كله. ولما قدم يوسف على المعز أكرمه وأثنى عليه وخلع عليه ونزع عنه سيفه وأعطاه إياه وهذه كناية عن تقلده أمور المغرب لأن المعز وقتها كان يستعد للرحيل إلى مصر. وبعد أن تمت مراسم توديع الخليفة المعز لدين الله رجع يوسف إلى المنصورية "فأخرج العمال وجباة الأموال إلى سائر البلدان، وعقد الولايات للعمال فاستقامت الامور بحسن تدبيره"[١٠٢]. وفى عام ٣٨٩هـ /١٩٩٩هـ عندما وصل الأمير باديس قرب طبنة[١٠٣] بعث فى طلب،

فلفل بن سعيد ابن خزرون فخاف منه وأرسل يعتذر له وسأل أن يكتب لـــه ســجل بولاية طبنة إلى أن تقدم باديس فكتب له سجلاً بولايتها وبعــث بـــه إليـــه "وبعــد صراعات لا يتسع المجال لذكرها مات فلفل ابن سعيد[١٠٤] وولى أخوه وُرو.

التقسيمات الإدارية :

وحسب التنظيم البيزنطي كانت ولاية إفريقية تمتد مــن لبــدة[١٠٥] شـــرق طرابلس إلى الخط الممتد من المسيلة نحو شاطئ البحر الأبـــيض المتوســط فـــي الغرب[١٠٦] وذكر الجغرافيون ان إفريقية من طرابلس شرقاً حتى بجاية أو مليانــة غربا[١٠٧]، قسم الرومان ثم البيزنطيون هذه الولاية إلـــى ســتة منـــاطق إداريـــة وعسكرية، إشتمل كل منها على عدد من المدن والمعسكرات وتولى حكم كل مدينة قناصل أو قادة عسكريين[١٠٨] أما في التنظيم الإسلامي فقد إنقسمت ولاية إفريقيـــة إلى ثلاث عمالات كبيرة هي "عمل طـــرابلس[١٠٩] وعمـــل إفريقيـــة[١١٠] وعمـــل الزاب[١١١] وكان لكل هذه العمالات قاعدتها التي ينزلها عاملهـــا فقاعـــدة عمالـــة طرابلس مدينة طرابلس وقاعدة إفريقية مدينة القيـــروان وقاعـــدة الـــزاب مدينـــة طبنة[١١٢].

وانقسمت هذه العمالات إلى وحدات إدارية صغرى قواعدها المدن والأقـــاليم الجغرافية مثل بلاد الجريد والساحل وبلاد الزاب وغير ذلك وإدارات محليـــة فـــي مواطن القبائل البربرية توالت رئاستها ببوتات عربية فيما يشبه نظـــام الأقطـــاع، ولكن من هذه الأقسام الإدارية الصغيرة من يتولى أموره، أما عاملاً معيناً من قبل والى إفريقية، وأما نائباً يعينه عامل العمالة[١١٣] وحكمت الأقسام الإدارية الصغيرة أسر عربية أو بربرية مستعرية كانت تؤدى الطاعة لعامل الناحية وتتـــولى جبايـــة الأموال، وقد تتحالف عليه وتستقل بنفسها[١١٤]. وغالباً ما كانت زعامة هذه البيوت تقر بالولاء للإدارة على اعتبار أنها منحت امتياز على منطقة معينة، تؤدى بموجبه مبلغاً متفقاً عليه للوالي، دون تدخل من الوالي أو الخلافة في طريقة جمع الأمـــوال من سكان منطقته أو كيفية إدارته لها[١١٥].

وضم عمل بلاد الزاب مناطق جبلية مثل جبال الأوراس[١١٦] وســـهولا فـــي الجنوب وشطوطا عند تخوم الصحراء وتوافد العرب على هذه المنطقة واســـتقروا

بها لاتساع مناطق الانتجاع والرحلة وسمى أهله "بالشاوية"[١١٧] واستقرت بهذا الإقليم قبائل بربرية فى المناطق الجبلية حيث الوديان والزراعة فأستقرت صنهاجة فى جنوبيه وكتامة فى شماله، وكون مجرى نهر شلف حداً طبيعياً لهذا الإقليم جهة الغرب[١١٨]. ووصف اليعقوبى بلاد الزاب فى عهد الأغالبة فذكر أن بلاد الزاب تبعد عن القيروان عشر مراحل، وأن أهم مدن الزاب مدينة "طبنة" وهى التى ينزلها الولاة[١١٩] ويسكن مدينة طبنة أخلاط من قريش والعرب والجند والعجم والأفارقة والروم والبربر[١٢٠] وبعمالة الزاب مدن مهمة مثل مدينة "ميلة"[١٢١] التى وصفها البعض بأنها من "غرر مدن الزاب، ومقر العامل الذى يراقب منطقة كتامة، كذلك مدينة "سطيف"[١٢٢] التى استقر بها أحد البيوت العربية من بنى أسد وكان منهم العمال على الناحية[١٢٣] ومدينة بلزمة التى استقر بها بنو تميم من العرب ومواليهم وأختير منهم عمال الناحية[١٢٤] كما استقر بنو الصمصامة أحد أحفاد بنى تميم فى مدينة مقرة واستبدوا بالمنطقة[١٢٥].

النظم المالية :

كانت الموارد المالية لبيت المال كما جاء فى القرآن الكريم ممثلة فى الغنائم والفئ والخراج والجزية والخوارج والصدقات والعشور، وما استحدثة العباسيون[١٢٦]، أموال الغنائم والفئ كما حددها الماوردى، هى ما وصلت من المشتركين أو كانوا سبب وصولها، وتشمل الأموال والسبى ومختلف المنقولات من الأسلاب[١٢٧]، ولم تعد الغنائم مصدراً للمال إلى بيت شمال إفريقية منذ بداية العصر العباسى ويظهر ذلك فيما كتبه عبد الرحمن بن حبيب[١٢٨] إلى أبى جعفر المنصور "إن إفريقية اليوم إسلامية كلها وقد إنقطع السبى منها"[١٢٩] كما أن بيت مال إفريقية لم يعد به فائض يرسل إلى بيت مال الخلافة العباسية يؤكد ذلك أن الخلافة العباسية كانت ترسل لوالى إفريقية مائة ألف دينار من أموال مصر سنوياً[١٣٠]. لكن الحال أختلف فى عصر الأغالبة فقد كانوا متفقين على إرسال مبلغ معلوم من المال إلى الخلافة فى بغداد سنوياً. والجزية التى فرضت على الرجال من أهل الكتاب وتسقط باعتناق الإسلام وأخذها عثمان- رضى الله عنه- من البربر[١٣١]، ويرى بعض المستشرقين أنه حدث خلط فيما جبى من الضرائب بإفريقية بين الجزية والخراج[١٣٢]، وانتهى بعض الدارسين المحدثين إلى أن كلمة جزية كانت أكثر

استعمالا فى عهود الإسلام الأولى. وتؤدى معنى ضريبة الرقبة تارة وضريبة الأرض تارة أخرى وذلك حسب السياق الذى يؤدى الغرض المقصود منها(١٣٣).

بين الماوردى الفرق بين الجزية والخراج من ثلاثة أوجه(١٣٤)، فالجزية نص والخراج اجتهاد كما أن أقل الجزية مقدر بالشرع وأكثرها مقدر بالإجتهاد، بينما الخراج أقله وأكثره مقدرا بالإجتهاد، والفارق الثالث بينهما أن الجزية تؤخذ من أهل الكتاب الذين ظلوا على عقيدتهم وتسقط بحدوث الاسلام، بينما الخراج لا يسقط باعتناق الإسلام(١٣٥) وجعل عمر بن الخطاب الجزية على قدر اليسار والطاقة(١٣٦).

والخراج هو ما وضع على رقاب الأرض من حقوق تؤدى عنها حسب إجتهادات الأئمة(١٣٧) وتخص الأرض التى فتحها المسلمون عنوة وتركت فى أيدى أهلها مثلما فعل عمر بن الخطاب بأرض العراق، فتكون فيئا للمسلمين المقاتلة والذرية ولمن يأتى بعهدهم(١٣٨). وأختلفت ولايات بلاد الخلافة فى تقدير الخراج تبعا لظروف الفتح صلحا أم عنوة(١٣٩) وبحسب جودة الأرض وسهولة ريها أو صعوبته، كذا تبعا لعمليات مسح الأراضى وحاجة الخلافة إلى الأموال وخاصة بعد تزايد النفقات وتحول أراضى الخراج إلى أراضى عشرية بفعل الإقطاع والتملك زمن بنى أمية(١٤٠)، أجلىالعرب بعض الروم وعجم إفريقية من غير صلح فأعتبرت أرضهم عنوة وأقروا البربر على ما كان بحوزتهم فأعتبرت هذه الأرض مفتوحا صلحا(١٤١) كما أن الروم سألوا حسان بن النعمان الصلح- حين علموا بعدم طاقتهم علىالوقوف أمام جيوشه- وأن يضع عليهم الخراج فاجابهم إلى ذلك(١٤٢) وبلغ خراج إفريقية ثلاثة عشر مليون درهم فى عهد ولاة بنى العباس(١٤٣). جاء فى نفس لليعقوبى أن الأرض العشرية شملت مساحات واسعة من بلاد إفريقية(١٤٤) وهذا أيام الأغالبة وبعد أن أشتد تمرد الجند الخلافى بإفريقية وكذلك حركات الخوراج فضلا(١٤٥) عن إعفاء الخفاء والولاة بعض الأراضى من دفع الخراج إلى جانب أن موارد إفريقية لم تعد تكفيها فكانت مصر ترسل معونة سنوية إلى ولاة إفريقية قدرها مائة ألف دينار(١٤٦). أما الصدقات فهى زكاة أموال المسلمين وهى تجتنب فىالأموال المرصودة للنماء أما بأنفسها وأما بالعمل فيها(١٤٧) وهى نوعان: أحدهما الأموال التى لا يمكن إخفاؤها مثل الزروع والمواشى والأخرى يمكن التستر عليها مثل الذهب والفضة وعروض التجارة وأختص نظر سعاة الصدقات فى زكاة النوع

الأول، فأمروا أصحابها بدفعها إليهم[١٤٨] وأخذت الصدقات ببلاد المغرب منذ بداية الفتوح[١٤٩] وطوال العصر الأموى والعباسى.

واتسم نظام الجباية فى إفريقية بقسوته وذلك بسبب الحاجة إلى الأموال[١٥٠] إذ نقصت الجزية بفعل اعتناق الاسلام وقلة الأموال التى كانت تدرها الفتوح فضلاً عن تحول الكثير من الأراضى الزراعية الخراجية إلى أراضى عشرية بسبب الإقطاع[١٥١]. وفى أيام الأغالبة كان أهل طبنة يدفعون ما عليهم وفى أخبار بعض إضطرابات حدثت فى بلاد الزاب أن أتى رؤساء القبائل طائعين إلى الأمير الأغلبى محمد بن إسماعيل (أبو حطام) وعبروا عن طاعتهم لتقديم الرهائن ودفع ما عليهم من الخراج والصدقات والعشور فلم تقبل منهم[١٥٢]. وتعددت الوجوه التى كانت تنفق فيها أموال ولاية إفريقية، منها عطاء الجند ورواتب الموظفين والتكاليف العسكرية، والمنشآت العامة، وكذلك حصة بيت مال دار الخلافة، والغالب على الظن أن الأخيرة أعفيت منها ولاية إفريقية إبان حكم المهالبة، إذ كانت الخلافة ترسل إليهم مائة ألف دينار من أموال مصر[١٥٣]. وأعتمد الولاة فى المغربين على المنحة التى كانت تقدمها مصر لإفريقية فى دفع عطاء وأرزاق الجند[١٥٤] خاصة بعد أن ارتفعت تكاليف تسيير الجيوش لمواجهة حركات الخوارج فمثلاً بلغ ما أنفق على تجهيز جيش يزيد بن حاتم المهلبى ثلاثة وستين ألف درهم كما ذكر ابن كثير[١٥٥] كما أسفر القتال عن هدم أسوار المدن والحصون مما تطلب إعادة بنائها وترميمها وحفر الخنادق والإنفاق عليها من بيت المال مثل تحديد سور طبنة وترميم ما يلزم من الترميم[١٥٦].

وكانت جباية الضرائب منذ أول دعوة شيعية للفاطميين فى إفريقية تتبع نظام يتسم بالبساطة فى مدة دعوة الداعى أو عبد الله الشيعى لكنه ما لبث أن تعقد بعد استقرار الدولة الفاطمية بعد ذلك وفى زمن الدعوة الشيعية كان الهدف الأكبر هو فرض سياسة الفاطميين والعمل على إنجاحها والتفوق فى السيطرة على بلاد المغرب، لذا كان هم الداعى عبد الله الشيعى الاستيلاء على إفريقية وإيهام أهالى البلاد بانه يمنع النهب والإبتزاز عدوهم الأول وأنه سيتبع السنن الواردة فى القرآن والسنة حول جباية الأموال وإرجاع بالتحصيل من ضرائب مخالفة للشريعة إلى أصحابها وكان تصرفه فى طبنة بعد فتحها أصدق مثال على ذلك ومن ذلك أنه رفض ضريبة "العشر" التى أعتبرها مخالفة للأحكام الشريعية لأنها تجبى نقداً فى

حين كان يجب جبايتها "عيناً" ولهذه الأسباب رفض الداعى عبد الله الشيعى جباية الخراج وعلى العكس وافق على أخذ "الجزية" على الذميين ومنهم جالية كبيرة تقيم ما بين طبنة وباقى بلاد الزاب وقبل تسديدها لا بالدراهم وفقاً للسنة النبوية، لكن بالنقود الذهبية لأنها كانت تقدر علىالنصاب الذى حدده عمر بن الخطاب كما أقر ضريبة البقر والإبل والغنم (أى الصدقة) لأن جباية أو صدقات الأنعام تمت حسب قواعد الاقتطاع التى ضبطتها الشريعة قبل عرضها للبيع(١٥٧). ووصف الرحالة طبنة بغزارة المياه(١٥٨) فيها وكثرتها، مما يؤكد عظمة تلك المدينة وكثرة بساتينها والمروج بها والذى أشار إليه ابن حوقل منذ القرن الرابع الهجرى(١٥٩) وقد وجد كابتن (بارديز) فى صورة الجوية تقسيمات سقى ورى من أيام الرومان(١٦٠) فى المنطقة التى كانت تشغلها أراضى مدينة طبنة وما حولها كما أن العرب أقاموا بها صهريجا كبيرة وتخبرنا المصادر المختلفة وكذلك الرحالة عن المنتجات الزراعية بطبنة مثل: القمح والشعير ولاذرة البيضاء ومختلف الثمار كالكتان والفاكهة والحبوب والقطن(١٦١) ولكنهم لم يتحدثوا بتفاصيل أكثر يقول د/ لقبال موسى أن أرض طبنة نوعين: نوع يسمى فى عرف المنطقة الحى ويعتمد علىالرى المنتظم بواسطة الينابيع الأودية والسدود والأبار والنوع الثانى يسمى "بالخلف" أو "البعل" يعتمد على كرم الطبيعة أى الفيضانات والأمطار وهو الأكثر فى طبنة(١٦٢).

نظام الملكية والحيازة الزراعية :

انقسمت ملكية الأراضى بصفة عامة فى إفريقيا والمغرب على النحو التالى:

١- **أراضى العروش**:وهى أملاك القبيلة ملكية عامة لأفرادها فى مقابل دفع الخراج للدولة.

٢- **أراضى الملك** : التى تخص فرد أو أفراد أو عائلة ملكية خالصة.

٣- **أراضى الديلك أو المخازن**: وهى أراضى تمتلكها السلطة الحاكمة أو تخص الوالى أو السلطان وطبنة كانت مقر للوالى أو لمعاملى عليها من قبل الإمارة أو الخلافة.

٤- **أراضى أوقاف أو أراضى حبوس**: أو الإنزال التى أوقفها المسلمون للخدمة العامة كبناء مسجد أو سوق أو لحفر بئر أو إقامة دمنة(١٦٣) أو مدرسة والحبوس كان معروفاً فى المغرب.

كان للأحداث التاريخية التى عرفتها بلاد المغرب- بصفة عامة- تأثير ملموساً على أوضاع الملكيات الزراعية وإنعكاس مباشر على القوانين الخاصة بها

منها ما يعود إلى الفترة التى سبقت الفتح الإسلامى فى القرن الأول من الهجرة السابع من الميلاد، أما ما يرجع إلى زمن الدولة التى ظهرت ببلاد المغرب منذ انتشار الإسلام وحتى مطلع الدول الحديثة(١٦٤). والسؤال بالنسبة لوضع الملكية فى إفريقية، هل فتحت إفريقية صلحاً أم عنوة؟ وكيف كان الوضع(١٦٥)؟ لقد نقل عبد الله بن أبى زيد عن ابن سحنون قال "كشفت عن أرض إفريقية فلم أقف منها على حقيقية هل هى عنوة أو صلح(١٦٦) كما جاءت عبارة أوردها الونشريسى(١٦٧) وأما بلاد إفريقية.. ففيها بلاد ليست صلحية ولا عنوية. وفى القرن الأول من الهجرة يبدو أو أنه أتبع فى ملكية الأرض نفس النظام الذى أتبع فى الفسطاط فى توزيع القطائع على أراضى الفسطاط وضواحيها إذ وزعت الخطط بعد تأسيسها على القبائل المشاركة فى الفتح لبناء الدور وتجاوزت قطائع الأراضى إلى الأراضى الزراعية للنبلاء البيزنطيين الذين فروا بعد الفتح تاركين أراضى شاسعة ومن المعروف أن أغلب الأراضى قد بقيت بأيدى السكان الأصليين من العرب والبربر ووزعت الأراضى بين فقراء البربر، بعد أن كانت ملكاً لحكومة بيزنطة فازدادوا ثقة بالإسلام وأهله(١٦٨).

ولو طبقنا هذا على طبنة، لوجدنا بالتأكيد ولاة ورثوا الأرض الموات التى كانت للحكام البيزنطى (الأكزرخ) وكان الولاة يعطون أراضيهم الخاصة للوكلاء لزراعتها(١٦٩) ويبدو أن الإقطاع قد أدخل تغييراً كبيراً على الملكية الزراعية فقد أحترم الخلفاء الملكية الخاصة وكما هو معهود فى كل عهد حديث فإن المقاطعات الكبيرة التى بقيت شاغرة بعد إعلان دولتهم وكانت للأمراء السابقين أو لأعوانهم وهجرت وأصبحت أرض موات، منحها الخلفاء للشخصيات البارزة من أهل إفريقية وغيرهم من الموالين لهم مثل رجال كتامة على سبيل المثال عندما إقتطعهم عبد الله المهدى ويوسف بن بلكين الزيرى عندما أقطعه المعز لدين الله الفاطمى المسيلة(١٧٠) وأعمالها وكان أقطع فيما بعد الأمير باديس بن زيرى فلفل بن سعيد مدينة طبنة(١٧١).

الأوضاع الاقتصادية والثقافية :

وصف المقدسى[١٧٢] أقليم المغرب كله ما يتميز به بأنه إقليم بهى كثير سرى.. (أى يَسُر).. "وقد غابت فى الزيتون مدنه. وبالتين والكرمات أرضه يجرى خلالها الأنهار ويملأ غيطانها الأشجار" وهذا الوصف نجده منطبقاً تماماً على طبنة بما أنها وسط الزاب المشهور وبالفواكه وبالزيتون خاصة فنجد طبنة وما حولها من مدن كبسكرة تمتاز بجودة تمرها وأنواعه الممتازة مثل "الكسبا" ونوع أبيض اللون ناعم الملمس يسمى الليارى[١٧٣]. كما أنه قد تكون هناك زراعة قصب السكر والرمان والأترج والتفاح والفستق وغيرها مثل ما فى مدن الزاب ذات الأشجار المستمرة والتى تصل معظم إنتاجها إلى الأندلس وباقى المدن الجميلة التى لا توجد أرضها بمثل هذه الثمار، وكذلك صدرت إلى مختلف مدن العالم الخارجى وشارك الفاطميون فى تطور إقتصاديات طبنة فكثرت الزراعات بها وقد كانت فى عهدهم مخزناً ومقراً لجيشهم. وتقدمت حركة التبادل وازداد حجم التجارة الداخلية والخارجية فمهدوا طرق جديدة تحمل من المغرب الأوسط للسودان الملح لوجود الكثير من السبخات[١٧٤] وظل الحال كذلك حتى مجىء الهلاليين.

وكما ساهم العرب الهلالية فى الإنتاج الحيوانى والزراعى فإنه من الطبيعى أن تتأثر التجارة فى بلاد المغرب حيث انتشار القبائل الهلالية خلال القرن الخامس الهجرى وذلك بما طرأ من تغيرات على مراكز الإنتاج الحيوانى والزراعى. ذلك لأن الحركة التجارية قد نشطت بشكل جديد بعد استقرار العرب النهائى واندماجهم فى أطر الدولة التى يعيشون فيها ودخولهم فى التجارة فى الأسواق. هذا من ناحية بنى هلال أما بنى زيرى فلم ينجحوا فى تأمين طرق التجارة البرية لذا وجدناهم اتجهوا للبحر وتأمين الطرق البحرية[١٧٥].

لكن على الرغم من حالة العداوة التى كانت تغلب على طابع العلاقات بين بنى زيرى وبنى حماد وفى معظم فترات حكم كل منهما إلا أن الفترات لاتى كان يسود فيها السلام والتصالح كانت العلاقات الثقافية والتجارية تنتعش وتعود لحالتها الطبيعية فقد وجد بناة القيروان وبعض مدن المغرب الأدنى (إفريقية) ضالتهم المنشودة فى التحرك غرباً باتجاه بلاد المغربين الأوسط والأقصى، بل أن العديد من العلماء والأدباء والفقهاء والشعراء والمفكرين الأفارقة فى المغرب الأدنى قد

فضلوا البقاء فى بلاد الحماديين بعد أن فتح الأمراء الحماديون أمامهم المجال وأجزلوا لهم العطاء واستدعوهم إلى مجالسهم ومناظرتهم ومن ذلك نجد الشاعر ابن الكفاة القيروانى يمتدح الأمير الناصر بن علناش الحمادى ومن هنا فقد ساعد علماء وفقهاء الدين الشرقيين فى النهوض بالحركة العلمية والثقافية فى بجاية والجزائر وتلمسان والقلعة وعنابة وطبنة والمسيلة وبسكرة وجيجل وغيرها من المدن الحمادية ولم تنقطع وفود العلماء والطلاب من المغرب الأدنى إلى المغرب الأوسط(١٧٦).

وعلى العكس فإن بنى حماد فى أشير والقلعة والمدن الأخرى المذكورة قد شجعوا رحيل الطلاب وأبناء دولتهم إلى القيروان للتزود بالعلوم قبل الغزو الهلالى لاسيما بعد أن تم الصلح بين المعز بن باديس عام ٤٠٨هـ حتى الغزو الهلالى ٤٤١ هـ وقد استغل فترة الهدنة والصلح الطويلة لكى يدفعوا بأبناء دولتهم للرحيل شرقاً إلى القيروان لتلقى العلم على أيدى شيوخ هذه الكعبة الحضارية الثقافية الإسلامية لاسيما أن الدولة الحمادية كانت لاتزال فى دور التكوين وكانت فى أمس الحاجة إلى العقلية المتعلمة المثقفة التى تساعد على وضع أركان بناء الدولة ومنذ عام ٤١٦ هـ صارت بجاية معقل العلم فى المغرب الأوسط فرحل إليها العلماء وقصدها الناس من مختلف النواحى وكثرت المدارس التى كان من بين طلابها من طبنة وقسنطينة والأقاليم الغربية للدولة الزيرية ومن هنا فإن حركة الصراع والحروب لم تقف عائقا ولا حائلاً دون تحرك العلماء والطلاب بين البلدين وكان العلماء يدرسون العلم أينما رحلوا وأينما حلوا بلا قيد ولا رقابة مادام ذلك يسير وفق المذهب المالكى الذى عشقه أهل المغرب جميعا ومن هنا كانت الصلة العلمية والثقافية والحضارية متصلة ودائمة بل ومتبادلة(١٧٧).

إضافة إلى أن حركة التجارة والقوافل والبيع والشراء والترحال بين الإقليميين لم تكن متقطعة دائماً بل كانت فى وقت الحروب تقل عما تكون عليه فى حالة الصلح والسلام وكان الحماديون يعملون على فتح بلادهم أمام حركة التجارة الشرقية التى كانت تأخذ طريقها البحرى والبرى عبر أراضى الدولة الزيرية وكذلك رحل التجار من بلاد المغرب الأدنى مع إخوانهم أهل بجاية وطبنة وغيرها من

مدن الساحل والزاب إلى المشرق والهند والصين وايمن وإلى صقلية وجنوب إيطاليا والأندلس وقامت حركة تصدير واستيراد المواد التي يحتاج إليها كل طرف والتي كانت تزيد عن الاستهلاك المحلي للاخر مما دفع إلى إيجاد سوق تجارية إسلامية لم تكن تتأثر بحركة الصراع العسكري والسياسي وكانت الشعوب تسعى لما فيه خير الجميع ومن هنا نمت التجارة الداخلية والخارجية لاسيما مع حركة القوافل في اتجاه الجنوب حيث بلاد السودان الغربي والأوسط (كانم، برنو، مالى، غانا، سنغاى، بلاد التكرور) والتي كانت القوافل المغربية تتحرك في صورة مجتمعة من أجل خير المجتمع الإسلامي ونقل الإسلام والثقافة[١٧٨].

مراكز الثقافة :

كان المسجد يلعب دوراً تعليمياً، ولكم يكن ثمة مسجد في أي مدينة خالياً من المعلمين والفقهاء وقد عرف في المغرب العربي (المسيد) وهو ملحق كان يفرد للناحية التعليمية بالمسجد وخاصة في الصحاري والجبال، وقد تطور هذا المسيد في القرن الخامس الهجري فاستقل بنفسه عن المسجد، وصار عالماً بذاته من حيث البناء والمقصد، وهذا التطور لم يمنع المسجد من أن يبقى محل تعليم، إلا أنه إرتفع طبقة، فصار بمثابة دار للتعليم الثانوي أو للتعليم العالي[١٧٩]. وإلى جانب المسيد والمسجد وجدت (الزاوية) وكانت الزوايا كثير جداً بالغرب الأوسط بين كبيرة وصغيرة، وهي عبارة عن مجموعة من المباني الفاخرة الكثيرة يتوسطها ضريح الشيخ المؤسس، وهو قيمة كبيرة مفروشة بالزرابي مملوءة بالمباخرة والمجامر والإعلام وذلك كله متشابه في كل المغرب[١٨٠].

وكانت الكتاتيب أشهر أنواع التعليم الإبتدائي، ويبدو أنها وكانت قريبة من عمل (المسيد) وان كانت تتمتع بنوع من الملكية الخاصة[١٨١]. ويبدو أن ما عرف في بلدان المغرب باسم الشريعة كان يقوم أحياناً مقام الكتاب (خيمة مدرسية عند البدو) إلى جانب كونه مصلى كبيراً تقام فيه صلوات الأعياد، وربما صلوات الجمع ومن المحتمل أن "الشريعة" كانت محل تعليم البدوي في مقابل المسيد الذي كان محل تعليم الحضري، وهي تنتقل بإنتقال الحي وفق ضرورات الانتجاع، أو دواعي تزاحم القبائل ويتعلم فيها الأحداث من ذكور وإناث. وكان يوجد في المدن الكبرى، في المغرب الأوسط لون من التعليم الجامعي، وقد أنشأ الناصر الحمادي في بجاية

"معهد سيدى التواتى" الذى كان يحتوى على ثلاثة آلاف طالب وتدرس فيه كل المواد بما فيها العلوم الفلكية. وكان العلماء متعددون فى كل تخصصات العلوم كذلك عرفت المكتبات العامة[١٨٢]، وكان بجامع المنار بالقلعة مكتبة مليئة بالكتب المحمولة من أقطار المغرب، والمنقولة عن تدريس أساتذة الجامع، وخلال حكم العزيز العماوى كان يحاضر فى جامعة سيدى التوانى هذه علماء من اسبانيا ومن إفريقيا والشرق[١٨٣]. ولقد إزدهرات الحياة التعليمية إزدهارا كبيرا، تدلنا عليه هذه المكانة العلمية التى أحتلتها بجاية بحيث أصبحت كعبة الشعراء ومقصد طلاب العلم، فقد ارتحل إليها ابن حمديس الصقلى وأبو الفضل بن النحوى من العلماء وغيرهما ممن غضت بهم العاصمة الحمادية وقد برز الفقهاء والعلماء والشعراء والمؤرخين والأطباء والرياضيون وغيرهم ببجاية والقلعة وأشير وطبنة والزاب والمسيلة بروزاً لا مثيل له[١٨٤].

علماء من طبنة :

كان المذهب السائد فى طبنة هو المذهب المالكى الذى أنتشر فيها مثلما أنتشر فى سائر مدن المغرب نتيجة لرحلات طلاب العلم إلى المدينة المنورة للنهل من علوم علماء الحديث على الإمام مالك بن أنس، ونتيجة لنقل هؤلاء الطلاب للموطأ معهم عند عودتهم من المدينة والدليل القائم على مالكية أهل طبنة هو ما يقوله ابن عذارى[١٨٥] عندما دخلها عبد الله الشيعى وأعاد الجبايات إلى أهلها ولما طلب أهل المدينة له. ورجوه أن يستعمل فيهم الكتاب والسنة. ولكنهم لم يدركوا أن ما قام به ما هو إلا حيلة قصد منها إجتذاب باقى القبائل للدخول فى طاعته حتى يسهل له الاستيلاء على باقى مدن الاغالبة ورغم وقوع المدينة فى أيدى الشيعة الفاطميين ومن بعدهم الزيريين إلا أن المذهب المالكى ظلت له السيادة عند أهل المدينة، وهذا ما تؤكده التراجم لهولاء العلماء، فقد ورد ذكرها فى ثنايا كتب الطبقات لعلماء الأندلس وليس فى كتب طبقات علماء إفريقية ومن الجائز أن سبب هذا ضياع الكتب التى دونت لطبقات علماء إفريقية، فليس من المعقول أن تكون رحلة علماء طبنة إلى الأندلس فقط دون أن يردا للحج والدراسة أو إلى القيروان المجاورة لهم رغم ذكر ذلك بصفة عامة فى بعض المصادر.

وكانت تراجم علماء طبنة فى الكتب والطبقات الأندلسية تراجم أسر وليست تراجم علماء منفردين فمثلا أسرة الحسين بن محمد بن أسد التميمى الطبنى[١٨٦] الذى رحل ثلاثة من أولاده وهم أحمد ومحمد وعلى. وعلى ما يبدو أنهم رحلوا مع

أبيهم للأندلس لطلب العلم فأقاموا فيه وخلفوا وراءهم ذرية كبيرة من الأبناء الذى يحملوا لواء العلم من بعدهم فمن عقب يحي محمد بن الحسين ابن أسد الطبنى خرج محمد وأخوه إبراهيم اللذان اشتهرا بالأدب عامة وبالشعر خاصة وكانت لهما مكانة خاصة فى الأندلس ومن أعقب زيادة الله بن على بن الحسين خرج ثلاثة من العلماء وهم عبد الرحمن وعبد العزيز وفيهم من رحل للمشرق ورجع إلى الأندلس هو وعبد الملك(١٨٧). هذه أسرة من الأسر التى كان لها حظ الترجمة فى كتب الطبقات ويبدو أن هذه الأسرة ليست الوحيدة بل سبقتها أسر كثيرة دخلت الأندلس ولم يكن حظها من العلم والشهرة كبير من هذه الأسرة وبخاصة أن هناك مصادر تكلمت من علماء طبنة وأسرها المشهورة دون ذكر أسماءها كما أن هناك من خرجوا للحج وهم علماء طبنة الذين رحلوا إلى الأندلس أو نحو المشرق ولا يوجد لهم هذه التراجم فى ثنايا كتب الطبقات التى أرخت لعلماء إفريقيا لكن ياقوت الحموى أنفرد بذكر بعض علماء طبنة الذين رحلوا إلى المشرق فذكر على بن منصور الطبنى الذى رحل البصرة وأخذ على يد محمد بن مخارق البصرى وروى عنه عند البصرى، وذكر أيضاً عالم أخر من طبنة وهو أبن محمد القاسم بن على بن معاوية أبن الوليد الطبنى، الذى يفهم كلام ياقوت أنه أستقر بمصر لأنه ذكر ان له عقب مصر وحدث عن أبن المصرى، وهناك أيضاً أبى الفضل عطية بن على بن الحسين بن يزيد الطبنى الذى رحل إلى بغداد لطلب الحديث وله شعر جيد منسوب إليه(١٨٨). هذه التراجم على قلتها إلا أنها توضح مكانة طبنة كمركز ثقافى فى المغرب الأوسط والزاب على الأخص. وتدل حفائر طبنة فى الحاضر على أنه كانت مركزاً علمياً كبيراً فى منطقة الزاب والمغرب الأوسط وكل المغرب وقد رحل الكثير من علمائها إلى المشرق ثم رجعوا.

وهناك علماء رحلوا إلى الأندلس ثم استقروا ورحلوا منها إلى المشرق أكثر من مرة ثم رجعوا للأندلس موطن استقرارهم كما ذكرنا لينشروا العلم وقد برع منهم الكثير سواء فى الفقه وجمع أحاديث النبى عليه الصلاة والسلام أو مجالس الإملاء أو شيوخاً للجوامع والمساجد ومنهم من برع فى الخط وأصبح من أشهر الخطاطين فى الأندلس ومن أبرز العلماء الذين عثرنا على تراجم لهم فى المكتبة الأندلسية هى عائلة زيادة الله الطبنى وعائلة التميمى الزابى الطبنى وربما يكون إنه برغم الاختلاف البسيط فى اسماء الجدود فمن المرجح أنه ينتمون كلهم إلى جد واحد هو كعب بن مالك التميمى من بنى سعد بن زيد مناة بن تميم الطبنى أو

الزابي الطبني ويدل هذا على أن الأصل في استقرارهم في طبنة أو الزاب وطبنة قبل ارتحالهم للأندلس أشار ابن بشكوال إشارة عابرة نقلها عن الحميدى منها أن لهم أصول في بغداد فكبيرهم الإمام أبو محمد التميمي ببغداد ولهم هناك شيوخ شعراء لهم شعر أنشدوه لأبي بكر الخوارزمي عن مجالس الأملاء والأقلام والمحابرة وكان ابن أبي مروان الطبني أنشد لإبنه عبد الملك بن زيادة الله يذكر كتاب العين وبغلة له سماها النعامة[١٨٩].

كما أن هناك عائلات أخرى رحلت إلى الأندلس مثل بني حمدون الذين تولوا طبنة ثم المسيلة بعد بنائها من هذه الأسرة العلمية أحمد بن الحسين بن محمد أبن أسد بن محمد بن إبراهيم بن زيادة بن كعب بن مالك التميمي الحماني: من بني سعد بن زيد مناة بن تميم بن مر الطبني[١٩٠] من أهل طبنة، يكنى أبا عمر، وصل إلى الأندلس حدثا. وسمع بقرطبة من قاسم بن اصبغ وابن أبي دليم ونظرائهما، ورحل إلى المشرق حاجا سنة أثنين وأربعين وسمع في رحلته سماعا يسيرا وكان رجلا صالحا فاضلا محدثا وكتبت عنه أحاديث. توفي (رحمه الله): بقرطبة ليلة الجمعة ودفن يوم الجمعة بمقبرة الربض بعد صلاة العصر لثلاث خلون من المحرم سنة تسعين وثلثمائة. ومحمد بن الحسين بن محمد بن أسد بن محمد بن إبراهيم بن زيادة بن كعب بن مالك التميمي الحصاني الطبني الزابي شاعر مكثر، وأديب مقوه، ومن بيت أدب وشعر وجلالة ورياسة كان في ايام الحكم المستنصر قدم الأندلس في سنة واحدى وثلاثين وثلاثمائة[١٩١] وكان حافظا للأخبار عالما بالأنساب ولي الشرطة وتوفي سنة أربع وتسعين وثلاثمائة؛ ومولده سنة وثلاثمائة وصلى عليه القاضي عبد الرحمن ابن محمد بن قطيس وله أولاد نجباء مشهورة في الأدب والفضل، ويقول الحميدى عن أبل القاسم بن يحي بن محمد بن الحسن التميمي الحماني من بني سعد بن زيادة مناه بن تميم أبو عمر أنه كان أديبا وشاعرا من بيت أدب وعلم وشعره ذكره أبو محمد علي بن أحمر وهناك من تراجم ابن بشتوال:- عبد الرحمن بن زيادة الله بن علي التميمي الطبني. سكن قرطبة يكنى أبا الحسن[١٩٢].

كان له افضال وأدب وزهد وتنسك وروى الحديث قال ذلك: أخوه أبو مروان، وذكر أنه توفي سنة إحدى وأربعمائة وكان مولده سنة سبع وسبعين وثلاثمائة يكنى أبا مضر[١٩٣]. كان من أهل العلم بالآداب واللغات، والأشعار كثير الغرائب: وروى عنه أبو مروان بن عبد الملك وقال: أخبرني أن مولده في شعبان من سنة ست وثلاثين وثلاثمائة وتوفي رحمة الله لعشر خلون من ربيع الأول خمس

عشر وأربعمائة. عبد العزيز بن زيادة الله بن على التميمى الطبنـــى. مـــن أهـــل قرطبة، يكنى أبا الأصبح، سمع: من القاضى يونس بن عبد الله كثيراً ومن غيـــره، وكان له فضل وسخاء وتوفى سنة ست وثلاثين وأربعمائـــة ذكـــره أبـــو مـــروان أخوه[١٩٤]. عبد الملك بن زيادة الله أبى مضر بن على السعدى التميمى الحمـــانى، أبو مروان الطبنى من أهل بيت جلالة ورياسة من أهل الحديث والأدب إمام فـــى اللغة شارع وله رواية وسماع بالأندلس، وقد رحل إلى المشرق غير مرة على كبر وسمع بمصر والحجاز وحدث بالمشرق عن إبراهيم بن محمد بن زكريا الزهـــرى النحو الأندلسى، ورجع إلى الاندلس، ومات بقرطبة بعد الخمسين وأربعمائة منقولا فما ذكر وشعره على طريقة العرب[١٩٥].

وذكر الرشاطى: إنه من شيوخ أبىعلى الغسانى وأنه رحـــل رحلتـــين إلـــى المشرق وكتب بالأندلسى عن جماعة منهم أبو مطرف القنازعى، والقاضى يـــونس بن عبد الله وأبوعبد الله بن نبات، وقل مولده سنة ست وتسعين وثلاثمائة وتوفى فى سنة ست وخمسين واربعمائة وكان له مجالس إملاء[١٩٦]. كما أن هناك علماء من نفس عائلة الحسين التميمى الطبنى لكن لم تذكر المصادر شيئاً عن ســـني وفـــاتهم منهم: إبراهيم بن يحى بن محمد بن الحسين التميمى الطبنى أبو بكر الوزير: شاعر من أهل بيت أدب وعلم وجلالة[١٩٧]. ومنهم: محمد بن يحيى بن محمد بن الحسين الحمانى السعدى الطبى أبو عبد الله، من أهل بيت آداب، وشعر ورياســـة وجلالـــة وهم من بى سعد بن زيد مناة أبن تميم بن مر بن اند[١٩٨].

وهناك بن أبى مروان الطبنى الذى ينشد أشعار أباه ويذكر كتاب العين وهناك أيضا الحافظ أبو على الطبنى[١٩٩] الذى روى عن شيخه أبا مروان بن سراج بـــن محمد وعنه عبد الرحمن بن معاوية بن سراج[٢٠٠].

ملحـق

رسالة جوابية من الحكم المستنصر إلى مولاة غالب، الذى أرسله إلى العدوة لمحاربة ابن قنون فذهب إليها، وحارب ابن قنون، وأرسل من هناك رسـالة إلـى الخليفة، يذكر أن عدداً من أتباع ابن قنون طلبوا الاستئمان إليه، وأنه أجابهم إلـى ذلك ويطلب منه أن يرسل له محمد بن حسين التميمى المعروف بالطبنى الشاعر.

وأن أمير المؤمنين عهد بتوجيه محمد بن حسين الطبنى إليك على ما رغبت فيه، وقع اخيتارك منه على خيار وثقة فى جميع أحواله، مع نفاذ ذريتـه وصـدق ممارسته لما يرمى إليه واعترف أحمد بن بعلى- رحمه الله- بذلك، وشـكرنا لـه تصحيحه ومناصحته ولن يألوك عوناً وتزييناً إن شاء الله.

أنظر محمد ماهر حمادة: الوثائق السياسية والإداريـة ط بيـروت ط٢ ص ١٩٢ رسالة عن ابن حيان القرطبي :المقتبس من أبناء أهل الأندلس تحقيق محمود مكي ط القاهرة ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م

يقول محقق ابن حيان : أن الخليفة أراد الأنعام علي الأديب الشاعر محمـد بن حسين الطني الذي قفل من المغرب مع القائد غالب فولاه خطـة العـرض ولا نظن أن الطبني كان يباشر هذه الوظيفة فعلا لكن هذه التولية كما يـنص المؤلـف نفسه كانت من قبيل التكريم ويقول الباحثون المحدثون عن خطة الشـرطة أثنـاء النصف الثاني من القرن الرابع علي ضوء ما سبق كانت وظائف تنويه وتشـريف أشبه منها بالألقاب منها بالأعمال وهذه المسألة جديدة بأن تطرح علي بساط البحث من جديد ، وما يهمنا في هذا المجال هو تشريف الخليفة لأحد من عائلـة الطبنـي التي استقرت في الأندلس ألا وهو هذا الشاعر المذكور محمد بن حسـين الطبنـي وفى هذا تشريف لمدينة طبنة موضوع البحث.

أنظر المقتبس ص ٢٨٧ من هامش رقم ١٥١ .

الهوامش :

- تحقيق عبد الهادي التازي صـــ ٣٣٠ وقد جاء في المتن عن حديثـــة عـــن إجابة العرب في أفريقية الزاب علي قصيدتين أرسلهاالخليفة الموحدى إلي يعقوب في استدعاتهم من أفريقية إليه في مراكش.

١- طيار فرنسي من أيـــام الأســـتعمار الفرنســـي للجزائـــر ووضـــع كتـــاب Vue Aernne sur le sud Alageren 1 Edit

٢- النويري الجزء ٢٤ ص ١٣١ - ١٣٥ .

٣- في ذلك أنظر ابن عذاري ح١ ص ١٣٩-١٤٠ .

٤- لمزيد من التفاصيل أنظر المصدر السابق الجزء والصفحات ، القاضي النعمان : إفتتاح الدعوة ص ١٥٦ وأنظر سعد زغلول:تاريخ المغرب ج٢ ص١٧٢-١٧٥.

٥- لمزيد من التفاصيل أنظر المصدر السابق الجزء والصـــفحات ، القاضـــي النعمان : إفتتاح الدعوة ص ١٥٦ وأنظر سعد زغلول : تاريخ المغرب ج٢ ص ١٧٢-١٧٥ .

٦- الداعي إدريس عماد الدين / رد ٨٧٢-١٤٨٨م - تاريخ الخلفاء الفـــاطمين بالمغرب القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار تحقيق محمد اليعلاوى ج١ دار المغرب الإسلامي ١٤٠٥هـــ-١٩٨٥ ج١ ص ١١٨ .

٧- الادعي إدريس عيون الأخبار ص ١١٨ وأنظـــر فرحـــات الدشـــراوي : الخلافة الفاطمية في المغرب ، دار الغرب الإسلامي ١٤١٤ ج١ ص ١٣٦

٨- المرجع لسابق ص ١٤٩ .

٩- أبن الأثير الكامل ج ٦ حوادث ٢٩٦ هـــ .

١٠- راجع المصادر السابقة والمراجع السابقة نفس الأجزاء والصفحات .

١١- ابن عذاري:البيان ج١ ص ١٥٧ و ١٦٩ وأنظر النـــويري:نهايـــة الأرب ص٢٨ تحقيق محمد أمين ومحمد حلمي ص ١٠٥-١١١.

١٢- القاضي النعمان: رسالة أفتتاح الدعوة ، تحقيق حمادي الساحلي فقرة ص١٦٦ ط.

١٣- ابن منطورة ، لسان العرب ، مادة شيع .

١٤- أنظر: الداعي إدريس قسم من كتاب عيون الأخبار خاص بالفاطميين في المغرب تم(تح.) محمد اليعلاوي ص ٢٨-٣٠ ، وأنظر عبد المنعم - ماجد ظهور الخلافة الفاطمية في مصر وسقوطها ص ٦٧ ومايليها .

١٥- المصدر والمرجع السابقين أو نفس الصفحات التالية وقبيلة كتامة هي جماعة كبري من قبائل البرانس ومواطنها في المغرب الأوسط بقبيلة صنهاجة في القسم الشرقي أي الشرق بلاد الجزائر الذي يعادل منطقة القبائل الحالية ويصف ابن حوقل منازلها من القيروان إلي المسيلة وفي المنطقة الجبلية الواقعة بين مدينتي بجاية وقسطينة نظرا أبن حوقل صورة الأرض ص ٨٧ وابن خلدون العبر جـ٦ ص ١٩١ وأنظر سعد زغلول تاريخ الغرب جـ١ ص ٩٥-٩٦ .

١٦- ابن خلدون المقدمة - جـ ١ دار الشعب صـ ٣٨٣ انظر محمد أبو العزم الأثر السياسي والحضاري للمالكية في شمال إفريقيا حتى قيام دولة المرابطين طـ الفيصلية (مكه المكرمة طـ١ صـ ٦٤-٦٥) .

١٧- حسين مؤنس : مقدمة لكتاب رياض النفوس للمالكي صـ ١٣-١٤ .

١٨- بن خلدون العبر ج٧ صـ٢ وانظر سنوسي يوسف: زناته والخلافة الفاطمية مكتبة سعيد رأفت ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦ م- صـ ١٦٦ و ما يليها.

١٩- أنظر القاضي النعمان : رسالة افتتاح الدعوة صـ ١١٤-١٤٣-١٤٤ وأنظر سنوسي يوسف : زناته صـ١٦٤-١٦٥ .

٢٠- التفاصيل أكثر أنظر: ابن الأثير الكامل جـ٧ صـ ١٧٠ النويري نهاية الأرب جـ ٢٨ صـ ٩٧-٩٩ ابن خلدون جـ٦ ، ص ٣١٤ صـ ٥٥ ، ابن أبي زرع الأنيس المطرب جـ ١ صـ ١٤٩ ابن عذاري البيان جـ ١ صـ ١٥٣ ، ١٩٥ الدرجيني طبقات المشايخ ج١ ص٤٣ الداعي إدريس ص ٢ ص ١٨٢.

٢١- من قبائل البتر قال عنهم ابن خلدون أنهم قبيلة قديمة ويعدوا من أكبر قبائل البربر المغربية بطونا وعددا ذكرها ابن حوقل أنظر صورة الأرض ص١٠٣ وأنظر العبر جـ ٧ ص ٣-٧ .

٢٢- التفاصيل أكثر أنظر : البيان جـ ١ صـ ١٩٠ ومايليها وابن الأثير الكامل جـ ٧ ص ٦٠ وابن جماد أخبار بني عبيد غصـ ١٢ روسنوسي يوسف : زناته ص ١٨٠-١٨٢ .

٢٣- ابن الأثير الكامل ج٧ حوادث ٣١٥هـ؛ لمقريزي: اتعاظ الحنفاء: ج١ ص٧٢.

٢٤- هو جعفر بن علي بن حمدون بن سماك بن مسعود بن منصور الجذامي المعروف بابن الأندلسي صحب جدة حمدون بن سماك الداعي أبا عبد الله الشيعي وكان وفيا له ولم يكن أبوه أقل منه فنال رضا الخليفة معد وكلفه الخليفة القائم سنة ٣١٣ هـ بالاشراف علي بناء مدينة المسيلة في بلاد الزاب فلما أتمها عينه الخليفة واليا عليها حتى توفى في فتنه ابن يزيد الخارجي انظر ابن خلدون جـ٤ صـ١٢- ٨٢ الداعي إدريس: عيون الأخبار ص٢١٧.

٢٥- المقريزي: إتعاظ الحنفاء جـ ٢ صـ ٧٢ ، ابن الأثير : الكامل جـ٧

٢٦- الداعي إدريس عيون الأخبار صـ ٢١٧ وتوجد تفاصيل أخري أنظر : أبن حوقل وابن خلدون جـ٤ ص ٨٢.

٢٧- الداعي إدريس صـ ٣٥٠ وما يليها ابن الأثير جـ ٧ صـ : المقريزي اتعاظ جـ١ صـ٢ ابن عذاري البيان جـ١ صـ ١٩٣ وما يليها ويقول: وفيها (أي سنة ٣١٦هـ) كان ابتداء حركة ابن أبي محمد بن كيداد الزناتي وهو رجل أخذ لنفسه مذهب النكار أي تحليل دماء المسلمين وبسبب علي ابن أبي طالب (رضي الله عنه) وكان في أول أمره يعلم الصبيان ويعتقد الخروج علي السلطان ، ويحسب علي الناس في كثير من أفعالهم وعلي جباه الأموال وحكايات كثيرة عنه وعن أفعاله الشائنة: انظر البيان جـ١ ص.١٩٤،٩٣

٢٨- في ذلك انظر ابن عذاري ج١ ص٢١٦ – ابن خلدون العبر ج٤ ص٤٠-٤٣.

٢٩- التفاصيل أكثر أنظر الداعي إدريس عيون الأخبار صـ ٢٦٣- ٢٦٤ فرحات الدشراوي لخلافة الفاطمية في المغرب صـ ٢٤٦.

٣٠- انظر ابن عذاري :البيان جـ١ صـ ١٩٤ .

٣١- فرحات الدشراوي الخلافة الفاطمية في المغرب ص ٢٤٧ .

٣٢- المرجع السابق ص ٢٥٠.

٣٣- انظر الداعي إدريس عيون الأخبار ص ٣٩١-٣٩٢ .

٣٤- نفس المرجع السابق ونفس الصفحة وصـ ٩٩-٣٠٣ في أول عهد الخليفة المنصور الفاطمي منهم بنو زيري الذين سيتولون المغرب تحت إمرة

الفاطميين بعد رحيلهم لمصر ، انظر المصدر السابق صـــ ٣٩٢ وانظـــر نفس المرجع والصفحات.

٣٥- هذه القلعة وجبل المعاضيد والكيانة بالقرب من قلعة بن حماد وهم فرع من بني زيري الذين سيتولونها بعد ذلك انظر : عبد الحليم عويس دولـــة بـــن حماد جـــ ١ القاهرة جـــ١ نفس المصدر ص ٣٩٧ .

٣٦- لتفاصيل أكثر انظر الداعي أدريـــس ص ٤٧١-٤٧٤ وانظر الدشـــراوي : الخلافة الفاطمية في المغرب ص ٣١٠-٣١٣ .

٣٧- الداعي إدريس ص ٣٣٩-٤٠٠-٤٣٢-٤٣٤-٤٧١-٤٧٢ .

٣٨- لتفاصيل أكثر انظر ابن حماد : أخبار بني عبيد ص ٣٨-٣٩ .

٣٩- ابن الأبار الحلة ج١ ص ٣٨٨- ٣٨٩ انظر سنوسي يوسف : زناته ص٢٤٨.

٤٠- في ذلك انظر ابن حوقل صورة الأرض ص ٨٨ ياقوت معجم البلدان ج٤ ص٣٠٦

٤١- وجد الفاطميون في مقاومتهم ثلاث بطون رئيسية زناتيه وهـــم مكناســـة، بنويفرن، ومغراوة يحاربونهم وتارة يصانعونهم انظر عبـــد الله العـــروى تاريخ المغرب جـــ ٢ صـــ ٧٢

٤٢- ابن حوقل صـــ ٨٨ - الإدريس : نزهة جـــ٢ صـــ ٢٥١

٤٣- سنوس يوسف : زناته صـــ ٢٥٤

٤٤- يذكر البكري وابن عذاري أن الذي أسس وهران أحد الأندلسين يسمي محمد بن أبي عونه ومعه جماعة من الأندلسين البحريين أصحاب القرى (سنة ٢٩٠هـــ - ٩٠٣ م) ويقال أن الذي أسسها خزر بن حفص المغرواي الزناتي فهو الـــذي أنشأ وهران وبناها علي سيف البحر الرومي، كما أمره بذلك أمراءه الأمويـــون بالاندلسي حيث كان يرجع لهم بالولاء أنظر : المسالك والممالك ج٢ ص وابن عذاري ج١ ص ١٣٦ وأنظر الجيلالي تاريخ الجزائـــر ج ١ ص٢٥١ وانظـــر سنوس يوسف زناته ص٢٥٤ هامش ٢٠

٤٥- انظر الداعي إدريس عيون الأخبار صـــ ٣٩١-٣٩٢

٤٦- سنوسي زناته صـــ ٢٥٨

٤٧- ياقوت جـ١ صـ ٦٢٤ النويري : نهاية الأرب جـ ٢٤ وانظر المرجع السابق صـ ٢٥٩

٤٨- مليانه مدينة في أخر أفريقية من جهة الغرب منها وبينها وبين تنس ٤ أيام كما يقول ياقوت : المعجم جـ ٥ ص ١٥٥ وانظر البكري المسالك...جـ٢ ص وانظر سنوسي يوسف زناته ص ٢٦٠

٤٩- عن جوهر انظر ابن خلكان : وفيات الأعيان ط بيرون جـ٢ ص ١٠٢ جـ ١ ص ٦١-٦٢٥ وانظر الهادي روجي أدريس: الدولة الصنهاجية

٥٠- كان الخليفة المعز يفكر في أمر ولاية المغرب: هل لجعفر بن علي بن حمدون أم لبلكين بن زيري الصنهاجي لكنه استقر علي الصنهاجي وخاصة أنه بدر من جعفر عدة أشياء دلت علي عدم إخلاصه للفاطميين وفر علي بن جعفر إلي الأندلس بعد ذلك وكان واليا علي طبنه والمسيلة والزاب انظر النويري نهاية الأرب جـ ٢٤ صـ ١٦٦-١٦٧

٥١- ابن خلدون العبر جـ ٦ ص ١٠٣

٥٢- ابن عذاري البيان /١ ص ٢٣٧

٥٣- المصدر السابق جـ ١ ص ٢٣٩ وانظر ابن الأثير جـ ٨ ص ٦٢٥ / سنوسي ص ٢٦٢

٥٤- المصدر السابق نفس الجزء الصفحات التالية

٥٥- ابن خلدون العبر جـ ٧ ص ٨٢

٥٦- المصدر السابق نفس الجزء ص ٨٢

٥٧- وقد كان المنصور بن بلكنم قد امكن بع دتوليه الأمارة هذه السياسة قائلا: أن أبي وجدي أخذا الناس بالسيف قهرا وأنا لا أخذهم إلا بالأحسان أنظر بن عذاري البيان جـ ١ ص ٢٤١

٥٨- ابن عذاري البيان جـ ص ٣٤٤

٥٩- المصدر السابق نفس الجزء والصفحة

٦٠- نفس المصدر والجزء ص ٢٤٦ وانظر ابن خلدون العبر جـ ٧ ص ٨٢

٦١- نفس المصدر والجزء والصفحة أما ابن خلدون فذكر أن وفاته

٦٢- هناك تفاصيل كثيرة في هذا الخصوص انظر ابن عذارى البيان جـ ١ ص ٢٥٠ – الكامل جـ ٨ أحداث تلك السنوات – ابن خلدون جـ ٦ ص ٣٧١

٦٣- لمعرفة تفاصيله انظر: ابن الأثير الكامل جـ ٨ ص ٨٦ / النويري : نهاية الأرب جـ٢٤ ص ١٩٢

٦٤- النويري نفس الجزء ص ١٩٤

٦٥- انظر البكري :المسالك جـ٢ ص ٧١٠ – ٧١١- ٧١٥ –٧١٦- ٧١٦-

٦٦- المصدر السابق نفس الجزء والصفحات

٦٧- سميت إحدي معاركهم في المغرب الأوسط باسم معركة سبيبه :أنظر المصادر السابقة نفس الأجزاء والصفحات

٦٨- أنظر عن هذه المعارك ابن خلدون العبر جـ ٦ ص ١٩-٢٢

69- Diehl : L:A Frique Byzantine p.309

٧٠- فرحات الدشراوي ، الخلافة الفاطمية بالمغرب ص ٥١٤- ٥١٧ والمرجع السابق من ا لصفحات

٧١- ch. Diehl المرجع السابق ص 253 – 237- 232-237 226-298

٧٢- gautier عصور المغرب المظلمة ص ٣٥٣

٧٣- المراجع السابقة نفس الصفحات وانظر سنوسي يوسف إبراهيم زناته ص١٨٥

74- Bardiz : Vue Acriene.....p305

٧٥- هناك برنامج قدمته قناة الجزائر ولدي الباحثة تسجيل صوتي له

٧٦- انظر عبد الرحمن الجيلالي تاريخ الجزائر العام ط١ ج١ ص ٢٣٤- ٢٣٧ وبعرض صورة لسدراته تدل علي روعة زخارفها

٧٧- في حديث لهم عبر برنامج عرض علي القناة الفضائية بالجزائر بعرض آثار طبنة : وانظر سيد عبد العزيز سالم بحوث إسلامية في التاريخ والحضارة والآثار القسم الثاني ص ٣٤٩- ٣٦٦ بعنوان روائع الأثار الإسلامية بجمهورية الجزائر وأنظر عبد الرحمن الجيلالي تاريخ الجزائر العام ط١ ج١ ص ٢٣٤- ٢٣٧ ويعرض صور لسدراته تدل علي روعة زخارفها.

٧٨- هذه التفاصيل تشبه لحد بعيد ما وجد من أثار عمائر قلعة بني حماد ووجد انها تشبه قصور بني جامع في قابس الذي لاحظ الرحالة التجانس فيها إذ

أنها تشبه قصور بني حماد وكان شعرائهم قد وصفوها في شعرهم أيضـا فهذا يدل أن هذا الطابع كان سائدا آنذاك ولذا يتراءى للباحثة أن عمائر طبنة تحمل أوصافا تشبه تلك التي اسفرت عنها الحفريات في سدراته وبني حماد وقابس في ذلك انظر سيد سـالم بحـوث ج٢ ص ٣٥٣- ٣٥٥ وانظـر إسماعيل العربي عواصم بني زيري ص ٢٠ -٢٢؛ وانظر إلهام دحروج : مدينة قابس ....ص ١٥ -١٩

٧٩- النويري نهاية الأرب جـ٢٤ عن بناء أشير

٨٠- هو تميم بن المعز بن مناد باديس بن المنصور يوسف الزيري تولي عـام ٤٠٦ هـ وله من العمر آنذاك ثمانية أعوام وسبعة أشهر لنويري : نهايـة الأرب جـ ٤ ص ١٩٩.

٨١- ابن وردان، تاريخ الأغالبة تحقيق محمد زينهم ط القاهرة ط١ ص٢٠-٢٣.

٨٢- المصدر السابق نفس الصفحات.

٨٣- الرقيق: تاريخ إفريقيه والمغرب ص ١٧١ ابن عذاري البيان المغرب ج١ ص ٨٤.

٨٤- عن نسب المهالبة إلي اليمنية انظر المصادر السابقة نفس الصفحات.

٨٥- ذكر البعض أن عدد الوقائع التي وقعت بين العرب والبربر منذ ولاية عمر بن حفص المهلبي انقضاء أمرهم بلغ ثلاثمائة وخمسة وسـبعون واقعـة أنظر: ابن عذاري البيان جـ ١ ص ٧٧ السلاوي الاستقصا ج١ ص١١٩.

٨٦- نفس المصادر والصفحات.

٨٧- عن كفاءة المهالبة والأغالبة وعصبيتهم وحنكتهم السياسية انظر (البلاذري فتوح البلدان ، ص ٢٤١ ، اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي جـــ٢ ص ٣٨٦) وعن حنكتهم السياسية انظر(الرقيق ، تاريخ إفريقيه والمغرب ص١٧١).

٨٨- قامت دولة بني مدرار سنة ١٤٠ هـ / ٧٥٧ م بعد نجاح ثورة البربر في تقليص نفوذ الخلافة الأموية ثم العباسية عن المغـرب الأقصـي وبعـض الأوسط ودانت بالمذهب الصفري وأسست مدينة سجلماسه واتخذتها عاصمة (البكري ، المغرب ص ١٤٨ – ١٥٢ أحمد مختار العبادي فـي التـاريخ العباسي والفاطمي ص ٦٢.

fournel Les berberes: etude sur conquete de l' afrique par les arabes , vol.22-23 (paris1875)

٨٩- قامت دولة بني رستم الخارجية بالمغرب الأوسط سنة ١٤٤ هـ / ٧٦١ م بعد نجاح عبد الرحمن بن رستم في الفرار من جيوش العباسيين ودانت هذه الدولة بالمذهب الأباضي واتخذت من تاهرت عاصمة لها في ذلك انظر ابن الصغير ص ١٨ وما يليها.

٩٠- جمال الدين الشيال الوثائق الفاطمية ص ٤٠ الوثيقة الثالثة.

٩١- فتشمل علي عمل محدود ونظرمعهود والتقليد فيها ، يفوض عليه الخليفة أمارة بلد أو أقليم علي جميع أهله وللنظر في العهود من سائر أعماله فيصير عام النظر فيما كان محدودا- من عمال ومعهودا من نظر كما تشتمل إمارة الاستكفاء علي سبعة أمور أساسية ينظر فيها:- علي سبيل المثال : أحدهما :النظر في تدبير الجيوش وترتيبتهم في النواحي وتقدير ارزاقهم إلا أن يكون الخليفة قدرها فيذرها عليهم.

٩٢- انظر صورة الأرض ص٧٢.

٩٣- عيون الأخبار، ص١٧٦.

٩٤- المصدر السابق، نفس الصفحات.

٩٥- فرحات الدشراوى: الخلافة الفاطمية، ص٤٧١.

٩٦- الداعى إدريس، عيون الأخبار، ص٢١٧.

٩٧- أسرة بنى حمدون بالمسيلة وهم من الأوفياء أولهم حمدون المعروف بابن عبد الله الأندلسى وذلك الجاسوس الاسماعيلي ورفيق الداعى ثم ابنه الذى أمره ببناء المسيلة وهو مازال وليا للعهد لتكون حاضرة الزاب المحصنة / عيون الأخبار نفس الصفحة.

٩٨- نفس المصادر والصفحات وسينتج دور هذا الجيش المكون من قبائل عجيبة والعبيد وغيرهم فى ثورة ابن كيداد نفس المراجع والصفحة السابق ص٥٤٩.

٩٩- نفس المصادر والمرجع السابق، نفس الصفحات.

١٠٠- نهاية الأرب جـ٢٢ ص١٦٨.

١٠١- المصدر السابق نفس الجزء ص١٧٠ وكان المعز أعطاه ولاية المغرب وأعمالها أما طرابلس فكانت تابعة للقاهرة رأسا وكذلك صقلية فأعطاها أبى القاسم على بن حسن بن على بن أبى الحسين.

١٠٢- النويرى نفس الجزء ص ١٦٩.

١٠٣- نفس المصادر والجزء ص١٨٨ لمزيد من التفاصيل عن المناورات والصراعات.

١٠٤- لبدة: مدينة بين برقة وأفريقية، وقيل بين طرابلس وجبل نفوسة، وهى حصن من بناء الأول بالحجر الأجر ويسكن هذا الحصن قوم من العرب نحو ألف فارس يحاربون من حاربهم ولا يطيعون لأحد، وعن التفاصيل انظر ياقوت، معجم البلدان، جـ٤ ص٣١٨.

١٠٥- جوليان، تاريخ افريقيا الشمالية، جـ١ ص٣٦٠-٣٦٢.

١٠٦- مليانة: مدينة فى آخر إفريقية بينها وبين تنس أربعة أيام وهى مدينة رومية قديمة فى آبار وأنهار تطحن عليها الرحى عن التفاصيل انظر، (ياقوت، معجم البلدان، جـ٥ ص١٥٥).

١٠٧- جوليان، تاريخ أفريقيا الشمالية، جـ١ ص٣٦٠-٣٦٢.

١٠٨- طبنة ذكر الاصطخرى أن طرابلس من عمل إفريقية، (مسالك الممالك، ص٣٩)، وذكر ابن حوقل أن طرابلس كان قديما من عمل إفريقية، (صورة الأرض، ص٧١) والمعروف أن ابن حوقل هذا جاب أقطار الشمال الإفريقى فى منتصف القرن الرابع الهجرى.

١٠٩- ابن حوقل، صورة الأرض، ص٧١.

١١٠- لم تعرف منطقة الزاب كقسم إدارى إلا بعد الفتح الإسلامى والتنظيم العربى، إذ لم يذكرها المؤرخون ضمن التقسيمات الرومانية البيزنطية، (جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، جـ١ ص٣٦٠-٣٦٢، السيد عبد العزيز سالم، المغرب الإسلامى، جـ٢ ص٧٩-٨٠).

١١١- طبنة: تقع فى وسط بلاد الزاب جددها عمر بن حفص المهلبى، (ياقوت، معجم البلدان، جـ٦، ص٢٨) وانظر ص١-٢ من هذا البحث.

١١٢- حسن حسنى عبد الوهاب، ورقات، جـ٣ ص٣١٦.

١١٣- اليعقوبى، البلدان، ص١٠١-١٠٢.
١١٤- كاهن، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ص٩٢، الطبعة الثانية (بيروت ١٩٧٧).
١١٥- عن جبال الأوراس انظر YVER. G.: Ency of IslamK Art Awras, P.770
١١٦- الشاوية: الشاة من الغنم تذكر وتؤنث ــ والشاوية كثيرة الشاة والبعير، وأصل الشاة (شاهة) لأن تصغيرها (شويهة) والجمع (شياه) بالهاء، وهى إلى العشر، فإذا جاوزت العشر فبالتاء (شياة): فإذا كثرت قيل (الشاء) وجمع الشاء (شوى) انظر، (الرازى، مختار الصحاح، ص٢٥٣).
١١٧- لقبال، كتامة، ص١٦١ ــ ١٦٢.
١١٨- اليعقوبى، البلدان، ص٣٥١.
١١٩- نفس المصدر والصفحة.
١٢٠- عنها انظر الخريطة المرفقة.
١٢١- البكرى، المغرب، ص٦٤.
١٢٢- سطيف: مدينة تقع فى جبل كتامة بين القيروان، وتاهرت، (ياقوت، البلدان جـ٥، ص٨٢).
١٢٣- اليعقوبى، البلدان، ص١٠٣.
١٢٤- نفس المصدر والصفحة.
١٢٥- حسن حسنى عبد الوهاب، ورقات، جـ٣، ص٣١٦: ومقره مدينة بالمغرب فى بر البربر، بينها وبين مدينة طبنة ثمانية فراسخ، (ياقوت البلدان، جـ٨، ص١٢٥).
١٢٦- الصولى، أدب الكتابة، ص١١٩ وما بعدها (بغداد ١٣٤١هـ).
١٢٧- الماوردى، الأحكام السلطانية، ص١٤٣.
١٢٨- ابن خلدون، العبر، جـ٤ ص١٩٠.
١٢٩- الرقيق، تاريخ إفريقية والمغرب، ص١٣٤، ابن خلدون، العبر، ج٤، ص١٩٠.
١٣٠- البلازرى، فتوح البلدان، ص٩١.
١٣١- هويكنز، النظم الإسلامية، ص٧٦-٧٩.

١٣٢- ضياء الدين الريس، الخراج والنظم المالية والدولة الإسلامية، ص١٢٦،١٢٧ (القاهرة ١٩٧٧).

١٣٣- الماوردى، الأحكام السلطانية، ص١٦١.

١٣٤- نفس المصدر والصفحة.

١٣٥- كان عمر بن الخطاب أول من فرض الجزية على أهل برقة وإفريقية بقدر دينار على كل حالم (ابن عذارى، البيان المغرب، جـ١ ص٨، وعن برقة وفتحها انظر Despois J: Ency of Islam, Art Barka, V. 1. PP. 1048 – 1050 (1960). كما فرضت الجزية جملة على بربر لواته بمقدار ثلاثة عشر ألف دينار، (البلاذرى فتوح البلدان ص٢٢٥-٢٢٦)، وقد راعى النبى – صلى الله عليه وسلم – والخلفاء الراشدون أوضاع الناس وظروفهم فى الجزية، ووضح ذلك من خطاب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب، بما فرضه من جزية على أهل برقة وزويلة، إذ ذكر بأنه فرض عليهم ما رأى أنهم يطيقونه، (البلاذرى، فتوح البلدان، ص٢٢٦)، أما فى العصر الأموى فقد اختلف الحال، إذ زادت الجزية بحسب حاجة الخلافة إلى الأموال ولاسيما بعد أن قلت غنائم الفتوح، يؤكد ذلك رد عمرو بن العاص صاحب اخنا، حيث طلب منه أن يحدد مقدار الجزية، فرد عليه عمرو بأنه لن يحدد له مقدارها، وإنما "انتم خزانة لنا إن كثر علينا كثر عليكم، وإن خفف عنا خففنا عنكم، انظر (ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، ص٢٠٧)، وكان حسان بن النعمان أول من دون الدواوين فى إفريقية وضبط أمورها وصالح العجم ومن ظل على النصرانية منهم من البربر وضبط ذلك فى دواوين القيروان بيد أن المصادر لم تشر إلى مقدار هذه الجزية (ابن غذارى، البيان، جـ١ ص٣٨).

١٣٦- الماوردى، الأحكام السلطانية، ص١٦٦.

١٣٧- أبو يوسف، الخراج، ص٧٠.

١٣٨- قسم البعض أراضى المغرب إلى ثلاثة أنواع فيما يختص بتطبيق الخراج عليها منها: أراضى الخراج المفتوحة صلحا وأراضى الخراج المفتوحة عنوة وأراضى العشر انظر (هوبكنز، النظم الإسلامية، ص٧٥).

١٣٩- الجنحاني، دراسات مغربية، ص١٧-١٨.

١٤٠- التجاني، رحلة ص١٥٩، حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، ص٢٧٨.

١٤١- المالكي، رياض النفوس، جـ١ ص٢٧.

١٤٢- ابن خلدون، المقدمة، ص١٥١.

١٤٣- ذكر اليعقوبي "أن خراج برقة قانون دائم، كان الرشيد كلف مولى يقول له بشار، فوزع خراج الأرض، بأربعة وعشرين الف دينار، على كل ضيعة شيء معلوم، سوى الأعشار والصدقات والجوالي ومبلغ الأعشار والصدقات والجوالي حوالي خمسة عشر ألف دينار، ربما زاد أن نقص، البلدان ص٩٧).

١٤٤- ذكر الرقيق أن الرشيد أمر لمسلمة بن تميم بسجل إلى والي إفريقية "ليعلم قدره وقدر أهل بيته ويجعلهم في أوفر الصلات، ورفع عنهم الخراج فيما صار إليهم من ضياع"، (تاريخ إفريقية والمغرب، ص٢١١).

١٤٥- محمود اسماعيل، الأغالبة، ص٢٧.

١٤٦- الماوردي، الأحكام السلطانية، ص١٢٨.

١٤٧- الماوردي الأحكام السلطانية، ص١٢٨.

١٤٨- فقد أمر عمرو بن العاص عماله بأخذ الصدقات وردها على الفقراء، وأن يؤ خذ من أرض المسلمين العشر ونصف العشر، انظر (البلاذري، فتوح البلدان ص٢٢٦)، وبعد أن دون حسان بن النعمان الدواوين ولى حنش بن عبد الله الصنعاني على صدقات الناس، (المالكي، رياض النفوس، جـ١ ص٣٨، الدباغ، معالم الغيمانن جـ١ ص٦٢-٦٣)، وذكر البعض أن حنش الصنعاني كان أول من ولى عشور إفريقية في الإسلام، (ابن الفرضي، تاريخ، ص١٢٥) وكانت صدقة كل بلد تصرف في أهله، ولا يجوز نقل صدقات بلد غلى بلد غيرهن (الماوردي، الأحكام السلطانية ص١٤٠)، بينما ذكر البعض أن بني أمية تجاوزوا مبدأ أخذ الصدقات، إذ كانوا يأخذون الفريضة من غير موضعها ويضعونها في غير أهلها، (الجاحظ، البيان والتبيين، ص٢٧٦، بيروت ١٩٦٨).

١٤٩- هوبكنز، النظم الإسلامية، ص٩٠.

١٥٠- الجنحاني، دراسات مغربية، ص١٧-١٨.
١٥١- النويري: نهاية الأرب جـ٢٢ ص١٢٦ وانظر سعد زغلول تاريخ المغرب العربي جـ٢، ص١٠٦.
١٥٢- محمود اسماعيل، الأغالبة، ص٢٧.
١٥٣- البداية والنهاية، جـ١٠ ص١١١
١٥٤- ابن عذاري، البيان المغرب، جـ١ ص٧٩-٨٠.
١٥٥- انظر ابن عذاري ط١ ص١٤١-١٤٢.
١٥٦- الدشراوي: الخلافة الفاطمية بالمغرب ص٤٩١-٤٩٢.
١٥٧- الإدريسي: نزهة المشتاق جـ١ ص٢٦٣ وأنظر البكري ج٢ صـ٦٦٦ وما يليها على سبيل المثال.
١٥٨- ابن حوقل صورة الأرض ص٨٥.
١٥٩- انظر الصفحات الأولى من هذا البحث.
١٦٠- انظر المصادر السابقة نفس الأجزاء، الصفحات.
١٦١- لقبال موسى: طبنة مدينة الزاب مجلة الإصالة عدد ٤٠-٤١ ص٢٨٩: ٢٩١.
١٦٢- دمنة: بمعنى مستشفى أو دار علاج وهذا المصطلح خاص بإفريقيا: انظر: حسن حسني عبد الوهاب ورقات جـ٢، ص٣٢٠.
١٦٣- ناصر الدين سعدوني: أنواع الأراضي في القوانين العثمانية: شمال إفريقية الحضارة الإسلامية بحوث ودراسات مآب مؤسسة آل البيت ط ١٩٨٧ عمان جـ٣ ص١٦٥ وما يليها.
١٦٤- لقد كان الفينيقيون شعباً من شعوب البحر المتوسط من ناحية الشرق متعاطياً للتجارة والملاحة لكنهم أسسوا حضارة في إفريقية بتأسيسهم قرطاج ٨١٤-١٤٦ ق.م ومصارفها الشرقية ناحية تونس إلى قابس ومصارف الغربية بناحية بجاية لم تكن طبنة على أيامهم إذ أنها مدينة داخلية وليست ساحلية.
١٦٥- الحبيب الجنحاني: دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب العربي بيروت دار الغرب الإسلامي ١٤٠٦-١٩٨٦ ط٢.
١٦٦- المعيار المغرب ط٨ ص٢٠٨.

١٦٧- الرقيق القيرواني: قطعة من تاريخ إفريقية ص١٢ وانظر: عبد العزيز اللميلم حسان بن نعمان ودوره في فتح بلاد المغرب الرسالة (١٤٠٥هـ/١٩٨٥).

١٦٨- ابن أبي الضياف: إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس في عهد الأمان ط. تونس ١٣٨٣ - ط١ ص١٢٢.

١٦٩- ابن الأثير: الكامل، جـ٨ - ص٢٣٥.

١٧٠- المصدر السابق جـ ٩ - ص٥٧.

١٧١- أحسين التقاسيم ص٢١٦.

١٧٢- الاستبصار ص١٧٢-١٧٣.

١٧٣- الوسياني السير مخطوط جـ٢ ورق ١٤١-١٤٨ وانظر عبد الحليم عويس: دولة بني حماد ص٨١-٨٢.

١٧٤- ابن الأثير جزء أخبار تميم بن المعز وانظر عبد الفتاح مقلد الغنيمي موسوعة المغرب جـ٤ ص٢٣٢-٢٣٣.

١٧٥- عبد الفتاح مقلد الغنيمي، موسوعة المغرب ص١٢٣.

١٧٦- انظر المرجع السابق نفس الصفحات.

١٧٧- نفس المرجع السابق والجزء والصفحات.

١٧٨- عثمان الكعاك: مركز الثقافة: طـ جامعة الدول العربية ط١ ص٧٢،٧١.

١٧٩- المرجع السابق نفس الصفحات وأنظر إلهام دحروج مدينة فاس.

١٨٠- ليفي بروفنسال الإسلام في المغرب والأندلس ترجمة سيد سالم ص٨٩.

١٨١- ليفي بروفنسال الإسلام في المغرب والأندلس ترجمة سيد سالم جـ ١ ص٨٩- هامش وانظر عبد الحليم عويس: دولة بني حماد ص٢٥٢-٢٥٣.

١٨٢- انظر: تاريخ الجزائر العام ٣٨٤/١.

١٨٣- رابح بونار المغرب العربي صـ ١ صـ٥٤ تاريخ الجزائر ج٢ ص٢١٧.

١٨٤- البيان ج١ صـ١٤٢.

١٨٥- تحدثت: كتب التراجم الأندلسية مثل الحميدي جذوة المقدس والضبي بغية الملتمس وابن بشكوال وغيرهم وسيأتي عنهم تفاصيل خلال الصفحات التالية.

١٨٦- المصدر السابق نفس الصفحات.

١٨٧- معجم البلدان: ج٤ مادة طبنة.

١٨٨- أنظر بشكوان: الصلة.. قسم ٢صـ ٣٦٠ - ٣٦٤.

١٨٩- أبى سعد بن زيد مناة بن تميم. بطن من بطون قبيلة بنى تميم من طابخة وطابخة من عدنان وهم بنو تميم بن مر بن أد وهم بنو طابخة واسمه عمرو بن اليـاس بن مضر وسمى طابخة لأنه كان هو وأخوه فى إبل كان يرعيانهـا فأصـطاد صيداً وقعد بطبخانة فعدت عادية على إبلهما فقال عامر لعمرو. وتدارك الإبـل فجاء بها وطبخ عمرو. فلما راحا لأبيهما أخبراه بشأنهما فقال لعامر أنت مدركة وقال لعمرو أنت طابخة، فسمى عمرو طابخة من حينئذ. ولد من طابخـة مـن العدنانية وكان لأد من الولد: مر وعبد مناف وعمرو انظر: أبى العباس أحمـد القلقشندى (ت/ ٧٥٦هـ ٨٢٦م) تحقيق إبـراهيم الأبيـارى ط٣ ١٤١١هــ- ١٩٩١م صفحات ٣٥- ١٨٨- ٣٨٧-٣٢٢ وانظر ابن الفرضى تاريخ علمـاء الأندلسى ج١ القاهرة ط١ ص٦٣.

١٩٠- كعب بن مالك بن بنى سعد ابن زيد مناة بن تميم الذى كان له من الولـد: كعب، الحارث وعمرو ومالك وغيرهم من الأبناء والأحفاد انظر القلقشندى مصدر سابق ص ٢٨٥.

١٩١- انظر ج٨ من الأصل الترجمة رقم ٣٣٣.

١٩٢- ابن بشكوال: أبى القاسم خلف بن عبد الملك (٤٩٤٩-٥٧٨هـ) ط١ القاهرة ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م- القسم الأول ج٥ صـ ٣٠٩.

١٩٣- ابن بشكوال قسم ٦ من الأصل صـ ٣٧٠ ترجمة رقم ٧٨٩.

١٩٤- التميمى : بغيه الملتمس صـ ٣٧٨ ترجمة صـ ١٦٥ كما ذكر صـ ٤١ الحميدى انظر جزء ٢ من الأصل ص ٢٨٤ ترجمة ص٦٢٦.

١٩٥- ابن بشكول قسم ٢ص٣٦٠ ترجمة رقم ٤٧٤ ويقول أنه من أهل قرطبة لكـن أصله من طبنة وهو إمام فى اللغة وكانت له دراية تامة فى تفسير العلم والحديث.

١٩٦- الحميدى جـ٤ من الأصل صـ١٥٨ ترجمة رقم ٢٩٤.

١٩٧- المصدر السابق قسم ٣ من الأصل صـ ٩٩ ترجمة رقم ١٦٨.

١٩٨- ابن بشكوال قسم ٢ من الأصل صـ ٣٦٠ - ٣٦٤.

١٩٩- المصدر السابق نفس القسم هامش صـ ٣٦٤.

المصادر المطبوعة :

ابن الآبار	:	أبو عبد الله محمد بن أبى بكر القضاعى ت ٦٥٨هـ/١٢٦٠م- الحلة السيراء- تح/ حسين مؤنس- دار المعارف ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م ط٢.
ابن الأثير	:	عز الدين أبى الحسن على بن الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى المعروف بابن الأثير د/ ٦٣٠هـ - ٢٥٥م - الكامل فى التاريخ مراجعة د/ محمد يوسف الدقاق ط بيروت ١: "دار الكتب العملية ط ١٤٠٧١هـ ١٩٨٧م.
الإدريسى	:	"محمد بن محمد بن أبى عبد الله إدريس المعروف بالشريف الإدريسى من علماء القرن السادس الهجرى- الثانى عشر الميلادى "نزهة المشتاق فى اختراق الأفاق ط بيروت عالم الكتب بدون.
ابن بشكوال	:	"أبو الوشم خلف ابن عبد الملك د/ ٥٧٨هـ ١٢٠٠م "كتاب الصلة "٧" أجزاء بتقسيم المؤلف" ط القاهرة الدار المصرية للتأليف والترجمة - ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م "سلسلة المكتبة الأندلسية- ٤".
ابن بطوطة	:	"محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتى الطنجى د/ ٧٩٩هـ - ١٤٠١م "- تحفة النظار فى عجائب الأمصار- المعروف برحلة ابن بطوطة ط بيروت دار صادر ١٤١٢ هـ ١٩٩٢م.
البكرى	:	أبو عبيد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب بن عمرو البكرى (ت/ ٤٨٧هـ ١١٠٩م" المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب د سلان Deslane - ط باريس ٢٩١هـ ١٩١١م ط٢. كتاب المسالك والممالك جزءان، تح إدريان فان ليوفن أندرى فيرى- ط٢.
البلاذرى	:	"أحمد بين يحى بن جابر د/ ٢٧٩هـ- ٨٩٢م" - فتوح

البلدان- تح/ صلاح الدين المنجد – ط القاهرة- لجنة البيان العربى ١٣٧٦هـ- ١٩٥٦ نشر مكتبة النهضة العربية بالقاهرة. ط تونس الدار التونسية للكتاب ١٤١٢هـ

التجانى : "أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد د/ بعد ٧١٠هـ تقريبا- ١٣٣٧م "رحلة التجانى تقديم حسن حسنى عبد الوهاب- ط ليبيا – تونس- الدار العربية للكتاب ١٤٠٢هـ ١٩٨١م. ط٢.

ابن جعفر : "أبو الفرج قدامة د/٣٢٨هـ – ٩٤٨م "الخراج وصنعة الكتابة تح/ محمد حسن الزبيدى ط. بغداد دار الرشيد للطباعة ١٤٠١هـ ١٩٨١م ط٢.

ابن حماد : أبو عبد الله محمد على بن حماد د ٦٢٨هـ ١٢٣١م أخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم تح/ التهامى نقره وعبد الحليم عويس ط. القاهرة دار الصحوة ١٤٠١هـ ١٩٨١م.

الحميدى : أبو عبد الله محمد بن أبى مصلا فتوح بن عبد الله "ت ٤٨٨ى – ١٠٩٥م".
جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس، وأسماء رواة الحديث وأهل اللغة والأدب وذوى النباهة والشهرة – ط/ القاهرة- الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر – ١٤٨٦ى- ١٩٦٦م- ط١ "المكتبة الأندلسية – ٣".

الحميرى : "أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم د/ ٧٢٧هـ- ١٣٢٧م "كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار تحقيق إحسان عباس ط. بيروت ١٤١٠هـ ١٩٨٠م ط٢.

ابن خلدون : "عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرى المغربى- د ٨٠٨هـ – ١٤٣٠م" تاريخ ابن خلدون المسمى-

كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر- د. بيروت- مؤسس جمال للطباعة والنشر "بدون" المقدمة تح/ عبد الواحد وافى-ط القاهرة دار الشعب ١٣٨٠هـ ١٩٦١م ط١.

ابن خلكان : "شمس الدين أبو العباس أحمد- ت ٦٨١هـ - ١٢٨٢م "وفيات الأعيان وأبناء الزمان تح/ إحسان عباس فى ثمانية مجلدات ط بيروت دار الثقافة ١٣٩١هـ ١٩٧١م بدون.

الدباغ : "أبو يزيد عبد الرحمن بن محمد بن الأنصارى الأسيدى الدباغ د. ٦٩٦هـ ١٣١٨م" "أكمله وعلق عليه: أبو الفضل أبو القاسم بن عيسى بن ناجى د/٨٣٩هـ - ١٤٦١م". معالم الإيمان فى معرفة أهل القيراون تحقيق وتعليق محمد ناضور ثلاثة أجزاء- ط تونس المكتبة العتيقة والقاهرة: مكتبة الخانجى ١٣٦٨هـ - ١٩٧٨م- ط١.

الدرجينى : "ت ٦٨٠هـ ١٢٧٢م" أبى العباس أحمد بن سعيد بن خلف المزاتى طبقات مشايخ المغرب جزأن، تح/إبراهيم طلاى بيروت ١٣٩٤هـ ١٩٧٤م.

الرقيق القيروانى : أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم د بعد ٤١٧هـ - ١٠٣٩م- قطعة من تاريخ لإفريقية والمغرب تحقيق عبد الله العلى الزيدان- عز الدين عمر موسى- ط بيروت - دار الغرب الإسلامى توزيع دار الشروق بالقاهرة ١٤١٠هـ - ١٩٩١م ص١.

ابن الزبير : "أبو جعفر أحمد بن الزبير د ٧٠٨هـ - ١٣٣٠م" - صلة الصلة- روائع التراث العربى - ط بيروت - مكتبة الحياك ١٣١٩هـ ١٩٨٢م.

أبو زكريا	:	"يحى أبن بكر البراسنى السدرائى ت ٤٧١هـ - ١٠٧٨م "السيرة وخيار الأئمة تح/ عبد الرحمن أيوب- تونس الدار التونسية للنشر ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.
ابن صاحب الصلاة	:	"أبو عبد الله بن أحمد بن مسعود بن عبد الملك المعروف بأبن صاحب الصلاة ولد بشاطبة ٥٤٢هـ - ١١٦٤م - ت ٦٣٥هـ ١٢٥٧م"- تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين- السفر الثانى تحقيق عبد الهادى التازى- ط بيروت "١٤٠٧هـ ١٩٨٧م".
ابن الصغير	:	"كان معاصر للدولة الرسمية فى عهد السلطان أفلح بن عبدالوهاب الذى حكم ما بين ٢٤١هـ ٨٥٥م و ٢٨١هـ - ٩٨٤م" - تاريخ الأئمة الرستميين ط بيروت بدون.
الضبى	:	بغية الملتمس فى تاريخ رجال الأندلس ط القاهرة. دار الكتاب العربى ١٣٨٧هـ، ١٩٦٧م المكتبة الأندلسية.
ابن عذارى	:	"أبو العباس أحمد بن عذارى المراكشى من رجال القرن السابع الهجرى- الثالث عشر لميلادى"، البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ط١ تحقيق ليفى بروفنسال كولين- ط ليدن- ١٣٦٨هـ - ١٩٤٩م- ج٢ تصحيح دوزى - ليدن ١٢٦٨هـ - ١٨٤٩م- ج٣ تحقيق ليفى بروفنسال كولين- ط ليدن - ١٣٦٨هـ- ١٩٤٩م- ج٢ تصحيح دوزى- ليدن ١٢٦٨هـ- ١٨٤٩م- ج٣ تحقيق ليفى بروفنسال باريس ١٣٥٠هـ-١٩٦٧م- تح/ إحسان النسر بيروت ط. دار الثقافة ٣٧٨هـ-١٩٦٧م وقسم يخص الموحدين، تح/ محمد المزالى وآخرون نشر نطوان ٣٨٣هـ-١٩٦٣م.

عماد الدين إدريس : "الداعية إدريس عماد الدين القرشى بن عبد الله الألفى من رجال القرن التاسع الميلادى ٨٧٠هـ - ١٤١٧م- عيون الأخبار وفنون الآثار سبعة أجزاء ج٥ عن الدعوة الشيعية فى اليمن والمغرب إلى سقوط الأغالبة وعهد المهدى ج٦ فى الخلافة الفاطمية من المعز إلى المستنصر و ج٧ فى الدولة الصليحية بالمين ج٥، تح/ فرحات الدشراوى ط تونس ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م ج٧ محفوظ فى مكتبة عباس الهمدانى.

أبن الفرضى : أو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف، ت٤٠٣هـ - ١٠٢٥م "تاريخ علماء الأندلس جزءان- القاهرة الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر ١٣٨٦- ١٩٦١م "المكتبة الأندلسية- ٢".

الماوردى : "القاضى أبو الحسن على بن محمد بن حبيب البصرى البغدادى ت ٤٥٠هـ - ٩٥٧م"- الأحكام السلطانية والولايات الدينية نشر محمد فهمى السرجانى- ط القاهرة المكتبة التوفيقية ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م.

مجموعة : رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية صدرها ليفى بروفنسال- ط المغرب- المطبعة الإقتصادية- ١٣٦٠هـ ١٩٤١م.

مجموعة : الوثائق الفاطمية، تح/ جمال الدين الشيال ١٣٨٥هـ ١٩٦٥م.

المسعودى : "محمد الأبجى المسعودى"- الخلاصة النقية فى أمراء إفريقية ط تونس ١٣٢٣هـ ١٩٤٣م ط١.

المقريزى : "نصر الدين أحمد على بن تقى الدين ت ٨٤٥هـ - ١٣٧٧م "الواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية- ط بيروت بدون- السلوك لمعرفة دول الملوك نشر محمد مصطفى زيادة

ط القاهرة لجنة التأليف والترجمة والنشر ثلاث أجزاء- إتعاظ الحنفاء بذكر الفاطميين الخلفاء تحقيق محمد حلمى أحمد ط القاهرة ط٢- نشر جمال الدين الشيال ١٣٦٨هـ- ١٩٤٨م- المقفى الكبير ٨ أجزاء، تح/ محمد البعلاوى ط بيروت ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م.

ابن منظور الإفريقى : "جمال الدين أو الفضل محمد بن مكرم بن على بن أحمد بن القاسم بن منظور الأفريقى المصرى" ٦٣٠-٧١١هـ- ١٢٣٢-١٣١١م"- لسان العرب.
تح/ عبد الله على الكبير- محمد أحمد حسب الله هاشم محمد الشاذلى ستة أجزاء ط القاهرة- دار المعارف ط ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

مؤلف مجهول : كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار، لكاتب مراكشى من كتاب القرن السادس الهجرى، نشر وتح/ د سعد زغلول عبدالحميد، الإسكندرية ١٣٧٨هـ.

مؤلف مجهول : "مفاخر البربر نشر ليفى بوفنسال ط الرباط- ١٣٣٤م" وهذا المؤلف المجهول ألف كتابه فى ٧١٢هـ ١٣٣٤م.

القاضى النعمان : "أبو حنيفة بن محمد بن حيون المغربى ت٣٦٣هـ/٩٧٤م".
المجالس والمسايرات، تح/ الحبيب الفقى وإبراهيم شبوح، ومحمد اليعلاوى منشورات الجامعة التونسية ١٣٩٨م- ١٩٧٨ط رسالة افتتاح الدعوة تح/ تامر العارف ، ط بيروت ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م وط أخرى تحقيق وداد القاضى.

النويرى : "شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب البكرى النويرى ت ٣٢هـ- ١٣٦٤م". نهاية الأرب في فنون الادب واحد وثلاثون جزء تح/نخبه كبيرة من الأساتذة/

سعيدعاشور ومحمد أمين وحسن نصار وآخرون ط الهيئة العامة للكتاب سنة ١٤١٢-١٩٩٢م

ياقوت الحموى : شهاب الدين أبو عبد الله الحموي الرومي البغدادي ت ٦٢٦هـ- ١٢٤٨م " معجم البلدان خمسة أجزاء- ط بيروت دارصادر ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م . معجم الأدباء.عشرين جزء - ط القاهرة مطبوعات دار المأمون- مكتبة القراءة والثقافة الدكتور/أحمدفريد الرفاعي- مراجعة وزارة المعارف العمومية

اليعقوبى : أحمد بن أبي يعقوب بن وهب بن واضح ت ٢٨١ هـ- ٩٠٣ م - تاريخ اليعقوبي- ط بيروت دار صادر جزءان- جغرافية اليعقوبي مطبوع مع مؤلف بن رسته الأعلاق النفيسة ط بيروت - ط٢

أهم المراجع العربية والمعربة :

أحمد مختار العبادي : الحياة الاقتصادية في المدينة الإسلامية عالم الفكر المجلد ١١- العدد الأول

دراسات في تاريخ المغرب والأندلس الإسكندرية ص١١ سياسية الفاطمين نحو المغرب والأندلس - صحيفة معهد الدراسات الاسلامية مدريد مجلد١٣٧٧هـ- ١٩٥٧ م

أمين توفيق الطيبي : دراسات في تاريخ الإسلامي جزان ط ١ طرابلس١٤١٢هـ ط١ ١٩٩٥ م

بل الفريد : الفرق الإسلامية في الشمال الأفريقي- ترجمة عبد الرحمن بدوي- بنغازي ١٣٨٩ هـ ١٩٦٩ م

جورج مارسيه : بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطي- ترجمة محمود عبد الصمد هيكل- مراجعة مصطفي أبو ضيف أحمد- منشأة المعارف إسكندرية ١٤١٢ هـ- ١٩٩٢ م ط١

الحبيب الجنحاني : دراسات إقتصادية واجتماعية في تاريخ العرب ط ٢

حسن إبراهيم حسن : - تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي ٣ جزاء- القاهرة ١٣٧٧هـ - ١٩٥٧ م.
- الدولة الفاطمية مكتبة النهضة المصرية ١٤١٣ هـ ط ٥ إنتشار الإسلام في القارة الإفريقية- مكتبة النهضة المصرية ١٣٠٤هـ- ١٩٨٤ م

حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين مكتبة النهضة المصرية ١٣١٤هـ- ١٩٥٤ هـ- ١٩٨٤ م ط ٣
- دور العرب في نشر الحضارة في غرب إفريقية المجلد التاريخية المصرية مجلد ١٤- ١٣٨٨ هـ- ١٦٦٨ م القاهرة.
- محنة الشيعه بإفريقية في القرن الخامس الهجري مجلة كلية الآداب مجلد ١٢-عدد ٣ - ١٣٧٠ هـ ١٣٥٠ م

حسين مؤنس : - أطلس تاريخ الإسلام، الزهراء الأعلام العربي ، القاهرة ١٩٨٧م.
- فتح الغرب للمغرب ، الزهراء ط١
- تاريخ المغرب وحضارته الزهراء ط٢

زكي محمد حسن : - كنوز الفاطمين - القاهرة ١٣٥٦ م- ١٩٤٨ م
- فنون الإسلام- القاهرة ١٣٦٨هـ - ١٩٤٨ م

سحر سيد عبد العزيزسالم : بحوث في التاريخ الإسلامي وحضارته القاهرة - ١٤٠٣ هـ-١٩٨٣ م

سيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس دار النهضة العربية ببروت - ١٣٨٩ هـ-١٩٦٩ م ط١

سيد عبدالعزيز سالم : المغرب الإسلامي- دراسة تاريخية أثرية-إسكندرية ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦م ط ١

سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي ٣ أجزاء منشأة المعارف إسكندرية ١٤١٠هـ - ١٩٩٠ م - هامش علي مخطوط السير لأبو الربيع الوسياني- أشغال المؤتمر الأول لتاريخ المغرب وحضارته ١٣٠٨ هـ- ١٩٧٨ م

شارل أندريه جوليان : تاريخ أفريقيا الشمالية ترجمة محمد مزالي ط الدار التونسية ١٣٨٩هـ- ط١ ١٩٦٩ م

عبد الله العروي : تاريخ المغرب محاولة في التركيب جزءان- ترجمة ذوقان قرقوط بيروت ط ٢

عبد الرحمن الجيلالي : تاريخ الجزائر العام - الجزائر ١٣٥٠هـ - ١٩٧٠ م

ليفي بروفنسال :
- نخبة تاريخية جامعة لأخبار المغرب الأقصى ، ط باريس ، ط ١ ، ١٩٢٣ م
- حقق رسائل موحدية ط الرباط ١٣٥٢ هـ ١٩٤٢ م
- تاريخ الإسلام في المغرب والأندلس ترجمة سيد سالم- ط ١ القاهرة ١٣٧٨ هـ - ١٩٨٥ م

محمد الطالبي : الدولة الأغلبية - تراجم أغلبية بيروت ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م

مصطفي أبو ضيف أحمد : أثر العرب في المغرب في عصر الموحدين وبني مرين ط١ إسكندرية ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م

موسي لقبال : دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية منذ تأسيسها إلي منتصف القرن الخامس الهجري - الجزائر ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م

أهم المراجع الأجنبية :

- Heid (w.) Histoire du commerce du Levant au Moyen Age, trad. Furcy Raynaud, 2 vol., Leipzig 1936.
- Idris (H.R.), Analyse et traduction de 2 textes de l'epoque ziride, 70e Congres de l'A. F. A. S. (Tunis mai 1951), fasc. 3, 209 - 216.
- "A propos d'un extrait du kitab al - Mihad d' al - Mazari al - Iskandarani", C. T., 1953, .155-159.
- ' "Contribution a l'histoire de l'Ifrikiya. le Riyadh en-Nufus d'Abu Bakr el-Maliki", R. E. I., 1935, cah. 3, 273-305, cab. 1,45-104.
- "Contribution a l'histoire de la vie réligieuse en Ifriqiya ziride". Melanges L. Massignon, II, Damas 1957, 327 - 359.
- "Deux juristes kairouanais de l'époque ziride : Ibn Abi Zayed et al - Qabisi", A. I. E. O.,xII 122-198.
- "Essai de datation de la maqsura de la grande Mosquée de kairouan", Arabica, III, mai 1956, 214-215.
- "Essai sur la diffusion de La Chaisme en Ifriqiya", C. T., 1953, 126-140.
- "Deuxmaitres de l'école juridique kairouanaise sous les Zirides:
- Al)U Bakr Ahmad b.Abd al-Rahman et Abu Omran al-Fassi", A.S. E. 0., 1955, 28-58. "Fêtes cli-eiennes celebrees en Ifriqiya a l'époque ziride", R. A. n° 440-441,1954, 267-

276., la ivicl. (;. M;ir(;ais, II. 95-106. "La crêpllscule dc l'ecole malikite kairouanaise". C. '1'., 1956, 119-126

- "Quelquesjuristes ifriqiyens de la du Xe siecle", R. A., nos446-449,1956, 349-373. "Une des phases de la lutte du malikisme sous les zirides (XIe siecle); al- Tounisi ; juriste kairouanais et celebre fatwa sur les chiites", C. T.,. 1956, 508- 517. "Sur le retour des zirides a l'obédience fatimide", A. I. E. 0., xl, 1953, pp. 25- 39. "L'Ecole malekite de Mahdia: L'Imam al-Mazari", Memorial E. Levi- provencal. "Problematique de l'epoque sanhadjienne en Berberie orientale", A. I. E. 0., 1959, 243-255.

رحلات الحجاج الأوربيين

إلى الدول الصليبية فى الشرق الإسلامى

(٤٩٢-٥٨٣هـ/١٠٩٩-١١٨٧م)

د. حسن أحمد عبدالجليل البطاوى

مدرس تاريخ العصور الوسطى

كلية الآداب ـــ جامعة أسيوط

لقد أدى نجاح الحملة الصليبية الأولى إلى زيادة الرغبة لدى جماعات كثيرة من الأوربيين للرحيل إلى الدويلات الصليبية في الشـــرق الإســـلامى، وقـــد دأب المؤرخون الغربيون و الشرقيون المعاصرون على تعريفهم باسم الحجـــاج طـــوال عصر الحروب الصليبية، كما أطلق عليهم المؤرخون الشرقيون أحيانا " الفـــرنج الغرباء". ولم يكن هؤلاء الأوربيون الوافدون إلى الشرق حجاجا بالمعنى المعروف لكلمة " حاج" بما تحمل من الورع والتقوى، فإذا كانت هذه الجماعات قد ضـــمت أناسا رحلوا من الغرب لزيارة الأماكن المقدسة فى الشرق، فإنهـــا ضـــمت أيضـــا الكثير من المغامرين، سواء من النبلاء أومن الفقراء. وكانت هذه الجماعات مؤلفة من الرجال والنساء والأطفال جاءوا من بلدان أوربية مختلفة. كما جاءت جماعات كانت مؤلفة من فرسان و مشاة مقاتلين، وجاءت جماعات من رجال بارزين مـــن نبلاء الغرب الأوربى، واصطحبوا هم أيضا زوجاتهم فى هذه الرحلات. وقد جرت عادة هؤلاء الوافدين على حمل الأسلحة التقليدية والبدائية، وغالبا ما كانوا يشاركون الصليبيين المقيمين فى الشرق قتالهم ضد المسلمين، وكان قتالهم للمسلمين جزءا من طقوس زيارتهم للأرض المقدسة، وبمجرد وصولهم إلى الشرق كانوا يسألون " أين المسلمون حتى نقتلهم "[1].

ولقد اختلفت رحلات الحجاج أوالوافدين الجـــدد عـــن الحمـــلات الصـــليبية الضخمة المعروفة، والتى قادها أباطرة أو ملوك أوأمراء أوربيون، فقد كانت هذه

الجماعات قليلة العدد، وضعيفة العدة. وكانت رحلاتهم تأتى بصورة شبه مستمرة، ولاتكاد سنة تخلو من قدوم إحدى الرحلات. ثم إن كثيرا ما كانت هذه الرحلات تأتى بدون قيادة بارزة، فكانوا يخرجون فرادى وجماعات ولاتجمعهم إلا ظروف الرحلة. وقد لعبت جماعات الحجاج أوالوافدين الجدد دورا بارزا و مؤثرا فى تاريخ منطقة الشرق الأدنى، وفى العلاقات بين الشرق والغرب فى عصر الحروب الصليبية، وبخاصة فى الفترة الأولى للاستيطان الصليبى فى الشرق، أى منذ استقرارهم فى الشرق وحتى معركة حطين (٤٩٢-٥٨٣هـ/ ١٠٩٩-١١٨٧م). فكانت هذه المعركة حدا فاصلا فى تاريخ الحروب الصليبية، كما كانت كذلك بالنسبة لرحلات الحجاج الوافدين من الغرب الأوربى.

دوافع قدوم جماعات الحجاج أوالوافدين الجدد :

لقد استمرت رحلات الحجاج أو الوافدين الجدد فى القدوم من أوربا إلى الشرق طوال عصر الحروب الصليبية، وقد توافرت فى أوربا عوامل الطرد التى دفعت هؤلاء الأوربيين إلى الرحيل إلى الشرق. كما توافرت عوامل الجذب لهذه الجماعات داخل الدول الصليبية .

بداية فإن رحلات هؤلاء الأوربيين الوافدين الجدد كانت تضم فريقا من الحجاج الذين قصدوا الشرق لزيارة الأماكن المقدسة. فقد أدى نجاح الصليبيين فى إقامة إماراتهم فى الشرق ــ الرها وأنطاكية ومملكة بيت المقدس وطرابلس[٢] ــ أدى إلى إثارة العاطفة الدينية لدى جموع غفيرة من الأوربيين، وبدأت الأرض المقدسة فى فلسطين تستقبل الجماعات المتعددة التى وفدت من أقطار أوربية مختلفة. وأخذت رحلات الأوربيين تتوالى بصورة شبه مستمرة، حيث أصبحت الأرض المقدسة ــ وهى المكان المحبب إلى النفوس ــ فى حوزة الصليبيين وميسورة الزيارة [٣].

ووجد الأوربيون من يثير عاطفتهم الدينية، ويرغبهم فى الرحيل إلى الشرق لمشاركة الصليبيين المستوطنين فى الدفاع عن الأرض المقدسة، فأخذ رجال الدين فى اللعب على الوتر الدينى لإثارة شعوب الغرب الأوربى. وكان البابا أوربان الثانى[٤] قدوة هؤلاء الرجال الذين لعبوا هذا الدور، وأخذ البابا بسكال الثانى[٥] القيام بنفس الدور. وجرت سياسة البابوية على تشجيع رحلات الحج إلى الأرض المقدسة

بالشرق، وتقديم المساعدة للصليبيين المستوطنين هناك. وكانت البابوية تنشط لهذه الدعوة عندما كان يصاب الصليبيون فى الشرق بكوارث حربية على أيدى المسلمين[٦].

ورأى ساسة ورجال الدين فى الدول الصليبية أيضا فى رحلات الحج دعما حربيا ومعنويا لهم ضد أعدائهم. وكانوا يرحبون بجماعات الحجاج، ويشجعونهم على الاستيطان بالشرق[٧] ومن ذلك أننا نجد فوشيه دى شارتر[٨] – وهو من رجال الدين – قد كتب فى تاريخه يذكر قراءه ببطولات الصليبيين الأوائل الذين اتبعوا نهج الكتاب المقدس، وتخلوا عن مباهج الحياة، وهجروا الأهل والأحباب والممتلكات فى أوربا. ويرى فوشيه أن حديثه سوف يدفع المخلصين إلى اتباع أسلافهم، فيهجرون أوطانهم ويذهبون إلى الشرق فى حماس[٩].

ولذا فقد نشطت رحلات الحج بصورة واضحة، كما وجد التجار الإيطاليون من أهل جنوة والبندقية وبيزة، والذين يملكون وسيلة النقل البحرى، وجدوا بغيتهم فى نقل هؤلاء الحجاج. ولم تكن رحلات الحج تضم الحجاج الفقراء فقط، بل قامت شخصيات بارزة من أبناء الغرب الأوربى بزيارة الأماكن المقدسة فى الشرق، وكانوا يصطحبون زوجاتهم و فرسانهم وحاشيتهم، ثم كانوا يعودون سريعا إلى أوطانهم. هذا فضلا عن أن بعضهم قام بأكثر من رحلة حج إلى الشرق[١٠]. وظلت هذه الجماعات تأتى إلى الشرق حتى قبيل معركة حطين[١١]. ولذلك اعتبر البعض أن الحروب الصليبية هى امتداد لرحلات الحج المسلح التى جرت قبل الحملة الصليبية الأولى[١٢]، وإن كان هذا الرأى يفتقر إلى الصواب، لأن هذه الجماعات لم تكن إلا جزءا من الحركة الصليبية التى هى فى طبيعتها حركة استعمارية لاستيطان أراضى الشرق ونهب ثرواته[١٣].

ثم إن نجاح الحملة الصليبية الأولى لم يكن دافعا لأولئك الحجاج فقط، وإنما أثار هذا النجاح حماس فريق آخر من المغامرين الذين بهرتهم أخبار الشرق. وقد قص الصليبيون العائدون إلى أوربا بعد الحملة الصليبية الأولى القصص والروايات التى نسجوها بخيوط من المعجزات الإلهية ومعجزات القديسين، وامتلأت هذه الأساطير بالحديث عن روائع الشرق وغرائبه، وما يحتويه من ثروات ؛ مثل الأراضى، والمنتجات الزراعية الهامة التى تأتيه من الهند والشرق الأقصى وتدخل

باهظة الثمن إلى الغرب الأوربى، هذا فضلا عما سمعوه عن الأسلاب والغنائم التى أسالت لعاب المغامرين، على حين رحل بعض الفقراء ليتخلصوا من الحياة المتدنية أملا فى حياة أفضل بالشرق، كما شجعت الحركة الصليبية بعض الأوربيين الخاضعين لقيود العبودية والرق. ولم يبال هؤلاء المغامرون والفقراء والأرقاء بالأهوال والصعاب التى سمعوا عنها، ولا بالأعداء الذين يتربصون بهم الدوائر، وشمرت جماعات منهم عن ساعدى الجد ورحلوا إلى الشرق[١٤].

وكان رحيل هؤلاء المغامرين على اختلاف طبقاتهم إلى الشرق بدافع الطمع وسعيا وراء امتلاك الأراضى والإقطاعات. فقد وجد نفر من هؤلاء الوافدين المغامرين الفرص المناسبة للبقاء بالشرق، وكانت صلة القرابة التى ربطت بعض الوافدين بأقربائهم من الصليبيين القدامى المقيمين فى الشرق، هى التى شجعتهم على الاستيطان داخل الدول الصليبية. ومن ذلك على سبيل المثال أن جوسلين دى كورتيناي[١٥] عندما رحل إلى الشرق كان فقيرا، لا يملك أرضا ولا مالا، وقد أنقذه قريبه بلدوين دى بورج أمير الرها[١٦] فقام فى سنة ٤٩٦هـ/١١٠٢م بمنحه إقطاعا شاسعا فى إمارة الرها[١٧]. وعندما وفد إلى مملكة بيت المقدس هيو دى بوسييه[١٨] فى عهد الملك بلدوين الثانى ٥١٢ - ٥٢٥هـ /١١١٨- ١١٣١م وكان يمت إليه بصلة قرابة، فقد أقطعه الملك مدينة يافا بملحقاتها وجعلها إرثا فى ذريته، وما لبث هيو أن مات، وكان قد ترك وليدا صغيرا فى أوربا حمل نفس اسمه. ولما أصبح هيو الصغير شابا رحل إلى مملكة بيت المقدس فى عهد الملك فولك دى أنجو ٥٢٥-٥٣٨ هـ/١١٣١-١١٤٣م[١٩] والتمس من الملك أن يمنحه إقطاع يافا الذى ورثه عن والده فمنحه إياه[٢٠].

وكان هناك بعض الوافدين الجدد الذين رحلوا إلى الشرق بقصد الزواج من إحدى الأميرات أو الأرامل صواحب الإقطاعات فى الدول الصليبية. فمنهم من استدعى للزواج من إحدى وريثات الحكم، ومنهم من رحل للبحث عن زوجة تكون صاحبة إقطاع. وعلى سبيل المثال، فقد وقع الاختيار على فولك دى أنجو ليكون زوجا للأميرة ميليسند ابنة بلدوين الثانى، ووصل فولك إلى المملكة فى سنة ٥٢٣ هـ / ١١٢٩م[٢١]، واستدعى ريموند دى بواتيه للزواج من كونستانس ابنة بوهمند الثانى أمير أنطاكية، وقدم ريموند فى سنة ٥٣٠ هـ/ ١١٣٦م[٢٢]. وبعدما قتل

ريموند سابق الذكر فى سنة ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م تزوجت الأميرة من أحد الوافدين الجدد من الغرب الأوربى، وهو رينو دى شاتيون (أرناط) وتم الزواج فى سنة ٥٤٨ هـ/ ١١٥٣م[٢٣]. كما تم استدعاء وليم بن وليم دى مونتفرات[٢٤] للزواج من سبيلا أخت الملك بلدوين الرابع[٢٥] والوريثة الشرعية لعرش مملكة بيت المقدس، وتم الزواج فى سنة ٥٧٢هـ/ ١١٧٦م، ومالبث وليم أن توفى بعد الزواج بقليل تاركا زوجته حاملا[٢٦]. وكان أن وصل إلى مملكة بيت المقدس جاى دى لوزنيان[٢٧] ونجح جاى فى الزواج من الأميرة الأرملة سبيلا فى سنة ٥٧٦هـ/ ١١٨٠م، وأصبح جاى هذا ملكا على بيت المقدس فى سنة ٥٨٢ هـ/ ١١٨٦م، وقاد الصليبيين فى معركة حطين[٢٨].

وكان استنجاد الصليبيين القدامى المقيمين فى الشرق بأهل الغرب الوربي دافعا هاما من دوافع تنشيط رحلات جماعات الوافدين الجدد إلى الشرق. فقد ظل الصليبيون فى الشرق يعانون من النقص فى القوى البشرية، وظلت قلة السكان اللاتين داخل الدويلات الصليبية مشكلة تهدد بقاء هذه الدويلات، وكانت هذه المشكلة على رأس الأمور التى طالما ناقشها حكام الصليبيين فى الشرق. وأصبح العجز فى القوى البشرية عاملا محركا لسياسات الصليبيين، فكثيرا ما أرسلوا الوفود والخطابات إلى الرجال البارزين فى الغرب الأوربى، وعلى رأسهم البابوات وملوك فرنسا وإنجلترا وصقلية وأباطرة ألمانيا، يطلبون منهم مد يد المساعدة للكيانات الصليبية. وعلى الرغم من أن الصليبيين فى الشرق كانوا يريدون حملات ضخمة تقدم لهم المساعدة الفعالة، فإن استنجادهم بالأوربيين لم يدفع إلا جماعات صغيرة العدد للرحيل إلىالشرق، وفى أحيان أخرى لم يستجب لهم أحد من الأوربيين.

وتفصيل ذلك، أن الصليبيين كانوا يدركون قلة أعدادهم فى الشرق بالمقارنة بالمسلمين، فعلى الرغم من مبالغات مؤرخى الحملة الصليبية الأولى فى الأعداد التى خرجت إلى الشرق فى هذه الحملة، فإن أعداد الذين وصلوا سالمين إلى الشرق كانت بالغة القلة. ثم إن الممتلكات الصليبية كانت موزعة على مساحات واسعة من أرض الشرق، كما كانت معزولة عن بعضها البعض، وكأنها جزر متناثرة وسط محيط من الأعداء. ومن هنا عاش الصليبيون فى الشرق فى قلة عددية، وكانوا

يدركون الحاجة الماسة للمساعدة البشرية من الغرب الأوربى، ولم تشهد أعـدادهم الزيادة الملموسة إلا عندما كانت تأتى إلى الشرق الحملات الصليبية الكبرى(٢٩).

فنجد مثلا أن أعداد الصليبيين فى مملكة بيت المقدس بعد غزو المدينة فـى ٤٩٢هـ /١٠٩٩م، وبعد الانتصار على الفاطميين فى أغسطس من نفـس العـام، بلغت أعدادهم حوالى ثلاثمائة فارس، ولم يتجاوز مشاتهم ألفين(٣٠). وقد تقلص هذا العدد بعد ذلك بوقت قصير حسب رواية فوشيه دى شارتر(٣١). وقس علـى ذلـك أعداد الصليبيين فى إمارتى الرها وأنطاكية. ومن هنا كان الصليبيون يدركون مدى الحاجة إلى الوافدين الجدد لتدعيم وجودهم فى الشرق(٣٢).

وقد برزت خطورة مشكلة نقص القوى البشرية لدى الكيانات الصليبية أثنـاء المواجهات الحربية مع أعدائهم المسلمين فى الشرق. فإنهم كانوا يعـانون معانـاة شديدة من أجل جمع الفرسان القليلين، والذين سيضطرون إلى ترك أماكن حراساتهم خاوية بلا مدافع. ثم إن عزلة الممتلكات الصليبية وتناثرها وسط أراضى وممتلكات المسلمين عمق لدى الصليبيين الإحساس بالحاجة إلى جماعات الحجاج أو الوافدين الجدد، فكان من الصعب على الصليبيين فى الرها وأنطاكية تقديم العون لإخـوانهم فى المملكة والعكس صحيح. كما كان الانتقال من مدينة صليبية إلى مدينة أخـرى بالغ الخطورة، إذ إن خطر المقاومة الشعبية التـى قـام بهـا السـكان المسـلمون الخاضعون للغزو الصليبى، أصاب السكان اللاتين بالذعر، وأصـبحوا لا يـأمنون السير فى الطرق العامة مخافة أن يلقوا الهلاك على أيدى المسـلمين(٣٣). وينـدب فوشيه حظ الصليبيين بسبب قلة أعدادهم وأنهم لم يحصلوا على النجدة من إخوانهم أبناء الغرب الأوربى، ويخشى أنه لو عرف الأعداء قلة أعدادهم فسوف يطبقـون عليهم(٣٤).

وتعود أسباب قلة أعداد الصليبيين فى الشرق؛ إلى أن المشاركين فى الحملة الصليبية الأولى الذين وصلوا إلى الشرق سالمين كانوا قلة، بعدما تعرضوا للعديـد من المحن أثناء الطريق. ولما كان مصير ممتلكاتهم التى استولوا عليها قد تقرر فى ساحة القتال، وبالتالى زهقت أرواح فريق منهم فى العمليات الحربية. هذا فضـلا عن أن نسبة المواليد بينهم فى الشرق كانت منخفضة، على عكس نسبة الوفيات. ثم إن عددا ليس بالقليل من المشاركين فى الحملة الصليبية الأولىعادوا إلى أوطانهم،

بعدما رأوا أنهم قد بروا بقسمهم الدينى، كما أن بعضهم لم يفضل الحياة فى الشرق فى ظل الأوضاع المضطربة والحياة غير الآمنة[٣٥]. فلم تقتصر العودة على أولئك الذين قدموا فى الحملة الصليبية الأولى، بل امتدت هذه العدوى لتشمل الصليبيين الذين استقروا فى الشرق، ولمسوا بأنفسهم خطورة الحياة بين أعداء يحيطون بهم من جوانب عدة. وعندما ازدادت أعداد الفارين من مملكة بيت المقدس اضطر الملك بلدوين الأول ٤٩٤ -٥١٢هـ /١١٠٠-١١١٨م إلى إصدار قرار يقضى بمنع الصليبيين الذين أمضوا عاما ويوما بعده من العودة إلى أوربا[٣٦].

وقد حاول الصليبيون فى الشرق وضع بعض الحلول لعلاج العجز فى القوى البشرية، فقاموا ببناء العديد من القلاع والحصون، واستعانوا ببعض فرق المسيحيين المحليين فى بعض العمليات الحربية، وعملوا على توطينهم داخل مستعمراتهم، وبخاصة فى مملكة بيت المقدس[٣٧]. وهذه الحلول لم تغط احتياجات الصليبيين من القوى البشرية، ومن ثم كانت رحلات الحجاج التى تأتى من أوربا بالغة الأهمية برغم قلة أعدادهم.

ومن هنا دأب ساسة الصليبيين القدامى فى الشرق على إرسال الوفود والخطابات إلى الرجال البارزين فى الغرب الأوربى أمثال البابوات والملوك والأمراء ، يرجونهم إرسال الفرسان إلى الدول الصليبية. وكان الصليبيون القدامى حريصين على أن يذكروا أولى الأمر فى أوربا بأن بقاءهم فى الشرق من صميم العقيدة ، وأن الحفاظ على الأرض المقدسة يخص كل المسيحيين ، فعلى الجميع أن يبذلوا ويضحوا من أجل المحافظة على الميراث الدينى. وقد استغل الفرنج المستوطنون فى الشرق روابطهم العائلية مع نبلاء الغرب الأوربى لتشجيعهم على القدوم إلى الشرق[٣٨].

وأثناء العقدين الأول والثانى من القرن الثانى عشر الميلادى كانت المقاومة الإسلامية للغزو الصليبى فردية ومحدودة ، وبالتالى كانت السفارات التى يرسلها الصليبيون إلى الغرب الأوربى لطلب المساعدة قليلة، ثم ازدادت أعداد سفاراتهم مع ازدياد تعرضهم للمخاطر من جانب المسلمين. فقد خرجت سفارة فى سنة ٥١٧ هـ/ ١١٢٣ م عقب أسر كل من جوسلين دى كورتيناى ثم بلدوين الثانى[٣٩].

وعندما بدأت تتنامى قوة زنكى ، اضطر الملك بلدوين الثانى إلى إرسال وفد رفيع المستوى في سنة ٥٢٣هـ / ١١٢٩م ، وقد تجول هذا الوفد بين ملوك وأمراء أوربا يطلبون منهم تجنيد حملة صليبية لإنقاذهم فى الشرق، وقد استجابت جماعة من الأوربيين لهذه الدعوة، وعندما وصلوا إلى الشرق، شاركوا فى الحصار الفاشل لمدينة دمشق سنة ٥٢٤هـ/١١٣٠م[٤٠] .

وكلما تنامت قوة المسلمين أحس الصليبيون بالحاجة إلى مساعدة الغرب الأوربى ، ويزداد إلحاحهم في طلب هذه المساعدة. ففى سنة ٥٣١هـ/ ١١٣٧م انتصر زنكى على جيوش الصليبيين مجتمعين بقيادة الملك فولك وريموند الثانى أمير طرابلس أمام قلعة بارين (بعرين)[٤١] التى كانت ملكاً للصليبيين ، ووقع أمير طرابلس أسيراً ، وفر الملك فولك إلى بارين ، ثم إنه لم يستطع مقاومة حصار زنكى فسلم القلعة إليه وخرج منها. وترتب على هذه الكارثة قيام القسوس والرهبان بالالتجاء إلى بلاد الروم وبلاد الفرنج وما والاها من بلاد النصرانية مستنفرين على المسلمين[٤٢]. كما خرجت سفارة بعد سقوط الرها فى يد عماد الدين زنكى سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م[٤٣]. وبعد فشل الحملة الصليبية الثانية فى أن تقدم المساعدة المرجوة للصليبيين فى الشرق أرسل إيمرى ليموج بطريرك أنطاكية اللاتينى خطابا إلى لويس السابع ملك فرنسا فى سنة ٥٥٩هـ/ ١١٦٤م[٤٤]، يناشده أن ينقذ شعبه فى الشرق ، ويرسل حملة من الفرسان تعوض ما فقدوه من الرجال[٤٥].

ومع نجاح نور الدين محمود فى ضم مصر إلى ممتلكاته بالشام سنة ٥٦٤هـ/١١٦٩م، عقد الصليبيون إجتماعاً لبحث الموقف الخطير الذى يواجهونه ، ورأوا أنهم أصبحوا تحت سطوة نور الدين محمود ، وأن هذا الموقف يتطلب المزيد من الفرسان المقاتلين ، وتقرر أن يرسلوا سفارة إلى الغرب الأوربى ، لتوضيح خطورة موقفهم وحاجتهم إلى المساعدة. وخرجت هذه السفارة تحمل الرسائل إلى كل من فردريك الأول بربروسا إمبراطور ألمانيا ولويس السابع ملك فرنسا وهنرى الثانى ملك إنجلترا ووليم الثانى النورمانى ملك صقلية ، فضلاً عن بعض الأمراء ، ولم تحرز هذه السفارة شيئا من النجاح[٤٦]. كما عقد الملك أمورى الأول اجتماعا في سنة ٥٦٦هـ/١١٧١م لمناقشة مشكلة نقص القوة البشرية ، وتقرر فى هذا الاجتماع إرسال سفارة إلى الغرب الأوربى لاستنفارهم ضد المسلمين ، بل إن

الملك أمورى نفسه ذهب إلى بيزنطة لنفس الغرض ، ولكن كل هذه الجهود لم يقدر لها التوفيق[٤٧].

ولم يمنع فشل السفارات السابقة الصليبيين من إرسال المزيد من المناشدة والإلحاح إلى الأوربيين لإرسال الفرسان والمقاتلين إلى الشرق. ففي سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م أى قبل معركة حطين بقليل ، خرجت سفارة إلى فردريك الأول وهنرى الثانى يطلبون خروجهم بحملة صليبية لإنقاذ الدول الصليبية من تهديدات صلاح الدين الأيوبى ، ولم يستجب لهذه السفارة أيضاً إلا أعداد قليلة[٤٨]. وعلى الرغم من أن هذه السفارات فشلت فى أن تكرس حملة صليبية كبيرة، إلا أنها كانت دافعاً لجماعات الحجاج صغيرة العدد للرحيل إلى الشرق.

وبعد فإن رغبة بعض المسيحيين الأوروبيين في زيارة الأماكن المقدسة في الشرق. وأطماع فريق من المغامرين الأوربيين فى الثراء، والتخلص من حياة البؤس فى أوربا. واستنجاد الصليبيين القدامى المقيمين فى الشرق بأهل الغرب الأوروبى ، كل هذه النقاط مجتمعة هى العوامل التى دفعت جماعات الحجاج أو الوافدين الجدد إلى القيام برحلاتهم إلى الشرق.

وقد ظلت جماعات الحجاج أوالوافدين الجدد تفد إلى الشرق بصفة شبه مستمرة، ولم تنقطع أو تتقلص هذه الرحلات إلا أثناء الحملات الصليبية الكبرى، التى يشتعل أثناءها الصراع بين المسلمين والصليبيين ، وتزداد فرص الخطر على هذه الجماعات قليلة العدد والعدة[٤٩]. وعندما أسف وليم الصورى[٥٠] على فشل الحملة الصليبية الثانية ، فإن حزنه كان أعمق لما ترتب على هذا الفشل من نتائج؛ إذ لم تأت حملات صليبية أخرى تعوض هذا الفشل، وما جاء إلى الشرق إلا أفراد قلائل ، هم جماعات الحجاج أوالوافدين الجدد، كما أنهم لا يطيلون مكثهم مع الصليبيين القدامى فى مستعمراتهم[٥١].

رحلات الحجاج :

عندما استطاع الأتراك السلاجقة القضاء على الحملة الصليبية سنة ٤٩٤هـ/١١٠١م داخل أسيا الصغرى ، أصبح الطريق البرى بالغ الخطورة على جماعات الحجاج أوالوافدين الجدد قليلة العدد. ولم يعد أمام هؤلاء الوافدين سوى

اتخاذ الطريق البحرى عبر البحر المتوسط[٥٢]. وكان بعض الوافدين مـن شـمال غرب أوربا يسلكون الطريق البرى عبر سهول روسيا حتى يصلون إلـى البحـر الأسود، ومنه إلى القسطنطينية ثم يركبون البحر إلى موانى بلاد الشام[٥٣].

وكان الطريق البحرى عبر البحر المتوسط هو الطريق الأساسى والمعـول عليه، وقد وجدت المدن الإيطالية البحرية - جنوة والبندقية وبيزة - بغيتها فى نقل جماعات الحجاج أوالوافدين الجدد، وكانت هذه المدن على أتم استعداد للقيام بهـذه المهمة ، حيث توافر لديهم مايكفى من السفن، وهو الأمر الذى سوف يزيد أرباحهم وينمى تجاراتهم. ومن هنا دخلت هذه المدن فى منافسات محمومة لجذب أكبر عدد من الراغبين فى السفر إلى الشرق، كما تنافسوا أيضا على امتلاك المرافئ علـى ساحل بلاد الشام. ونجح الملاحون الإيطاليون إلى حد كبير فى السـيطرة علـى حركة النقل بين أوربا والشرق ، ورغم سيطرة المدن الإيطالية البحرية على حركة نقل الوافدين الجدد ، فإن بعض المدن الفرنسية البحرية مثل مرسـيليا ومونبلييـه زاحمتهم فى نقل هذه الجماعات[٥٤].

وكان المسافرون يذهبون إلى الموانى قبل موعد السفر ، ويتجولون داخـل المدينة للاطلاع على الدعاية التى كان ينظمها أصحاب السفن لجذب المسـافرين. فيتعرف المسافرون على قائد السفينة وطاقم الملاحين، ويتعرفون على شـئ مـن مهاراتهم فى قيادة السفينة، ثم يتجولون داخل السفينة للتعرف على سعتها ومتانتها، ويعرض الملاحون مميزات السفر على سفينتهم والوجبات التى تقدم للمسـافرين، وما إلى ذلك من مستلزمات السفر. وكان المسافرون إلى الشرق يحجزون أماكنهم على السفن التى وقع اختيارهم عليها ، وينتظرون فى الفنادق المخصصة لإقـامتهم بالقرب من الميناء ، حتى تبدأ الرياح المصاحبة لسفنهم فى الهبوب[٥٥] ولم يـنس فريق من هؤلاء المسافرين نصيبهم من الدنيا، فقد رأى بعضهم أن يستغلوا مثل هذه الرحلة فى القيام ببعض الأعمال التجارية التى تعود عليهم بالنفع، وتعوضهم عـن نفقات السفر[٥٦].

وقد جرت العادة بأن تخرج رحلتان فى العام من مـوانى أوربـا، وذلـك لارتباط حركة الملاحة فى هذه العصور بالرياح. وكانت الرحلة الأولى تقوم فـى فصل الربيع، وكانت مواعيد وصول السفن إلى موانى الشـرق حسـب الأحـوال

الجوية والأمنية التى تعترض الرحلة. أما الرحلة الثانية فكانت تقوم فى فصل الصيف، وتحديداً قبل إنتهاء شهر يونيه، وكانت تؤجل أيضا فى بعض الأحيان إلى شهر أغسطس أو سبتمبر، وكانت تتفاوت مواعيد وصول الرحلة الثانية أيضا، حسب مواعيد قيام الرحلة وظروفها، فكانت بعض السفن تصل فى أواخر الصيف والبعض الآخر فى الخريف[٥٧].

أما عن مواعيد عودة هذه الرحلات من الشرق إلى الغرب، فكانت تعود رحلتان فى العام أيضاً ، وكانتا تنطلقان فى فصل الربيع والخريف، ويذكر ابن جبير أن السفر لا يكون إلا فيهما[٥٨]. فرحلة الربيع تبدأ من نصف أبريل، وفى بعض الموانى مثل الإسكندرية كانت السفن تتحرك قبل ذلك، وفى هذا الفصل تتحرك الرياح الشرقية التى تدفع السفن غربا. ويظل هبوبها إلى آخر شهر مايو تقريبا. أما مدة هبوب هذه الرياح فى فصل الخريف فتكون قصيرة، وغالباً ما تكون فى شهر أكتوبر[٥٩].

وكانت الرحلات تخرج على أشكال متعددة، فبعض الجماعات كانت تخرج على ظهر سفينة منفردة، وبعضها خرج فى أساطيل صغيرة مكونة من ثلاث أو أربع سفن[٦٠]. وكانت السفن تسلك طريقاً موازيا للساحل الأوربى الجنوبى، تجنبا لمخاطر الإبحار فى أعالى البحر المتوسط. ولم يكن هذا الطريق يخل من المخاطر أيضاً، إذ كانت بعض السفن تتعرض لخطر القراصنة الذين يعدون كمائنهم على الجزر غير المأهولة بالسكان. وقد استخدمت جزر البحر المتوسط كمحطات لهذه السفن، فتتوقف عندها للتزود بالطعام والشراب، وإصلاح ما قد يعطب من السفن أثناء الرحلة، وكانت أهم هذه الجزر سردينيا وصقلية ورودس وقبرس[٦١].

وقد تفاوتت مدة الرحلة التى تقطعها السفينة فى الذهاب والإياب، وكان هذا التفاوت راجعاً إلى ظروف الطقس التى تواجه الرحلة. كما كانت مدة الرحلة مرتبطة بالمسافة التى تقطعها السفينة والطريق الذى تسلكه. فالرحلات التى تأتى من شمال غرب أوربا كانت تدخل مضيق جبل طارق، ثم تلتزم شاطئ جنوب أوربا خشية المخاطر، وبالتالى كانت هذه السفن تقطع المسافة من أسبانيا إلى سواحل بلاد الشام فى فترة طويلة. وعندما تجاسر ملاحو هذه السفن بعد ذلك فى أواسط القرن الثانى عشر الميلادى واتخذوا طريقهم فى أعالى البحر، أى من أسبانيا

إلى الساحل الشامي مباشرة، عندئذ لم تستغرق الرحلة أكثر من خمسة عشر يوما[٦٢] فنجد أن ابن جبير والمسافرين معه على متن السفينة القابعة فى ميناء عكا، توقعوا أن تقطع السفينة رحلتها حتى تصل أسبانيا فى عشرة أيام أو خمسة عشر يوما[٦٣].

وكان الملاحون حريصين على أمن وسلامة المسافرين، إذ كانت بعض الرحلات الكبيرة تصاحبها سفن حربية سريعة تتولى حراستها، وتحمل خيول المسافرين وأعلافها. كما كان الأمن والنظام على ظهر السفينة مسئولية الملاحين، ولم يكن هؤلاء الملاحون يتورعون عن ترك المسافرين الفقراء على إحدى الجزر التى يتوقفون عليها، وذلك إما لتخفيف أثقال السفينة، أو لندرة الطعام والشراب المتبقى على ظهرها[٦٤]. كما كان للرحلة فى عرض البحر أعراف متبعة، فمن ذلك أن قائد السفينة كان يستولى على أموال وممتلكات من يموتون على ظهر السفينة[٦٥].

أما عن أعداد جماعات الحجاج أوالوافدين الجدد، فإن المصادر تشير إلى أن العقدين الأول والثانى من القرن الثانى عشر الميلادى شهدا وصول أعداد كبيرة من سفن الوافدين الجدد إلى الشرق [٦٦]. وقد اختلفت أعداد السفن فى الرحلة الواحدة، كما اختلفت أيضاً أعداد المسافرين من سفينة إلى أخرى. فكانت بعض السفن لهـا القدرة على حمل ما يزيد على " ألفى إنسان " حسب رواية ابن جبير [٦٧] كما بالغ البعض فى تقدير أعداد المسافرين على متن عدة سفن، فذكر أن عدد المسافرين فى هذه الرحلة ستة عشر ألف مسافر[٦٨]. فى الوقت الذى وصلت فيه جماعات من الوافدين لم يزد عددهم عن خمسة وستين فرداً[٦٩] .

وإذا تناولنا تقدير عدد المسافرين على ظهر سفينة واحدة، فإننا نعتبر أن تقدير ابن جبير لأعداد المسافرين الأوربيين الذين صاحبوه فى رحلته تقديراً قريباً من الصواب، فابن جبير شاهد عيان، ومرافق لهؤلاء المسافرين طيلة ثلاثة أشهر فى عرض البحر. ونأخذ مثالا آخر على تقديرات المؤرخين المعاصرين لأعداد المسافرين على متن إحدى المراكب، وهى المركب التى جنحت إلى شاطئ دمياط فى سنة ٥٧٨هـ /١١٨٢م، فقد قال وليم الصورى أنها كانت تحمل ألفا وخمسمائة حاج[٧٠]. وقال ابن الأثير أن عدداً كبيراً من ركابها غرق بعد جنوحها، ووقع ألف وستمائة وست وستون فى الأسر[٧١]. وعندما ذكر ابن العبرى خبر هذه السفينة، قال

إن عدد ركابها ألفان وخمسمائة[٧٢]. أما المقريزى فقال أن من وقع فى الأسر من ركاب هذه السفينة بلغ ألفاً وستمائة وتسعون نفساً، هذا فضلاً عمن غرق[٧٣].

وإذا كان هناك تفاوت فى الأعداد التى ذكرها هؤلاء المؤرخون عن ركاب هذه السفينة، فإن هذا التفاوت ليس شاسعاً، كما أنه أمر وارد، وخاصة إذا وضعنا فى الاعتبار مبالغة المؤرخين المعاصرين عموماً فى ذكر الأعداد، وإهمالهم للدقة فى أحوال كثيرة من هذا الجانب. وعموماً فإن أعداد المسافرين كانت تختلف من سفينة إلى أخرى، وهذا يعود بالدرجة الأولى إلى التفاوت فى أحجام السفن وقدرتها على الحمولة، وإلى ظروف قيام كل رحلة[٧٤].

وهذه الأعداد لا يصح اتخاذها على رحلات الرجال البارزين من نبلاء الغرب الأوروبى الذين قصدوا الشرق، فقد جرت عادة هؤلاء الرجال على اصطحاب أتباعهم من الفرسان والمشاة، من أجل القيام ببعض الأعمال الحربية فى الأرض المقدسة. فعندما وصل سيجورد ملك النرويج إلى يافا فى سنة ٥٠٤ هـ / ١١١٠م كان معه أسطول يضم خمسا وخمسين سفينة[٧٥] كما قام بعض النبلاء برحلات حج صغيرة العدد، ولم يصطحبوا معهم إلا زوجاتهم، وبعض الفرسان من الحرس الخاص[٧٦].

وعندما استقر الصليبيون فى الشرق، عملوا جاهدين على أن يظل اتصالهم بأوروبا مستمراً، فنجحوا فى الاستيلاء على بعض الموانى فى البداية، والتى لم تكن آمنة ولا صالحة بالقدر الذى يتيح للسفن الكبيرة دخول المرافئ. وظل الصليبيون يستولون على موانى الساحل الشامى مدينة تلو الأخرى، وكان سقوط صور فى سنة ٥١٨ هـ / ١١٢٤ م إيذانا بسيطرتهم على الساحل الشامى، ثم كان تمام هذه السيطرة بسقوط عسقلان فى سنة ٥٤٨ هـ / ١١٥٣ م لتكون آخر مدن الساحل الشامى جميعاً. ومن هنا كانت المرافئ الصالحة لرسو السفن على أتم استعداد لاستقبال المزيد من رحلات الحجاج[٧٧].

وقد سلكت جماعات الحجاج طرقاً معينة فى الشرق، فعندما استولى الصليبيون على يافا سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م أصبحت هى الميناء الرئيسى لاستقبال هذه الجماعات، ومنها يتجهون إلى بيت المقدس. وبعد سقوط عكا فى أيدى الصليبيين سنة٤٩٧ هـ /١١٠٤ م احتلت مكان الصدارة بين موانى الصليبيين فى

الشرق، واتجهت إليها سفن الحجاج، هذا فضلا عن دخول موانى شامية أخرى فى خدمة البحرية الصليبية، مثل صيدا وبيروت وطرابلس ثم عسقلان، وذلك بعد أن سقطت هذه الموانى فى أيديهم. وكان الحجاج أو الوافدون الجدد بعد نزولهم إلى أرض الشرق يقومون بزيارة الأماكن المقدسة فى بيت المقدس وشرق الأردن وبيت لحم وغيرها، وعادة ما كانوا يتوجهون إلى الإمارات الصليبية الاخرى فيزورون بعض مدنها. وقد دأب الحجاج بعد ذلك على مشاركة إخوانهم الصليبيين القدامى فى بعض العمليات الحربية ضد المسلمين، وذلك إتماما لمناسك الحج[٧٨].

الأخطار التى تعرضت لها رحلات الحجاج :

وقد تعرضت رحلات الحجاج للعديد من الأخطار، سواء أثناء رحلتى الذهاب والإياب فى البحر، أو خلال فترة إقامتهم فى الشرق. أما عن الأخطار التى تعرضوا لها أثناء ركوبهم البحر، فقد تمثلت فى الأحوال الجوية، فإذا هبت الرياح مواتية، أى متفقة مع اتجاه السفن، سارت الرحلة فى هدوء، سواء كانت المراكب شراعية أو ذات مجاديف. وكان مكمن الخطورة عندما تأتيهم ريح عاصف، وجاءهم الموج من كل مكان، وبالتالى تجنح السفن أو تتعرض للغرق بمن عليها[٧٩].

وعلى سبيل المثال ما حدث في سنة ٤٩٥هـ/١١٠٢م عندما هبت عاصفة قوية أدت إلى جنوح "مراكب للإفرنج " وكانت تقل كثيرا من المسافرين، فوقع معظمهم أسرى في أيدى السلطات الفاطمية[٨٠]. وغرق مركبان كبيران في سنة ٥١٢هـ/ ١١١٨م وكان على ظهرهما عدد كبير من الفرسان[٨١]. وفى سنة ٥٥٢هـ/١١٥٧م قذفت الريح بمركب للفرنج إلى شواطئ الإسكندرية، فتم القبض على المركب ومن عليه[٨٢]. كما هبت ريح عاصف فى سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م ألقت بسفينة للفرنج إلى ساحل دمياط فغرق خلق كثير من ركابها، وأخذ الباقون أسرى[٨٣]. وقد جرى على سفينة الجنوية التى استقلها ابن جبير سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م من الأهوال ما يشيب لها الولدان، وغرق بعض ركابها، ثم تحطمت السفينة تماما أمام شواطئ صقلية بعد إنقاذ ركابها[٨٤].

وكانت القرصنة خطرا على حركة النقل في البحر المتوسط عموما وعلى رحلات الحجاج أيضا، ولكن ما كان أخطر من ذلك بكثير على سفن هذه الجماعات هو أساطيل رجال المقاومة الإسلامية. فقد كانت مراكب المسلمين تخرج من

الموانى الشامية التى لم تسقط بعد في أيدى الصليبيين، وتقوم بالهجوم على مراكب هؤلاء الوافدين، وكثيراً ما ظفرت هذه المراكب بغنيمتها. ومع سيطرة الصليبيين على كل الساحل الشامى، انتقل مركز المقاومة البحرية للمسلمين إلى السواحل المصرية، وازدادت هذه المقاومة نشاطاً بعدما نجح نور الدين محمود فى ضم مصر إلى ممتلكاته ببلاد الشام فى سنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٩م، ولم يعد البحر المتوسط طريقاً أمناً للسفن التى تحمل جماعات الوافدين. وقد تألم وليم الصورى لهذا الوضع، وأعرب عن أساه عندما رأى أن نور الدين محمود أصبح قادرا على قطع الطريق على الوافدين الجدد أو الحجاج ومنعهم من المجئ إلى الشرق[٨٥].

وتفصيل ذلك، أن السفن التى كانت تقل جماعات الحجاج فى بداية غزو الصليبيين لبلاد الشام، كانت تأتى إلى ميناء يافا خلسة ، وذلك خوفاً من القراصنة ومراكب المسلمين[٨٦]. وعندما فقد المسلمون قوتهم البحرية أمام الساحل الشامى بفقدانهم موانى هذا الساحل، أصبح عبء المقاومة البحرية للمسلمين ملقى على عاتق الأسطول المصرى. الذى دأب على الخروج لاصطياد مراكب الوافدين من الغرب الأوربى. ففي سنة ٥٢٠هـ/١١٢٦م جاب الأسطول المصري سواحل بلاد الشام بحثاً عن فريسة، وقد اشتبك مع مراكب الصليبيين فى بيروت التى خرجت لكف أذاه عنهم[٨٧].

كما خرج الأسطول المصرى فى عدد كبير من المراكب في ربيع أول سنة ٥٤٦هـ/يونيو ١١٥١م رداً على قيام الصليبيين بغارة على الفرما[٨٨] فأغار على يافا، فقتل وأسر وأحرق ما وجده في الميناء، واستولى على مراكب للفرنج، ثم أغار على عكا وفعلوا فيها مثلما فعلوا فى يافا " وقتلوا من الحجاج وغيرهم خلقاً عظيماً " ثم قصدوا صيدا وبيروت وطرابلس وفعلوا فيها مثل ذلك. ووعدهم نور الدين محمود بالاتجاه ناحية الساحل حتى يعين الأسطول على "تدويخ الإفرنجية"[٨٩] وفى سنة ٥٥٠هـ/١١٥٥م خرج الأسطول المصرى فى خطة محكمة دبرها قائد الأسطول، إذ قام باختيار جماعة يتحدثون لغة الفرنج، وألبسهم لباس الفرنج، ثم قصدوا ميناء صور فقتلوا جماعة من الصليبيين، واستولوا على غنائم وفيرة، وأحرقوا المراكب الموجودة بالميناء، وأثناء عودة الأسطول وجدوا مراكب الوافدين فظفروا بها[٩٠].

ثم إن دخول مصر ضمن ممتلكات نور الـدين محمـود أعطـى البحريـة المصرية قوة ونشاطاً، كما عملت بالتنسيق مع الجيش في البر، ثم ازداد الأسطول المصرى قوة فى عصر صلاح الدين الأيوبى (٥٦٤ - ٥٨٩هـ/١١٦٩- ١١٩٣م). وقد حاول الصليبيون استخدام معاهدات الصلح مع حكـام المسـلمين لكـف أذى الأسطول المصرى، وحماية مراكب جماعات الوافدين الجدد. فقد جرى توقيع عدة اتفاقيات بين الصليبيين من ناحية، ونور الدين محمود ثم صلاح الدين الأيوبى من ناحية أخرى، وكان الصليبيون حريصين على أن تحقق هذه الاتفاقيات قـدراً مـن الأمن والسلامة لجماعات الوافدين الجدد[٩١].

وكانت هذه الاتفاقيات تنص على العمل بالأعراف البحريـة، ومـن هـذه الأعراف أنه اذا تعرضت مركب أحد الطرفين للكسر، ودخلتها المياه، ويكون هـذا الحادث فى أحد موانى الطرف الآخر، أصبح من حق صاحب الميناء أن يسـتولى على هذا المركب بما فيه وبمن عليه. وغالبا ما كان هذا القـانون سـبباً لخـرق الاتفاقيات، ففى سنة ٥٦٧هـ/١١٧٢م استولى الصليبيون على مركبين مصـريين داخل ميناء اللاذقية، وادعوا أن المركبين انكسرا، ودخلتهما المياه، ولم يعيدا هذين المركبين إلا بعد أن أغار نور الدين محمود عليهم عدة غارات عنيفة[٩٢]. وواصل الأسطول المصرى نشاطه البحرى ضد مراكب الفرنج الوافدة من الغرب الأوربى، فظفر بمركب فى سنة ٥٧٥هـ/١١٨٠م[٩٣]. كما استولى على مركب آخر فى ذى الحجة سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م[٩٤] . وفى المحرم سـنة ٥٧٩هـ/ أبريـل١١٨٣م استولى على مركب آخر وأخذ الوافدين الذين على ظهره أسرى[٩٥].

أما عن الأخطار التى تعرضت لها جماعات الحجاج على أرض الشرق، فقد نالتهم من جوانب عدة ؛ إذ كانت هذه الجماعات هدفاً لرجال المقاومة الإسـلامية، سواء الفرق العسكرية للحكام المسلمين، أو رجال المقاومة الشـعبية فـى المـدن والقرى التى خضعت للصليبيين، وبعض أبناء البدو الذين أضيروا من هذا الغـزو. وقد استغل رجال المقاومة الإسلامية جهل هؤلاء الحجاج بجغرافية البلاد والمسالك والدروب بين الجبال والأحراش وفى الصحارى. وكان أكثـر الطـرق تعرضـاً للأخطار هو الطريق الواصل بين الساحل وبين بيت المقدس، فضلاً عـن بعـض الطرق داخل مملكة بيت المقدس. ولم يكن أمام قادة الصليبيين سوى التدخل لتأمين

طرق الحجاج وحمايتهم من أخطار رجال المقاومة الإسلامية. وقد وجد الصليبيون أن وضع الحاميات العسكرية لحراسة الطرق أمراً غير كاف، فلجأوا إلى بناء القلاع والحصون حول الطرق التى يرتادها الحجاج. وكان الملك بلدوين الأول واسع النشاط من أجل تأمين هذه الطرق، فقام بوضع الحاميات العسكرية على طرق الحجاج، كما كان يخرج بنفسه لقتال رجال المقاومة الإسلامية[٩٦].

وظلت حركة المقاومة الإسلامية طوال عصر بلدوين الأول تهدد جماعات الحجاج، وفى عصر بلدوين الثانى، وعندما تأسست جماعة الداوية سنة ٥١٣هـ/١١١٨م كان من مهامها حفظ المسالك والدروب العامة، وجعلها أمنة من الأخطار لحماية الحجاج[٩٧]، ورغم ذلك فقد ظلت الطرق الممتدة من يافا إلى بيت المقدس غير أمنة. وشهدت وسائل الأمن تطوراً كبيراً فى عصر الملك فولك، إذ أكثر من بناء القلاع على طرق الحجاج لحمايتهم من رجال المقاومة الإسلامية، وخاصة رجال حامية عسقلان[٩٨]. وإذا كانت الطرق فيما بين الساحل وبين المقدس قد أصبحت أكثر أمناً بعد استيلاء الصليبيين على عسقلان سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣ م. فإن حركة المقاومة الإسلامية ظلت تترصد هؤلاء الحجاج فى الطرق والمسالك الداخلية، مستغلين فى ذلك جهلهم بجغرافية البلاد[٩٩].

ولم يكن الحجاج هدفاً لحركة المقاومة الإسلامية المنظمة فحسب، بل تعرضوا للأخطار نتيجة للكمائن التى كان ينصبها لهم السكان المسلمون على امتداد الطرق، ومن ذلك أن جماعة يبلغ عددهم فيما بين سبعمائة إلى ثمانمائة من الرجال والنساء والأطفال وقعوا غنيمة باردة فى أيدى المسلمين، وذلك عندما ضلوا الطريق ليلاً، ودخلوا مدينة شيزر خطأ بدلاً من وصولهم إلى أفامية[١٠٠] وكانت للصليبيين، فوقعوا بين قتيل وأسير[١٠١].

هذا فضلاً عن الأخطار التى تعرض لها الحجاج من جانب المواطنين المسلمين الذين خضعوا لسيطرة الصليبيين، وقبلوا الحياة تحت حكمهم، فقد ذكر أسامة بن منقذ فى مذكراته بعض العمليات الفدائية التى قام بها مواطنون مسلمون، فحكى أن أحد المصريين أعد كميناً على طريق بيت المقدس، وقد خرج هذا الكمين على جماعة من الحجاج الفرنج، وواجه هذا المصرى رجلاً وإمرأته، فقتل الرجل، أما المرأة فقد أصابته. وحكى أيضاً قصة المرأة المسلمة وابنها اللذان كانا يعيشان

فى مدينة بيت المقدس تحت حكم الصليبيين " وكان ابنها يحتال على حجاجهم ويتعاون هو وأمه على قتلهم " وقبضت السلطات الصليبية عليهما، وقدموهما للمحاكمة التى قضت بسمل أعينهما[١٠٢].

دور جماعات الحجاج في الشرق :

وقد لعبت جماعات الحجاج دورا هاما ومؤثرا فى الشرق، ففى الفترة التى كان يقضيها هؤلاء الوافدون مع الصليبيين فى الشرق، كانوا يقدمون العون الحربى للقوات الصليبية فى صراعهم ضد المسلمين، فشاركوهم فى اقتحام بعض المدن، كما شاركوا فى صد غارات المسلمين. وكان الوافدون من الرجال البارزين يشاركون فى القتال رغبة فى تحقيق المكاسب المادية التى سعوا من أجلها. وإلى جانب هذا الفريق من النبلاء، فقد شارك فريق آخر من الوافدين الجدد فى القتال ضد المسلمين، دون أن يكون لهم أطماع فى الشرق، ومن أمثال هؤلاء سيجورد ملك النرويج، الذى شارك فى غزو صيدا سنة٥٠٤هـ/١١١٠م ولم يطلب من الصليبيين القدامى سوى توفير المؤن لرجاله[١٠٣]. على أن جماعات الحجاج من الفقراء الذين ساهموا فى العمليات الحربية للصليبيين فى الشرق، كانوا يتقاضون أجوراً مقابل مشاركتهم فى القتال[١٠٤].

وقد رأى الوافدون الجدد أو الحجاج أن واجبهم الدينى يقضى عليهم أن يقدموا العون والمساعدة الحربية لإخوانهم الصليبيين المقيمين فى الشرق، ضد أعداء الدين أى المسلمين. وعلى الرغم من قصر مدة إقامة هذه الجماعات فى الشرق، فإنهم لم يبخلوا بالمشاركة فى العمليات الحربية التى كان الصليبيون القدامى فى أمس الحاجة إليها. فقد كان الفضل لجماعات الحجاج فى إنقاذ بلدوين الأول من هزيمة ساحقة فى معركة الرملة الثانية سنة ٤٩٦هـ/١١٠٢م ضد الفاطميين[١٠٥]. كما استعان بهم بلدوين الأول فى تحقيق الكثير من انجازاته، فقد شاركه جماعة منهم فى سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م فى مهاجمة صيدا، وانصرف عنها بعد حصوله على مبلغ كبير من المال تعهد به أهل المدينة[١٠٦]. ثم كان نجاح الصليبيين فى الإستيلاء على هذه المدينة بفضل معونة أحد هؤلاء الحجاج وهو ملك النرويج[١٠٧].

كما شاركت جماعات من الحجاج فى صد غارات مودود[١٠٨] على الصليبيين فى سنة ٥٠٥هـ/١١١١م و٥٠٧هـ/١١١٣م[١٠٩]. وعندما استجاب بعض الأمراء

من الغرب الأوربى لاستغاثات الصليبيين فى الشرق، وصلت جماعة كبيرة منهم سنة ٥٢٣هـ/١١٣٠م واجتمع الصليبيون القدامى مع الوافدين الجدد وقرروا حصار مدينة دمشق، ولكنهم فشلوا فى الإستيلاء عليها[١١٠]. وكان أهم نجاح حققه الصليبيون بمساعدة الحجاج هو استيلاؤهم على عسقلان سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م[١١١].

وكان تييرى كونت فلاندرز[١١٢] أحدالرجال البارزين فى الغرب الأوربى، وقد رحل إلى الشرق عدة مرات، وشارك الصليبيين فى عملياتهم الحربية ضد المسلمين. وكانت أهم أعماله فى الشرق عندما شارك جيوش الحملة الصليبية الثانية فى حصارها الفاشل لمدينة دمشق سنة ٥٤٣هـ /١١٤٨م[١١٣] وفى سنة ٥٥٢هـ /١١٥٧م عاد تييرى إلى الشرق وشارك فى الحملة التى خرجت إلى شيزر وعلى رأسها بلدوين الثالث ورينو دى شاتيون (أرناط) أمير أنطاكية، وريموند الثالث أمير طرابلس، وثوروس الثانى أمير قيليقية الأرمنى[١١٤]. وحدث أمام شيزرمثلما حدث أمام دمشق سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م، وذلك عندما قرر الملك بلدوين الثالث إقطاع شيزر بعد الاستيلاء عليها لزوج أخته الأمير تييرى الوافد حديثا إلى الشرق، ولكن ما جرى من خلاف بين الصليبيين حال دون الاستيلاء على المدينة. وكما شارك تييرى الصليبيين فى الشرق حروبهم أثناء رحلتيه المذكورتين، فإنه شاركهم حروبهم فى باقى رحلاته. وكذلك ابنه فيليب كونت فلاندرز الذى وصل إلى الشرق بجماعته سنة ٥٧٣ هـ /١١٧٧م، وشاركهم فى بعض الأعمال الحربية[١١٥].

وقد ظلت جماعات الحجاج على جارى عاداتهم فى مشاركة الصليبيين القدامى فى أعمالهم الحربية ضد المسلمين، سواء فى بلاد الشام أو فى مصر. وكان الصليبيون القدامى ينتظرون قدوم هذه الجماعات بفارغ الصبر، وكانوا يؤجلون عملياتهم الحربية إلى حين وصول سفنهم من الغرب الأوربى. ولم ينقطع أمل الصليبيين القدامى فى وصول جماعات كبيرة تكون فائدتها للدول الصليبية أكثر نفعًا[١١٦].

ولقد كانت إقامة هؤلاء الحجاج أوالوافدين الجدد فى الشرق قصيرة، فلم تتعد إقامة الجماعة منهم بضعة أشهر فى أغلب الأحيان، وزادت فترة إقامة البعض حتى بلغت سنة أو سنتين. وكما حاول ساسة الصليبيين فى الشرق جذب المزيد من

الوافدين الجدد، فإنهم حاولوا أيضا تشجيع من وصل منهم إلى الشرق على الإقامة الدائمة، ليسدوا النقص في القوى البشرية من السكان اللاتين، ويستعينوا بهم في الحروب والأنشطة الأخرى. وعلى الرغم من أن بعض الوافدين تكررت زياراتهم للشرق، إلا أنهم لم يفضلوا البقاء به، ولم يبق في الشرق من هؤلاء الوافدين إلا قلة قليلة(١١٧) .

وكانت الحالة الأمنية للممتلكات الصليبية بالشرق من أهم الأسباب التي دفعت جماعات الحجاج إلى العودة السريعة إلى أوربا، حتى إن بعض الذين قرروا الاستيطان في الشرق اضطروا إلى هجرة هذه المستوطنات والعودة إلى أوطانهم، على الرغم من محاولات القادة الصليبيين، سواء علمانيين أو دينيين، تشجيع الاستيطان ومنع عودة المستوطنين. وقد انعكست الحالة الأمنية على كافة أنشطة الصليبيين السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ولم تعد حياة الغزاة تطاق تحت سماء الشرق. ثم إن نظرة الشك والريبة المتبادلة بين الصليبيين القدامى المقيمين في الشرق وبين الوافدين حديثا ألقت بظلالها على العلاقة بينهما وعجلت برحيل الوافدين. ويضاف إلى ذلك أن الظروف المناخية للشرق، والتي تختلف كثيراً عن الأجواء الأوربية، أدت إلى نفور بعض الوافدين من البقاء في الشرق(١١٨).

وبعد، فإن جماعات الحجاج أو الوافدين الجدد كانت تختلف عن الحملات الصليبية الكبرى ؛ فقد كانت هذه الجماعات صغيرة العدد، وقليلة العدة، كما أنها أخذت طابع الاستمرارية، فضلا عن أن الكثير من هذه الجماعات كانوا يخرجون دون قيادة بارزة. فقد خاض هؤلاء الحجاج غمار الصعاب من أجل الوصول إلى الشرق، وتحقيق ما يطمحون إليه من أهداف وأطماع. وفي خلال الفترة التي كان يقضيها الحجاج في الشرق، لعبوا دوراً بارزاً داخل الدول الصليبية. كما تباينت طبائع هذه الجماعات عن طبائع الصليبيين القدامى المقيمين في الشرق.

هوامش البحث

١- فوشيه دى شارتر : تاريخ الحملة إلى بيت المقدس، ترجمه قاسم عبده قاسم بعنوان : الوجود الصليبى فى الشرق العربى، الكويت ١٩٩٣م، ص ١٨٦، ١٨٧، ٢٢٤، ٢٤١، ٢٤٢ ؛ وليم الصورى : الأعمال التى تمت فيما وراء البحر، ترجمه حسن حبشى بعنوان : الحروب الصليبية، أربعة أجزاء، القاهرة ١٩٩١ـ ١٩٩٥م، ج ٢ ص ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٩٠، ٣٠٣، ج٣ ص ٦٨، ٣٥٥.

Roger of Hoveden , the Annals , comprising the History of England , trans. Henry T. Riley ,2 vols. New York 1968 ,vol. 2 , pp. 62 ,63

- ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق، مكتبة المتنبى القاهرة، بدون تاريخ ص ١٤١، ١٤٣ ؛ أسامة بن منقذ : الاعتبار، حرره فيليب حتي، برنستون ١٩٣٠م، ص ٦٩؛ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، دار الكتاب العربى، بيروت، بدون تاريخ، ج ٨ ص ٢١٨، ٢٢١، ٢٦٠، ٣٢٩، ج ٩ ص ٨٥، ١٤٢ ؛ أبوشامة : كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق : محمد حلمى محمد أحمد، القاهرة ١٩٦٢م، ج ١ ق ٢ ص ٧٠٦ ؛ النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب، ج ٢٨ حققه : محمد محمد أمين ومحمد حلمى محمد أحمد، القاهرة ١٩٩٢م، ص ٢٦٣ .

-Bridge , the Crusades ,New York ,1982 pp. 135 ,137 .

٢- وعن تأسيس هذه الإمارات راجع : فوشيه : المصدر السابق، ص ١١٨، ١٢٠، ١٥٢، ١٨٥، ٢٣٦، ٢٣٧ ؛ المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمة حسن حبشى، دار الفكر العربى، القاهرة ١٩٥٨م، ص٦٤؛ ريموند أجيل : تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ترجمة حسين محمد عطية، الطبعة الأولى، الإسكندرية ١٩٩٠م، ص ١٢٠ ؛ توديبود : تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، ترجمة حسين محمد عطية، الطبعة الأولى، الإسكندرية ١٩٩٨م، ص ٣١٨، وليم الصورى : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٧٩.

3- Phillips ,J. ,the Latin East 1098 - 1291 , in the Oxford illustrated history of the crusades .ed.Riley - Smith ,Oxford 1995. p.118

ـ باركر (إرنست) :الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، الطبعة الرابعة بيروت، ١٩٦٧م ص٤١ .

٤- أوربان الثاني : انتخب بابا سنة٤٨١هـ/ ١٠٨٨م، ودعا إلى الحروب الصليبية ضد المسلمين في مجمع كليرمونت بفرنسا سنة٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م، وتوفي سنة٤٩٤هـ/ ١٠٩٩ م. سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى، ج١ الطبعة السابعة، القاهرة ١٩٧٨ م ص٣٤٩، ٣٥١ .

٥- بسكال الثاني : خلف أوربا الثاني على كرسي البابوية سنة٤٩٤هـ/١٠٩٩م، وظل يباشر وظيفته حتى وفاته سنة٥١٢هـ/١١١٨م. سعيد عاشور : المرجع السابق، ج١ ص٣٥١، ٣٥٤.

6- Hefele , Histoire des Conciles ,V , Paris 1912. pp. 807 , 808 ,809 .

رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، الطبعة الثالثة، بيروت ١٩٩٣، ج ٢ ص ٣٨، ٣٩٨.

٧- البيشاوى (سعيد عبدالله جبريل) : الممتلكات الكنسية في مملكة بيت المقدس الصليبية، الإسكندرية ١٩٩٠م، ص ٦٥، ٦٦، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٩٤، ٢٩٧.

٨- فوشيه دى شارتر : هو قسيس من شارتر بفرنسا، حضر مجمع كليرمونت٤٨٨هـ/ ١٠٩٥ م، وشارك في الحملة الصليبية الأولى، وأصبح قسيسا لحملة بلدوين البولوني، فصاحبه إلى الرها ثم إلى بيت المقدس حيث توفي بها سنة٥٢١هـ/ ١١٢٧م. وعرف فوشيه بتاريخه الذى كتبه عن الحملة الصليبية الأولى، والفترة المبكرة للوجود الصليبي في الشرق. انظر: السيد الباز العريني : مؤرخو الحروب الصليبية، القاهرة ١٩٦٢م، ص ٣٨، ٣٩.

٩- فوشيه : المصدر السابق، ص ٨١ .

١٠- فوشيه : المصدر السابق، ص ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٣ ؛ وليم الصوري : المصدر السابق، ج ٢ ص ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٣ ؛ ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص٢٦٠ ؛ النويري : نهاية الأرب، ج ٢٨ ص ٢٦٨.

11- Hoveden ,op. cit. , pp. 62 ,63.

١٢- براور : الاستيطان الصليبي في فلسطين، مملكة بيت المقدس، ترجمة عبد الحافظ البنا، القاهرة ٢٠٠١م، ص ٢٣١ .

١٣- سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج١ص ٢٥.

١٤- براور : عالم الصليبيين، ترجمة قاسم عبده قاسم ومحمد خليفة حسن، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٨١م، ص١٣٨، ١٣٩ ؛ زابوروف (ميخائيل) : الصليبيون في الشرق، ترجمة إلياس شاهين، موسكو ١٩٨٦م، ص١٥٦، ١٥٧ ؛ باركر : الحروب الصليبية ص ٤١، ٧٣.

Phillips,op.cit.p118.

١٥- جوسلين دي كورتيناي : هو أحد الوافدين الجدد الذين استوطنوا الشرق، وقد حصل على إقطاع في إمارة الرها، ثم حدث خلاف بينه وبين بلدوين دي بورج كونت الرها فطرده بلدوين. واتجه جوسلين إلى مملكة بيت المقدس فأقطعه الملك بلدوين الأول إقطاعا بها، وبعد وفاة بلدوين الأول سنة٥١٢هـ/ ١١١٨ م انتقل بلدوين دي بورج ملكا على بيت المقدس، وانتقل جوسلين أميرا على الرها، وظل يحكمها حتى وفاته سنة٥٢٦هـ/ ١١٣١ م. وليم الصوري : الحروب الصليبية، ج ٢ ص ٢٣٩، ٣٠٦، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣٣٨، ج ٣ ص ٩٥.

١٦- بلدوين دي بورج : تولى إمارة الرها سنة ٤٩٣هـ/ ١١٠٠م بعد انتقال بلدوين البولوني ملكا على بيت المقدس، ثم توج ملكا على بيت المقدس سنة ١١١٨ باسم بلدوين الثاني، وذلك بعد وفاة بلدوين البولوني(الأول). وكانت وفاة بلدوين الثاني سنة ٥١٢هـ/ ١١٣١م ؛ فوشيه : الوجود الصليبي في الشرق، ص ١٨٥، ٢٦٩ ؛ وليم الصوري : المصدر السابق، ج ٣ ص ٧٧.

١٧- وليم الصورى : المصدر السابق، ج ٢ ص ٢٣٩ ؛ علية الجنزورى : إمارة الرها الصليبية، القاهرة ٢٠٠١م، ص ٩٥.

١٨- هيو دى بوسييه : هو أحد نبلاء أورليان بفرنسا، وكان يمت بصلة قرابة للملك بلدوين الثاني، وعندما رحل إلى الشرق أقطعه الملك يافا بملحقاتها، ومات هيو بعد ذلك بقليل ؛ وليم الصورى : المصدر السابق، ج ٣ ص ١١٧، ١١٨.

١٩- الملك فولك : هو فولك بن فولك كونت تورين ومين وأنجو بفرنسا، وقد استدعاه الملك بلدوين الثانى للزواج من ابنته ميليسند، وتم الزواج بعد وصول فولك إلى المملكة سنة٥٢٣هـ/ ١١٢٩ م، وبعد وفاة بلدوين الثانى توج فولك ملكا على بيت المقدس سنة٥٢٥هـ/ ١١٣١ م، وظل يحكم المملكة حتى وفاته سنة٥٣٨هـ/ ١١٤٣ م ؛ وليم الصورى : المصدر السابق، ج ٣ ص ٦٥، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٢١٥ .

٢٠- وليم الصورى : المصدر السابق، ج ٣ ص ١١٧، ١١٨.

٢١- رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية، ج ٢ ص ٢٨٣، ٢٨٤ .

٢٢- وليم الصورى : الحروب الصليبية، ج٣ ص ٧٣، ١٠٣، ١٠٤، ١٢٦، ١٢٧ ؛ ابن الأثير : الكامل ج٨ ص ٣٣٢.

أما بوهمند الثانى : هو ابن بوهمند بن روبرت جويسكارد النورمانى، قدم بوهمند الثانى إلى الشرق سنة٥٢٠هـ/ ١١٢٦ م وتولى حكم أنطاكية، وتزوج من أليس ابنة بلدوين الثانى بعد وصوله إلى الشرق مباشرة. وفى سنة٥٢٤هـ/١١٣٠م لقى بوهمند مصرعه على يد فرقة من قوات غازى الدانشمند السلجوقى ؛ وليم الصورى : المصدر السابق، ج٣ ص ٥٨، ٧٢؛ رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية، ج٢ ص ٢٩٢ ؛ أما ريموند دى بواتيه : هو ابن وليم التاسع دوق أكيتانيا، والذى وقع عليه الاختيار ليكون زوجا لكونستانس أرملة بوهمند الثانى أمير أنطاكية، وكان وصوله إلى الشرق سنة٥٣٠هـ/ ١١٣٦ م وظل يحكم أنطاكية حتى مقتله على يد نور الدين

محمود فى معركة إنب سنة ٥٤٤ هـ/١١٤٩ م ؛ وليم الصورى : المصدر السابق، ج٣ ص ١٢٦، ٣٢٣.

٢٣- وليم الصورى : المصدر السابق، ج٣ ص ٣٢٣، ٣٥٩ ؛ ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٠٥ ؛ أما رينو دى شاتيون الذى تسميه المصادر العربية أرناط : فهو فارس فرنسى مغامر جاء إلى الشرق بصحبة الملك لويس السابع سنة٥٤٣هـ/ ١١٤٨ م، وتخلف فى الشرق، وفى سنة٥٤٨هـ/ ١١٥٣ م نجح أرناط فى الوصول إلى قلب كونستانس أرملة ريموند دى بواتيه وأميرة أنطاكية، وتزوجها وأصبح حاكما لهذه الإمارة. وفى سنة٥٥٥هـ/ ١١٦٠م وقع فى أسر نور الدين محمود وظل أسيرا حتى سنة٥٧٣هـ/ ١١٧٧ م، ثم تزوج من الأرملة صاحبة إقطاع الأردن، وكانت نهايته على يد صلاح الدين الأيوبى عندما وقع أسيرا فى معركة حطين ٥٨٣هـ / ١١٨٧ م ؛ وليم الصورى : المصدر السابق، ج ٣ ص ٣٥٩، ٤٤٠ ؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية، ج ٢، الطبعة الرابعة، القاهرة ١٩٨٢ ص ٦٣٢، ٦٥٧، ٧٤٠، ٧٧٨ .

٢٤- وليم بن وليم دى مونتفرات : وصل مملكة بيت المقدس فى جمادى الأول سنة ٥٧٣هـ/ أوائل أكتوبر ١١٧٦ م، بناء على الدعوة التى وجهها إليه الملك بلدوين الرابع وبارونات المملكة، للزواج من سبيلا أخت الملك، وتم الزواج بعد وصوله مباشرة، وتسلم وليم وزوجته مدينتى يافا وعسقلان بملحقاتهما إقطاعا لهما. وفى يونيو من العام التالى مات وليم وترك سبيلا حاملا فى الطفل الذى أصبح فيما بعد بلدوين الخامس ؛ وليم الصورى : المصدر السابق، ج٤ ص ١٩٨، ١٩٩ .

٢٥- بلدوين الرابع : هو ابن الملك أمورى (عمورى) الأول، وقد أصيب بالجذام وهو طفل صغير، وتولى عرش مملكة بيت المقدس بعد وفاة والده سنة٥٧٠هـ/ ١١٧٤م، وظل المرض ينازعه حياته حتى توفى فى سنة٥٨١هـ/ ١١٨٥ م ؛ وليم الصورى : المصدر السابق، ج٤ ص ١٧٣،

١٧٤ ؛ مؤرخ مجهول : ذيل وليم الصوري، ترجمة حسن حبشي، القاهرة ٢٠٠٢ ص ٢٥.

٢٦- وليم الصوري : المصدر السابق، ج٤ ص ١٩٨، ١٩٩؛ مؤرخ مجهـول : ذيل وليم الصوري ص ٣٠، ٣١.

٢٧- جاي دي لوزنيان : شاب فرنسي الأصل من مقاطعة بواتيه، سـبقه إلـى الشرق أخوه أموري الذي عين كندسطبلا للمملكة (قائداً للجيش ومسـئولا عنه). وبفضل أموري هذا تم استدعاء جاي من بواتيه للزواج من سـبيلا أخت الملك بلدوين الرابع وأرملة وليم بن وليم دي مونتفرات. وقـد تـوج جاي ملكا على بيت المقدس مع زوجته سبيلا، وقاد الصليبيين في معركـة حطين ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م، ووقع أسيرا في يد صلاح الدين الأيوبي، وفي سنة٥٨٤هـ/ ١١٨٨ م أطلق سراحه، فأصبح ملكا بلا مملكة. وقد اشترك جاي مع ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا في حروبه ضد صـلاح الـدين، وعندما عزم ريتشارد على العودة إلى أوربا أقطع جاي جزيرة قبرس مقابل مبلغ من المال، وعلى هذه الجزيرة أسس جاي مملكـة لوزنيـان ؛ ولـيم الصوري : المصدر السابق، ج٤ ص ٢٥٤ ؛ مؤرخ مجهول : ذيل ولـيم الصوري، ص ١٥٠، ٢٢١، ٢٢٢ ؛ مؤرخ مجهول : الحـرب الصـليبية الثالثة، عربه حسن حبشي، جزءان، القـاهرة ٢٠٠٠م، ج١ ص ٨٥، ج٢ ص ١٧٦ .

٢٨- وليم الصوري : المصدر السابق، ج٤ ص٢٥٤ ؛ مؤرخ مجهول : ذيـل وليم الصوري، ص ٤٥، ٤٦.

Hoveden , op. cit. , pp. 62 ,63.

٢٩- رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية، ج١ ص ٥٠٩.

سعيد عاشور : Grousset ,l' Empire du Levant , Paris 1946 ,p. 312.

الحركة الصليبية، ج١ ص ٢٣٥ ؛ براور : عالم الصليبيين ص ١٢٦.

٣٠- وليم الصوري : الحروب الصليبية، ج ٢ ص ١٧٩، ١٨٠ .

٣١- فوشيه : المصدر السابق، ص ١٨٦، ١٨٧.

٣٢- فوشيه : المصدر السابق، ص ١٨٧.

٣٣- فوشيه : الوجود الصليبي في الشرق، ص ١٨٦، ١٨٧ ؛ وليم الصوري : الحروب الصليبية، ج٢ ص ١٨٠.

٣٤- فوشيه : المصدر السابق، ص ١٨٧.

٣٥- جوزيف نسيم يوسف : العرب و الروم و اللاتين في الحرب الصليبية الأولى، الإسكندرية ١٩٨٩م، ص ٨٤، حاشية ٢ ؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية، ج١، ص ٢٣٥، ٣٩٣ ؛ محمد مؤنس محمد عوض : الرحالة الأوربيون في مملكة بيت المقدس الصليبية ١٠٩٩-١١٨٧ م، القاهرة ١٩٩٢، ص ١٣١ ؛ براور : عالم الصليبيين، ص ١٢٦.

.Bridge, the crusades , p 137 .

٣٦- وليم الصوري : المصدر السابق، ج٢، ص ١٨١ .

٣٧- وليم الصوري : المصدر السابق، ج ٢، ص ٣١٧، ٣١٨، ٣١٩، ج٣، ص ١٠٢، ١٣١، ١٣٢ ؛ رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية، ج٢، ص ١٦٤؛ محمود محمد الحويري : الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين ١٢، ١٣، القاهرة ١٩٧٩م، ص ١٨٥، ١٨٦.

Richard , le Royaume Latin de Jerusalem,Paris ,1953,p.115.

Grousset , Histoire des Croisades , 3 vols. ,Paris ,1943-1946, vol ,1.,pp.284,285,286,vol,2,pp.602, 603, 604 .

- Prawer : social classes in the Crusader States , in Setton , vol. 5 ,Wisconsin 1985 ,pp.85 ,86 .

- Benvenisti , The Crusaders in the Holy Land , Jerusalem , 1970 , pp.25 , 26 .

38- Philips , op. cit. p.124.

٣٩- وليم الصوري : المصدر السابق، ج٢ ص ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٧ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ .

سعيد عاشور : الحركة الصليبية، ج١ ص ٤١٤ .

٤٠- وليم الصورى : المصدر السابق، ج٣ ص ٦٨ ؛ رنسيمان : المرجع السابق، ج٢ ص ٢٨٧ ، ٢٨٨ .

٤١- بارين : والعامة تقول بعرين ، وهى مدينة بين حلب وحماه من جهة الغرب. ياقوت : معجم البلدان، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ، ج١ ص ٣٢٠ .

٤٢- ابن الأثير: الكامل، ج٨ ص ٣٥٧، ٣٥٨ .

٤٣- وليم الصورى : المصدر السابق، ج٣ ص٢٦٧ ؛ رنسيمان : المرجع السابق، ج٢ص٣٩٧ ؛ علية الجنزورى : إمارة الرها الصليبية ص٣١٧ .

٤٤- إيمرى ليموج أو ليموزين Aymeri de Limoges ou Limousin كان أحد رجال الكنيسة بفرنسا ، ثم انتقل إلى الشرق كمبعوث بابوى ، وفى سنة٥٣٧هـ/ ١١٤٢م عين بطريركا لكنيسة أنطاكية اللاتينية ، وصار من أقوى الشخصيات الصليبية فى الشرق ، وتوفى فى سنة٥٩٢هـ/ ١١٩٦م .

Mas Latrie : Les Patriarches Latins d' Antioche , in Revue de l' Orient Latin , II , Paris 1894 , pp.193,194.

أما لويس السابع فهو أحد ملوك أسرة كابيه بفرنسا ، وتولى الحكم فيما بين سنتى٥٣٢ – ٥٧٦هـ/ ١١٣٧-١١٨٠ م. سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ١ ص٢٤٥

45-Letter From Aymeric, Patriarch of Antioch , To louis VII of France ., in Dana C. Munro , " Letters of the crusaders , New York ,1958, pp 105-107.

٤٦- وليم الصورى : المصدر السابق ،ج٤ ص ١١٥ ، ١١٦ ؛ابن الأثير : الكامل، ج٩ ص ١٠٥ ؛ أبو شامة : كتاب الروضتين، ج١ق٢ص ٤٥٦. أما فردريك الأول بربروسا فهو خليفة كونراد الثالث على عرش الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وقد شارك بجيش ضخم فى الحملة الصليبية الثالثة ، ولكنه غرق أثناء الطريق في نهرسالف بقيليقية في آسيا الصغرى سنة٥٨٦هـ/ ١١٩٠م. انظر حامد زيان غانم زيان : الإمبراطور

فردريك بربروسا والحملة الصليبية الثالثة، القاهرة ١٩٧٨، ص ٥٨ ؛ سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى، ج١ ص ٣٦٠ ، ٣٧٥ م. أما هنرى الثانى فقد تولى عرش إنجلترا سنة٥٤٩هـ/١١٥٤ م ، وظل يحكم حتى وفاته سنة٥٨٥هـ/ ١١٨٩م، سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى، ج١ ص ٤٥٩.

٤٧- وليم الصورى : المصدر السابق، ج٤ ص ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٥ ، ١٤٧، أمورى أو عمورى الأول : هو ابن الملك فولك دى أنجو من زوجته ميليسند، وشقيق الملك بلدوين الثالث، وقد أنجب أمورى بنتين هما سبيلا وإيزابيلا، وولدا واحدا هو بلدوين الرابع. تولى أمورى عرش مملكة بيت المقدس سنة٥٥٧هـ/١١٦٢م خلفا لأخيه بلدوين الثالث، وتوفى أمورى سنة٥٧٠هـ/ ١١٧٤ م. وليم الصورى : الحروب الصليبية، ج٤ ص ١٥ ، ١٦١.

٤٨- وليم الصورى : المصدر السابق، ج٤ ص ٢٣٦ ، ٢٣٧ ؛ مؤرخ مجهول : ذيل وليم الصورى، ص ١٩ ؛

رنسيمان : تاريخ الحملة الصليبية، ج٢ ص ٧١٥.

٤٩- براور: عالم الصليبيين، ص ١٢٦.

٥٠- وليم الصورى : هو المؤرخ الصليبي المعروف وهو من أبناء الصليبيين الذين ولدوا بالشرق على أرجح الأقوال ، ووقع الخلاف حول سنة ميلاده إما ١١٢٧ أو ١١٣٠ م ، وكان وليم أحد رجال الكنيسة وترقى فى وظائفها حتى أصبح رئيس أساقفة صور التى انتسب إليها. وقد أسند إليه الملك أمورى الأول تربية ابنه بلدوين الرابع ، وفى عهد بلدوين هذا أصبح وليم مستشارا لمملكة بيت المقدس وظل على هذه الوظيفة حتى قبيل وفاته سنة٥٨٠هـ/١١٨٤م. وكتب وليم الصورى تاريخه الذى سماه " الأعمال التى تمت فيما وراء البحر " بناء على طلب الملك أمورى الأول. للمزيد من المعلومات انظر : السيد الباز العرينى : مؤرخو الحروب الصليبية، ص

٩٩ وما بعدها ؛ مقدمة حسن حبشى لتاريخ وليم الصوري، ج١ ص ١٩ وما بعدها .

٥١- وليم الصوري : المصدر السابق، ج٣ ص٣١٧ .

٥٢- فوشيه : الوجود الصليبي في الشرق ص ١٧٧ ، ١٨٦ ، ١٨٧

٥٣- براور : الاستيطان الصليبي في فلسطين، ص ٢٣٨ ؛ محمد مؤنس : الرحالة الأوربيون، ص ٧٦ ، ٧٧ .

٥٤- هايد : تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى ، ترجمة أحمد محمد رضا ، ج١، القاهرة ١٩٨٥ م ، ص ١٩٧ ، ١٩٨ ؛

رنسيمان : المرجع السابق، ج٢ ص ٥٤ ؛ براور : الاستيطان الصليبي في فلسطين، ص ٢٣٨، ٢٤٠ .

٥٥- ابن جبير : رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك ، والمعروف بـ : رحلة ابن جبير، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٨٦م، ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ ؛ هايد : تاريخ التجارة، ج١ ص ١٩١ ، ١٩٢ ؛ بروار : الاستيطان الصليبي في فلسطين ص ٢٣٩ .

٥٦- بروار : الاستيطان الصليبي في فلسطين، ص ٢٣٦ ، ٢٤٠؛ زابوروف : الصليبيون في الشرق، ص ١٥٧ .

٥٧- فوشيه : المصدر السابق، ص ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٣٣٩ ؛ وليم الصوري : المصدر السابق، ج٢ ص٣٠٣، ج٣ ص ١٧١ ، ١٧٢ ، ٢٩١، ج٤ ص ١٤٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠.

Jacques de Vitry , Lettres de Jacques de vitry , ed. Huygens , Leiden 1960 , p. 81

٥٨- ابن جبير : الرحلة، ص ٢٤٤ ، ٢٥٦.

٥٩- ابن جبير : الرحلة ص، ٢٤٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ؛ وليم الصوري : المصدر السابق، ج٤ ص ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٣٢٣ .

٦٠- فوشيه : المصدر السابق، ص ١٨٦ ؛ ابن جبير : الرحلة ص ٢٥٥ .

٦١- هايد : تاريخ التجارة، ج١ ص ١٩٢ ، ١٩٣ .

Jacques de vitry , op. cit. pp.80,81 ,82.

٦٢- هايد : تاريخ التجارة، ج١ ص ١٩٢ ، ١٩٣ .

Jacques de vitry ,op. cit .pp.80,81.

٦٣- ابن جبير : الرحلة، ص ٢٦٣ .

64-Jacques de vitry ,op. cit .pp.81,82.

٦٥- ابن جبير : الرحلة، ص ٢٥٨ ، ٢٥٩.

٦٦- فوشيه : المصدر السابق، ص ١٨٦ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ؛ ابن القلانسى : ذيـل تاريخ دمشق، ص ١٤١ .

٦٧- ابن جبير : الرحلة، ص٢٥٥.

٦٨- عاشور : الحركة الصليبية، ج١ ص ٢٦٠، ٢٦١.

٦٩- فوشيه : المصدر السابق، ص ٢٣٢ ، ٢٣٣ .

٧٠- وليم الصورى : المصدر السابق، ج٤ ص ٢٨٢ ، ٢٨٣.

٧١- ابن الأثير : الكامل، ج ٩ ص ١٥٦ .

٧٢- ابن العبرى : تاريخ الزمان، ص ١٩٨.

٧٣-المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ق١، تحقيق محمد مصـطفى زيادة ،الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٥٦م، ص ٧٧. ولاشك ان روايـة ابـن العبرى بالمقارنة بروايات المؤرخين الأخرين مبالغ فيها، أما روايتا ابـن الأثير والمقريزى فهما متقاربتان، ورواية وليم الصورى نعتبرهـا أقـرب الروايات الى الصواب ؛ لأن وليم فى هذا الوقت كان يعمل مستشارا لمملكة بيت المقدس، كما أن لديه دافع المبالغة فى أعداد هؤلاء المسافرين الـذين وقعوا فى أسر المسلمين، ولكنه لم يبالغ .

٧٤- سانوتو: كتاب الأسرار للمؤمنين بالصليب فى استرجاع الأراضى المقدسـة والحفاظ عليها ، ترجمة سليم رزق الله ، الطبقة الأولى بيروت ١٩٩١ م، ص ٦١ ؛ المقريزى : السلوك، ج١ ق١ ص ٧٧ ، ٧٩ ، ٨٠ .

٧٥- فوشيه : المصدر السابق، ص ٢٤١ ، ٢٤٢ ؛ وليم الصوري : المصدر السابق، ج٢ ص ٢٩٠ ،ج٣ ص ١٧١ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ،ج٤ ص ٢٠٠ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧. وقد ذكر ابن القلانسي أن عدد هذا الأسطول نيفا وستين مركبا، ذيل تاريخ دمشق ص١٧١، وذكر ابن الأثير أنهم ستون مركبا، الكامل ج٨ ص٢٦٠. أما سيجورد فكان ملكا على النرويج مع أخيه Magnus Barefoot ، وشارك سيجورد الصليبيين في غزو صيدا ، ثم عاد إلى بلاده. رنسيمان، ج ٢ ص ١٥٠ .

٧٦- وليم الصوري : الحروب الصليبية، ج٣ ص ١١٧ ، ١١٨ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤١٧ .

٧٧- سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج١ص٢٣٧،٢٤٤،٤١٧،٥١٨؛ رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية، ج ٢ ص ٢١.

٧٨- فوشيه : المصدر السابق، ص ١٨٦؛ وليم الصوري : المصدر السابق، ج٢ص٢٣٣، ج٤ص٣٠ ؛ أسامة : الاعتبار، ص ١٢٨،١٢٩؛ بنيامين التطيلي : رحلة بنيامين، تعريب عزرا حداد ،الطبعة الأولى، بغداد ١٩٤٥م، ص ١٠٠.

٧٩- ابن جبير : الرحلة، ص ٢٥٨ ،٢٥٩، ٢٦٣ .

Jacques de vitry : op. cit. ,pp. 80,81.

محمد مؤنس :الرحالة الأوربيون ص ٤٣.

٨٠- ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق، ص ١٤١ .

٨١- ابن الأثير : الكامل، ج ٨ ص ٢٨٥ .

٨٢- المقريزي : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ،ج٣ تحقيق : محمد حلمي محمد أحمد،القاهرة ١٩٩٦م، ص ٢٣١ .

٨٣- وليم الصوري : المصدر السابق، ج٤ ص ٢٨٢، ٢٨٣؛ ابن الأثير : الكامل، ج٩ ص ١٥٦؛ ابن العبري : تاريخ الزمان، ص ١٩٨؛ المقريزي : السلوك ،ج١ ق١ ص٧٧.

٨٤ ــ ابن جبير : الرحلة، ص٢٥٦ إلى ص٢٦٥ .

٨٥- فوشيه : المصدر السابق، ص ٣٤٢ ؛ وليم الصوري : المصدر السابق، ج ٢ ص٢٣٣، ج٤ ص١١٣، ١١٥.

٨٦- فوشيه : الوجود الصليبي في الشرق، ص١٨٦.

٨٧- فوشيه : المصدر السابق، ص٣٤١ ؛ وليم الصوري : المصدر السابق، ج٣ ص٥٧.

٨٨- الفرما: مدينة صغيرة على ساحل البحر المتوسط بمصر، وقد خربت ولم يعد لها وجود الآن، ومكانها شرق بور سعيد الحالية. ياقوت : معجم البلدان، ج ٤ ص٢٥٥ .

٨٩- ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق، ص٣١٥ ؛ وقد ذكر النويري التاريخ في رجب ٥٤٥هـ، نهاية الأرب ج ٢٨ ص٣١٣، ٣١٤ ؛ وذكره المقريزي في ربيع الأول ٥٤٦هـ، اتعاظ الحنفا، ج٣ ص٢٠٢ .

٩٠- ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق، ص٣٣١، ٣٣٢ ؛ المقريزي : اتعاظ الحنفا، ج٣ ص٢٢٤.

٩١- ابن القلانسي : المصدر السابق، ص٣١٥ ؛ وليم الصوري : المصدر السابق، ج ٤ ص٢٥٥.

٩٢- ابن الأثير : الكامل، ج ٩ ص١١٣ ؛ أبوشامة : كتاب الروضتين، ج ١ ق٢ ص٥١٦، ٥١٧.

٩٣- النويري : نهاية الأرب، ج ٢٨ ص٣٩٥.

٩٤- المقريزي السلوك، ج١ ق١ ص٧٧ .

٩٥- المقريزي السلوك، ج١ ق١ص٨٠ .

٩٦- فوشيه : المصدر السابق، ص١٨١ .

Alberti Aquensis Historiae , in R.H.C.H.Occ.,IV ,Paris 1879, p.672.

وليم الصوري : المصدر السابق، ج٢ ص٢٠٨ ؛ محمد مؤنس : الرحالة الأوربيون، ص٤٣ ،٤٤ .

٩٧- فوشيه : المصدر السابق، ص٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٤ ؛ وليم الصوري : المصدر السابق، ج٢ ص٢٦٧، ٢٦٨، ٣٤٥ ؛ فيتري: تاريخ بيت المقدس ص٩٠. والداوية جماعة من الرهبان الفرسان الصليبيين، تأسست جماعتهم سنة٥١٢هـ/ ١١١٨م على يد هيو دى باينز أحد نبلاء الصليبيين. وقد اختاروا جزءا من المسجد الأقصى ليكون مقرا لجماعتهم، ولذا عرفوا بفرسان المعبد أوTemplars، وكانت هذه الجماعة ذات طابع عسكري ـ ديني، وقد عرفوا بشراستهم في القتال ضد المسلمين. وليم الصوري : المصدر السابق، ج٢ ص٣٤٥ ؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية، ج١ ص ٤٠١ .

٩٨- وليم الصوري : المصدر السابق، ج٣ ص١٠٢، ١٠٣، ١٣١، ١٣٢، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١١ ؛ فيتري : المصدر السابق، ص٤٦.

٩٩- وليم الصوري : المصدر السابق، ج٤ ص٢٢٧.

١٠٠- أفامية : مدينة حصينة من سواحل الشام، وهى من ضياع حمص، ويسميها البعض فامية. ياقوت : معجم البلدان، ج١ ص٢٢٧ .

١٠١- أسامة بن منقذ : الاعتبار، ص١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٩ .

١٠٢- أسامة : الاعتبار، ص١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٩ .

١٠٣- فوشيه : المصدر السابق، ص٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٣ ؛ وليم الصوري : المصدر السابق، ج٢ ص٢٩٠، ٢٩١ ؛ ابن الأثير : الكامل، ج ٨ ص٢٦٠.

١٠٤- وليم الصوري : المصدر السابق، ج٣ ص٣٥٥، ٣٥٦ ؛ زابوروف : الصليبيون في الشرق، ص١٥٦ .

١٠٥- ابن الأثير : الكامل، ج ٨ ص٢١٨ .

١٠٦- رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية، ج٢ ص١٤٨ ؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية، ج١ ص ٢٥٠ .

١٠٧- فوشيه : المصدر السابق، ص٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٣ ؛ وليم الصوري : المصدر السابق، ج ٢ ص٢٩٠، ٢٩١ ؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٨ ص٢٦٠.

١٠٨- مودود بن ألتونتكين أو ألتونطاش : هو أحد قادة السلطان محمد السلجوقي، استولى على الموصل سنة ٥٠٢هـ/١١٠٨م وتولى حكمها نيابة عن السلطان، وقام مودود بحملتين على الصليبيين ؛الأولى على الرها سنة ٥٠٥هـ/١١١١م، والثانية على مملكة بيت المقدس في محرم ٥٠٧هـ/١١١٣م، وقتل في نفس السنة داخل مدينة دمشق على أيدى أحد الباطنية. ابن الأثير : الكامل، ج ٨ ص٢٥٢، ٢٦٢، ٢٦٦ .

١٠٩- فوشيه : المصدر السابق، ص٢٥١، ٢٥٢ ؛ أسامة : الاعتبار، ص١٣٢ .

١١٠- وليم الصورى : المصدر السابق، ج٣ ص٦٨ ؛ ابن الأثير : الكامل، ج ٨ ص٣٢٩ .

١١١- وليم الصورى : المصدر السابق، ج٣ ص٣٥٥، ٣٥٦.

١١٢- تييرى كونت فلاندرز : هو صاحب مقاطعة فلاندرز شمالى غرب فرنسا، وزوج سبيلا ابنة فولك دى أنجو من زوجته الأولى، وقد زار تييرى الشرق الفرنجى فى سنوات٥٣٤هـ/ ١١٣٩ م، ٥٤٣هـ/ ١١٤٨، ٥٥٢هـ/ ١١٥٧ م، ٥٦١هـ/ ١١٦٥. وليم الصورى : المصدر السابق، ج٣ ص٩٢، ١٧١، ٣٠٦، ٤١٥، ج ٤ ص ٣٣ .

١١٣- وليم الصورى : الحروب الصليبية، ج ٣ ص ٣١٨، ٣١٩

١١٤- سعيد عاشور : الحركة الصليبية، ج ١، الطبعة السادسة، القاهرة ٢٠٠٢م، ص ٥٢٨، ٥٢٩ .

ـ أما بلدوين الثالث : فهو ابن الملك فولك من الملكة ميليسند ابنة بلدوين الثانى، خلف أباه فى حكم المملكة سنة٥٣٨هـ/ ١١٤٣، وقد شاركته أمه فى الحكم لأنه كان ابن ثلاثة عشر ربيعا. وتوفى بلدوين الثالث فى سنة٥٥٧هـ/ ١١٦٢ م، وكان عمره ثلاثا وثلاثين سنة. وليم الصورى : المصدر السابق، ج ٣ ص ٢٣٠، ٤٥١ .

ـ ريموند الثالث : تولى حكم إمارة طرابلس بعد مقتل والده ريموند الثانى سنة٥٤٧هـ/ ١١٥٢ م، وظل يحكم هذه الإمارة حتى وفاته

سنة٥٨٣هـ/ ١١٨٧ م. وليم الصورى : المصدر الســابق، ج ٣ ص ٢٣٠، ٣٤٦ ؛ رنسيمان : المرجع السابق، ج ٢ ص ٥٣٧، ٧٥٩ .

ـ أما ثوروس الثانى الأرمني : فقد نجح فى توطيد حكم الأرمن فى قيليقية سنة ٥٣٤هـ / ١١٤٤م وحافظ على إمارته من حملات البيزنطيين فى أسيا الصغرى، كما تعاون مع الصليبيين فــى بعــض المعــارك ضــد المسلمين، وتوفى ثوروس سنة٥٦٢هـ/ ١١٦٧ م. ابن العبرى : تاريخ الزمان، ترجمة إسحق أرملة، بيروت ١٩٨٦م، ص ١٦٨، ١٧٩ .

ـ أما عن شيزر : فهى قلعة ولها ضياع، وتقع بالقرب من المعرة، بينهــا وبين حماه يوم، ويجرى نهر الأردن فى وسطها. يــاقوت الحمــوى : معجم البلدان، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ. ج ٣ ص ٣٨٣ .

١١٥- وليم الصورى : المصدر السابق، ج ٣ ص ٣١٨، ٤١٥، ٤١٩، ج ٤ ص ٣٣، ٣٤، ٢٠٠ ـ ٢٠٣ .

١١٦- وليم الصورى : المصدر السابق، ج ٣ ص٤١٥، ج٤ ص٣٠، ٢٠٠، ٢١٠، ٢٢٤، ٢٣٦، ٣٢٣ .

Hoveden,op. cit. pp. 62 ,63.

ابن الأثير : الكامل، ج٩ ص ٨٥، ١٠٥، ١٤٢ ؛ أبو شامة : كتاب الروضتين، ج١ ق٢ ص٢٣٥، ٧٠٦ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٩ م، ص ٣٧٦، ٣٧٧ .

117- Alberti Aquensis Historiae ,R. H. C. H. Occ. , IV , p. 672.

وليم الصورى : الحــروب الصــليبية، ج٢ ص ١٨٠، ١٨١، ج٤ ص ١٤٨ ؛ التطيلى : الرحلة، ص ١٠٠ ؛ أسامة : الاعتبار، ص ١٣٢ .

Roziere, Cartulaire de l' Eglise du Saint Sepulcre de Jerusalem, in P. L. ,155 , Paris 1849 ,col. 1246. Ellenblum , Frankish rural settlement , Cambridge 1998 ,p. 277 .

١١٨- وليم الصورى : المصدر الســابق، ج٢ ص١٨٠، ١٨١، ٢٣٣. جوزيــف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين، ص ٨٤ حاشية ٢ .

المصادر والمراجع

أولا:المصادر الأجنبية :

1- Alberti Aquensis Historiae , in Recuil des Historiens des Croisades
,Historiens Occidentaux (R.H.C.H.Occ.) , IV ,Paris 1879 .

2- Aymeri de Limoges ,letter from Aymeric to Louis VII of France ,in
Dana C. Munro , letter of the Crusaders , New York 1958 .

3- Roger of Hoveden ,the Annals ,comprising the history of England
,trans. Henry T. Riley ,2 vols. ,New York 1968 .

4- Roziere ,M.E. de ,Cartulaire de l' Eglise du Saint Sepulcre de
Jerusalem ,in Patrologia Latina (P.L.) ,155 Paris 1849 .

5- Vitry ,Jacques de ,lettres des Jacques de Vitry (1160 1170 - 1240)
,ed.R.H.C. Huygens ,Leiden 1960 .

ثانيا المصادر الأجنبية المعربة

٦ــ التطيلى (بنيامين) : رحلة بنيامين، تعريب عزرا حداد ،الطبعة الأولى، بغداد ١٩٤٥ م .

٧ــ توديبود : تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، تعريب حسين محمد عطية، الطبعة الأولى، الإسكندرية ١٩٩٨م.

٨ ــ ريموند أجيل : تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، تعريب حسين محمد عطية، الطبعة الأولى، الإسكندرية ١٩٩٨م .

٩ــ سانوتو : كتاب الأسرار للمؤمنين بالصليب فى استرجاع الأراضى المقدسة والحفاظ عليها، تعريب سليم رزق الله، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٩١م .

١٠ــ ابن العبرى : تاريخ الزمان، تعريب إسحق أرملة، بيروت ١٩٨٦م .

١١ــ فوشيه دى شارتر : تاريخ الحملة إلى بيت المقدس، ترجمه قاسم عبده قاسم بعنوان : الوجود الصليبى فى الشرق العربى، الكويت ١٩٩٣م .

١٢ــ فيترى (جاك دى) : تاريخ بيت المقدس، ترجمة سعيد البيشاوى، عمان ١٩٩٨م .

١٣ــ المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، تعريب حسن حبشى، دار الفكر العربى، القاهرة ١٩٥٨م.

١٤ــ مؤرخ مجهول : ذيل وليم الصورى، تعريب حسن حبشى، القاهرة ٢٠٠٢م.

١٥ــ مؤرخ مجهول : الحرب الصليبية الثالثة، جزءان، تعريب حسن حبشى، القاهرة ٢٠٠٠م

١٦ــ وليم الصورى : الأعمال التى تمت فيما وراء البحر، ترجمه حسن حبشى بعنوان : الحروب الصليبية، أربعة أجزاء، القاهرة ١٩٩١ــ ١٩٩٥م .

ــ ثالثا : المصادر العربية

١٧ــ أبوشامة (ت ٦٦٥هــ /١٢٦٧م) عبد الرحمن بن إسماعيل

- كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية ج١ ق٢، تحقيق : محمد حلمى محمد أحمد، القاهرة ١٩٦٢م .

١٨ــ ابن الأثير(ت٦٣٠هــ/١٢٣١م) على بن محمد بن محمد

- الكامل فى التاريخ ج٨ ،٩، دار الكتاب العربى، بيروت بدون تاريخ.

١٩ــ أسامة بن منقذ (ت٥٨٤هــ/١١٨٨م) أسامة بن مرشد بن على

- الاعتبار، حرره فليب حتي، برنستون ١٩٣٠م.

٢٠ــ ابن جبير (ت٦١٤هــ/١٢١٧م) محمد بن أحمد بن جبير

- رسالة اعتبار الناسك فى ذكر الآثار الكريمة والمناسك، المعروف : برحلة ابن جبير، بيروت ١٩٨٦م .

٢١ـ ابن العديم(ت٦٦٠هـ/١٢٦٢م) عمر بن أحمد بن هبة الله
- زبدة الحلب من تاريخ حلب، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٩م .
٢٢ـ ابن القلانسي (ت٥٥٥هـ/١١٦٠م) حمزة بن أسد
- ذيل تاريخ دمشق، مكتبة المتنبي بالقاهرة، بدون تاريخ .
٢٣ـ المقريزي (ت٨٤٥هـ/١٤٤٢م) أحمد بن علي
- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، ج٣ : تحقيق محمد حلمي محمد أحمد، القاهرة ١٩٩٦م.
- السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١ ق١، تحقيق : محمد مصطفى زيادة، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٥٦م.
٢٤ـ النويري(ت٧٣٣هـ/١٣٣٣م) أحمد بن عبد الوهاب بن محمد
- نهاية الأرب في فنون الأدب ،ج٢٨، تحقيق : محمد محمد أمين ومحمد حلمي محمد أحمد، القاهرة ١٩٩٢م.
٢٥ـ ياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م)
- معجم البلدان، ٥أجزاء، دار صادر بيروت، بدون تاريخ.

رابعا : المراجع الأجنبية

26 - Benvenisti ,M. , the Crusaders in the Holy Land , Jerusalem 1970 .

27- Bridge ,A. ,the Crusades ,New York 1982 .

28 - Ellenblum ,R. ,Frankish rural settlement in the Latin Kingdom of
Jerusalem ,Cambridge 1998 .

29 -Grousset ,R. , l'Empire du Levant ,Paris 1946 .
- Histoire des Croisades , 3vols. Paris 1943 - 1946 .

30 - Hefele , Histoire des Conciles ,V Paris 1912.

31 - Mas Latrie .L. de , les Patriarches Latins d' Antioche ,in Revue de l'Orient Latin (R.O.L.) vol. 2 , Paris 1894 .

32 - Phillips ,J. ,the Latin East 1098 - 1291 , in the Oxford illustrated

history of the crusades ,ed.Riley - Smith ,Oxford 1995.

33 - Prawer : social classes in the Crusader State, in Setton , vol. 5 ,Wisconsin 1985 ,pp.85 ,86 .

34 - Richard J. ,le Royaume Latin de Jerusalem ,Paris 1953.

خامسا : المراجع العربية والمعربة :

٣٥ ـ باركر (إرنست) :الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العرينـي، الطبعـة الرابعة، بيروت ١٩٦٧م .

٣٦ – براور (يوشع) : الاستيطان الصليبي فى فلسطين، مملكة بيـت المقـدس، ترجمة عبد الحافظ البنا، القاهرة ٢٠٠١م.

ـ عالم الصليبيين، ترجمة : قاسم عبده قاسم ومحمد خليفـة حسـن، الطبعـة الأولى، القاهرة ١٩٨١م.

٣٧ ـ البيشاوى (سعيد عبدالله جبريل) : الممتلكات الكنسية فى مملكة بيت المقدس الصليبية، الإسكندرية ١٩٩٠م.

٣٨ ـ الحويرى (محمود محمد): الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام فى القـرنين ١٢، ١٣، القاهرة ١٩٧٩م

٣٩ ـ رنسيمان (ستيفن) : تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العرينى، الطبعة الثالثة، بيروت ١٩٩٣م.

٤٠ ـ زابوروف (ميخائيل) : الصليبيون فى الشرق، ترجمة إليـاس شـاهين، موسكو ١٩٨٦ م.

٤١ ـ زيان (حامد زيان غانم) : الإمبراطور فردريك بربروسا والحملة الصليبية الثالثة، القاهرة ١٩٧٨م.

٤٢ ـ عاشور (سعيد عبد الفتاح) : الحركة الصليبية ج ١ الطبعة السادسة، القاهرة ٢٠٠٢ م، ج ٢ الطبعة الرابعة، القاهرة ١٩٨٢م.

– وربا العصور الوسطى، ج ١ الطبعة السابعة، القاهرة ١٩٧٨م.

٤٣ ـ العرينى (السيد الباز) : مؤرخو الحروب الصليبية، القاهرة ١٩٦٢م.

٤٤ ـ علية عبد السميع الجنزورى : إمارة الرها الصليبية، القاهرة ٢٠٠١م.

٤٥ ـ عوض (محمد مؤنس محمد) : الرحالة الأوربيين فى مملكة بيت المقدس الصليبية ١٠٩٩ ـ ١١٨٧ م، القاهرة ١٩٩٢م.

٤٦ ـ هايد : تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى، ترجمة أحمد محمد رضا، ج ١، القاهرة ١٩٨٥م.

٤٧ ـ يوسف (جوزيف نسيم) : العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى، الإسكندرية ١٩٨٩م.

المعاهدة العثمانية الأمريكية ١٨٣٠

د. محمد فؤاد خليل
كلية التربية – جامعة القاهرة
فرع الفيوم

تمهيد :

فى عام ١٨٣٠ عقدت الولايات المتحدة الأمريكية معاهدة تاريخية مع الدولة العثمانية فى ظل أوضاع داخلية وخارجية صعبة ودقيقة كانت تمر بها دولة الخلافة الإسلامية . وقبل أن نتناول العوامل والظروف التى أدت إلى ابرام هذه المعاهدة بين البلدين ، نستعرض أوضاع الدولة المشار إليها فى تلك الفترة .

تعرضت الدولة العثمانية لانتكاسات وهزائم متتالية منذ نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر ، أدت إلى تردى نفوذها السياسي وتدهور قوتها العسكرية ، مما أغرى دول أوروبا الاستعمارية بالوثوب عليها واقتطاع بعض أملاكها[١].

ولقد خاضت الدولة العثمانية عدة حروب طاحنة خلال تلك الفترة من أهمها الحرب مع روسيا التى تمكنت من الاستيلاء على القرم فى عام ١٧٧١ ، ومع ألمانيا فى عام ١٧٨٧ ، ثم دهمت الحملة الفرنسية مصر فى عام ١٧٩٨ والشام فى ١٧٩٩ ، كما اشتعلت الثورة الصربية ضد الحكم العثماني ، ثم قامت روسيا بحرب جديدة مع الدولة العثمانية فى عام ١٨٠٦ ، كما قامت انجلترا بحرب مماثلة ضدها أيضاً فيما بين عامي ١٨٢١-١٨٢٣[٢].

ومن الأحداث الهامة أيضاً التى شهدتها الدولة العثمانية خلال تلك الفترة الفاصلة من تاريخها ، خروج ألبانيا من تحت سلطتها ، ونجاح محمد على فى السيطرة على السلطة فى مصر عام ١٨٠٥ ، ثم نشوب الثورة اليونانية ضد الحكم

العثماني في عام ١٨٢١ والتي تخللتها حرب أخرى مع روسيا ، وأخيراً قامت فرنسا بغزو الجزائر في عام ١٨٣٠[٣] .

وقد قدر أن يتولى الخلافة في تلك الفترة العصيبة من تاريخ الدولة السلطان محمود الثاني (١٨٠٨-١٨٣٩) والذى حاول القيام بإصلاحات في نظم الدولة على الطريقة الغربية ، وعمل على تقوية قبضة الدولة على ولاياتها ، وأعتقد أن ذلك ممكن بالقضاء على قوات الانكشارية – عصب الجيش العثماني وصاحبة التاريخ المشرف فى الفتوحات الكبرى للدولة – فأقدم على مذبحة الانكشارية البشعة فى عام ١٨٢٦ ، وكون جيشاً جديداً على الطراز الأوروبي الحديث ، أطلق عليه اسم العساكر المنصورية المحمدية واستدعى له ضباطاً ومهندسين فرنسيين وألمان[٤] .

لكن ذلك لم يمنع الانهيار السريع للدولة ، فلقد أدت تطورات الثورة اليونانية إلى نشوب معركة نوارين البحرية فى ٢٠ أكتوبر ١٨٢٧ [٥] والتى أدت إلى تدمير الأسطولين المصرى والتركي عن أخرهما بواسطة انجلترا وفرنسا وروسيا ، وفى أعقابها ظهر الأسطول الإنجليزى أمام شواطئ الإسكندرية ، وتغلغل الجيش الروسي فى أراضي الخلافة العثمانية ووصل إلى أدرنة ، وأنزلت فرنسا قوات برية فى المورة ، فأضطر السلطان العثماني إلى منح اليونان استقلالاً ذاتياً تحت سيادته [٦] وأبرمت معاهدة أدرنة بين الروس والعثمانيين فى ١٤ سبتمبر ١٨٢٩ والتى أعطت للسفن الروسية الحق فى المرور عبر المضايق والملاحة فى البحر الأسود ، إضافة إلى تنازلات أخرى أدت إلى تقليص السيادة العثمانية على جميع مصاب نهر الدانوب فى البحر الأسود [٧].

وفى ظل هذه الأوضاع الداخلية والخارجية الصعبة التى كانت تمر بها الدولة العثمانية أتيحت الفرصة أمام الولايات المتحدة لاستثمار الموقف والسعي إلى عقد معاهدة امتيازات معها فى عام ١٨٣٠ .

•••••••••••••

عندما نقارن الولايات المتحدة بالدول الأوروبية التى عقدت معاهـدات مـع الدولة العثمانية ، نجد أنها قد تأخرت كثيرا فى هذا المجال [٨] نتيجة لتأخر حصولها على استقلالها عن بريطانيا ، وبالتالى تأخر ظهورها كقوة سياسية علـى مسـرح السياسة الدولية .

ويرجع أول تفكير أمريكى فى عقد معاهدة مع الأتراك العثمانيين إلى عـام ١٧٧٤ ، عندما أبدى مؤتمر القارة الأمريكية رغبته فى عقد معاهدة تجاريـة مـع السلطان العثماني ، فقد كان التجار الأمريكيون يقومون بأنشطتهم التجارية فى تركيا من خلال ميناء سمرنا Symrna (أزمير حاليا) وكان مركزهم سيئا للغاية لعـدم وجود معاهدة بين بلادهم وبين العثمانيين [٩].

وكان التجار الأمريكيون يصدرون إلى سمرنا القهوة والفلفل والشاي والسكر والخمور والسجائر والزبيب والتين والملح بالإضافة إلى الأفيون الذى كان قد أصبح من أهم السلع التى يهربونها عبر الموانئ التركية [١٠] .

وكانت تجارة الأفيون غير المشروعة تجعل التجارة الأمريكية بحاجة إلـى الحماية الحكومية ، بعد أن أصبح ميناء سمرنا يمثل نقطة الانطلاق لنقل الأفيـون القادم من بوسطن وسيلم إلى الصين [١١] .

ومع أن التجار الأمريكيين كانوا قد حصلوا على نفس امتيازات الشركة الشرقية البريطانية (الليفانت) التى كانت تحتكر التجارة الإنجليزية فى الشرق (فيما بين عامي ١٥٨١ وحتى ١٨٢٥) فإن ذلك كان يتم بعد دفعهم التعريفة الجمركية للإنجليز مضافا إليها رسم يطلق عليه رسم الحماية يتم دفعه للقنصل البريطاني[١٢].

وحتى ذلك الحين لم يكن للأمريكيين تمثيلا دبلوماسيا ثابتا فى تركيا ، فى الوقت نفسه بدأت التجارة الأمريكية تتعرض لخطر داهم تمثل فى إجبار حكام بلدان المغرب العربي للسفن الأمريكية على دفع جزية سنوية مقابل مرورها عبر أراضيها ، وفى حالة رفض دفع هذه الجزية كان يتم أسر السفن الأمريكية على الفور بواسطة الأساطيل الحربية لهذه البلدان [١٣].

ورغم أن الحكومة الأمريكية قد تدخلت فى القضية ونجحت فى الوصول إلى

تسويات سياسية مع حكام مراكش والجزائر وتونس فى صورة معاهدات تضمن سلامة السفن الأمريكية [١٤] فلم تكن قد نجحت فى الاتفاق مع حاكم طرابلس القوى يوسف باشا القرمانلى (١٧٩٥-١٨٣٢) برغم عقدها معاهدة معه فى عام ١٧٩٦[١٥].

وكانت الحكومة الأمريكية تدرك أن عقد معاهدة مع السلطان العثماني سيضمن لها حل مشاكلها مع الإيالات المغربية وعلى رأسها إيالة طرابلس التى كانت لا تزال تابعة لسلطة الدولة العثمانية (ولو من الناحية الاسمية) برغم انفراد الأسرة القرمانلية بالسلطة الفعلية هناك [١٦].

فى ظل هذه الظروف بدأ الاهتمام الأمريكي بعقد معاهدة مع السلطان العثماني يأخذ اتجاها جديداً منذ عام ١٧٩٦ ، عندما كتب القنصل الأمريكي فى الجزائر جول بارلو Joel Barlow إلى حكومته يطلب إقامة قنصلية أمريكية فى ميناء سمرنا التركى [١٧] تمهيداً لعقد معاهدة مع الباب العالى .

وقد استجابت الإدارة الأمريكية لاقتراح بارلو وقرر الرئيس جون آدامز (١٧٩٧-١٨٠١) تعيين الدبلوماسي الأمريكي وليام سميث William Smith - الوزير الأمريكي المفوض بالبرتغال - وزيراً مفوضاً ومبعوثاً فوق العادة بالبلاط العثماني ، كما منحه سلطات كاملة لعقد معاهدة صداقة وتجارة مع الدولة العثمانية[١٨].

وبرغم هذه الخطوة الإيجابية من جانب الإدارة الأمريكية ، فلم تصل التعليمات الرسمية إلى سميث لتنفيذ هذا القرار ، وبخاصة مع استمرار الحرب بين إنجلترا وفرنسا ضمن حروب الثورة الفرنسية فتم إلغاء الخطة ومن ثم تأجل عقد المعاهدة [١٩].

وفى ظل الأوضاع الدولية المضطربة فى نهاية القرن الثامن عشر ، وتنامي النفوذ الأوروبي داخل الدولة العثمانية [٢٠] لم تكن الولايات المتحدة تجرؤ على مواجهة الدول الأوروبية - وعلى رأسها إنجلترا - فى هذه المسألة ، نظراً لضعف وزنها السياسي في المجتمع الدولى فى تلك الفترة ، بالإضافة إلى إنها كانت لا تزال مسترشدة بسياسة العزلة التى وضعها جورج واشنطون فى عام ١٧٩٣ [٢١].

وفى عام ١٨٠٠ قامت السفينة الحربية الأمريكية "جورج واشنطون " بقيادة القبطان الأمريكي ويليام باينبريدج William Bainbridge بأول زيارة من نوعها إلى عاصمة الدولة العثمانية .وكانت الإدارة الأمريكية قد كلفت القبطان الأمريكى بزيارة الجزائر لتقديم ذخائر حربية بحرية كان متفقاً عليها بين الطرفين وفقاً لمعاهدة ١٧٩٥ (٢٢). وخلال زيارته إلى الجزائر طلب منه الداى (حاكم الجزائر) أن يصطحب معه على متن سفينته مبعوثاً جزائرياً على القسطنطينية (٢٣) لتقديم بعض الهدايا للسلطان العثماني . ولكن الضابط الأمريكي اعتذر فى البداية ، وأكد أنه لا يحمل تعليمات للقيام بمثل هذه المهمة ، ولكنه عندما أدرك أن سفينته ستكون فى نطاق نيران بطاريات مدفعية الساحل الجزائرى والإيالات المجاورة له وافق على القيام بهذه المهمة الخطيرة (٢٤).

وقد قام باينبريدج بشق طريقه عبر الدردنيل بدون إذن من الباب العالى ، وخدع قادة الحصون الحربية التركية (٢٥) ووصل إلى القسطنطينية فى نوفمبر ١٨٠٠ ، وكتب من هناك يعلن نجاحه الكبير فى الوصول إلى دار الخلافة الإسلامية قائلا : " لقد كان هذا العمل موضع دهشة لكل سفير مسيحى هنا " (٢٦) (يقصد فى العاصمة التركية) فلقد كانت هذه هى المرة الأولى التى يرتفع فيها العلم الأمريكي فوق مياه الدردنيل (٢٧).

وأثناء وجوده بالأراضي التركية التقي باينبريدج ببعض البحارة الأتراك بما فيهم أمير البحر قبودان باشا ووكيل الجبخانة فى الدولة العثمانية ، وتمكن من إقامة علاقات ودية مع بعض البحارة (٢٨) وبوجه عام فقد قوبلت السفينة الأمريكية جورج واشنطون بالترحيب فى تركيا ، ثم غادرت القسطنطينية فى ديسمبر ١٨٠٠ عائدة إلى غرب البحر المتوسط للقيام بمهامها المعتادة (٢٩).

وقد تأكد فيما بعد أن باينبريدج خلال لقاءه بقبودان باشا فى العاصمة التركية، قد ناقش معه إمكانية عقد معاهدة بين الولايات المتحدة والدولة العثمانية ، إلا أن الطرفين لم يتفقا على شئ محدد بهذا الخصوص (٣٠).

ولما تأخر عقد المعاهدة أخذ التجار الأمريكيون يضغطون على الإدارة الأمريكية للقيام بخطوات فعالة ، بعد أن تضررت تجارتهم لعدم وجود تمثيل دبلوماسي يحميها،

وأخذت مجموعة شركة " شركاء بوسطن التجارية " بصفة خاصة توجه جهدها لإقناع الحكومة الأمريكية بذلك ، برغم ما كان قد أصبح معروفاً من قيام التجار الأمريكيين بنشاط مشبوه فى ميناء سمرنا التركي لتصدير الأفيون إلى شرق آسيا(٣١) كما ذكرنا من قبل.

وقد نجحت الحكومة الأمريكية فى تعيين قنصل غير دائم فى سمرنا فى عام ١٨٠٢ ، ولكنه تم استبداله بآخر فى عام ١٨٠٨ ، ومع ذلك فلم يسمح لأي منهما بالقيام بمهامهما (٣٢) .

وبينما استمر تذمر التجار الأمريكيين من بطء الحكومة الأمريكية فى إقامة قنصلية دائمة ، وبالتالى فى إبرام معاهدة مع الدولة العثمانية ، فلقد أنضم إليهم المبشرون الأمريكيون الذين كانوا قد بدأوا يفدون إلى الولايات العربية التابعة للدولة العثمانية للقيام بأنشطة تنصيرية بين السكان المسلمين ، وتحويل أصحاب المذاهب المسيحية الأخرى إلى البروتستانتية (٣٣). وقد قوبلت هذه الإرساليات باستياء وسخط من السلطات العثمانية فى البلاد العربية (٣٤) كما رفضتها الشعوب العربية (٣٥) لذلك فقد كانت تحتاج إلى حماية دبلوماسية لنشاطها غير المقبول فى أراضى الدولة العثمانية أيضاً (٣٦).

من أجل ذلك كانت الحكومة الأمريكية مدفوعة بضغوط التجار والمبشرين للإسراع بخطوة فعالة تجاه إبرام المعاهدة مع العثمانيين. ففى عام ١٨١١ وصل إلى سمرنا التاجر الأمريكى ديفيد أوفلى David Offley الذى عينته الخارجية الأمريكية كوكيل قنصلى شبه رسمى وتلخصت مهمته الأساسية فى التخلص من الحماية الإنجليزية للتجارة الأمريكية التى تجوب موانئ الدولة العثمانية (٣٧) وقد تمكن أوفلى من الاقتراب من السلطان محمود الثانى خلال إحدى صلوات الجمعة ، فى سابقة تعد الأولى من نوعها فى تاريخ الخلافة العثمانية ، وتمكن من الحصول من السلطان العثمانى على وعد بحماية التجار الأمريكيين فى أرضيه (٣٨) فقامت الحكومة التركية بالسماح للتجار الأمريكيين باستخدام التعريفة الجمركية المطبقة على فرنسا برغم انتهاء الاتفاقية التجارية العثمانية الفرنسية فى عام ١٨١٨ ، ومع ذلك لم يتم عقد أى معاهدة أو اتفاقية تجارية مصدق عليها من السلطان العثمانى

حتى ذلك الحين [٣٩] .

ولقد كان أوفلى يدرك أن التجارة الأمريكية لن تكون ذات قيمة حتى يتم عقد معاهدة بين البلدين ، وأن وعود السلطان العثمانى له سرعان ما سيتم تناسيها فى حالة وفاته أو تغييره ، لذلك بعث برقيات متتالية إلى الخارجية الأمريكية خلال عام ١٨٢٠ يحثها بقوة على إبرام معاهدة مع العثمانيين [٤٠].

وبعد هذه الفترة من السياسة الأمريكية المترددة تجاه المعاهدة مع الأتـــراك ، أخذت توصيات أوفلى الأخيرة مأخذ الجد ، وانتهجت نهجا جديـــداً يعتمـــد علـــى الوكلاء السريين الذين أخذت فى إرسالهم إلى أراضى الخلافة العثمانية لاســـتطلاع الموقف السياسي بخصوص هذه المعاهدة ، وبدأت بإرسال أول وكلائها [٤١] وهـــو لوثر براديش Luther Bradish والذى كان فى الأصل رحالة بالإضافة إلى مهنته الأصلية كمحام من مانهاتن [٤٢].

وفى ٢٨ أبريل ١٨٢٠ ركب براديش السفينة الحربية الأمريكية "كـــولمبس" والتى كان يقودها الضابط البحرى الأمريكي ويليام باينبريدج – الذى كان قد وصل إلى الدردنيل قبل ذلك بعشرين عاماً – متجهين إلى جبل طارق ، وهنـــاك انتقـــل براديش إلى السفينة الحربية الأمريكية "سبارك " Spark والتى كانت تقـــل علـــى متنها أيضاً الأمريكى تشارلز فولسوم Charles Folsom – وعلى ما يبدو أن ذلك كان للحفاظ على سرية المهمة – وكانت الترتيبات قد أعدت لوصول هذه الســـفينة بصحبة كولمبس إلى القسطنطينية .وقد وصلت سبارك إلى ميناء سمرنا فى أكتوبر ١٨٢٠ ، حيث استمع كل من براديش وفولسوم إلى توصيات أوفلى حول مهمتهما فى تركيا.

وقد ذهب براديش إلى القسطنطينية معتقداً أن خطته محاطة بالسرية، ولكنه فوجئ بأن مهمته معروفة تماماً، وتأكد الأمريكيون أن تسرب المعلومـــات حـــول اتصالاتهم بالباب العالى يأتى من وزارة الخارجية الأمريكية نفسها ، وقـــد قوبـــل براديش بحفاوة واضحة من المسئولين الأتراك ، ولمس خلال لقاءاته بهـــم أنهـــم يشجعون عقد اتفاقية مع الولايات المتحدة ، ولكنهم يفضلون أن تكون المفاوضـــات سرية بهذا الشأن ، لتوقع معارضة البريطانيين لخطوة من هـــذا النـــوع ، بســـبب

خشيتهم على مركز الشركة الشرقية البريطانية في الدولة العثمانية [٤٣].

على أية حال فقد علم البريطانيون بلقاءات براديش السرية في العاصمة التركية، وأخذوا يضغطون على المسئولين الأتراك لإيقافها ، فقد ذكر براديش في تقرير إلى حكومته في أكتوبر ١٨٢٠ : " أن الباب العالى أبلغني بصورة شخصية أن بريطانيا العظمي قد علمت بأن الولايات المتحدة تعتزم إجراء مفاوضات معه وأنها قدمت إليه خلال الأيام القليلة الماضية احتجاجاً رسمياً هددته فيه بقطع العلاقات الحالية معه وإعلان الحرب ضده إذا وقع مثل هذه الاتفاقية مع الولايات المتحدة ، وأضاف أنه من المتوقع حدوث نفس رد الفعل من جانب كل من النمسا وفرنسا وهولندا وإن كان بدرجة أقل ". [٤٤]

وعلى الرغم من هذه المشكلات التى بدأت تواجه مهمة براديش في القسطنطينية ، ومن ثم كانت ستؤثر على عقد المعاهدة مع الأتراك ، ولمخاوف براديش من فشل مهمته ، فقد أخذ يحث حكومته على عدم التهاون أو التراجع عن هدفها ، فذكر حكومته بالأهمية البالغة لعقد المعاهدة مع الأتراك ، وذكر أن تجارة الولايات المتحدة مع تركيا قد بلغت قيمتها مليون ونصف مليون دولار سنوياً ، ولكنها تعاني من نقص الحماية الجمركية [٤٥] وطالب حكومته بالتضحية المالية في سبيل عقد المعاهدة مع الأتراك ، ونوه إلى ضرورة تخصيص مبلغ خمسين ألف (٥٠,٠٠٠) دولار لتقديمها كهبات إلى المسئولين الأتراك ، منها سبعة آلاف (٧٠٠٠) دولار ستخصص للريس أفندى أو وزير الشئون الخارجية لضمان ثبات رأيه المؤيد للمعاهدة على ما هو عليه [٤٦] على حد قول براديش.

والواقع أن موقف الحكومة الأمريكية قد اتسم بالضعف والتردد على عكس موقف وكيلها براديش ، فنظراً لحالة الامتعاض الشديد التى اتسمت بها ردود الفعل الأوروبية من إقدام الولايات المتحدة على عقد المعاهدة [٤٧] فقد اضطرت واشنطون إلى سحب سفنها من المياه التركية واستدعت براديش من القسطنطينية [٤٨].

وبعد مروره على القدس عاد براديش إلى الولايات المتحدة بعد فشل مهمته[٤٩].

والواقع أنه إذا كانت المعارضة البريطانية للمعاهدة تنبع من مصالح تجارية بالدرجة الأولى ، فإن المعارضة الأوروبية كانت مرتبطة بتطورات الثورة اليونانية

التى كانت تثير مشاعر من الحقد والكراهية الشديدة ضد الدولة العثمانية فى كل من أوروبا والولايات المتحدة نفسها [٥٠].

وفى عام ١٨٢٣ قرر جون أدامز وزير الخارجية الأمريكي القيام بخطوات فعالة ومحاولة دفع الجهود الدبلوماسية فى إطار من السرية الشديدة مرة أخـرى ، وكان يدرك خطورة الاتصال بالأتراك مباشرة وبصورة منفتحة علـى المسـتوى الرسمي ، فى الوقت نفسه كان يرفض فكرة الاستعانة بالمدنيين الأمريكيين للقيـام بمهمة إتمام المفاوضات مع الأتراك لإبرام المعاهدة ، كما كان آدامز يدرك أهميـة عنصر الوقت فعمل بسرعة لاستغلال فرصة قبول الأتراك لعقد المعاهـدة .وفـى أبريل ١٨٢٣ اختار أدامز وكيلاً سرياً جديداً ، انتقاه هذه المرة بحـرص وعنايـة شديدة ، ألا وهو جورج إنجليش George English [٥١] والذى كان قـد اعتنـق الإسلام وأطلق على نفسه اسم محمد أفندى ، وخدم كقائد بسلاح المدفعية فى الجيش المصري الذى أرسله محمد على باشا بقيادة ابنه اسماعيل إلى السـودان (١٨٢٠-١٨٢١) [٥٢] كما أنه كان قد خدم كضابط فى الأسطول الأمريكى بالبحر المتوسط ثم أحيل إلى التقاعد [٥٣].

ولقد رأى آدامز فى إنجليش مبعوثا مناسبا من كافة النواحي على اعتبار أنه مسلم ، مما يزيل أية حواجز نفسية مع المسئولين الأتراك ، كما أن هذه النقطة بالذات قد لا تثير حفيظة أو فضول الجواسيس الأجانب فى القسطنطينية وعلى رأسهم الإنجليز ، كما أن عمل إنجليش (أو محمد) فى مصر ولقائه ببعض المسئولين الأتراك خلال وجوده بالشرق ، وعلى رأسهم خسرو محمد قبطان باشا فى عام ١٨١٧ ، يجعله يتمتع بقبول شخصي لدى الأتراك [٥٤] .

وقد وصل إنجليش إلى القسطنطينية فى نوفمبر ١٨٢٣ وقضي بضعة أسابيع هناك ثم استأجر منزلا فى الحى القديم من المدينة ، وبدأ يجرى اتصالاته لتسهيل مهمته. ويذكر إنجليش أنه قد بدأ بأمين مكتبة السلطان العثماني ، معتقداً أنه يمكنـه مساعدته فى مهمته ، إلا أنه سرعان ما تخلى عن هذه الفكرة ، ثم التقى بالتـاجر الأمريكى أوفلى الذى كان ينتقل بحرية ما بين واشنطون والقسـطنطينية وسـمرنا لطبيعة تجارته ، وكان من المفترض أن يساعد مواطنه فى مهمته ، إلا أن ذلك تم

بشكل ضئيل بسبب عدائه الشخصي لإنجليش ، فقد كان أوفلي متشككا من إنجليش بسبب إسلامه ، وجاء ذلك في خطاب بعثه إلى وزير الخارجية الأمريكي جون آدامز ذكر فيه : " إنه من المناسب أن أبلغ سعادتكم أن هذا الشخص (إنجليش) قد أصبح محمديا (أي مسلما) منذ ست سنوات وبالطبع فقد سار رعية من رعايا الباب العالي (٥٥) . وبالطبع يقصد من الناحية الدينية فقط ، لإن إنجليش كان لا يزال يتمتع بالجنسية الأمريكية .

أما إنجليش فقد كتب إلى آدامز يوضح صعوبة مهمته وخطورتها واحتمال تعرض حياته للخطر بسبب السرية المفروضة على مهمته : " أنا موضع دراسة هنا من الأوروبيين كأنني رجل سافر إلى الشرق ويزور القسطنطينية في زي شرقي للحصول على أكبر تسهيلات .... من بين جيراني أنا تعرفت على أمريكي مسلم يأتي من مسافة بعيدة لزيارة عاصمة الإسلام وعملت على مصاحبته .. لكن موقفي خطير ومزعج ... فأثناء مرور رجال الحرس من الإنكشارية سمعت بنفسي عدة مرات شجبا لي باعتباري جاسوس يوناني متنكر " (٥٦).

على اية حال فبعد عدة تأجيلات التقي إنجليش بقبودان باشا وابلغه برغبة الحكومة الأمريكية في إرسال مسئول كبير – غالبا ما سيكون قائد الأسطول الأمريكي في البحر المتوسط – لمقابلة قبودان باشا في مكان ما بالأرخبيل اليوناني للتفاوض حول المعاهدة المزمع عقدها بين البلدين (٥٧) .

وفي أعقاب هذا اللقاء عاد إنجليش إلى واشنطون في مايو ١٨٢٤ ، وأخذ يلح على الرئيس الأمريكي جيمس مونرو ووزير خارجيته آدامز من أجل تطبيق اقتراحاته وإتمام المسألة من خلال ما اتفق عليه مع الأتراك (٥٨).

وفي يناير ١٨٢٥ عين آدامز وزير الخارجية الأمريكي القومادور جون روجرز John Rodgers – قائد أسطول البحر المتوسط وأحد أبطال الحرب الأمريكية – البريطانية عام ١٨١٢ (٥٩) والذي قاد عمليات قصف تونس عام ١٨٠٥ والجزائر في عام ١٨١٥ (٦٠) كمفاوض ثالث مع الأتراك استجابة لاقتراحات إنجليش الذى كلفه باصطحابه كمترجم له خلال المفاوضات (٦١).

ولقد قضي روجرز معظم شتاء ١٨٢٥ في تجهيز سفينة القيادة نورث

كارولينا North Carolina [62] والتى كانت لا تعد أكبر سفن الأسطول الأمريكى بالبحر المتوسط فقط ، وإنما كانت أكبر سفينة حربية في ذلك التاريخ أيضا [63] .

وقد وصل روجرز على ظهر كارولينا التى كانت تقل تسعمائة وستين رجلا وثلاث سفن أخرى من الأسطول الأمريكي إلى ميناء سمرنا التركي في ٢٠ أغسطس ١٨٢٥ ، في مظاهرة بحرية كبيرة تستهدف لفت انتباه القادة الأتراك [64].

وكان روجرز قد تلقى تعليمات من أدامز تحذره من مغبة القيام بأى تصرف مفاجئ يؤثر في القضية اليونانية ، وأكد له أن مهمته تتركز أساسا في مقابلة قبودان باشا للتفاوض حول المعاهدة ، لذلك عندما ذهب روجرز لمقابلة قبودان علم أنه مشغولا في حرب اليونانيين فنأى بنفسه عن الأمر [65].

وفى أكتوبر ١٨٢٥ ساعد إنجليش روجرز في كتابة مذكرة ودية إلى قبودان باشا أعرب فيها عن أمله في رؤيته بأسرع ما يمكن .وبالفعل تم اللقاء بين الرجلين في ٥ يوليه ١٨٢٦ بعد عدة أشهر من وصول روجرز ، وعقدت جلسة مباحثات بينهما في جزيرة تيندوس بالقرب من المدخل المؤدى إلى مضيق الدردنيل ، وتعهد قبودان باشا في اللقاء بالتحدث مع السلطان العثماني بخصوص المعاهدة .وكان الأمريكيون قد بدأوا يعتقدون أن الأتراك ساخطون بسبب المساعدة الأمريكية لليونان ، وأن هذا هو السبب الذى أدي على تأخر المفاوضات المؤدية إلى عقد المعاهدة ، فقد كتب روجرز خطاباً مقتضبا إلى وزير الخارجية الأمريكي في فبراير ١٨٢٧ ، أى بعد عدة أشهر من لقائه بقبودان باشا ، أكد له فيه : " بالأصالة عن نفسي اسمح لى يا سيدى أن اقول لك إنني إذا حدث عندي فتور في إتمام مهمتي قبل عودتي والتى ساقتني إلى لقاء قبودان باشا فلن يكون ذلك خطأ مني"[66].

وعلى الرغم أن المفاوضات الخاصة بتفاصيل المعاهدة وبنودها لم يتم إجراؤها حتى تلك اللحظة ، إلا أن كل هذه اللقاءات والمحاولات الأمريكية ، بالإضافة إلى ظهور قطع الأسطول الأمريكي في المياه التركية ، كل ذلك أدى إلى آثار سياسية مؤيدة للخطة الأمريكية بخصوص المعاهدة . فقد ترك الأسطول الأمريكى انطباعات اتسمت بالإعجاب والانبهار لدى العسكريين الأتراك وبخاصة

على قادة القوات البحرية التركية ، الذين أعجبتهم صناعة السفن الأمريكية [٦٧].

ولقد جاءت هذه السفن الحربية الأمريكية في أثناء احتدام الصراع بين الأتراك العثمانيين الذى كانوا يحاولون الحفاظ على إمبراطوريتهم من الانهيار -- وبين اليونانيين الذين كانوا يسعون إلى الاستقلال عن الدولة ، وتساعدهم في ذلك كافة الدول الأوروبية وعلى رأسها إنجلترا وفرنسا وروسيا بالإضافة إلى الولايات المتحدة التي لم تخف تعاطفها مع قضية الشعب اليوناني [٦٨].

وبينما كان يستعد الجانبان الأمريكي والتركي لإجراء المفاوضات الرسمية للمعاهدة ، إذ يفاجأ العالم بالتطورات الدرامية للثورة اليونانية التي انتهت بنشوب معركة نوارين البحرية التي دارت في ٢٠ أكتوبر ١٨٢٧ [٦٩] والتي قام فيها التحالف الإنجليزي الفرنسي الروسي بتدمير الأسطولين التركي والمصري خلال ما يقل عن أربع ساعات وفقاً لرواية ضابط فرنسي شاهد المعركة [٧٠].

وقد خدمت هذه المعركة ونتائجها الوخيمة على الدولة العثمانية مسألة عقد المعاهدة ، فبعد أن كان الأمريكيون يتمنون عقدها بكل الطرق ، سار الأتراك أشد رغبة منهم في ذلك ، فقد ألح العسكريون الأتراك على حكومة الباب العالي بضرورة الحصول على السفن الحربية من الولايات المتحدة لتعويض الأسطول التركي عن خسارته الفادحة في معركة نوارين البحرية .وقد كتب خسرو باشا – القائد الأعلى للقوات المسلحة التركية – رسالة إلى ديفيد أوفلي يدعوه إلى زيارة القسطنطينية لمناقشة المفاوضات التفصيلية حول إبرام المعاهدة بين البلدين .ولقد فهم أوفلي مغزي الرسالة على الفور وأدرك أن الأتراك يرغبون في عقد المعاهدة من أجل بناء السفن الحربية في الولايات المتحدة [٧١].

وهكذا وبعد أن كانت الولايات المتحدة تسعي سعياً حثيثاً لعقد المعاهدة بدأت تتلكأ في ذلك لخشيتها من التورط في دعم القوة العسكرية التركية لكي تستخدم ضد اليونان فيما بعد ، بالإضافة إلى تخوفها من انكشاف المفاوضات واتهام أوروبا لها بخيانة " الواجب المسيحي المقدس " [٧٢]. نضيف إلى ذلك الشعور الديني الملتهب في الولايات المتحدة ذاتها ، والذى كان متجهاً لتأييد اليونان بكل قوة ، والدليل على ذلك تلك الحفاوة البالغة والفرحة العارمة التي عمت المدن الأمريكية عندما وصلت

إليها أنباء هزيمة الأسطوليين التركي والمصري وتحطمهما في نوارين البحرية ، فعندما وصل الخبر إلى هذه المدن وعلى رأسها نيويورك في ٦ ديسمبر ١٨٢٧ ، قرعت الكنائس أجراسها في أنحاء الدولة ابتهاجا بهزيمة الأتراك المسلمين (٧٣).

وفي نهاية المطاف استأنف الأمريكيون المفاوضات مع الأتراك لإدراكهم بأن هذه هي اللحظة المناسبة للحصول على تنازلات كبيرة منهم .ومع ذلك فقد ظلت المفاوضات سرية (٧٤).

وأثناء ذلك تولى أدامز الرئاسة الأمريكية (١٨٢٥-١٨٢٩) وكان على علم تام بتفاصيل الموضوع ، وقرر السير بقوة لعقد المعاهدة مع الدولة العثمانية . من أجل ذلك أعطي أدامز تعليمات سرية وتفويض كامل لكل من أوفلي ووليام مونتجمرى William Montgomry - القائد الجديد للأسطول الأمريكي في البحر المتوسط ، والذى تولى القيادة خلفا لروجرز - بالتفاوض على معاهدة الملاحة والتجارة مع الحكومة العثمانية ، ووصل مونتجمرى إلى سمرنا في نوفمبر ١٨٢٨ والتقى بأوفلي ودخلا في مفاوضات جديدة بخصوص المعاهدة مع الأتراك ، ولكن هذه المرة صرح المفاوضون الأتراك برغبة بلادهم في الحصول على سفن عسكرية أمريكية لتعويض خسارتهم في نوارين ، للسير قدما في طريق عقد المعاهدة . ولكن أوفلي أكد أنه لا يحمل تفويضا من حكومته لتقديم وعد بهذا الشأن(٧٥) وبناء على ذلك لم يتقدم المفاوضات خلال حكم الرئيس أدامز أيضا ، حتى تولى الرئاسة الرئيس أندرو جاكسون (١٨٢٩-١٨٣٧) فكلف وزير خارجيته مارتين فان بيورين Martin Van Buren بمتابعة موضوع المعاهدة مع الدولة العثمانية ، وبعد دراسته للموضوع قرر بيورين ضرورة إعطاء تفويض كامل لأى مفاوض جديد في النقطة الخطيرة والحساسة المتعلقة ببناء السفن الحربية للأتراك ، ولكن بيورين لم يكن يرى أن أوفلي هو الشخص المناسب للقيام بهذه المهمة ، فأخذ يبحث عن شخصية جديدة تستطيع تجديد النشاط في المفاوضات ، ودفعها في الاتجاه الصحيح الذى يؤدي إلى ابرام المعاهدة . وقد استقر أخيراً على الرجل المناسب ألا وهو التاجر الأمريكي تشارلز ريند Charles Rehind وهو من مدينة نيويورك (٧٦).

وعلى الرغم من وجود معارضة لاختيار ريند لهذه المهمة داخل الأوساط السياسية الأمريكية ، فإن بيورين صمم على اختياره ، وخطط للتشاور بينه وبين القومادور جيمس بيدل James Biddle – القائد الجديد للأسطول الأمريكي في البحر المتوسط – كما أعطي بيورين تعليمات بأن يتحدث ريند مع المسئولين الأتراك تحت غطاء تعيينه قنصلاً للولايات المتحدة في ميناء أوديسا التركي (٧٧) بعد أن كانت الحكومة العثمانية قد وافقت على تعيين أوفلي قنصلاً رسمياً للولايات المتحدة في سمرنا منذ عام ١٨٢٤ (٧٨).

وقد غادر ريند نيويورك سراً والتقي مع بيدل في مينورقا – إحدى جزر البليار بالبحر المتوسط – في نهاية نوفمبر ١٨٢٩ على ظهر الطراد الأمريكي "يافا" للالتقاء مع أوفلي في سمرنا.

ووفقاً للتعليمات ذهب ريند إلى القسطنطينية وحده والتقى بالريس أفندي (رئيس كتاب الدولة) وهو محمد حامد المسئول التركي عن التفاوض مع الأمريكيين ، واتفقا على استهلال المفاوضات بين الطرفين على أساس منح الولايات المتحدة امتياز " حق الدولة الأولى بالرعاية " بصورة كاملة والسماح بمشاركة التجار الأمريكيين في تجارة البحر الأسود . وبناء على هذه المبادئ بدأت المفاوضات بين الجانبين الأمريكي والتركي في قرية صغيرة في إحدى الحدائق التركية الخاصة على ضفاف نهر البسفور خلال ليالي شهر رمضان المبارك من عام ١٢٤٥هـ (الموافق ١٨٣٠م) . وبعد نحو شهرين وقع ريند – القنصل الأمريكي في أوديسا – نيابة عن حكومته ومحمد حامد أفندي نيابة عن الباب العالي أول معاهدة في تاريخ العلاقات الأمريكية – التركية بتاريخ ١٤ ذي القعدة ١٢٤٥هـ الموافق ٧ مايو ١٨٣٠ (٧٩).

وبعد يومين من توقيع المعاهدة أرسل ريند رسالة تهنئة إلى أوفلي وبيدل وطلب منهما لقائه في القسطنطينية على وجه السرعة وألحق رسالته بنسخة من المعاهدة.

لكن أوفلي وبيدل اندهشا بسبب توقيع ريند المعاهدة دون التشاور معهما ، كما تقضي بذلك تعليمات وزير الخارجية الأمريكي ، ولقد فوجئ الرجلان بتورط

ريند فى عدة ورطات أولها أنه أنفــق تسـعة آلاف (٩٠٠٠) دولار علـــى هـــدايا للمسئولين الأتراك الذين شاركوا فى المفاوضات ، فى حين أن بيدل المسئول المالى للبعثة لم يكن تحت تصرفه سوى عشرين ألف عشرين ألــف (٢٠,٠٠٠) دولار فقط وهو ما أثار استيائه من ريند . كما اكتشف الرجلان أن ريند تورط فى مسألة أخطر من المسألة المالية ، ذلك أنه وافق على إضافة مادة منفصلة فـــى المعاهـــدة تعطي السلطان العثماني " امتياز لعقد اتفاقيات أو عقود لقطع الأشجار وبناء السفن فى الولايات المتحدة ". وتكتم ريند عن إبلاغ شريكيه أوفلى وبيدل بذلك ، ولم يكن مفوضاً بالموافقة على مثل هذه المادة التى كانت تعد خرقاً للتشريعات الصادرة من الكونجرس الأمريكى والقاضية بمنع إبرام أية عقود مع الأجانب لبناء الســفن فـــى الولايات المتحدة . [٨٠]

وقد أرسل الرئيس الأمريكى أندروجاكسون برقية إلى مجلس الشيوخ فـــى ٩ ديسمبر ١٨٣٠ ، مصحوبة بنص المعاهدة الموقعة لدراســتها وإقرارهـــا قبـــل أن يعتمدها ، وأشار جاكسون إلى وجود "مادة سرية" فى المعاهدة ، كما أشـــار إلـــى وجود ثلاث نسخ منها بالإنجليزية والتركية والفرنسية ، وأنه قد تم إرسال نسخ من المعاهدة بنصها التركي إلى الدبلوماسيين الأمريكيين فى العواصم المختلفة[٨١].

وعندما بدأ الكونجرس الأمريكى فى دراسة المعاهدة ثار جدل كبير حول المادة السرية التى وافق عليها ريند دون الرجوع إلى حكومته ،بالإضافة إلى المادة السابعة المتعلقة بإعطاء السفن الأمريكية حق المرور عبر البحر الأسود [٨٢].

فعندما اجتمعت لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ الأمريكي فـــى ١٠ ديسمبر ١٨٣٠ لمناقشة المعاهدة ، أجرت تصويتاً على المادة السرية ، كانت نتيجته رفضها بأغلبية عشرة أصوات ، حيث صوت ضدها ثمان وعشـــرون عضـــوا ، ولصالحها ثمانية عشر عضوا .وأعدت اللجنة تقريرا للرئيس الأمريكي عن أسباب رفض المادة السرية من المعاهدة ، فأوضحت أن ذلك يرجع إلى أن الكونجرس لم يسبق له إقرار نص سري فى معاهدة ما ، لأن ذلك يتعارض مع سياسة الحياد التى وضعها الرئيس الأمريكي جورج واشنطون (فى ٢٢ أبريل ١٧٩٣) والتى تقضي بعدم التورط فى المنازعات الخارجية " [٨٣].

أما فيما يتعلق بالمادة السابعة التى ثار بشأنها الجدل فى الكونجرس أيضاً ، فقد رفع مجلس الشيوخ تقريراً حولها إلى الرئيس جاكسون فى ٢٨ ديسمبر ١٨٣٠، أكد فيه على ضرورة أن تنص المادة على " حق السفن الأمريكية فى المرور عبر البحر الأسود ، سواء كانت محملة أو فارغة ، وبأى نوع من الأحمال أو البضائع ، كما هو الحال بالنسبة للدول الأولى بالرعاية".

وقد أكد المجلس في برقيته على ضرورة ألا يتم مقايضة هذه المادة بأى تعهد للأتراك من شأنه أن يوحي لهم بالموافقة على ما جاء فى المادة السرية المرفوضة .وأكد المجلس أن الولايات المتحدة لن تستطيع إجبار رعاياها على عقد اتفاقيات خاصة مع الحكومة التركية أو أى دولة أجنبية أخرى (٨٤).

وباستثناء هاتين المادتين فقد أقر الكونجرس الأمريكى المعاهدة مع الدولة العثمانية بأغلبية ساحقة فى أول فبراير ١٨٣١ (٨٥) ثم صدق عليها الرئيس جاكسون فى اليوم التالى مباشرة (٨٦).

وعلى الرغم من إقرار الكونجرس والرئيس للمعاهدة فلقد شعر وزير الخارجية الأمريكى فان بيورين بالحرج الشديد لرفض المادة السرية ، ووجد نفسه فى موقف صعب إزاء الأتراك ، واخذ يبحث عن الطريقة التى سيبلغهم بها بهذه التعديلات التى جرت على المعاهدة التى واقعوا عليها من قبل ، لذلك قررت الإدارة الأمريكية تلافي هذا الموقف بإعطاء تعليمات للوزير الأمريكى الموفد إلى الباب العالى لنقل المعاهدة إلى هناك، بإبلاغ الحكومة التركية بأنه لديه تعليمات شخصية من المسئولين الأمريكيين بتقديم مساعدات عسكرية بحرية للأتراك إذا طلبوا ذلك.(٨٧).

وقد أخذت الحكومة الأمريكية تبحث عن الشخص المناسب لهذه المهمة الصعبة ، فاقترح ريند إرسال رجل الأعمال الأمريكي الشهير هنرى إيكفورد Henry Eckford إلى الأتراك .

وكان إيكفورد قد اشتهر فى مجال صناعة السفن التجارية و الحربية وأسهمت شركته فى إمداد القوات البحرية الأمريكية بسفن وطرادات خلال حربها مع بريطانيا عام ١٨١٢ ، كما أنه كان قد صنع عدداً من السفن الحربية لحكومات

دول أمريكا الجنوبية . وقد اقترح ريند أن يبحر إيكفورد إلى القسطنطينية على ظهر الطراد الأمريكي الجديدة "الولايات المتحدة" – الذى بناه إيكفورد بنفسه وكانت تبلغ حمولته ألف طن ويحمل ستة وعشرين مدفعا – وان يصحبه ريند بنفسه كمبعوث يحمل المعاهدة إلى الباب العالى ، استعدادا لتعيينه كوزير أمريكي مقيم فى القسطنطينية بعد تبادل المعاهدة بين الجانبين (٨٨).

ولقد درس الرئيس جاكسون ووزير خارجيته بورين هذا الاقتراح بعناية ، وكانا على وشك الموافقة على خطة ريند بالكامل ، لكنهما فى النهاية وافقا على جزء من مقترحات ريند فقط ، فبدلاً من ريند عين الرئيس الأمريكي القومادور ديفيد بورتر David Porter – قائد الأسطول الأمريكي فى البحر المتوسط – ليتولى أمر المفوضية الأمريكية فى القسطنطينية (٨٩) وتقرر أن يرافق بورتر فى رحلته ويليام ب. هودجسون William B. Hodgson وأعطى وزير الخارجية الأمريكي تعليمات لبورتر بالتأكيد لرئيس الكتاب محمد حامد باشا أنه إذا رغب الباب العالى فى صناعة سفن حربية فى الولايات المتحدة يمكن إتمام ذلك عن طريق التشاور والنصح المتبادلين.(٩٠) وفى ٢٧ سبتمبر ١٨٣١ كتب بورتر رسالة إلى محمد حامد (الريس أفندي) جاء فيها ما يلي : " نظراً لأن معاهدة الملاحة والتجارة التى تم التفاوض بشأنها بين الولايات المتحدة الأمريكية والباب العالى ، والتى أضاف إليها مندوب الولايات المتحدة مادة منفصلة – دون أن يكون مفوضا لعمل ذلك – لصالح الباب العالى ، وبما أنه ليس فى مقدور حكومة الولايات المتحدة تنفيذها .. لأنها ستؤدي إلى اضطراب كبير لحكومة الولايات المتحدة .. الآن أنا ديفيد بورتر، القائم بالأعمال الأمريكي لدى الباب العالى ، وأعمل وفقا لتعليمات الرئيس الأمريكي وبالتطابق مع نص المادة المنفصلة المذكورة آنفا ، أتعهد بتقديم النصح والمشورة للباب العالى فى كل الأوقات للعثور على أفضل وسيلة للحصول على السفن الحربية والخشب والأشجار اللازمة لصناعتها من الولايات المتحدة ، وللحصول على كل مميزات ممكنة فى المادة المنفصلة السابقة الذكر ، وبدون انتهاك لقوانين الولايات المتحدة أو التعارض مع ارتباطاتها بالدول الأخرى ... وأؤكد أن هذا التعهد سيكون ملزما لخلفائي فى هذه الوظيفة" (٩١).

ويتضح من هذه البرقية مدى حرص الإدارة الأمريكية على إتمام المعاهدة ، وكان معني هذا التعهد أن الخارجية الأمريكية قد تحركت من خلف ظهر الكونجرس وبالتعاون مع مؤسسة الرئاسة لإرضاء الأتراك ، وتنفيذ هذه المادة السرية التي لم تتضمنها المعاهدة بطريقة أخري ، نظراً للمزايا التي كانت ستعود على الولايات المتحدة من جراء إبرام المعاهدة (٩٢).

وفي ١٥ أكتوبر ١٨٣١ تم في القسطنطينية تبادل النصين التركي والإنجليزي للمعاهدة (٩٣) وتكتم الطرفان إعلان ذلك رسمياً حتى ٤ فبراير ١٨٣٢ (٩٤).

وفي ٧ فبراير ١٨٣٢ أرسل الرئيس الأمريكي جاكسون برقية إلى مجلسي الشيوخ والنواب يعلنهما بالإقرار النهائي للمعاهدة لتصبح سارية المفعول (٩٥).

وقد اشتملت المعاهدة بعد إقرارها النهائي من الطرفين على تسع مواد تركزت معظمها على الامتيازات الأمريكية في الدولة العثمانية ، وقد اشتملت هذه الامتيازات على المسائل القنصلية والقضائية والتجارية والملاحية والعسكرية (٩٦).

ولقد استهلت المعاهدة في نصها الإنجليزي بهذه المسودة " لقد كانت هناك خلافات بشأن بعض البنود ، ولكن تم الاتفاق على حلها من خلال المشاورات الدبلوماسية بدون تاريخ محدد " (٩٧).

كما أكد الطرفان في مقدمة المعاهدة أيضاً أنه بسبب " عدم وجود أية معاهدة أو اتفاقية دبلوماسية دائمة بين الباب العالي والولايات المتحدة ... وبناء على المقترحات المتكررة التي طرحتها هذه الدولة (يقصد الحكومة الأمريكية) وبعدما أبداه الباب العالي من مشاعر الصداقة تجاه الولايات المتحدة نبرم المعاهدة"(٩٨).

وفيما يتعلق بالمسائل القنصلية فقد نصت المادة الثانية على تعيين قناصل ونواب قناصل في المناطق التجارية بالأراضي التابعة للباب العالي وبالمثل في الولايات المتحدة " للإشراف على الشئون التجارية ". وقررت المعاهدة أن يتمتع هؤلاء القناصل بمكانة مميزة وتقديم العون الضروري والحماية اللازمة لهم (٩٩). ومما لا شك فيه أن هذه المادة كانت في صالح الأمريكيين من الناحية العملية ، لأن حجم التبادل التجاري الذي يستلزم الحماية القنصلية كان متركزاً في الدولة العثمانية

وليس فى الولايات المتحدة فلم يكن للأتراك نشاط تجارى يــذكر فــى الأراضــي الأمريكية (٢٠٠) وبذلك كان التمثيل القنصلي امتيازا لصالح الأمريكيين .

ولقد كانت المسائل القضائية تمثل أهمية كبيرة للجانب الأمريكي فى هذه المعاهدة ، وقد نصت المادة الرابعة على حقوق ومزايا خطيرة أدت إلى تدخل أمريكي فى شئون الدولة العثمانية ، وكانت من أسباب المساس باستقرارها وتردى الأوضاع الداخلية بها ، فقد جاء فى هذه المادة ما نصه " لن يتخذ أى إجراء قضائي فى حالة وجود دعاوي ومنازعات قضائية بين رعايا الباب العالي ورعايا الولايات المتحدة .. حتى حضور مترجم". وجاء فى موضع آخر من نفس المادة أنه ليس من حق السلطات المحلية اتخاذ أى إجراء قضائي ضد الرعايا الأمريكيين داخل الدولة العثمانية باعتقالهم أو وضعهم فى السجن ، لأن ذلك لن يتم إلا بواسطة الوزير المفوض الأمريكي داخل أراضي الدولة العثمانية .كما أعطت امتيازاً آخر للرعايا الأمريكيين جاء فيه " ستتم العقوبة على الجريمة وفقا للعرف المتبع تجاه الأجانب الآخرين" (٢٠١).

ولقد أعطت هذه المادة الخطيرة المواطنين الأمريكيين الذريعة لارتكاب الجرائم ضد المدنيين المسالمين من رعايا الدولة العثمانية سواء داخل تركيا أو فى الولايات العربية التابعة لها، وبصفة خاصة أن هذه الفترة قد شهدت تدفقاً ملحوظاً للمبشرين الأمريكيين إلى أراضي الدولة العثمانية ، وما كانت تمثله أنشطتهم غير المشروعة من استفزازات لمشاعر المسلمين من سكان الدولة فكانت تنشب المشاجرات التى تتحول إلى جرائم قتل فى أحيان كثيرة . مما أعطي الأمريكيين فرصة التدخل فى الشئون الداخلية للدولة بصورة سافرة (٢٠٢).

وتعد المسائل التجارية فى المعاهدة الأمريكية العثمانية من الموضوعات الهامة للغاية ، وقد غلبت الامتيازات التجارية الأمريكية فى أراضي الدولة العثمانية على المعاهدة ، ونصت عدة مواد منها على هذا الجانب ، حيث نجد أن المواد الأولى والثالثة والخامسة والسابعة قد تعلقت بحماية التجارة الأمريكية والحصول على معاملة الدولة الأولى بالرعاية ، فجاء فى المادة الأولى من المعاهدة " أن التجار الأمريكيين الذين يأتون إلى البلدان التابعة للباب العالى وموانئه سيدفعون نفس الرسوم والضرائب الأخرى التى يدفعها تجار الدول الأولى بالرعاية" (٢٠٣).

كما نصت المادة الثالثة من المعاهدة على حماية التجار الأمريكيين من التفتيش فى موانئ الدولة العثمانية كما هو الحال بالنسبة للدول الأولى بالرعاية : " لن تتعرض السفن الأمريكية القادمة أو المغادرة لموانئ الإمبراطورية العثمانية للتفتيش بواسطة ضباط الجمارك (الأتراك) كما هو الحال مع سفن الدول الأولى بالرعاية " [١٠٤] ومعنى ذلك أن هذه السفن كانت ستحمل بضائع ممنوعة تخشى الحكومة الأمريكية من الكشف عنها ، وبخاصة فى ظل ما أثير حول التجارة الرائجة للأفيون التى كان يقوم بها بعض التجار الأمريكيين فى ميناء سمرنا التركي ونجاحهم فى تصديره إلى الصين [١٠٥].

ونظراً لأهمية الامتيازات التجارية – كما ذكرنا – فقد نصت المادة الخامسة أيضاً على مسائل تجارية ، فقد أعطت للسفن التجارية الأمريكية الحق فى رفع العلم الأمريكي خلال عبورها للأراضي التركية ، وأكدت على أنها لن تعتمد على أعلام الدول الأخرى – كما كان هو الحال فى السابق عندما كان يعتمد الأمريكيون على العلم البريطاني – ولن تسمح لأى دولة أخرى برفع العلم الأمريكي على سفنها[١٠٦].

وفيما يتعلق بالمسائل الملاحية فقد نصت المادة التاسعة والأخيرة على هذا الجانب ، فأكدت على تقديم العون والحماية فى أعمال المساعدة والإنقاذ للسفن والملاحين الذين تحطمت سفنهم "وأن يتم نقل كل ما يتم إنقاذه إلى القنصل التابع له الحطام ليقوم بنقل البضائع إلى مالكيها" [١٠٧].

ويمكننا القول بأن المادة السابعة من المعاهدة، والتى ذكرنا من قبل ذلك الجدل الذى ثار حولها داخل أوساط الكونجرس الأمريكي ، والتى تم تعديلها لمصلحة الجانب الأمريكي ، كانت من أهم مواد هذه المعاهدة ، فقد نصت على إعطاء السفن التجارية الأمريكية – بصرف النظر عن حمولتها سواء كانت بضائع عادية أو معدات عسكرية – الحق فى المرور عبر البحر الأسود [١٠٨] فى سابقة خطيرة كرست الامتيازات الأمريكية فى الدولة العثمانية وأوجدت ظروفاً مواتية للتدخل العسكرى الأمريكي المستتر فى شئون الدولة .

وقد ارتبطت المادة الثامنة من المعاهدة بهذه المسألة العسكرية أيضاً ، فقد نصت على رفض تحويل السفن التجارية للطرفين إلى سفن عسكرية ، وجاء فيها :

" لن يتم تحويل السفن التجارية للطرفين إلى سفن لنقل القوات العسكرية أو الذخائر وكل ما يتعلق بالحرب ... إذا كان قادتها ومالكيها غير راغبين في شحنها " (١٠٩).

ومما لاشك فيه أن المعاهدة جاءت في مصلحة الجانب الأمريكي بكل تأكيد ، فلقد تجمعت الميزات للأمريكيين في شتى المجالات التي شملتها بنودها ، وعلى الرغم من وجود بعض الآثار السلبية للمعاهدة على مصداقية الولايات المتحدة الأمريكية في أوروبا كدولة مسيحية تدافع عن حقوق الشعب اليوناني (المسيحي) في مواجهة الدولة العثمانية (المسلمة) (١١٠) فلم يعبأ الأمريكيون بهذا الجانب ما دامت المعاهدة قد حققت أهدافهم في الحصول على موطئ قدم دائم في دار الخلافة، واعتبروا أن ما حققوه يعد نصراً كبيراً للسياسة الخارجية الأمريكية في القرن التاسع عشر ، وبصفة خاصة فيما يتعلق بفتح موانئ البحر الأسود أمام السفن الأمريكية ، إذ لم يخف الأمريكيون شعورهم بالسرور فذهبوا إلى وصف السلطان محمود الثاني بأنه " سلطان مستنير" (١١١).

لقد فتحت هذه المعاهدة الباب على مصراعيه للامتيازات الأمريكية داخل الدولة العثمانية فانطلق التجار والمبشرون الأمريكيون في أراضي الدولة وولاياتها، مدعومين بالحماية القنصلية والقضائية التي وفرتها لهم معاهدة ١٨٣٠ .

فعلى صعيد التغلغل التجاري الأمريكي في الدولة العثمانية نلاحظ تزايداً في حركة السفن التجارية الأمريكية إلى سمرنا والقسطنطينية بعد المعاهدة ، وبمقارنة الوضع قبل ١٨٣٠ وبعده نجد أنه في عام ١٨٠٥ كتب ويليام ستيوارت William Stewart – أول قنصل أمريكي في سمرنا – تقريراً إلى حكومته عن حجم النشاط التجاري الأمريكي في سمرنا فأوضح أنه خلال ١٨٠٥ وصلت ست سفن أمريكية ، أربعة منها من فيلادلفيا واثنتان من بلتيمور (١١٢).

لكن الحال انقلب بعد المعاهدة فقد بلغ عدد السفن الأمريكية التي وصلت إلى سمرنا في عام ١٨٣٢ إلى ست وأربعين (٤٦) سفينة ، كما وصلت إلى القسطنطينية في نفس العام أربع عشرة (١٤) سفينة أمريكية أخرى ، أي أن السفن الأمريكية التي وصلت إلى أراضي الدولة العثمانية خلال عام واحد فقط بعد معاهدة ١٨٣٠ قد بلغ مجموعها ستون سفينة أي بمعدل اثني عشر مثلاً لما جاء عام ١٨٠٥ (١١٣).

وقد تزايدت السلع الأمريكية فى الأسواق التركية ، فبينما اقتصرت فى فترة سابقة على القهوة والفلفل والسكر والسجائر والأفيون بصورة رئيسية ، فإنها بعد المعاهدة قد أصبحت تشمل المنتجات القطنية والدخان والبارود والحنطة ، وبالإضافة إلى ذلك تم دعم تجارة الأفيون من خلال ميناء سمرنا الذى صار ميناء حيويا لتجار الأفيون الأمريكيين خلال الحروب النابليونية ، وأشتهر فى هذه التجارة عدد من التجار اليهود والأرمن (١١٤).وقد استورد الأمريكيون من تركيا الفواكه والفضة ومواد الغزل والبندق (١١٥).

وفى عام ١٨٦٢ اتفق الجانبان على وضع تعريفة جمركية على السلع الأمريكية المصدرة إلى الدولة العثمانية بعد تزايد حجم التجارة الأمريكية بصورة كبيرة ، ووقع الطرفان معاهدة بهذا الشأن فى ٢٨ فبراير ١٨٦٢ (١١٦).

على أية حال فلم تقتصر الاستفادة الأمريكية من المعاهدة على هذه الجوانب فقط ، وإنما أدى حصول السفن الأمريكية على حق المرور عبر البحر الأسود إلى نقل التجارة الأمريكية إلى فارس وروسيا ، بالإضافة إلى التزايد الكبير فى الأفيون المصدر إلى الصين (١١٧) فوصل حجم ما ينقله الأمريكيون إلى هناك فـــى أوائـــل القرن التاسع عشر ٤-٥ أطنان من الأفيون سنويا ، حيث أصبح الطريـــق عبـــر الأراضي التركية أيسر من ذى قبل بعد أن كانت عملية نقل الأفيون تتم بالـــدوران حول أفريقيا عبر طريق رأس الرجاء الصالح والمحيط الهندي (١١٨).

أما المبشرون الأمريكيون فقد أخذوا يتدفقون إلى أراضي الدولة العثمانيـــة وإلـــى تركيا نفسها فى أعقاب توقيع معاهدة ١٨٣٠ ، وإذا كانت الإرساليات التبشيرية الأمريكية قد وطأت البلاد العربية التابعة للدولة العثمانية منذ مطلع القرن التاســـع عشـــر ، إلا أن نشاطها قد تزايد بعد المعاهدة بصورة كبيرة ومأمونة عن ذى قبل (١١٩).

وكان المبشرون الأمريكيون قد نجحوا فى إقامة محطة تبشيرية فى مالطـــة منذ عام ١٨٢٠ ، وانطلقت منها إرسالية إلى الشام فى ١٨٢٣ بقيادة القـــس وليـــام جودل William Goodell الموفد من المجلس الأمريكي للإرساليات التبشـــيرية بالخارج بمدينة بوسطن – والقس ايزاك بيرد Isaac Bird (١٢٠) ونجحا فى إقامـــة كنيسة بروتستانتية فى بيروت (١٢١).

ولكن المبشرين الأمريكيين كانوا يقابلون بمعارضة حكومية وشعبية كبيرة في المناطق التي يصلون إليها ، وجاءت معاهدة ١٨٣٠ وفتحت الباب أمامهم للانطلاق إلى داخل أراضي الخلافة العثمانية ، فنقل القس ويليام جودل نشاطه من بيـــروت إلى القسطنطينية في ٩ يونية ١٨٣٠ (١٢٢) مستهدفا العمل فيما بين طائفتي اليونانيين والأرمن المقيمين في العاصمة التركية ، ثم تركز جهده على الأرمن فقط ، وظـــل هذا الهدف هو المحور الرئيسي لنشاط المجلس الأمريكي للإرساليات داخل أراضي الدولة العثمانية حتى قيام الحرب العالمية الأولى(١٢٣).

وقد جاء في مذكرات جودل عن فترة نشاطه في تركيا أنه قد تلقى مساعدات كبيرة من الدبلوماسيين الأمريكيين في القسطنطينية وعلى رأسهم ديفيد بورتر أول وزير أمريكي مفوض في حاضرة الخلافة (١٢٤).

كما انطلقت إرسالية أمريكية إلى فارس في أبريـــل ١٨٣٠ واتخـــذت مـــن القسطنطينية قاعدة لها ، فوصل سميث Smith ودوايت Dwight إلى شمال فارس في رحلة استكشافية ثم عادا إلى القسطنطينية في مايو ١٨٣٠ (١٢٥) وخلال الفتـــرة من ١٨٣٥ إلى ١٨٣٩ وصل المبشر الأمريكي جرانت Grant إلى الجبال الكردية، وكان يرغب في إقامة مركز تبشيري ثابت هناك ، وتبعه المبشر الأمريكي هوراثيو سوزيت Horatio Southgate الذي وصل إلى طهران في ١٦ ســبتمبر ١٨٣٧ ومن فارس اتجه على بغداد (١٢٦) بالعراق العثماني .

كما عاد جرانت إلى كردستان في أبريل ١٨٣٨ واتجه إلى الموصل بالعراق العثماني لإقامة مركز تبشيري بها ولكن السلطات العثمانية اعترضت علـــى هـــذا النشاط في الموصل وفشلت هذه المحاولة (١٢٧) فاخذ الأمريكيون يركزون نشـــاطهم على فارس (١٢٨).

كما بدأ الأمريكيون نشاطا تبشيرياً في مصر منذ عام ١٨٥٤ ، عندما وصلت إليها إرسالية أمريكية تابعة للكنيسة المشيخية في ذلك العام (١٢٩) بقيادة القس تومـــاس ماكـــاج Thomas Mccague وزوجته والقس جيمس بارنت James Barnett(١٣٠).

ولقد كانت درة نشاط الإرساليات التبشيرية الأمريكية في أراضي الدولة العثمانيـــة

الإرسالية التى أرسلت عام ١٨٩٠ بقيادة صموئيل زويمر Samuel Zwemer وجيمس كانتين James Cantin إلى منطقة الخليج والجزيرة العربية بما فيها العراق العثماني وكانت تستهدف العمل فيما بين المسلمين (١٣١) فنجد أن أعلنت الإرساليات الأمريكية السابقة أن هدفها كان تحويل أصحاب المذاهب المسيحية الأخرى (مثل النساطرة والكاثوليك والأرمن والأرثوذكس وطوائف اليهود) إلى البروتستانتية فلقد تجرأت هذه الإرسالية ومارست نشاطاً تنصيرياً فيما بين المسلمين فى ظل الحماية من الدبلوماسيين الأمريكيين الذين تمتعوا بامتيازات معاهدة ١٨٣٠ (١٣٢).

أما فيما يتعلق بالامتيازات القضائية المترتبة على المعاهدة ، فلقد بدأت الولايات المتحدة تتخذ منذ عام ١٨٣٠ خطوات داخلية للمشاركة فى الامتيازات بإصدار الكونجرس سلسلة من القوانين أنشأت وطورت بموجبها نظام المحاكم الأمريكية القنصلية فى جميع أنحاء الدولة العثمانية .وكان أول هذه القوانين قانون ٧ أغسطس ١٨٤٨ الصادر تحت عنوان " قانون تنفيذ بعض شروط المعاهدات المنعقدة بين الولايات المتحدة والصين والدولة العثمانية بمنح بعض السلطات القضائية لوزراء وقناصل الولايات المتحدة فى تلك البلاد " (١٣٣).

ولسبب ما أنشأ هذا القانون الأمريكي نظاماً من المحاكم القنصلية فى الصين ثم استدرك واضعوا القانون أنفسهم فجاء فى البند (٣٢) منه " وطالما أن التدابير المذكورة فى هذا القانون تتصل كذلك بالجرائم التى يرتكبها مواطنو الولايات المتحدة فى تركيا فإن أثرها يمتد أيضاً إليها طبقاً للمعاهدة التى وقعت مع الباب العالى فى ٧ مايو ١٨٣٠" (١٣٤).

ولم يحدث حتى عام ١٨٥٨ أن وجه الوزير المفوض الأمريكي فى تركيا أنظار الإدارة الأمريكية إلى تلك الحقيقة السابق تجاهلها، بالرغم من أن محاكم الولايات المتحدة القنصلية فى الدولة العثمانية قد مارست القضاء سواء فى الحالات المدنية أو الجنائية ، بينما صلاحية تلك الممارسة قد منحت طبقاً لقانون ١٨٤٨ فى حالة الأعمال الجنائية فقط . وقد طلب وزير الخارجية الأمريكي رأى المحامي العام للولايات المتحدة فى هذه النقطة تحديداً فجاء رده بتاريخ ١٦ مارس ١٨٥٩ أنه " من الواضح أن لقناصل الولايات المتحدة فى تركيا سلطات قضائية فى

الحالات الجنائية فقط [١٣٥] .

وقد أدى هذا القرار الرسمي الأمريكي إلى عرقلة التجارة الأمريكية ، فقد كان التجار الأمريكيون يمارسون أعمالهم مع الإمبراطورية العثمانية في ضوء التفسير السابق للقانون ، لكن الكونجرس الأمريكي أقر قانون ٢٢ يونيه ١٨٦٠ الذى وسع وطور قانون ١٨٤٨ ، فقد اعتني بتوسيع نطاق السلطات القضائية القنصلية فى الإمبراطورية العثمانية لتشمل القضايا الجنائية مع القضايا المدنية ، وطبقاً للمادة الخامسة من قانون ١٨٦٠ أوضح الوزير الأمريكي المفوض في القسطنطينية قواعد وأنظمة للمحاكم القنصلية فى الدولة العثمانية [١٣٦].

ثم شاركت الولايات المتحدة فى نظام المحاكم المختلطة التى بدأت تنتشر فى الولايات التابعة للدولة العثمانية ، فظهرت فى مصر في فبراير ١٨٧٦ واستقبلت القضايا المدنية والتجارية من المحاكم القنصلية [١٣٧].

وقد ظهر خلاف حول المادة الرابعة من المعاهدة فى مصر عام ١٨٧٩ ، ففى ١٧ يولية قام مواطن أمريكى يدعى ستيفن ميزرام Steven Mizram بقتل محام مشهور من الأتراك يدعي إسكندر الدهان ، حيث أطلق عليه النار بعد مشاجرة بينهما فى أحد شوارع الإسكندرية ووفقا لاختصاص المحاكم القنصلية بالقضايا الجنائية ، فقد تولت المحكمة القنصلية الأمريكية فى مصر برئاسة الوزير الأمريكي المفوض فى تركيا هوراس مينارد Horace Maynard محاكمة المتهم، ووجدت أنه مذنب فى جناية القتل فاستبدلت عقوبة الإعدام بالسجن مدى الحياة، واعترضت الدولة العثمانية على ذلك .ومن ثم استمر الجدل حول المادة الرابعة من المعاهدة عندما أسقطت معاهدة أنقرة بين البلدين تلك المادة ، ولكنه حتى ذلك الحين كانت المسألة قد أصبحت شكلية ، حيث اتفقت الدول الأوروبية على إلغاء نظام الامتيازات الأجنبية فى تركيا بمقتضي معاهدة لوزان ١٩٢٣ [١٣٨].

هكذا يتضح لنا من هذه الدراسة أن الولايات المتحدة لم تكن تتمتع بالوزن السياسي على المستوى الدولى خلال القرن التاسع عشر ، وهو ما أدى إلى تأخرها فى عقد معاهدة للامتيازات مع الدولة العثمانية أسوة بالدول الأوروبية التى سبقتها فى هذا المضمار قبل سنوات طويلة .

ولقد كانت الخطوات الأمريكية لإبرام المعاهدة بطيئة ، واتسمت بالتردد وسيطر على الموقف الأمريكي حيال هذه القضية عدة اتجاهات ، الاتجاه الأول يتعلق بالحصول على عدة امتيازات متنوعة في الخلافة العثمانية ، والاتجاه الثاني هو الحفاظ على سياسة الحياد الأمريكية الشهيرة وعدم التدخل في شئون العالم القديم ، أما الاتجاه الثالث فكان يتعلق بالموقف الأمريكي الرسمي والشعبي من الثورة اليونانية والانعكاسات السلبية لعقد المعاهدة مع الأتراك على هذا الموقف.

ولقد نجح الأمريكيون بعد تردد طويل في التوفيق بين الاتجاهات الثلاثة المذكورة ، فحصلوا على امتيازات تجارية وقنصلية وقضائية وعسكرية في أراضي الدولة العثمانية ، وأعلنوا مع ذلك التزامهم بسياسة الحياد ، كما تمكنوا من الحفاظ على صورة الولايات المتحدة كدولة مسيحية تساند الشعب اليوناني في مواجهة دولة الخلافة الإسلامية وعلى الرغم من قيام الحكومة الأمريكية بالاعتراف باستقلال اليونان في ١٨٢٩ فإنها كانت تمد الأسطول التركي بالسفن الحربية الجديدة لتعويضه عن خسارته في معركة نوارين البحرية في ١٨٢٧ .

ومما لاشك فيه أن الولايات المتحدة بعقدها للمعاهدة مع الأتراك في ١٨٣٠ قد حققت نجاحاً كبيراً في تاريخها منذ نشأتها وتمكنت من تأمين تجارة الأفيون في الموانئ التركية ، ونجحت في الوصول إلى البسفور والدردنيل ففتحت بذلك خطاً تجارياً مع فارس والصين وروسيا كانت تجد صعوبة بالغة فيه من قبل ، كما أن الدولة العثمانية ونتيجة لعدم الثقة في الأوروبيين بعد نوارين ، قد وجدت في الولايات المتحدة صديقاً مناسباً ففتحت الأبواب المغلقة أمام الأمريكيين ، وجاء الخبراء العسكريون من واشنطون واطلعوا على حقيقة الأوضاع العسكرية السيئة داخل الدولة ، مما كان له أثراً بدون شك على إعداد المسرح لإسقاط دولة الخلافة الإسلامية .

كما أن المعاهدة فتحت الباب على مصراعيه امام المبشرين الأمريكيين الذين انطلقوا في موجات متتالية كرد فعل تاريخي لانكسار الحركة الصليبية خلال العصور الوسطي ، فكانوا بمثابة عامل هدم خطير في كيان الدولة العثمانية تواكب مع التسلط العسكري والاقتصادي الذى كان قد أخذ يؤتي أكله خلال القرنين التاسع عشر والعشرين كما هو معلوم .

الملحق رقم (١)

نص المعاهدة العثمانية الأمريكية عام ١٨٣٠ (١٣٩)

هذا النص هو ترجمة للمعاهدة الأصلية المكتوبة باللغة التركية. وقد تم الاتفاق على حل الخلافات في الرأى حول بعض البنود من خلال المشاورات الدبلوماسية.

مواد المعاهدة

١- الامتيازات التجارية ٢- الموظفين القنصليين

٣- معاملة التجار والسفن الأمريكية

٤- المعاملة القضائية للرعايا الأمريكيين ٥- رفع العلم الأمريكي

٦- السفن الحربية ٧- الملاحة في البحر الأسود

٨- السفن المحولة ٩- السفن الغارقة – التصديق.

إنه بسبب عدم وجود معاهدة أو اتفاقية دبلوماسية ورسمية بين الباب العالى والولايات المتحدة الأمريكية حتى الآن ، وبناء على الرغبة التى أعلنت عنها رسميا والمقترحات المتكررة التى قدمتها هذه الدولة مؤخرا والتى وجدت ترحيبا من الباب العالي الذى أظهر مشاعر الصداقة للولايات المتحدة الأمريكية ، نحن المندوبون الموقعون أدناه بالتوافق مع الهيئة العليا لقاضي القضاة للباب العالى ، الذى سمح بالتفاوض على إبرام المعاهدة ، وبناء عليه التشاور مع صديقنا المحترم تشارلز ريند الذى جاء إلى هذا المقر الإمبراطورى مزودا بالصلاحيات الكاملة للتفاوض ، لإبرام مواد المعاهدة بالاشتراك والارتباط بمندوبين مفوضين آخرين هما القومادور بيدل وديفيد أوفلى الموجودين الآن فى سمرنا قد رتبنا ووافقنا على إبرام المواد التالية :

المادة الأولى :

سيدفع تجار الباب العالى ، سواء من المسلمين أو الرياس الذين يأتون إلى مقاطعات البلاد وموانئ الولايات المتحدة أو الذين ينتقلون من ميناء إلى آخر أو موانئ الولايات المتحدة إلى تلك البلاد الأخرى ، نفس المكوس والضرائب المختلفة التى تدفعها الدول الأولى بالرعاية . وفى السفر بالبحر والبر فإن كل الامتيازات والمزايا الممنوحة لرعايا الدول الأخرى ستقدم لتجار ورعايا الباب العالى . وبالمثل فإن التجار الأمريكيين

الذين سيأتون إلى البلاد المحروسة وموانئ الباب العالى سيدفعون نفس المكوس والضرائب الأخرى التى يدفعها تجار الدول الأولى بالرعاية بصورة ودية ولن يتعرضوا لأى تضييق ، وسيتم منح جوازات سفر لكلا الجانبين.

المادة الثانية :

يقوم الباب العالي بتعيين قناصل فى الولايات المتحدة الأمريكية ، كما تقوم الولايات المتحدة بتعيين قناصل أو نواب قناصل من رعاياها فى المناطق التجارية فى الأراضي التابعة للباب العالى أينما تكون الحاجة للإشراف على شئون التجارة .وسوف يتمتع هؤلاء القناصل أو نواب القناصل بكل تأكيد بمكانة مميزة ويتم تقديم العون الضرورى والحماية لهم .

المادة الثالثة :

سيتم توفير الحرية للتجار الأمريكيين المقيمين فى البلدان الخاضعة للباب العالى لتشغيل سماسرة لهم من أى دولة أو دين بنفس الصفة التى لتجار القوي الأولي بالرعاية ولن يتم عرقلة نشاطهم .والسفن الأمريكية القادمة أو المغادرة لموانئ الإمبراطورية العثمانية لن تكون عرضة لتفتيش ضباط الجمارك بالميناء كما هو الحال للدول الأولى بالرعاية .

المادة الرابعة :

إذا نشأت ادعاءات قضائية أو نزاعات بين رعايا الباب العالى ومواطني الولايات المتحدة فلا تسمع أقوال طرفى النزاع ولا تعلن القضايا إلا فى حضور المترجم الأمريكي وفى القضايا التى تزيد الدعاوي فيها عن ٥٠٠ قرش يجب تحويلها للباب العالى ليصدر قراره فيها طبقاً لقوانين الإنصاف والعدالة .ولن يحدث أى إزعاج أو تحرش بمواطني الولايات المتحدة الأمريكية الذين يباشرون تجارتهم بهدوء أو الذين لم يسبق اتهامهم أو إدانتهم على أى إثم أو جريمة وحتى فى حالة ارتكابهم بعض الانتهاكات ، لا يتم القبض عليهم أو إيداعهم السجن بواسطة السلطات المحلية ، بل تتم محاكمتهم وتوقيع العقوبات عليهم طبقاً لنوع الانتهاك الذى ارتكبوه بواسطة قنصلهم أو وزيرهم متبعين فى ذلك المجال العرف المتبع تجاه الفرنجة الآخرين .

المادة الخامسة :

تقوم السفن التجارية الأمريكية بالقدوم إلى ومغادرة أراضي الباب العالى فى أمان كامل حاملة علمها فحسب ، ولن ترفع علم أى قوة أخرى ، كما أنها لن تسمح برفع علمها على سفن الدول والقوى الأخرى ولا سفن الرياس . ولن يحمى الوزير المفوض والقناصل ونواب القناصل التابعين للولايات المتحدة بصـــورة ســـرية أو علنية رياس الباب العالى ، ولن يتحللوا من القواعد المعلنة هنا والتى تم الموافقـــة عليها بصورة مشتركة .

المادة السادسة :

تقوم السفن الحربية للطرفين المتعاهدين بتقديم ما يدل على الصداقة والتفاهم وفقا للعرف البحرى ، وتجاه السفن التجارية التى سيظهروا لها نفس الصفة والنية الطيبة.

المادة السابعة :

يكون للسفن التجارية للولايات المتحدة ، نفس الميزة التى لسفن الأمم الأولى بالرعاية ، حرية المرور عبر القناة الخاضعة للمقر الإمبراطوري وتذهب وتأتي فى البحر الأسود ، محملة أو فارغة ، حاملة الغـــلال والمـــواد الخـــام والمنقـــولات الشخصية غير الممنوعة إلى الإمبراطورية العثمانية بالإضافة إلى بلدانها .

المادة الثامنة :

لن يتم تحويل السفن التجارية للطرفين المتعاهدين إلى سفن نقل للقوات العسكرية أو الذخائر الحربية والأغراض الحربية الأخرى ، إذا كان قادة أو مالكي السفن غير مستعدين لشحنها .

المادة التاسعة :

إذا تحطمت السفن التجارية لأى من الطرفين المتعاهدين فسوف يـــتم تقـــديم المساعدة والحماية لهؤلاء الملاحين حتى يتسني إنقاذهم ، والبضـــائع والمنقـــولات الشخصية التى ربما يكون من المحتمل إنقاذها ، سيتم تسليمها إلى القنصل بالقرب من مكان التحطم ليتم نقلها بواسطته إلى المالكين.

ختامـــــا

إن البنود السابقة تمت الموافقة عليها وأبرمت بين الرئاسة (وزارة القضاء) والمندوب المنوه عنه للولايات المتحدة ، حيث تم التوقيع عليها بواسطة المنـــدوبين الذين قاموا بتبادلها .وفى غضون عشرة أشهر من تاريخ هذه المعاهدة سيتم تبـــادل التصديقات عليها بين الدولتين ومواد هذه المعاهدة سيكون معمول بها وتكون فـــى موضع التنفيذ الكامل بواسطة القوتين المتعاهدتين .

أبرمت فى ١٤ ذو القعدة ١٢٤٥ هجرية الموافق ٧ مايو ١٨٣٠ ميلادية

محمد حامد

رئيس الكتاب (رئيس أفندي)

هوامش الدراسة

١- يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية ، ترجمة عدنان محمود سلمان ، ج١، استانبول ، الطبعة الأولى ١٩٨٨ ، ص ص ٦٢٣ ، ٦٣١ .

٢- المرجع السابق ، ص ٦٢٣-٦٧٠ .

٣- عبد العزيز سليمان نوار(دكتور) : تاريخ الشعوب الإسلامية ، القاهرة ١٩٩٨، ص ص ١٠٢ ، ١٠٣ .

٤- المرجع السابق ، ص ص ١٠٢ ، ١٠٣ ؛هـ. أ.ل. فيشر : تاريخ أوروبا في العصر الحديث ، ترجمة أحمد نجيب هاشم ، القاهرة ١٩٨٤ ، ص ص ١٢٦، ١٢٧ .

٥- كانت معركة نوارين البحرية من المعارك الهامة فى تاريخ الدولة العثمانية عندما تدخلت الدول الأوروبية الكبرى وعلى رأسها إنجلترا لفصل اليونان عن تركيا ، فأرسلت إنجلترا وفرنسا وروسيا أساطيلها إلى شواطئ اليونان فى ١٨٢٧ ودارت بين هذه الدول وبين إبراهيم باشا – ابن محمد على باشا وقائد الحملة المصرية على اليونان – مفاوضات فى خليج نوارين انتهت بالاتفاق على تنفيذ معاهدة لندن ١٨٢٧ بخصوص استقلال اليونان ، ولكن وقعت مناوشات بين الأساطيل المحتشدة أثناء غياب إبراهيم باشا داخل المورة، وكانت تعليمات قائد الأسطول الإنجليزي تقضي باستعمال القوة إذا دعت الحالة ، فدارت معركة نوارين فى ٢٠ أكتوبر ١٨٢٧ وتم فيها القضاء على الجزء الأكبر من الأسطول العثماني والمصري فى عدة ساعات . انظر: محمد رفعت : تاريخ مصر السياسي فى الأزمنة الحديثة ، القاهرة ١٩٣٤ ، ص ص ٨١ ، ٨٢ .

٦- فيشر : المرجع السابق ، ص ١٢٩ .

٧- عبد العزيز الشناوى (دكتور) : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ج١ ، القاهرة ١٩٧٨ ، ص ٢١٨ .

٨- ترجع بداية الامتيازات الأوروبية فى الدولة العثمانية إلى عام ١٥٣٥م عندما عقدت معها فرنسا معاهدة باسم الصداقة والتجارة كانت بمثابة المنوال الذى

سار عليه نظام الامتيازات الممنوحة للدول الأوروبية فى الدولة العثمانية ، والتى كانت عادة ما يتم تجديدها مع كل سلطان عثماني جديد . وتضمنت المعاهدات مبدأ حق الدولة الأولى بالرعاية ، فحصلت الدول الأوروبية على مجموعة ضخمة من الحقوق والامتيازات عرفت بالامتيازات الأجنبية وتمثلت فى حرية التجارة والعبادة وعدم انتهاك حرمة مساكن الأجانب المقيمين فى أراضي الدولة وامتيازات قضائية جعلت الأجانب يتقاضون أمام محاكمهم . أنظر : عبد الحميد أبو هيف (دكتور) : القانون الدولى الخاص فى أوروبا ومصر ، القاهرة ١٩٢٤ ، ص ١٦٤ ، لينوار تشامبرز رايت : سياسة الولايات المتحدة الأمريكية إزاء مصر ١٨٣٠-١٩١٤ ، ترجمة د. فاطمة علم الدين عبد الواحد ، القاهرة ١٩٨٧ ، ص ٥٥.

٩- رايت : المرجع السابق ، ص ٥٧ .

10- David H. Finnie : Pioneers East, The Early American Experience in the Middle East, Cambridge 1967, P. 25-26

11- Ibid. P. 30-31

١٢- رايت : المرجع السابق ، ص ٥٧

13- Gallagher : The United States and North Africa, Cambridge, Mass. 1963, P. 233.

١٤- محمد فؤاد خليل (دكتور) : الحرب الطرابلسية الأمريكية (١٨٠١-١٨٠٥) مجلة الآداب والعلوم الإنسانية ، كلية الآداب ، جامعة المنيا ، سلسلة الإصدارات الخاصة ، المجلد ٣١ ، يناير ١٩٩٩ ، ص ١٢-١٣ .

١٥- رودلفو ميكاكي : طرابلس الغرب تحت حكم أسرة القرمانلي ، نقله على العربية طه فوزى ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ١٥٣.

١٦-كولا فولايان : ليبيا أثناء حكم يوسف باشا القرمانلي ، ترجمة د. عبد القادر المحيشي ، طرابلس ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٨ ، ص٩ .

17- Finnie : op. cit ., p. 47

18- U.S. Congress : Congressional Documents and Debates, John Adams to the Senate, Feb. 7, 1799

19- Finnie : Op. cit., p. 47.

٢٠-عبد العزيز نوار : المرجع السابق ، ص ص ١٠٢ ، ١٠٣ .

21- Samuel Bemis : A Diplomatic History of the United States, New York 1953, p. 86 .

٢٢- عقدت الحكومة الأمريكية معاهدة مع الجزائر في ٥ سبتمبر ١٧٩٥ ، تم بموجبها إطلاق سراح عدد من الأسرى الأمريكيين في الجزائر ممن أمضوا في سجون الداي نحو عشر سنوات وذلك في مقابل مبلغ مالي وبارود وأسلحة أمريكية تقدم للجزائر .

Barnby : The Prisoners of Algiers, An Account of the Forgotten American Algerian war 1785-1797, New York 1976, P. 123; Gallagher : op. cit., P. 234.

23- Bemis : op. cit., p. 340

24- Finnie : op. cit., p. 47.

٢٥- بونداريفسكي : الغرب ضد العالم الإسلامي ، ترجمة إلياس شاهين ، موسكو ١٩٨٥ ، ص ٥٩ ، Ibid . P. 48

26- Finnie : op. cit., p. 48

27- Bemis : op. cit., p. 341 .

٢٨- بوندار يفسكي : الغرب ضد العالم الإسلامي ، ص ٥٩ .

29- Finnie: op. cit., p. 48

30- Ibid. p. 50

٣١- بونداريفسكي : الغرب ضد العالم الإسلامي ، ص ٥٨ ، ك.م. بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، القاهرة ١٩٦٢ ، ص ١٢٨.

٣٢-رايت : المرجع السابق ، ص ٥٨ .

٣٣-بونداريفسكي : سياستان إزاء العالم العربي ، ترجمة خيري الضامن ، موسكو ١٩٧٥ ، ص ٢١٧ ، نبيل عبد الحميد (دكتور) : النشاط التبشيري

الأمريكي فى البلاد العربية حتى عام ١٩٢٣ ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد (٢٧) ١٩٨١ ، ص ٢٢٠-٢٢٢

34- Louis V. Thomas : The United States and Turkey and Iran, Harvard University Press, 1952, p. 142-143.

٣٥-أنظر : محمد فؤاد خليل (دكتور) : التبشير الأمريكي فى منطقة الخليج العربي (١٨٩٠-١٩٦٢) رسالة دكتوراه ، كلية الآداب ،جامعة عين شمس ١٩٩٦ ، ص ١٠٥ .

36- Joseph Grabill : Protestant Diplomacy and the Near East, Missionary Influence on American policy 1810-1927, Minneapolis 1971, p. 44

٣٧- رايت : المرجع السابق ، ص ٥٨ .

٣٨-بونداريفسكي : الغرب ضد العالم الإسلامي ، ص ٥٨.

٣٩-رايت : المرجع السابق ، ص ٥٨

٤٠-المرجع السابق ، ص ٥٨ .

٤١-نفس المرجع ، ص ٥٨ .

42- Finnie : op. cit., p. 51

43- Ibid. p.51

٤٤- رايت : المرجع السابق ، ص ص ٥٨ ، ٥٩

٤٥-المرجع السابق ، ص ٥٨

46- Finnie : op. cit., p. 52

٤٧- رايت : المرجع السابق ، ص ٥٩ .

٤٨-بونداريفسكي : الغرب ضد العالم الإسلامي ، ص ٥٩ .

49- Finnie : op. cit., p. 52

٥٠- كان هناك تياراً مؤيداً لاستقلال اليونان عن الدولة العثمانية داخل الولايات المتحدة وبصفة خاصة فى أوساط الكونجرس الأمريكي ، على اعتبار أن الشعب اليوناني شعب مسيحي يقاتل دولة مسلمة ، برغم التباعد الشديد بين

المذهبين الدينين للشعبين الأمريكي واليوناني كما هو معروف ، ولقد أدت تطورات أحداث اليونان وأعمال القتل المتبادل بين اليونانيين والأتراك خلال أحداث عام ١٨٢٢ إلى زيادة هذا التيار . محمد رفعت : المرجع السابق ، ص ٧٩ ؛ Finnie: op. cit., p. 57, U.S Congressional Documents and Debates, 1774-1873, Journal of the House of Representatives of the United states, vol. 17, Dec. 29, 1830, p.97.

51- Finnie : op. cit., p. 52.

٥٢- بونداريفسكي : الغرب ضد العالم الإسلامي ، ص ٥٩ .

٥٣- المرجع السابق ، ص ٥٩ ; Finnie : op. cit., p. 53

54- Finnie: op. cit., p.53

55- Ibid. p.53

56- Ibid. pp. 53-54

57- Ibid. P. 54

58- Ibid. P.54

٥٩-دارت هذه الحرب فى عام ١٨١٢ بين الولايات المتحدة وبريطانيا وانتهت بصلح غنت الشهير وللمزيد من التفاصيل عن هذه الحرب ، أنظر :
Bemis : op. cit., p. 159-169.

٦٠-بونداريفسكى : الغرب ضد العالم الإسلامي ، ص ٦٠

61- Finnie : op. cit., p. 54

62- Ibid. p. 55.

٦٣- بونداريفسكي : الغرب ضد العالم الإسلامي ، ص ٦٠

64- Finnie : op. cit., p.55

65- Ibid. p. 55

66- Ibid. pp. 54, 55

67- Ibid. pp. 54, 55

68- Ibid. pp. 55

٦٩-بونداريفسكي : الغرب ضد العالم الإسلامي ، ص ٦٠.

٧٠-محمد رفعت : المرجع السابق ،ص ص ٨١،٨٢ .

71- Finnie : op. cit., p. 50

72- Ibid. p. 56-57

٧٣- بونداريفسكي : الغرب ضد العالم الإسلامي ، ص ٦٠

74- Finnie : op. cit., p. 57

٧٥-بونداريفسكي : الغرب ضد العالم الإسلامي ، ص٦٠

76- Finnie: op. cit., p. 57

77- Ibid. p. 58.

78- Ibid. p. 58.

79- Bemis : op. cit., p. 341

80- Finnie : op. cit., p. 59

٨١- كان نص هذه المادة السرية كما يلي : " أن الباب العالى سيكون حرا في الإتفاق مع أى من رعايا الولايات المتحدة لتشييد أو بناء أى عدد من السفن الحربية والبوارج والطرادات والمراكب الشراعية ... وسوف تقدم الولايات المتحدة – من خلال وكلائها المعتمدين لدى الباب العالى أي معلومات أو نصائح من أجل إبرام العقود وتسليم أى سفن وأخشاب بما يتفق وتعهدات الولايات المتحدة مع الدول الأخرى" .

U.S. Congressional Documents and Debates, 1774-1873, vol. 4, Jan.4, 1831, p. 142.

82- U.S. Congressional Documents and Debates, 1774-1873, vol.4, Journal of the executive proceedings of the senate, Dec.9, 1830. p. 128.

83- U.S. Congressional Documents and Debates, 1774-1873, vol.4, Journal of the executive Proceedings the senate, Dec

10, 1830, p. 129.

84- Ibid

85- U.S. Congressional documents Debates, 1774-1873, vol. 4, from the senate to U.S. President, Dec. 28, 1830. p. 139.

86- U.S. Congressional Documents and Debates, 1774-1873, vol.4, Journal of the executive proceedings of the senate, Feb. 1, 1831, p. 148.

٨٧- عبد العزيز الشناوى : المرجع السابق ، جـ١ ، ص ٢١٩ .

88- Finnie: op. cit., pp. 63, 64

89- Ibid. P. 64

٩٠-بونداريفسكي : الغرب ضد العالم الإسلامي ، ص ٦٢ ، Ibid.PP.64.65

91- Ibid. pp. 65,66

92- Ibid. p. 66.

٩٣- أنظر الترجمة الكاملة للنص الإنجليزى (الأمريكي) للمعاهدة فى الملحق رقم (١) من هذا البحث .

٩٤- عبد العزيز الشناوى : المرجع السابق ، جـ١ ، ص ٢١٩.

95- U.S. congressional Documents and Debates, 1774-1873, vol. 21 , Journal of the senate, Washington, feb. 7 , 1832, p. 122.

96- U.S. Treaties, Conventions, International Acts, Protocols and Agreements 1776-1909. volume II, part 2 , New York 1910, p. 1318-1320

97- Ibid. p. 1318

98- Ibid.

99- Ibid. p. 1319

100- Finnie : op. cit., p. 31

101- U.S. Treaties , vol. II, part 2, p. 1319

١٠٢-قتل عدد من المبشرين الأمريكيين فى كافة أراضي الدولة العثمانية بأيدى بعض المسلمين فى منطقة الخليج العربي والعراق العثماني وتركيا نفسها طول القرن التاسع عشر بسبب قيامهم بأعمال استفزازية فى إطار عملهم التبشيرى فيما بين المسلمين .

محمد فؤاد : التبشير الأمريكي فى منطقة الخليج العربي ، ص ٩٩ وما بعدها.

103- U.S. Treaties, vol. II, Part 2, p. 1319.

104- Ibid. 1319

105- Finnie: op. cit., pp. 30, 31

106- U.S. Treaties, vol. II, Part 2 , p. 1320

107- Ibid. p. 1320

108- Ibid.

109- Ibid.

١١٠- أنظر هامش رقم (٥٠) من هذه الدراسة .

111- U.S. Congressional Documents and Debates, 1774-1873, vol. 20, Journal of the senate, Dec. 7, 1830, p. 10-11.

112- Finnie : op. cit., p. 25

113- Ibid. pp. 31,32

114- Ibid. pp. 25,26.

115- Ibid. pp. 25,26

١١٦- اشتملت هذه المعاهدة على تعريفة جمركية للبضائع والسلع والمنتجات الأمريكية المصدرة إلى الدولة العثمانية والتى بلغت حوالى أربعمائة سلعة رئيسية شملت القهوة والفلفل والسكر والسجائر والخمور والشاي والقطن .

أنظر : U.S. Treaties, Vol. II, Part 2, P. 1328-1341

117- Finnie : op. cit., pp.30 , 31.

١١٨-بونداريفسكي : الغرب ضد العالم الإسلامي ، ص ٥٢

119- Bemis : op. cit., p. 341

120- James Addison : The Christian Approach to the Moslem, A Historical study, New York 1966, p. 113.

121- James Batal : Assignment, Near East, New York, 1950, p.20

١٢٢-محمد فؤاد : التبشير الأمريكي في منطقة الخليج العربي ، ص١٧.

١٢٣- المرجع السابق ، ص ١٧.

١٢٤- أنظر مذكرات رائد التبشير الأمريكي في الدولة العثمانية :

William Goodell : Forty years in the Turkish Empire, or memoirs Goodell, New York 1876, pp. 112, 122.

125- Finnie : op. cit., pp. 204,205, 209

126- Ibid. pp. 224, 227

127- Ibid. pp. 233, 241

128- Addison: op. cit., p. 181.

129- Batal : op. cit., p. 25

١٣٠- رايت : المرجع السابق ، ص ١٧٧-١٧٨

١٣١-محمد فؤاد : التبشير الأمريكي في منطقة الخليج العربي ، ص ٢٧

132- Bemis : op. cit. , p. 341

١٣٣- رايت : المرجع السابق ، ص ٦٢

١٣٤- المرجع السابق ، ص ٦٢

١٣٥-نفس المرجع ، ص ٦٢

١٣٦-نفس المرجع ، ص ٦٢

١٣٧-لطيفة محمد سالم (دكتورة) : النظام القضائي المصري الحديث ، ج١ ، ١٨٧٥-١٩١٤ ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام ، ص ٥٨

١٣٨- رايت : المرجع السابق ، ص ص ٦١ ، ٦٢ .

139- U.S. Treaties, Vol. II, Part 2, P. 1318-1320

المصادر والمراجع

أولاً : الوثائق :

- U.S. Congress : congressional Documents and Debates 1790-1873.
- U.S. Congress : Journals of the executive Proceedings of the Senate 1797-1832.
- U.S. Congress : Journals of the executive Proceedings of the House of the Representatives 1797-1832.
- U.S. Treaties : conventions International Acts, Protocols 2, Greenwood press, New York 1910.

ثانياً : المراجع :

أ- العربية :

بونداريفسكي : الغرب ضد العالم الإسلامي ، ترجمة إلياس شاهين ، دار التقدم ، موسكو ١٩٨٥.

---------- : سياستان ازاء العالم العربي ، ترجمة خيرى الضامن ، دار التقدم ، موسكو ، ١٩٧٥ .

عبد العزيز سليمان نوار (دكتور) : تاريخ الشعوب الإسلامية ، دار الفكر العربي ، القاهرة ١٩٩٨ .

عبد العزيز الشناوي (دكتور) : الدولة العثمانية ، دولة إسلامية مفترى عليها، جـ١ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧٨ .

ك.م. بانيكار : أسيا والسيطرة الغربية ، ترجمة عبد العزيز جاويد ، القـاهرة ١٩٦٢ .

لنوار تشامبرز رايت : سياسة الولايات المتحدة الأمريكية إزاء مصر ١٨٣٠-١٩١٤ ، ترجمة د. فاطمة علم الدين عبد الواحد ، الهيئـة المصـرية العامـة للكتاب ، الألف كتاب الثاني ، القاهرة ١٩٨٧.

محمد رفعت : تاريخ مصر السياسي في الأزمنة الحديثة ، القاهرة ١٩٣٤.

محمد فؤاد خليل (دكتور) : الحرب الطرابلسية الأمريكية (١٨٠١-١٨٠٥) مجلة الأداب والعلوم الإنسـانية ، كليـة الآداب ، جامعـة المنيـا ، سلسـلة الإصدارات الخاصة ، المجلد (٣١) يناير (١٩٩٩) .

---------- : التبشير الأمريكي في منطقة الخليج العربي ١٨٩٠-١٩٦٢، رسالة دكتوراه ، كلية الأداب ، جامعة عين شمس ١٩٩٦ .

هـ.أ.ل. فيشر : تاريخ أوروبا في العصر الحديث (١٧٨٩-١٩٥٠) تعريـب أحمد نجيب هاشم ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٤.

يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، جـ١ ، ترجمة عدنان محمود سلمان ، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل ، استانبول ، الطبعة الأولى ١٩٨٨.

ب- الأجنبية :

- Addison , James : the christian Approach to the Moslem, A Historical study, AMS Press inc. New York 1966.
- Barnby : The Prisoners of Algiers, An Account of the Forgotten American War 1765-1797, New York 1976.
- Batal , James : Assignment , Near East , New York, 1950.
- Bemis, Samuel : A Diplomatic History of the united states, Henry Holt and company, New York 1953.
- Finnie, David H : Pioneers East, The Early American

Experience in the Middle East, Cambridge 1967.

- Goodell, William : Forty years in the Turkish Empire or memoirs Goodell, New York 1876.
- Grabill, Joseph : Protestant Diplomacy and the Near East, Missionary Influence on American policy 1810-1927, Minneapolis 1971.
- Thomas, Louis V. : the united states and Turkey and Iran, Harvard University press 1952.

صناعة السكر فى مصر فى عهد الخديو إسماعيل

١٨٦٣ – ١٨٧٩

د. السيد سيد أحمد توفيق دياب
مدرس التاريخ الحديث بآداب طنطا

نال تاريخ مصر الاقتصادى فى القرن التاسع عشر قدرا كبيرا من اهتمام الباحثين ، حيث سلطت الأضواء على جوانب مختلفة منه ، وهذا البحث يتناول صناعة السكر فى عهد الخديو إسماعيل . وتأتى أهمية هذه الصناعة فى أنها تعد من أهم إنجازات الخديو إسماعيل ، الذى نجح فى إقامة صناعة متقدمة ، مقارنة بما كانت عليه هذه الصناعة لدى الدول الأوروبية ، وهى تمثل مشروعا اقتصاديا متكاملا وجهت فيه العناية لزراعة قصب السكر ، وأنشئت قاعدة عريضة من المصانع تمكنت من إنتاج كميات كثيرة من السكر زادت عن حاجة الاستهلاك المحلى ، فصدر الفائض منه ، مما ساعد فى نمو التجارة الخارجية ، ولم يتم تصفيتها كما حدث مع غيرها من الصناعات ، بعد تفاقم الأزمة المالية فى سنة ١٨٧٥ ، إذ بقيت صناعتان هما : صناعة حلج القطن التى أقامها الأجانب ، وصناعة السكر التى تديرها الحكومة .

وهذا البحث يهدف إلى معرفة الأسباب التى دفعت الخديو إسماعيل للاهتمام بهذه الصناعة ، والجهود التى بذلت للنهوض بها ، حتى وصلت خلال سنوات محدودة إلى مكانة كبيرة سواء من حيث حجم الإنتاج أم من حيث جودته . وفى حقيقة الأمر فإن هذا لم يتأت إلا من خلال جهود الخديو إسماعيل ، الذى أنفق الأموال الطائلة فى إنشاء المصانع ذات التقنية الحديثة على غرار المصانع الموجودة لدى الدول الأوربية ، والتعاقد مع المهندسين والفنيين الأجانب ممن لهم دراية بتشغيل هذه المصانع ، هذا فى الوقت الذى أنشئت فيه شبكة واسعة من الترع والقنوات ، لرى الأراضى المنزرعة قصبا ، ومد خطوط للسكك الحديدية لنقل

القصب من المزارع إلى المصانع . وعندما دارت عجلة الإنتاج ، وعملت المصانع بكامل طاقاتها ، زادت كميات السكر عاماً تلو الآخر ، فخصص جزء منها للاستهلاك المحلى ، وصدر الباقى للخارج وفى كلتا الحالتين استفادت البلاد مالياً .

أما السبب فى توقف البحث عند نهاية حكم الخديو إسماعيل ، فيرجع إلى أنه بدءاً من سنة ١٨٨٠ نقصت المساحة التى خصصت لزراعة القصب ، فأصبحت حوالى أربعين ألف فدان ثم هبطت إلى عشرين ألف فدان فى سنة ١٨٨٢ ، بعد أن كانت حوالى ٧٥ ألف فدان ، مما أدى إلى انخفاض الإنتاج ، وتراجعت صادرات السكر ، ووجد السكر الفرنسى سوقاً رائجة فى مصر، لعدم فرض الحماية الجمركية على الوارد منه ، إضافة إلى أن المحتلين الإنجليز فرضوا ضريبة استهلاك على السكر المصنع فى مصر ، فكان لذلك الأثر السلبى على هذه الصناعة التى لم تقو على المنافسة مع السكر المستورد من الخارج . ومن ناحية أخرى تحول النشاط الاقتصادى بعد الاحتلال الإنجليزى لمصر سنة ١٨٨٢ من سيطرة الدولة وتوجيهها له الوجهة التى تريدها ، إلى وضع وجه فيه المحتلون الزراعة والصناعة إلى ما يحقق أهدافهم ، إذ كرست جهودهم لإحلال زراعة القطن بدلاً من قصب السكر .

وتجدر الإشارة إلى أن هذا البحث لن يتطرق للجوانب الفنية المتعلقة بهذه الصناعة إلا بما يخدم الموضوع ، لأن مثل هذه البحوث لها متخصصوها ، وسوف يلقى الضوء على الظروف الدولية التى دفعت للاهتمام بها ، مع بيان الجهود التى بذلت للارتقاء بها ، وأثر ذلك على الاقتصاد والمجتمع المصرى ، فهو لن يتم بمعزل عن الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

وصناعة السكر تعد من أقدم الصناعات التى قامت فى مصر منذ فترة مبكرة، ومع سعى محمد على لتحقيق الاستقلال الاقتصادى ، حظيت هذه الصناعة بالرعاية والاهتمام ، وإليه يرجع الفضل فى إنشاء المصانع الحديثة ، حيث أنشأ مصنعاً فى الريرمون بالمنيا سنة ١٨١٨ .[1] لتلبية احتياجات السكان من هذه السلعة ذات الأهمية ، ورغبة فى ألا تقع البلاد تحت وطأة الاستيراد من الخارج ، وهذا المصنع لم يكن الوحيد الذى أنشئ فى عهده ، بل أنشئ مصنعان آخران: أحدهما

فى ساقية موسى ، والثانى فى الروضة مركز ملوى[٢] ولذا نالت زراعة قصب السكر اهتمام محمد على [٣] ويظهر هذا من خلال زيادة مساحة الأراضى التى زرعت قصبا فى مصر العليا.[٤] وعموما بلغت مساحة الأراضى التى خصصت لزراعة قصب السكر فى سنة ١٨٢٧ حوالى ١٦,٠٠٠ فدان .[٥] وهذه المساحة لا تعد صغيرة إذا تم مقارنتها بغيرها من المساحات التى خصصت لزراعة محاصيل أخرى ، لأن مصانع السكر لم تكن تتجاوز ثلاثة مصانع ، هذا فى الوقت الذى بذلت فيه الجهود لزيادة إنتاجية الفدان من خلال الحصول على نوعيات جيدة من القصب من الهند وأمريكا [٦] واستقدام بعض الخبراء فى هذه الزراعة لإرشاد المزارعين المصريين لأفضل الطرق فى زراعة قصب السكر ، وفى هذا الشأن قدم إلى مصر خبير إنجليزى يدعى روبرتسون .[٧] هذه الجهود مكنت من الوفاء باحتياجات المصانع من كميات القصب اللازمة لتشغيلها ، فبلغ الإنتاج فى سنة ١٨٣٣ حوالى ٢١,٣٩٥ قنطار [٨] من السكر الخام [٩] .

وللارتقاء بصناعة السكر بعث محمد على اثنين للخارج أحدهما لزيارة مناجم الذهب فى المكسيك والآخر لتعلم صناعة السكر فى أمريكا [١٠] كما أوفد بعثة من الكيميائيين إلى باريس للتدريب على عمليات تكرير السكر [١١] فقد كانت الحاجة ماسة لهؤلاء للعمل فى مصانع السكر ، لذا – فعقب عودتهم – أسندت إليهم الأعمال فى مصنع التكرير .[١٢] وهذا يبين رغبة محمد على فى أن تجرى عملية تكرير السكر الخام فى مصر ، بدلاً من إجراء ذلك فى الخارج ، حيث كان السكر الخام يرسل إلى مرسيليا بفرنسا لتكريره [١٣] والجدير بالذكر أن تكرير السكر الخام فى مصر لم يبدأ إلا فى سنة ١٨٣٠ ، فمنذ هذه السنة جرت هذه العملية فى مصنع الريرمون[١٤] باعتباره المصنع الوحيد المجهز لتكرير السكر[١٥] .

وكان ثمن القنطار من السكر المكرر والمنتج فى مصر يباع فى سنة ١٨٣٧ بمائتى قرش ، أما ثمن القنطار من السكر المستورد ، فلم يكن يزيد عن ذلك بكثير، ويرجع هذا لجودته ،[١٦] إذ يشير أحد الباحثين إلى أن السكر المصرى لم يكن من النوع الجيد [١٧] ، وذلك مقارنة بالسكر المستورد ، وقلة جودة السكر المصرى آنذاك لا تعد عيبا لأن هذه الصناعة كانت فى بداياتها ، ومن ناحية أخرى منع

محمد على استخدام عظم الحيوان فى التكرير[١٨] وكان هذا سببا فى وجود بعض الشوائب فى السكر أثرت على جودته ، غير أن هذا لا يمنع من القول : بأنه يحسب لمحمد على إنشاؤه لهذه الصناعة وفق الأساليب الحديثة .

ولما كانت تجارة السكر مربحة ، فإن إبراهيم باشا أولى زراعة القصب كثيراً من رعايته ، فكانت له مزارع للقصب فى الصعيد [١٩] وقام باحتكار السكر[٢٠] .

أما عباس باشا الأول ١٨٤٨ –١٨٥٤ فقد فرض زراعة القصب على بعض الأهالى وأمرهم بتوريده بعد نضجه[*] إلى مصنع السكر فى المنيا [٢١] وفى ١٢ ديسمبر ١٨٤٨ أصدر أوامره إلى مدير هذا المصنع بإعداد بيان يوضح فيه مقدار القصب اللازم للمصنع ، وأسماء البلاد التى ستزرع قصب السكر مع مراعاة أن تكون مزارع القصب قريبة من المصنع ، وتم حثه على حسن إدارة المصنع[٢٢] . إلا أن هذا الاهتمام الذى أبداه عباس باشا الأول بعد أيام قليلة عقب توليه الحكم فى ٢٤ نوفمبر ١٨٤٨ لم يستمر طويلاً ، ففى ٢٣ مايو ١٨٥٢ أغلق مصنع السكر فى الريرمون ، حيث جاء رده على كتخدا [٢٣] مصر بأنه أطلع على كتاب وكيلة الذى يستأذن فيه بالإبقاء على هذا المصنع ، ومشيراً إلى أن هذا الإغلاق يتفق ورغبته ويطالبه بالتنفيذ [٢٤] وهذا لا يعد أمراً مستغرباً من عباس باشا الأول الذى قام بتصفية العديد من المصانع التى أنشئت فى عهد محمد على .

ونظراً لأن محمد سعيد باشا ١٨٥٤ – ١٨٦٣ وجه اهتمامه للزراعة ، فلم يبذل جهداً فى العناية بالصناعة ، [٢٥] خاصة وأن عهده شهد تدفق الأجانب على مصر ، وزادت الواردات الأجنبية ، لتقف أمام أى إنتاج محلى يمكن له أن يقوم،[٢٦] إضافة إلى نشوب الحرب الأهلية الأمريكية ١٨٦١ –١٨٦٥ [٢٧] قبيل عامين من نهاية حكمه ، فتم الاهتمام بزراعة القطن على حساب المحاصيل الزراعية الأخرى ، لذا كان من الطبيعى أن تتأثر صناعة السكر، ولبيان ذلك تجدر الإشارة إلى انخفاض صادرات السكر من ٢٨,٢٦١ قنطار فى سنة ١٨٥٨ إلى ٢٣,٥١٧ قنطار فى سنة ١٨٥٩ [٢٨] وأخذت فى الانخفاض حتى أصبحت ١٤,١٤٨ قنطار فى سنة ١٨٦١ ، ثم ٧,٦٥٧ قنطار فى سنة ١٨٦٣ [٢٩] ، وهذا

الإحصاء يشير إلى تراجع صادرات السكر . وأنها كانت فى هبوط مستمر ، الأمر الذى يبين مدى التدهور الذى أصبحت عليه هذه الصناعة ، ولم يتوقف الأمر عند حد تقلص الصادرات المصرية من السكر الخام ، بل إن السكر النقى أو المكرر لم يعد يكفى حاجة الاستهلاك المحلى ، فتم الاستيراد من فرنسا وإنجلترا [٣٠] . وهذا يدل على أن هذه الصناعة أصابها الإهمال مثل ما أصاب غيرها من الصناعات المصرية من تدهور واضمحلال . هذا النقص فى صادرات مصر من السكر ظل مستمراً خلال السنوات الأولى من حكم الخديو إسماعيل ، إذ كانت الكمية المصدرة فى سنة ١٨٦٦ حوالى ١,٠٩٠ قنطار [٣١] . وهذا يعنى أن معدل التصدير انخفض بشكل حاد خلال ثمان سنوات ، فالفرق بين ما صدر فى سنة ١٨٥٨ وما صدر فى سنة ١٨٦٦ حوالى ٢٧,١٧١ قنطار . إلا أن هذا الانخفاض لم يستمر ووصل إلى ما هو أبعد من ذلك بعد أن اهتم الخديو إسماعيل بهذه الصناعة ، وقدم لها كل ما تحتاج إليه من دعم واهتمام ، فزاد الإنتاج وعادت صادرات السكر للزيادة بكميات كبيرة ومع جودة الإنتاج تمكن السكر المصرى من منافسة ما ينتج فى البلدان الأخرى ، حيث فتحت أمامه الأسواق الخارجية . لذا يعتبر عهد الخديو إسماعيل من أزهى العهود فى تاريخ صناعة السكر والوصول إلى هذا المستوى تم من خلال:

١- زراعة قصب السكر :

رغم أن مصر لم تكن طرفاً فى الحرب الأهلية الأمريكية إلا أنها أثرت بوضوح على الاقتصاد المصرى ، حيث ألقت بظلالها عليه ، فإبان هذه الحرب توقف وصول القطن الأمريكى إلى مصانع النسيج فى أوروبا وخاصة إنجلترا ، فزاد الطلب على القطن المصرى ، ولما كانت إنجلترا فى أمس الحاجة إلى كميات كثيرة منه ، لتعويض النقص فى كميات القطن الأمريكى ، الذى توقفت صادراته إليها ، لذا جاء إلى مصر ممثلون عن جمعية أقطان مانشستر Manchester cotton Association لتشجيع زيادة مساحة الأراضى التى تزرع قطناً [٣٢] . ومع ارتفاع أسعار القطن المصرى من ١٢ ريالاً فى سنة ١٨٦١ إلى ٤٥ ريالاً فى سنة ١٨٦٥ [٣٣] . فقد نالت زراعة القطن قدراً كبيراً من الاهتمام ، حيث زادت

مساحة الأراضى المنزرعة قطنا بدرجة أدت إلى زيادة إنتاج القطن المصرى من نصف مليون قنطار فى سنة ١٨٦٠ إلى ٧٢١,٠٠٠ قنطار فى سنة ١٨٦٢ ومن ١,٢٠٠,٠٠٠ قنطار فى سنة ١٨٦٣ إلى ١,٧٠٠,٠٠٠ قنطار فى سنة ١٨٦٤ ثم ٢,٠٠٠,٠٠٠ قنطار فى سنة ١٨٦٥.[٣٤] وهذه الإحصائية تظهر الزيادة المتتالية فى الإنتاج ومع تصديرها ، زادت عائدات التصدير من ٣,١٠٠,٠٠٠ جنيه سنة ١٨٦٠ إلى حوالى ١٣ مليون من الجنيهات سنة ١٨٦٥ ،[٣٥] وانعكس ذلك على الحالة الاقتصادية لمصر حكومة وشعباً إذ عم الرواج وارتفع الدخل الأهلى[٣٦] واندفع الجميع فى الإنفاق ببذخ والاقتراض اعتقاداً ببقاء أسعار القطن عند الحد الذى وصلت إليه ، إلا أن هذا الاعتقاد تلاشى عقب انتهاء هذه الحرب ، حيث عاد القطن الأمريكى إلى الأسواق العالمية ، مما كان له الأثر فى انخفاض سعر القطن المصرى [٣٧]. وهذا الانخفاض كان كبيراً للغاية إذ أصبح سعر القنطار فى سنة ١٨٦٦ حوالى ٢١,٢٥ ريالا،[٣٨] ولما كان هذا الانخفاض يمثل خسارة فادحة ، فرغبة فى تجاوز سوء الحالة الاقتصادية التى ترتبت على انخفاض أسعار القطن ، وتلافى وقوع كارثة اقتصادية من جراء الاستمرار فى الاعتماد على محصول واحد، اتجه الخديو إسماعيل إلى الاهتمام بزراعة قصب السكر [٣٩] الذى تم التوسع فى زراعته على نطاق لم تعهده مصر من قبل [٤٠] باعتباره محصولا نقدياً يصلح للتصدير،[٤١] ويمكن الاعتماد عليه كمصدر للدخل إلى جانب القطن [٤٢] ، وذلك من خلال النهوض بصناعة السكر ، وعلى هذا الأساس ظفرت زراعة قصب السكر باهتمام لم تظفر به أية زراعة [٤٣] . وأصبح قصب السكر يحتل المرتبة الثانية بعد محصول القطن [٤٤] ، الأمر الذى حدا بالقنصل الأمريكى أن يكتب لحكومته مشيراً إلى أن الخديو إسماعيل يستثمر فى زراعة القصب وصناعة السكر .[٤٥] على أية حال فمع زيادة مساحة الأراضى التى خصصت لزراعة قصب السكر ، وإنشاء المصانع الحديثة ، نهضت صناعة السكر .[٤٦] تلك التى تمكن الخديو إسماعيل من الارتقاء بها ، فبلغت تقدما عظيما .[٤٧] فمن مشروعاته الطموحة إنشاؤه هذه الصناعة فى مصر الوسطى والعليا.(٤٨) وبذا تكون الحرب الأهلية الأمريكية نقطة تحول فى نمو وازدهار هذه الصناعة .

ونظرا لأن مصر بلد زراعى ، فزراعة قصب السكر تجود فى جهات مختلفة من البلاد ، إلا أن الصعيد كان أنسب مكان لها ، ولما كانت زراعة قصب السكر قد نجحت فى أراضى الأمير مصطفى فاضل ، وكانت إنتاجية الفدان عالية ، ومع اهتمام الخديو إسماعيل بصناعة السكر ، فقد عمل على ضم هذه الأراضى إلى ملكيته الخاصة ،(٤٩) وتمكن فى سنة ١٨٦٦ من شراء هذه الأراضى التى كانت مساحتها تبلغ ٢٠,٧٠٢ فدانا .(٥٠) دفع فيها ٢,٠٨٠,٠٠٠ جنيه(٥١). وبشرائه لهذه الأراضى وغيرها زادت ملكيته فبعد أن كانت حوالى ٣٠,٠٠٠ أو ٤٠,٠٠٠ فدان عند توليه الحكم ، أصبحت فى سنة ١٨٧٨ حوالى ٩١٧,٠٠٠ فدان ، أى ما يعادل تقريبا خمس مساحة أراضى مصر ،(٥٢) ولما كانت أراضى الدائرة السنية(٥٣) تضم مساحات واسعة فى مصر العليا والوسطى ، فلقد خصص معظمها لزراعة قصب السكر .(٥٤) إضافة إلى غيرها من الأراضى .

ونظرا لأن زراعة قصب السكر من الزراعات التى تحتاج إلى كميات وفيرة من المياه طوال العام ، فلقد وجهت العناية لتوفير المياه الصيفية (٥٥). التى تحتاج إليها بعد انخفاض الفيضان ، فتم التوسع فى مشروعات الرى ، ومن هنا تم إنشاء العديد من الترع التى بلغت فى عهد الخديو إسماعيل ١١٢ ترعة ،(٥٦) تكلفت حوالى ١٢,٦٠٠,٠٠٠ جنيه (٥٧) . وفى حقيقة الأمر فإن هذه الترع لم تشق جميعها من أجل زراعة قصب السكر ، وإنما كان هذا بهدف تعميم الرى الدائم ، وتوفير المياه للزراعات الأخرى ، ومن أهم هذه الترع – والتى أنشئت خصيصا للوفاء بحاجة زراعة قصب السكر من المياه – ترعة الإبراهيمية(٥٨) التى شيدت لرى مزارع قصب وقطن الخديو ، (٥٩) وتكمن أهمية هذه الترعة فى أنها حولت الرى فى مديريات أسيوط والمنيا وبنى سويف إلى رى صيفى ، مما أدى إلى اتساع زراعة قصب السكر فى مصر العليا ،(٦٠) حيث بلغت مساحة الأراضى التى تروى من هذه الترعة ما يزيد عن مليون فدان منها حوالى ٧٠٠ ألف فدان تروى ريا صيفيا ،(٦١) وهكذا يبدو مدى الاهتمام بتوفير المياه التى تحتاج إليها زراعة قصب السكر ، حرصا على عدم تأثر تشغيل المصانع ، إذا لم يرد إليها كميات القصب المقررة لها يوميا ، وفى حقيقة الأمر فإن الاهتمام بزراعة القطن وقصب السكر ،

كان لهما الأثر فى العناية بوسائل الرى فى مصر .[٦٢] حيث أنشئت شبكة واسعة من الترع والقنوات .

هذا ولقد تضافرت الجهود مع بعضها البعض وأدت فى نهاية الأمر إلى زيادة مساحة الأرض المنزرعة قصبا ، ففى سنة ١٨٧٠ تراوحت هذه المساحة ما بين ٥٠,٠٠٠ و ٧٥,٠٠٠ فدان .[٦٣] وظلت هذه المساحة ثابتة عند هذا المقدار ، غير أنها قدرت فى سنة ١٨٧٥ بحوالى ٦٥,٦٥٠ فدان ، منها حوالى ٨٥% فى الوجه القبلى ، [٦٤] إلا أن أحد الباحثين أشار إلى أن مساحة الأراضى التى كانت تزرع قصبا تبلغ حوالى ٧٤,٨٥٥ فدانا .[٦٥] وهى تقريبا نفس المساحة المنزرعة قصبا فى سنة ١٨٧٠ ، على أية حال كانت إنتاجية الفدان من قصب السكر تقدر بحوالى ٥٠٠ قنطار وتنتج ٣٠ قنطاراً من السكر.[٦٦] ولحماية مزارع القصب من طغيان الرمال عليها ، فلا تتعرض للتلف ، فلقد أنشئ جسر طوله ٢٥٠ كيلو متراً [٦٧] ، ورغبة فى زراعة قصب السكر فى المساحات المقررة لذلك صدرت الأوامر للدائرة السنية بحث المفتشين على بذل الهمة ، وتشجيعاً لهم لأداء ما يطلب منهم على الوجه اللائق ، تمت المطالبة ببيان المكافآت التى يستحقونها هم وغيرهم من العاملين بالتفاتيش ،[٦٨] وتوضيح هذا قصد منه دفعهم إلى بذل الجهد للوصول بالمساحات التى تزرع قصبا إلى ما هو محدد زراعته ، ومع الاهتمام بمشاريع الرى وزيادة مساحة الأراضى التى تزرع بقصب السكر وارتفاع مقدار ما ينتجه الفدان ، كان من الطبيعى أن يزيد محصول قصب السكر بكميات كثيرة ، فقد زاد الإنتاج مائة وخمسين ضعفا .[٦٩] وهذه الزيادة تشير بطريقة مباشرة إلى التوسع فى زراعة قصب السكر وفى الوقت نفسه تبين بطريقة غير مباشرة طاقة تشغيل مصانع السكر .

هذا ولقد قامت الدائرة السنية بإعطاء المزارعين مساحات من الأراضى التى خصصت لزراعة قصب السكر ، لكى يقوموا بزراعتها بنظام المشاركة [**] أو المزارعة ، وظل هذا النظام قائماً حتى سنة ١٨٧٦، [٧٠] إلا أن استمرار العمل به توقف ، بناءً على ما صدر فى ٢٧ مايو ١٨٧٧ بعدم إعطاء الأهالى أراضى لزراعتها قصبا بالمشاركة وفق ما كان متبعا،[٧١] وفى زراعة قصب السكر استخدم

المئات من العبيد .[72] وفى الوقت نفسه سخر الفلاحون [73] ، فلقد سيق هؤلاء للعمل فى مزارع وأطيان الدائرة السنية حتى سنة 1879.[74] وكانت أعدادهم غفيرة، إذ كان يعمل فى مزارع القصب الخاصة بالخديو ألفان أو ثلاثة آلاف بل وعشرة آلاف .[75] وذلك فى ذل ظروف صعبة للغاية ، إذ كانت السخرة غاية فى القسوة،[76] ويمكن إدراك هذا إذا ما وضع فى الاعتبار اتساع ملكية الخديو إسماعيل، والتى كانت موزعة على إحدى وخمسين دائرة زراعية تفاوتت فى الحجم فأقلها مساحة تبلغ حوالى 10,000 فدان ، وكانت تزرع بمحاصيل نقدية كالقصب والقطن ،[77] وكان على الفلاح أن يأتى إلى العمل ومعه دوابه ، ونادراً ما كانت تقدم لهم الدائرة الطعام ، [78] وليت الأمر توقف عند حد الفلاحين ، بل إن الأطفال من الصبيان والبنات ممن لم يتجاوزوا من العمر 7 أو 8 سنوات سخروا فى هذه الأعمال [79] وكان أجر الرجل فى اليوم أربعة قروش أما الصبيان فكان أجرهم قرشين ونصف القرش .[80] وهذا الأجر لم يكن يتناسب بأية حال مع ما يبذل من جهد ، واستغل الفلاحون وأبناؤهم بهذا الأسلوب ، لتقليل تكلفة زراعة الفدان من قصب السكر ، وبالتالى تنخفض نفقات إنتاج السكر لتحقيق الأرباح الطائلة ، أما قطع القصب بعد نضج المحصول فكان يتم بنظام المقاولة ، حيث عهد بهذا العمل إلى المقاولين الذين كانوا يحصلون على مائة وعشرين قرشاً لتقطيع الفدان الواحد ، وكان هؤلاء المقاولين يأخذون نصف المقاولة قبيل قطع القصب بثلاثين يوماً ، أما النصف الثانى فعند البدء فى تقطيع القصب ،[81] وذلك حتى يتمكنوا من الاتفاق مع العمال وتلاشى التأخر فى قطع القصب ، حتى لا تتوقف العصارات عن العمل أو يتأثر تشغيلها إذا نقصت الكميات المقرر عصرها يومياً ، تلك التى كانت تختلف باختلاف مقدرة العصارات الموجودة فى كل مصنع وعلى سبيل المثال : فإن العصارات فى مصنع الضبعية كانت تعمل خمسة أشهر فى السنة وتعصر يومياً محصول ستة وستين فداناً .[82]

وتسهيلاً لنقل القصب من المزارع إلى المصانع مدت خطوط للسكك الحديدية بينهما.[83] فعند الحديث عن مصانع السكر ، يشير على مبارك إلى وجود سكك حديدية لنقل القصب من المزارع إلى المصانع [84]، وهذه الخطوط بلغت أطوالها حوالى 633 كيلو متراً [85] . وفى الأماكن الضيقة والبعيدة عن خطوط السكك

الحديدية كانت الإبل تستخدم في نقل القصب ، إذ يقول أحد شهود العيان بأنه رأى صفوفاً طويلة من الإبل تحمل القصب إلى محطات السكة الحديد ، [٨٦] وفي الظروف التي تعذر فيها استخدام السكك الحديدية في نقل القصب تم استخدام المراكب النيلية ، مثل ما حدث في نقل القصب المنزرع بجهة سمالوط إلى معصرة الشيخ فضل .[٨٧] وبهذا يتضح أنه كان يتم الاعتماد على وسائل النقل المختلفة في نقل القصب من المزارع إلى المصانع ، وذلك بهدف السرعة في نقل القصب ، فلا يترك مدة طويلة بعد قطعه ، مما يؤدى إلى فقد نسبة كبيرة من العصير .

ومن الجدير بالإشارة أن محصول القصب لم يكن يتم تقطيعه جميعاً للعصير ، بل كان يتم إبقاء جزء منه كتقاوى للزراعة مستقبلا [٨٨] ، ويؤكد ذلك ما جاء بأن مساحة تفتيش ببا عشرون ألف فدان يزرع منها ستة آلاف فدان قصبا في كل سنة غير الخلفة – التقاوى – الناتجة من زرع السنة التي قبلها [٨٩] وما تمت الإشارة إليه بأن الذى ترتب زراعته بتفتيش بنى مزار في سنة ١٨٧٠ حوالى سبعة آلاف فدان ، منهم ألف للتقاوى والباقى يتم عصره.[٩٠] وإبقاء مساحات من القصب لاستخدامها كتقاوى ، إنما يبين مدى الحرص على وجود التقاوى اللازمة للزراعة، حتى لا تترك مساحات من الأراضى بلا زراعة ، إذا تعذر الحصول على التقاوى، وفي الوقت نفسه ضمان الحصول على إنتاجية عالية من نوعيات سبقت زراعتها . وبزيادة محصول القصب في جهة من الجهات فإنه لم يكن يتم تقليل مساحة الأراضى التي تزرع قصبا في هذه الجهة ، بل تظل كما هي لوجود عصارات في أماكن أخرى تستطيع القيام بعصر ما ينقل إليها من القصب .[٩١] وعندما كانت إحدى العصارات تتوقف عن العمل ، فإن الكميات المقررة لها من القصب توزع على معصرة أخرى .[٩٢] وعلى هذا الأساس بقيت مساحة الأراضى المخصصة لزراعة القصب كما هي ولم تقل هذه المساحة إلا بدءاً من سنة ١٨٨٠ . [٩٣]

٢ – إنشاء المصانع :

سبقت الإشارة إلى أن الخديو إسماعيل عمل على تعويض الخسارة الاقتصادية التي منيت بها البلاد ، من جراء انخفاض أسعار القطن المصرى في أعقاب انتهاء الحرب الأهلية الأمريكية ، وتنويع مصادر الدخل بعدم الاعتماد على

محصول واحد فاهتم بزراعة القصب من أجل إقامة صناعة السكر ، وبذل الجهود لإقامة صناعة حديثة ومتطورة ،[٩٤] لذا أنشئت المصانع في السنة التالية لتوقف هذه الحرب. [٩٥] وفي خلال سنوات محدودة تعددت المصانع التي أنشئت ، فأشار أحد الباحثين إلى أنه أنشأ أربعة عشر مصنعاً للسكر في أماكن متفرقة .[٩٦] وذكر باحث آخر قيامه بإنشاء تسعة عشر مصنعاً للسكر وتكريره .[٩٧] هذا في الوقت الذي ذهب فيه بعض الباحثين إلى أن هذه المصانع بلغت في أواخر عهد الخديو إسماعيل ٦٤ مصنعا ، [٩٨] وهذا العدد الأخير لا يعد بأية حال من الأحوال إجمالي ما أنشئ من مصانع للسكر في عهد الخديو إسماعيل ، لأنه بعيد عن الحقيقة ، فجملة هذه المصانع لم تكن تتجاوز ١٦ مصنعا ، وكل مصنع كان له أربعة معامل [٩٩] ومما يؤكد ذلك أن على مبارك في حديثه عن المصنع الذي أنشئ في ببا أشار إلى أن هذا المصنع ينتج السكر بأنواعه ، ومشتملات هذا المصنع كغيره من المصانع أربع عصارات لعصر القصب[١٠٠] وتجدر الإشارة إلى أن هذه المصانع أنشئت خلال فترة وجيزة ، وهذا يبين الجهد والعناية اللتين نالتهما هذه الصناعة بالإقدام على إنشاء المصانع التي تكلفت الأموال الكثيرة [١٠١] .إذ بلغت نفقات إنشائها حوالى ٦,١٠٠,٠٠٠ جنيه .[١٠٢] مما يشير إلى أن الخديو إسماعيل كان قد عول الكثير على ما يمكن أن تعود به هذه الصناعة من عائدات تزيد من دخل البلاد .

وكانت هذه المصانع على غرار تلك الموجودة في أوروبا ، إذا أن معداتها وآلاتها أحضرت منها ،[١٠٣] وتم التعاقد مع مصانع كايل ونيف ليل بباريس على إنشاء بعضها وفق النظام المتبع في مصانعها ،[١٠٤] ومن المصانع التي صنعت لدى كايل مصنع مطاي.[١٠٥] وفي سنة ١٨٦٨ وقع عقد مع كايل لتصنيع آلات ومهمات مصنعين للسكر ، [١٠٦] ثم صدرت الأوامر للمالية في سنة ١٨٧٠ بعمل اللازم للتعاقد على آلات ومهمات مصنع ينتج ٢٠٠,٠٠٠ قنطار من السكر سنويا ، [١٠٧] الجدير بالإشارة أن إنشاء مصانع السكر لم يكن مقتصرا فقط على فرنسا ، بل أنشئ بعضها في إنجلترا وذلك للاستفادة من الخبرة الإنجليزية في هذا المجال ، فيشير على مبارك إلى أن مصنع السكر الموجود في الفشن إنجليزي الصنع ، تم تصنيعه لدى أندرسن ، [١٠٨] وكانت هذه المصانع مجهزة بأحدث العدد

والآلات،[١٠٩] ومزودة بالمحركات والعصارات الضخمة وأجهزة التكرير المتطورة.[١١٠]

ولقد روعى أن تكون الأماكن التى تنشأ فيها مصانع السكر بجوار مزارع القصب [١١١] وذلك بهدف تسهيل عملية نقل القصب من المزارع إلى المصانع ، ولعدم تحمل نفقات إضافية تزيد أسعار السكر ، فيزداد الطلب عليه محليا ، ويقوى على المنافسة فى الأسواق الخارجية .

وعندما كان العمل يجرى فى بناء مصنع من المصانع ، كانت الأوامر تصدر للمسئولين ببذل الهمة للفراغ بأسرع وقت من عمل الإنشاءات الخاصة بالمكان الذى سوف توضع فيه الآلات ، وكان من يكلف بمثل هذا ، يطلب منه التوجه إلى المكان المزمع إنشاء المصنع فيه ، وتسهيل وجود العمال من بنائين ونجارين ، وحرصاً على سرعة إتمام الأعمال المطلوبة بدون أى تأخير ، سمح له بتعيين مساعدا له مع مطالبته بالمبادرة ببيان المعوقات التى تصادفه لكى يتم تذليلها .[١١٢] وهذا يدل على الرغبة فى الانتهاء من الأعمال التى تسبق تركيب المعدات والآلات قبيل وصولها من الخارج . ومن ناحية أخرى فعندما كان يحدث ويتأخر وصول المعدات المتعلقة بمصنع من المصانع . كانت الأوامر تصدر للجهات المسئولة بسرعة إرسالها ، حتى لا يتعطل عمل من يعهد إليهم بتركيبها [١١٣].

أما أثمان آلات ومعدات المصانع ، فإن المالية كانت تقوم بتسديدها وفق العقود التى اتفق عليها مع من عهد إليهم بتصنيعها ، وعلى سبيل المثال : تم مطالبة المالية بتسديد أثمان الآلات التى تم التوصية عليها لدى كايل ، مع التنبيه بحصول المالية على صورة من العقد الموقع معه [١١٤] واحتفاظ المالية بصورة من العقد الخاص بشراء الآلات والمعدات ، قصد به أن تكون المالية على دراية بقيمتها ، فلا تدفع أموال أكثر مما اتفق عليه ، إضافة لأن يكون لديها المستندات التى صرفت الأموال بمقتضاها ، وبالتالى يكون بمقدورها تسوية حساباتها .

ولكى يتم استمرار عمل المصانع بلا توقف ، فلقد وجهت العناية إلى تدارك الآلات والمعدات التى دعت الحاجة إليها بين الحين والأخر ، فعندما طلبت الدائرة السنية توفير بعض المعدات ، صدرت الأوامر بتداركها ، [١١٥] ولما استدعى الأمر

عمل سلندرات (***) لإحدى عصارات القصب ، تمت الموافقة على شـرائها مـع التنبيه على مراعاة صلاحيتها .(١١٦)

وكان يتم توخي الدقة في شراء الأجهزة اللازمـة لهـذه الصـناعة ، مـع الحصول على أحدثها ، خاصة تلك التي تستخدم في تنقية السـكر وتجميـده .(١١٧) يؤكد ذلك الموافقة التي صدرت بدفع ثمن جهازين تم شراؤهما لاسـتخدامهما فـي مصنع الروضة،(١١٨) وكذلك التعليمات الصادرة للمهندسين والوكلاء من الأجانـب والمصريين باختبار الأجهزة والآلات والتأكد من صلاحيتها قبـل الشـراء .(١١٩) وصدور مثل هذه التعليمات إنما تظهر مدى الحرص على أن تكون هذه الأجهـزة جيدة ، حتى لا تتأثر جودة الإنتاج ، وعلى هذا الأساس دفع ثمن الجهازين السـابق الإشارة إليهما بعد أن تمت تجربتهما وثبتت صلاحيتهما .(١٢٠)

والثابت أن الاهتمام بمصانع السكر لم يتوقف عند حد إنشائها واستيراد مـا تحتاج إليه من آلات وأجهزة ، بل امتد إلى ما يتصل بالصنعة ذاتها ، فعندما بينت الدائرة السنية أن مفتش بني مزار ، طلب تعيين أسطى (١٢١) لطبخ السكر بمصـنع مغاغة ، تمت الاستجابة لهذا الطلب ، وعين هو وستة أفراد مساعدين له مثل السائد في المصانع الأخرى .(١٢٢) وهذا يبين مدى العناية بإمداد المصانع بالعمال المهرة ، حرصاً على جودة الإنتاج ، وتأهيل بعض العمال المصريين ، لإتقان هذه الأعمال بعد تدريبهم عليها ، ثم الاستفادة من خبراتهم مستقبلاً في هذا المصنع أو في غيره من المصانع الأخرى .

أما الوقود الذي كان يستخدم في تشغيل هذه المصانع فكان الفحم الحجـري ، يؤكد ذلك طلب مفتش بني مزار ، الذي بين فيه الحاجة إلى خمسة وأربعين ألـف قنطار من الفحم الحجري .(١٢٣) وإذا ما وضع في الاعتبار حاجة الجهات الأخـرى لمثل هذه الكمية ، أو أنها تزيد أو تنقص عن ذلك قليلاً ، لتبين مقدار الكميات التي كان يحتاج إليها في تشغيل المصانع ، ولما كان الفحم الحجري يتم اسـتيراده مـن الخارج بأثمان باهظة تضاف إلى تكاليف الإنتاج ، فعملاً على الاقتصاد فـي هـذه الكميات ، تم استخدام بدائل أخرى يظهر ذلك من خلال ما صدر إلى باشـمهندس مصانع السكر بإدارتها بدون استخدام الفحم ، وصرف المكافآت لمن يستحقها (١٢٤).

وكان هذا حافزاً لأن يبذل الجميع الجهود لتقليل الاعتماد على الفحم الحجرى ، وكان البديل لذلك هو بقايا أعواد القصب بعد عصرها ، [١٢٥] وكان هذا يحقق أمرين ، الأول هو التخلص من هذه الكميات الهائلة من بقايا القصب والثانى تقليل نفقات الإنتاج .

ونظرا لتأثر البلاد بانخفاض أسعار القطن المصرى فى أعقاب الحرب الأهلية الأمريكية ، فقد كانت الاستثمارات الفردية فى هذه الصناعة معدومة ، وكانت رؤوس الأموال المستخدمة فى تمويل هذه الصناعة إما فرنسية أو إنجليزية فى صورة قروض عقدها الخديو إسماعيل ، إذ أن رأس المال الفرنسى اتجه إلى إقراض الحكومة وإنشاء مصانع السكر والغزل والمياه والغاز وفروع البنوك الكبرى .[١٢٦] وفيما يتعلق بالقروض ، فإن الخديو إسماعيل عقد قرضاً فى سنة ١٨٧٠ مع البنك الفرنسى المصرى ، بمبلغ ٧,١٤٢,٨٦٠ جنيه بفائدة ٧ % .[١٢٧] هذا القرض عرف بقرض الدائرة السنية الثانى ، الذى برر الخديو إسماعيل عقده بحاجته لتطوير وإنشاء مصانع السكر ، ومد سكك حديدية فى الأراضى التى خصصت لزراعة القصب . [١٢٨] وفى حقيقة الأمر ، فإذا كان يحسب للخديو إسماعيل اهتمامه بصناعة السكر والنهوض بها وتطويرها ، فإن ما يؤخذ عليه ، اعتماده على القروض .[١٢٩] التى كانت لها عواقب وخيمة على أحوال البلاد المالية عامة ، وصناعة السكر خاصة ، وذلك بعد أن تفاقمت الأزمة المالية ، ونظراً لأن هذه الفترة تسلط فيها الأجانب واستولوا على الحياة الاقتصادية .[١٣٠] وظهرت تبعية مصر المالية والاقتصادية للأجانب ، الذين ترسخت أقدامهم فى مصر ، بعد التدفق الهائل لرأس المال الأجنبى ، الذى استثمر فى إنشاء البنوك والبيوتات المالية والشركات ، [١٣١] لذا لم تكن هناك أية صعوبة لأن يسيطر هؤلاء فيما بعد على صناعة السكر ، وهذا ما تحقق للفرنسيين ، إذ نجح بعض رجال المال منهم فى وضع أيديهم عليها .[١٣٢] وذلك عندما اضطرت الحكومة إلى بيع مصانع السكر إلى شركة فرنسية وهى الشركة العمومية لمعامل السكر والتكرير المصرية. [١٣٣]

٣ – العمال والفنيون:

نظراً لأن مصانع السكر وما يتعلق بها من آلات وعدد تم اســتيرادها مــن الخارج، لذا كان من الطبيعي الاعتماد في إدارة هذه المصـانع وتشـغيلها علـى الأجانب ممن لهم خبرة في إنشاء هذه المصانع ، ودراية بهذه الصناعة ، ومن هنا تم التعاقد مع مهندسين أجانب ، (١٣٤) للأشراف على تشغيل المصانع ، (١٣٥) وكان هؤلاء من الفرنسيين والإنجليز .(١٣٦) الذين تعددت الأعمال التي أسـندت إلـيهم ، حيث قام بعضهم بملاحظة الأعمال في هذه المصانع ، (١٣٧) ومراقبة سير العمل في القطاعات المختلفة للمصنع أو متابعة عمليات التصنيع ضماناً لجودة الإنتاج ، ولقد أسهم المهندسون مونيه وبوكيه وأنطونيوس وجيبوه وولسن وأندرسي وباروه فـي النهوض بمصانع السكر وإدخال تحسينات تتلاءم ومتطلبات العصر(١٣٨) . وعنـدما كانت حاجة العمل في المصانع تتطلب نقل أحد المهندسين من مصنع لآخـر تبعـا لمجال تخصصه ، فكان هذا يتم بلا أية صعوبات ، إذ صـدرت الموافقـة بنقـل المهندسين تورك وبيكاد إلى مصنع الشيخ فضل ، (١٣٩) وهذا يبين مدى الحـرص على الاستفادة من جهود وخبرات المهندسين الأجانب ، من أجل الارتقـاء بهـذه الصناعة . وكان هؤلاء المهندسين يحصلون على الرواتب العالية (١٤٠) فعلى سبيل المثال : صدرت الأوامر بدفع ٨٠٠ فرنك (١٤١) لأربعة عشر فرداً حضروا من لدى كايل بباريس لاستخدامهم في مصانع السكر . (١٤٢)وبذا يمكن القول : بأن تكلـف الأموال الباهظة للتعاقد مع مهندسين وخبراء أجانب لم يكن يقف حجر عثرة فـي طريق التعاقد معهم ، نظراً لوجود حاجة ملحة إليهم للاستفادة من خبـراتهم فـي تطوير هذه الصناعة والنهوض بها .

وكان بعض هؤلاء المهندسين ، يطلب منهم السفر للخارج في مهمات تتعلق بمتابعة التطورات الحديثة في مجال صناعة السكر ، أو التعاقد مع أفراد للعمل في هذه المصانع ، وفي هذه الحالة فإن مصاريف ذهابهم وعودتهم لم تكن تخصم مـن مستحقاتهم ، (١٤٣) فتشير الوثائق إلى ما تقرر بأن يصرف إلى موينه باشـمهندس مصانع السكر مصاريف سفريته إلى أوروبا وعودته منها ، (١٤٤) ولم يكن الأمـر مقتصراً على هذا فقط ، بل كانت مدة سفريتهم تعد أجازه مدفوعة الأجـر ، فـلا

تستقطع من رواتبهم أية أموال ، وهذا أمر طبيعي لأن سفرهم لم يكن لأمور خاصة بهم ، وإنما كان لأعمال تتعلق بالمصانع ، فقد تم صرف راتب المهندس جيبوه مدة ثلاثة أشهر وعشرة أيام ، لذهابه إلى باريس للتعاقد مع الأفراد الذين تحتاج إليهم مصانع السكر .(١٤٥) وهذه الأمور تبين كثرة الأموال التى كانت تنفق للارتقاء بهذه الصناعة، من خلال التعاقد مع الأفراد ذوى الخبرة أو تتبع الجديد فى مجال هذه الصناعة ، حرصاً على جودة الإنتاج.

وبانتهاء مدة التعاقد مع أحد المهندسين ، كان يتم الاستفسار عن إمكانية التعاقد معه ثانية أم الاستغناء عن خدماته ، وفى هذا الشأن كانت الأوامر تصدر باتباع ما هو مناسب ، مع التوجيه بأنه فى حالة إلغاء التعاقد مع أحد المهندسين ، أن يراعى التعاقد مع مهندس آخر غيره ، على أن يكون هذا المهندس من نفس الجهة التى قامت بتصنيع آلات ومعدات المصنع،(١٤٦) ولا شك أن السبب فى ذلك هو ضمان تشغيل وصيانة الآلات وإصلاح الإعطاب التى تحدث بين الحين والآخر فلا تتوقف عن العمل .

وإذا كانت الدولة تعاقدت مع المهندسين والفنيين من الأجانب الذين استفادت من خبراتهم ، فالثابت أن هؤلاء جميعاً لم يكونوا على مستوى واحد من الكفاية والمهارة والإخلاص فى العمل ، إذ أن بعضهم تعمد تعطيل دولاب العمل ، إضافة إلى حدوث خسائر فى عدد من المصانع التى تولى فريق منهم إدارتها ، وخاصة فى الروضة وأبى قرقاص وأبو كساه ، حيث بلغت هذه الخسائر فى سنة ١٨٧٦ حوالى ١٣,٠٥٥ جنيه .(١٤٧) وكان لذلك أثره فى الاستغناء عن خدماتهم (١٤٨) .

وإذا كانت الضرورة اقتضت أن يكون المهندسون والفنيون والمشرفون على مصانع السكر من الأجانب ، فالثابت أن بعض المصريين ، عملوا فى هذه الصناعة.(١٤٩) فكان يعمل بكل مصنع حوالى ألف عامل جميعهم من المصريين.(١٥٠) وفى حقيقة الأمر ، فإن أعداد من عملوا فى مصانع السكر كانت تتباين من مصنع لآخر وفق حجمه والآلات الموجودة فيه ،(١٥١) وعندما كانت حاجة العمل فى هذه المصانع تستدعى ، استخدام عمال من المصريين ، فإن الموافقة على هذا كانت تصدر للمسئولين حيث رخص لمفتش المنيا وبنى مزار بإحضار عشرين

فرداً من الأهالى للعمل فى عصارات القصب فى ببا وبنى مزار.[152] وبذا تكون هذه الصناعة قد أتاحت بعض فرص العمل لأعداد من المصريين ، ممن عملوا فى هذه المصانع ، أو من أصحاب الحرف ، الذين تم الاعتماد عليهم فى تنفيذ التجهيزات المتعلقة بإنشاء المصانع، والملاحظ أن عمل المصريين لم يكن مقتصراً على الأعمال غير الفنية ، حيث تم تدريب بعضهم عليها [153] وهؤلاء أثبتوا مهاراتهم فى الأعمال التى أسندت إليهم ، بدليل منحهم المكافآت ، إذ تم زيادة راتب كل من أحمد الهوارى وإسماعيل أبو العلا بمصنع الروضة ، [154] وتبع ذلك صدور الأوامر بزيادة راتب موسى حنفى الذى يعمل بمصنع الشيخ فضل إلى خمسمائة قرش شهرياً بعد أن كان مائة وعشرين قرشا.[155] ورغم ما تشير إليه الوثائق من حصول العمال المصريين الذين كانوا يعملون فى مصانع السكر على الرواتب والعلاوات ، فإن هذا لا يمنع من القول : بأن هذه الرواتب تكاد تكفى ضروريات الحياة ، وفى بعض الأحيان لم يكن هؤلاء يحصلون على رواتبهم نقداً ، إذ يشير أحد الباحثين إلى أن الغالبية العظمى من العمال ، كانوا يجبرون على العمل ويتقاضون رواتبهم إما من العسل أو السكر ، [156] الأمر الذى حدا بأحد الباحثين للقول : بأن العمال المصريين سخروا فى هذه الصناعة .[157] وفى الواقع فإن هذا الرأى لا يبعد عن الحقيقة ، لأن ما كان يحصل عليه هؤلاء العمال ، لا يتناسب مع ما كانوا يبذلونه من جهد ، ومع تفاقم الأزمة المالية ، عانى هؤلاء الكثير ، فلم تصرف رواتبهم لمدة طويلة .[158] غير أن ما يمكن التأكيد عليه أن هذا النجاح الذى حققه المهندسون الأوربيون فى مجال هذه الصناعة من تقدم ورقى لم يتحقق إلا بجهود المصريين الذين سخروا أو عملوا فى الأعمال التى تتعلق بهذه الصناعة .

٤ – الإنتاج والتسويق :

كان إنتاج مصر من السكر قبيل عهد الخديو إسماعيل لا يزيد عن ٥٥ ألف قنطار فى السنة ، [159] ومع اهتمامه بهذه الصناعة ، والتوسع فى إنشاء المصانع ، حدثت طفرة هائلة فى الإنتاج ، الذى أخذ فى الزيادة عاماً تلو الآخر ، وتعد سنة ١٨٦٦ بداية ازدهار هذه الصناعة ،[160] وبذا يمكن اعتبارها نقطة تحول ذات

أهمية فى صناعة السكر فى عهد الخديو إسماعيل ، ومنذ سنة ١٨٦٧ زاد الإنتاج وأخذت هذه الصناعة فى التقدم [(١٦١)] سواء من حيث كمية الإنتاج أم من حيث الجودة وكانت مصانع السكر تنتج نوعين هما : [(١٦٢)]

- السكر الأبيض الذى كان يستهلك فى الداخل أو يصدر للخارج .
- السكر الأحمر الذى يدخل فى صناعة المولاس والكحول .

ولقد نال تغليف السكر قدراً كبيراً من العناية والاهتمام ، حيث قامت الدائرة السنية فى سنة ١٨٧٠ بإنشاء مصنع للورق بالقرب من المطبعة الأهلية ببولاق لإنتاج الورق الذى يستخدم فى لف السكر ، [(١٦٣)] حتى لا تعلق به الأتربة ويبقى على نقاوته أثناء تخزينه أو نقله لأماكن الاستهلاك في الداخل أو الخارج .

ومن أجل سرعة نقل السكر من مناطق الإنتاج إلى مناطق الاستهلاك أو التصدير ، أنشئ خط حديدى من القاهرة إلى أسيوط لربط العاصمة بأماكن صناعة السكر فى الوجه القبلى،[(١٦٤)] وبتراكم كميات السكر فى المصانع ، فحرصا على سرعة نقل هذه الكميات بلا تأخير ، كانت تتم المطالبة بإرسال عربات السكة الحديد، حتى يجرى شحن السكر فيها ، إذ أن مفتش المنيا كتب مبيناً أن سبب تأخر نقل السكر يرجع لعدم وجود عربات ، وأن الحاجة تستدعى إرسال عشرين عربة يومياً[(١٦٥)] ، وهذا يدل على ضخامة الإنتاج .

وفيما يتعلق بتسويق السكر فى الأسواق الداخلية أو الخارجية ، فعملا على عدم مزاحمة السكر الذى يستورد من الخارج للسكر الذى ينتج فى مصر ، تم تخفيض أسعار السكر المصرى ، لكى تكون هذه الأسعار أقل من أسعار السكر الذى يستورد من الخارج .[(١٦٦)] وبالتالى يزداد إقبال المستهلكين عليه ، والملاحظ أن هذا الإجراء اتبع خلال السنوات الأولى من حكم الخديو إسماعيل ، وقبيل ازدهار هذه الصناعة وذلك كخطوة ذات أهمية لحماية الإنتاج المحلى ، أما السكر الذى يصدر للخارج ، فكان هناك حرصاً واضحاً على تعدد الأسواق الخارجية ، من أجل زيادة الصادرات منه مع بيعه بأسعار لا تقل عن أسعار الدول الأخرى . ولتحقيق ذلك كانت الاستفسارات ترسل إلى من يعهد إليهم بهذه المهمة، لمعرفة سبب بيع السكر المصرى بأسعار تقل عن أسعار السكر الذى تبيعه الدول الأخرى،

وهؤلاء بحكم تواجدهم فى الأسواق الخارجية ، كانوا يرون أن سوء تعبئة السكر المصرى ، هى السبب فى ذلك ، إذ أن وضع السكر فى أجولة ، يعرضه لإلتقاط الأتربة مما يؤدى إلى تغير لونه ، ويظهر وكأنه أقل جودة من غيره ، ولذا فإنهم كانوا يقترحون وضعه فى براميل .(١٦٧) ونظرا لأن البراميل تكون محكمة الغلق ، فإن ذلك يترتب عليه ، المحافظة على نقاوته، فيتم الإقبال على شرائه بأسعار لا تقل عن أسعار مثيله من السكر الذى ينتج لدى الدول الأخرى .

ومع ازدهار صناعة السكر وزيادة كميات الإنتاج التى بلغت فى سنة ١٨٧٢ حوالى ١,٥٠٠,٠٠٠ قنطار .(١٦٨) بذلت الجهود لفتح المزيد من الأسواق لتصدير السكر المصرى إليها ، فقد صدر أمر من المعية إلى توكيل القومبانية العزيزية(١٦٩) بجدة ومحافظتى سواكن ومصوع ببيان أثمان ومقدار السكر الذى يصدر إلى هذه الأماكن(١٧٠) ، ووردت إلى المعية رسالة من أحد الأفراد الموجودين بالأستانة للسماح له بفتح فرع لبيع السكر وتوزيعه هناك،(١٧١) ولا شك أن مثل هذا الطلب كان يحظى بالموافقة ، نظرا لرغبة الحكومة فى فتح أسواق متعددة لبيع السكر المصرى فى الخارج ، ولم يقتصر الأمر على هذه الجهات فقط ، بل أرسلت عينات من السكر إلى إنجلترا وفرنسا وألمانيا وإلى الشام .(١٧٢) وهذا يؤكد الرغبة الملحة فى فتح المزيد من الأسواق فى البلاد المختلفة لتصدير السكر إليها ، غير أن الجانب الأكبر من صادرات السكر المصرى اتجه إلى الأسواق الإنجليزية والفرنسية (١٧٣) . وعملا على تنشيط وزيادة الصادرات من السكر ، تم الترخيص لوكيل أشغال الخاصة بالإسكندرية ببيع السكر إلى التجار الذين يقومون بتصديره للخارج ، بدون عقد مزاد (١٧٤) ، ومنحه هذه الصلاحية إنما يدل على الرغبة فى عدم التقيد بالإجراءات الإدارية التى كانت متبعة فى بيع السكر ، وذلك بهدف تسهيل تصدير كميات كبيرة منه .

والاهتمام بتصدير السكر لم يكن مقتصرا على الجهات المنوط بها القيام بهذا، بل إن الخديو إسماعيل ، اهتم بتسويق السكر ، حيث كانت هناك محاولة من جانبه لتصدير كميات من السكر إلى الدولة العثمانية ، إلا أن المحادثات التى جرت بهذا الشأن باءت بالفشل . (١٧٥)

وهذا لا يمنع من التأكيد على تصدير كميات من السكر – فيما بعد – للدولة العثمانية ، إذ توجد إشارة إلى أن سوريا كانت من البلاد التى صدرت إليها كميات من السكر ، إضافة إلى اليونان والدولة العثمانية [١٧٦] ومن ناحية أخرى ، تم إمداد الفرقة العثمانية المتواجدة بالحجاز واليمن بكميات من المواد الغذائية والتى من بينها خمسة وعشرون ألف أقه[١٧٧] من السكر [١٧٨] وهذه الكمية وإن كانت لا تدخل فى نطاق بيع كميات من السكر ، وإنما جاءت فى إطار التزام الخديو إسماعيل تجاه الدولة العثمانية ، إلا أن ما يستفاد منه أن تزويد هذه القوات باحتياجاتها من السكر ، قد فتح الباب بطريقة غير مباشرة أمام السكر المصرى ، لبيعه فى هذه الأماكن ، نظراً لوجود نشاط للسفن التجارية بين الحجاز واليمن ومصر ، وكانت الصادرات المصرية لهذه الأماكن تتمثل فى الحبوب بأنواعها والأقمشة القطنية إلى جانب السكر .[١٧٩]

على أية حال ، تضافرت الجهود مع بعضها وأدت فى نهاية الأمر إلى زيادة صادرات السكر المصرى خلال الفترة من سنة ١٨٦٦ إلى سنة ١٨٧٥ والتى كانت على النحو التالى:[١٨٠]

السنة	الوزن بالقنطار	السنة	الوزن بالقنطار
١٨٦٦	١,٠٩٠	١٨٧١	٣٥٦,٤٦٨
١٨٦٧	٥٤,٩٨٢	١٨٧٢	٤٥٦,٨٥١
١٨٦٨	١٥٤,٢١٢	١٨٧٣	٩٢٣,٢٧٤
١٨٦٩	٢٩٣,٢٧٩	١٨٧٤	٩٨٦,٦٠٥
١٨٧٠	٢٨٣,٨٢٨	١٨٧٥	٩٨٥,٦٣٥

وهذا الإحصاء يظهر الفارق الكبير بين كميات السكر التى صدرت سنة ١٨٦٦ ، وتلك التى صدرت سنة ١٨٧٥ ، ويرجع ذلك إلى أن سنة ١٨٦٦ كانت تمثل بداية ازدهار هذه الصناعة ، أما سنة ١٨٧٥ ، كان قد تم الانتهاء من إنشاء العديد من المصانع ، التى عملت بكامل طاقاتها ، فزاد الإنتاج ، هذا فى الوقت الذى بذلت فيه الجهود لفتح الأسواق العديدة أمام السكر المصرى لتصديره إلى

البلاد المختلفة ، ولقد أتت هذه الجهود بالنتائج الإيجابية ، بدليل ذلك التصاعد المستمر في زيادة الصادرات بدءاً من سنة ١٨٦٦ حتى سنة ١٨٧٤ ، تلك السنة التي وصلت فيها الصادرات المصرية لأعلى معدل لها ويرجع ذلك إلى أن المشاركة المصرية في معرض فيينا الذي عقد سنة ١٨٧٣ كان لها أثرها على استحسان السكر المصري ، الذي حصل على العديد من الميداليات وشهادات التقدير ، [١٨١] وانعكس هذا الاستحسان على نمو صادرات السكر المصري ، التي زادت بعد عام واحد من المشاركة المصرية في هذا المعرض بمقدار الضعف عن تلك الكمية التي صدرت في سنة ١٨٧٢ ، وهذا يدل على أن المشاركة المصرية في هذا المعرض ، كانت بمثابة دعاية جيدة للسكر المصري ، انعكست على زيادة الصادرات منه فوصلت إلى أقصى معدل لها في سنة ١٨٧٤ ، أما في سنة ١٨٧٥ فقد نقصت كميات السكر المصدرة في هذه السنة بمقدار ٩٧٠ قنطار عن تلك الكمية التي صدرت في سنة ١٨٧٤ ، ومن الجدير بالإشارة أن الأزمة المالية تفاقمت في هذه السنة وكان من المناسب بذل المزيد من الجهد لزيادة الصادرات من السكر ، أو على الأقل المحافظة على معدلات التصدير التي تحققت من قبل ، حتى يبقى العائد الذي يأتي من تصديرها كما هو ، وفي حقيقة الأمر يمكن إرجاع هذا النقص إلى سوء الأحوال المالية التي أدت إلى توقف بعض المصانع عن العمل ، بسبب عدم توفير ما تحتاج إليه من آلات ومعدات ، مما ترتب عليه نقص الإنتاج ، ثم انخفاض معدلات التصدير . إلا أن هذا الانخفاض لم يصل إلى المستوى الذي كان عليه خلال السنوات الأولى من حكم الخديو إسماعيل ، بدليل احتفاظ السكر – إلى حد ما – بمكانته في التصدير بعد نهاية حكم الخديو إسماعيل [١٨٢] ، إذ بلغ مقدار ما تم تصديره في سنة ١٨٨٠ حوالي ٦٦١,٠٠٠ قنطار. [١٨٣] ورغم أن هذه السنة تقع خارج فترة حكم الخديو إسماعيل التي انتهت في ٢٦يونية ١٨٧٩ ، فإنه يمكن القول : بأن ما صدر في سنة ١٨٨٠ قد سبق إنتاجه من قبل ، إذ يتعذر تصدير إنتاج هذه السنة مباشرة ، لأن التعاقد على شراء كميات من السكر ، كان يتم قبيل التصدير بوقت كاف، وعموماً كانت قيمة السكر المصدر من مصر تبلغ سنويا حوالي ٨٠٠,٠٠٠ جنية[١٨٤] .

على أية حال فصناعة السكر فى عهد الخديو إسماعيل شــهدت تحسـناً لــم تشهده أية صناعة مصرية ، منذ تغييب تجربة محمد على الصــناعية ، ويحســب للخديو إسماعيل اهتمامه بهذه الصناعة التى تعد من أهم إنجازاته التــى تحققــت ، ولولا الأزمة المالية والتدخل الأجنبى ، إضافة إلى عزل الخديو إسماعيل لاستمرت هذه الصناعة فى الازدهار .

ومن خلال هذا البحث تتضح عدة أمور تتمثل فى :

- كان للخسارة التى منى بها الاقتصاد المصرى فى أعقاب انتهــاء الحــرب الأهلية الأمريكية ، الأثر فى إدراك الخديو إسماعيل لخطورة الاعتماد علــى القطن كمصدر وحيد للدخل ، فاهتم بصناعة السكر ، لتعويض الخسارة التى نجمت عن انخفاض أسعار القطن المصرى ، ولم يأل جهداً فى دعــم هــذه الصناعة ، من حيث زيادة المساحة المنزرعة قصبا بشكل لم يسبق له مثيل . وإنشاء المصانع وفق أحدث ما وصلت إليه من التقنية ، إضافة إلى التعاقد مع أصحاب الخبرة فى مجال هذه الصناعة مما أدى إلى النهوض بهــا ، حتــى أصبحت على درجة عالية من التقدم .
- بقيت صناعة السكر فى يد الحكومة لأنها من الصناعات التى تحتــاج إلــى أموال باهظة ، وأن رأس المال الخاص وجه النصيب الأكبر منه للاســتثمار فى شراء الأراضى الزراعية ، وعدم المساهمة فى هذه الصناعة أو غيرهــا من الصناعات.
- ترتب على التوسع فى زراعة القصب إنشاء الترع والقنوات لتــوفير الميــاه الصيفية اللازمة لرى القصب ، وكذلك مد الخطوط الحديدية بــين المــزارع والمصانع وبين مناطق الإنتاج والاستهلاك ، وهى مشروعات أفادت البنيــة الأساسية للتطور الاقتصادى بوجه عام وإنتاج السكر وتوزيعه بوجه خاص .
- تزايدت الأعباء التى ألقيت على كاهل المصريين باستخدامهم للعمل بالسخرة فى مزارع القصب أو بأجر زهيد فى مصانع السكر . وبالتالى لم يكن لهــذه

الصناعة أثر في رفع مستوى المعيشة للمصريين ، ففي سبيل تحقيق الأرباح آثر الخديو إسماعيل مصلحته الخاصة على مصلحة المصريين .

- نمت هذه الصناعة خلال سنوات محدودة ، ومع زيادة الإنتاج عن حاجة الاستهلاك ، صدرت كميات كبيرة من السكر ، عادت بالفائدة على دخل البلاد، بعد نجاح الخديو إسماعيل في إقامة صرح صناعي .
- مكنت هذه الصناعة مصر من دخول الأسواق العالمية والاندماج في الاقتصاد العالمي ، واحتل تصدير السكر مكانة ذات أهمية في تجارة مصر الخارجية خلال هذه الفترة .
- أن الأزمة المالية قضت على الانتعاش الملحوظ الذي شهدته صناعة السكر ، فمع تفاقمها أخذت صادرات مصر من السكر في التراجع ، بعد أن بدأ التدهور يصيب هذه الصناعة ، وتمكن الأجانب من السيطرة عليها .

الهوامش :

١- كلوت بك: تعريب محمد مسعود ، لمحة عامة إلى مصر ، الجـزء الثـاني ، مطبعة أبي الهول ، بدون ص٤٥٠ ؛ محمد عبدالمنعم الشرقاوي ومصـطفى محمود القوني : جغرافية مصر الاقتصادية ، المطبعة الأميريـة ببـولاق ، القاهرة ١٩٤٤ ، ص ١٠٩ ؛ محمد فهمي لهيطة : تاريخ مصر الاقتصـادي في العصور الحديثة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمـة والنشـر ، القـاهرة ١٩٤٤، ص١٣٢ ؛ محمد فؤاد شكري وآخرين : بناء دولة مصر محمد علي، السياسة الداخلية ، الطبعة الأولى ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشـر ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص٨١ ؛ أمين مصطفى عفيفي عبـدالله : تـاريخ مصـر الاقتصادي في العصر الحديث ، الطبعة الأولى ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٥٢ ، ص٩٥ ؛ علي الجريتلي : تاريخ الصناعة في مصر في النصـف الأول من القرن التاسع عشر ، دار المعـارف بمصـر ، ١٩٥٢ ، ص٥٨ ؛ أحمد أحمد الحتة : تاريخ مصر الاقتصادي في القرن التاسع عشر ، مطبعـة المصري ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص١٦٥ ؛ هيلين آن ريفلين : ترجمة د. أحمـد عبدالرحيم مصطفى ومصطفى الحسيني ، الاقتصاد والإدارة في مصر فـي مستهل القرن التاسع عشـر ، دار المعـارف بمصـر ، القـاهرة ١٩٦٧ ، ص٢١٦ ؛ إميل فهمي حنا شنودة : تاريخ التعليم الصناعي حتى ثـورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص٧٥ ؛ عبـدالرحمن الرافعي : عصر محمد علي ، الطبعة الرابعـة ، دار المعـارف ، القـاهرة ١٩٨٢ ، ص٥٠٩ ؛ صلاح أحمد هريدي : الحرف والصناعات فـي عهـد محمد علي ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٥ ، ص٢١٤ ؛ نوال قاسم : تطور الصناعة المصرية منذ عهد محمد علي حتى عهـد عبدالناصـر ، الطبعـة الأولى، مكتبة مدبولي ، القاهرة ١٩٨٧ ، ص٣٩ ؛

Crouchely, A.E.: The economic development of modern Egypt, first published, London, 1938, p.71.

٢- علي الجريتلي : المرجع السابق ، ص٥٩ ؛ أحمد أحمد الحتة : تاريخ مصر الاقتصادي في القرن التاسع عشر ، المرجع السابق ، ص١٦٦ ؛ عبدالرحمن الرافعي : عصر محمد علي ، المرجع السابق ، ص٥١٠ ؛

Radwan, S.: The industrialization of Egypt, 1939-1973, oxford, 1976, p.14.

٣- محمد عبدالمنعم الشرقاوي ومصطفى محمود القوني : المرجع السابق ، ص١٦٠.

٤- Crouchely, A.E.: op-cit., p.65.

٥- تقرير بوالكمت: منشور لدى محمد فؤاد شكري وآخرين ، المرجع السابق ، ص٢٢٢ .

٦- أميل فهمي حنا شنودة : المرجع السابق ، ص٧٥.

٧- أمين سامي : تقويم النيل ، الجزء الثاني ، الطبعة الأولى ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٢٨ ، ص٥٧٤ ؛ إسماعيل محمد زين الدين : الموظفون الأجانب ودورهم في الإدارة المصرية ١٨٢٠ – ١٨٨٢ ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب – جامعة القاهرة ١٩٨٣ ، ص١٢٦.

٨- القنطار : يساوي ٤٤ كيلو جرام و ٤٩٣ جراما . محمد فهمي لهيطة : المرجع السابق ، ص١٣٧.

٩- كلوت بك : المصدر السابق ، ص٢٥٠ ؛ أحمد أحمد الحتة : تاريخ مصر الاقتصادي في القرن التاسع عشر ، المرجع السابق ، ص ١٦٦.

١٠- محمد فؤاد شكري وآخرين : المرجع السابق ، ص١٠٣.

١١- صلاح أحمد هريدي : المرجع السابق ، ص٢١٥. ويقصد بالتكرير إزالة ما يوجد بالسكر الخام من شوائب عن طريق المعالجة الكيميائية .

١٢- صلاح أحمد هريدي : نفس المرجع ، نفس الصفحة .

١٣- علي الجريتلي : المرجع السابق ، ص٥٩ ؛ صلاح أحمد هريدي : المرجع السابق ، ص٢١٥ ؛ Crouchely, A.E.: op-cit., p.71.

١٤- أمين مصطفى عفيفى عبدالله : المرجع السابق ، ص٩٥ ؛ أحمد أحمد الحتة : تاريخ مصر الاقتصادى فى القرن التاسع عشر ، المرجع السابق ، ص١٦٦ ؛
Crouchely, A.E.: op-cit., p.71.

١٥- تقرير دوهاميل : منشور لدى محمد فؤاد شكرى وآخرين ، المرجع السابق ، ص٣٣٠.

١٦- محمد فؤاد شكرى وآخرين : نفس المرجع ، ص٨٣.

17- Crouchely, A.E.: op-cit., p.71.

١٨- على الجريتلى : المرجع السابق ، ص ٥٩.

١٩- أحمد أحمد الحتة : تاريخ الزراعة المصرية فى عهد محمد على الكبير ، دار المعارف بمصر ١٩٥٠ ، ص٢٠٦ .

٢٠- أمين سامى : تقويم النيل ، الجزء الثانى ، المرجع السابق ، ص٢٥٠.

(*) يحتاج القصب إلى سنة كاملة حتى ينضج ، وتبدأ زراعته من ١٥ برمهات إلى ١٠ برمودة والأشهر القبطية هى المستخدمة لتحديد مواعيد الحاصلات الزراعية، نظراً لوقوعها فى أحوال جوية ثابتة بخلاف الأشهر العربية التى تتغير من سنة لأخرى ، ويقطع فى شهر طوبة إذ يمكث القصب فى الأرض عشرة شهور وما يبقى منه للتقاوى يمكث سنة كاملة . أحمد أحمد الحتة: تاريخ الزراعة المصرية فى عهد محمد على الكبير ، المرجع السابق ، ص ص٢٠٧، ٢٠٨.

٢١- على شلبى : الريف المصرى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ١٨٤٧ - ١٨٩١ ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٣ ، ص٣٥٣ ؛ أحمد أحمد الحتة : تاريخ مصر الاقتصادى فى القرن التاسع عشر، المرجع السابق ، ص٢٧٥ .

٢٢- أمين سامى : تقويم النيل وعصر عباس باشا الأول ومحمد سعيد باشا ، المجلد الأول من الجزء الثالث ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٣٦، ص١٥ .

٢٣- الكتخدا : كلمة فارسية من كلمتين كد بمعنى البيت وخد بمعنى الرب والصاحب فالكتخدا في الأصل رب البيت ، ويطلقها الفرس على السيد الموقر وعلى الملك ، وفي الاصطلاح الإدارى بمعنى الوكيل أو النائب فهو الذى ينظر في المسائل تمهيدا لعرضها على الوالى ، ويصدر أوامره رأساً في المسائل الثانوية ، ويحل محل الوالى في غيابه أو عندما يشغر منصب الولاية، وأحياناً يطلق عليه اسم كخيا . أحمد السعيد سليمان : تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتى من الدخيل ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٩ ، ص١٧٦؛ محمد أمين حسونة : كفاح الشعب من عمر مكرم إلى جمال عبدالناصر ، الوعى القومى ، المجلد الأول ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص١٩ .

٢٤- أمين سامى : تقويم النيل وعصر عباس باشا الأول ومحمد سعيد باشا ، المرجع السابق ، ص٤٨.

٢٥- على لطفى : التطور الاقتصادى ، دراسة تحليلية لتاريخ أوروبا ومصر الاقتصادى ، دار القرآن للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٧٦ ، ص٢٤٢ ؛ لطيفة محمد سالم : القوى الاجتماعية في الثورة العرابية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨١ ، ص ص٥٦ ، ٥٧ .

٢٦- لطيفة محمد سالم : نفس المرجع ، ص٤٨.

٢٧- الحرب الأهلية الأمريكية : كانت مشكلة الرق في الولايات المتحدة الأمريكية هى العامل الأساسى لنشوب الحرب في ٢٢ أبريل ١٨٦١ بين ولايات أمريكا المتحدة (الفيدرالية) وولايات أمريكا المتحالفة (الكونفدرالية) وانتهت هذه الحرب بانتصار الفيدراليين من أهل الشمال بعد أربع سنوات قضوا فيها على مقاومة الجنوبيين . لينوار تشامبرز رايت : ترجمة د. فاطمة علم الدين عبدالواحد ، سياسة الولايات المتحدة الأمريكية إزاء مصر ١٨٣٠-١٩١٤ ، سلسلة الألف كتاب الثانى ، (٤٢) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٧ ، ص ص ٩٣ ، ٩٤ ؛ بيير رنوفان : تعريب د. جلال يحيى : تاريخ العلاقات الدولية ، القرن التاسع عشر ١٨١٥-١٩١٤ ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٠ ، ص٣٠٠ .

٢٨- أحمد الشربيني : تاريخ التجارة المصرية في عصر الحرية الاقتصادية ١٨٤٠-١٩١٤ ، تاريخ المصريين ، (٨٦) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٥ ، ص ٣١١.

٢٩- محمد نور عبدالرحمن : تاريخ غزو رأس المال الأجنبي لمصر ١٨٥٤-١٨٨٢ ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب - جامعة المنيا ١٩٨٠ ، ص٢١٩.

٣٠- أحمد الشربيني : المرجع السابق ، ص ص٣١١ ، ٣١٢ ؛ محمد نور عبدالرحمن: المرجع السابق ، ص١١٠.

٣١- أحمد الشربيني : المرجع السابق ، ص٣١٢ ؛ محمد نور عبدالرحمن : المرجع السابق ، ص٢٢١ ؛ نوال قاسم : المرجع السابق ، ص١٣٧.

٣٢- لينوار تشامبرز رايت : المرجع السابق ، ص١٠٢.

٣٣- حازم سعيد عمر : القطن في الاقتصاد المصري وتطور السياسة القطنية ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص٣٣ ؛ صالح رمضان : الحياة الاجتماعية في عصر إسماعيل من ١٨٦٣-١٨٧٩ ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ١٩٧٧ ، ص١٣٧ ؛ عمر عبدالعزيز عمر : دراسات في تاريخ مصر الحديث ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ١٩٨٣ ، ص٢٨٧ ؛

Richards, A.: Egypt Agricultural development, 1800-1980 United States of America, 1982, p.32. & Crouchely, A.E.: op-cit., p.132.

٣٤- عمر عبدالعزيز عمر : المرجع السابق ، ص٢٨٧ ؛ أحمد الشربيني : المرجع السابق ، ص٢٨٥.

٣٥- إسماعيل محمد زين الدين : الصناعة في عهد إسماعيل ١٨٦٣-١٨٧٩ ، المؤرخ المصري ، العدد الرابع ، كلية الآداب - جامعة القاهرة ١٩٨٩ ، ص٢٣٥.

٣٦- جمال الدين محمد سعيد : اقتصاديات مصر ، الطبعة الأولى ، مطبعة لجنـة البيان العربى ، القاهرة ١٩٥٠ ، ص٢٣.

37- Crouchely, A.E.: op-cit., p.134.

٣٨- صالح رمضان : المرجع السابق ، ص١٣٨؛ Richards, A.: op-cit., p.32.

39- Marlowe, J.: Anglo Egyptian relations 1800-1935, London, 1954, p.19.

40- Vatikiotis, p. J.: The history of Egypt from Muhammad Ali to Sadat, second edition, London, 1980, p. 80. & Marlowe, J.: op - cit., P. 91.

٤١- نوال قاسم : المرجع السابق ، ص ١٠٢.

٤٢- عبدالرحمن الرافعى : عصر إسماعيل ، الجزء الثانى ، الطبعة الثالثـة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٢ ، ص١٦ ؛ محمد عبدالمنعم الشرقاوى ومصطفى القونى : المرجع السابق ، ص١٦٠.

٤٣- جورج جندى وجاك تاجر : إسماعيل كما تصوره الوثائق الرسمية ، مطبعـة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٤٧ ، ص١٦٦ .

٤٤- إسماعيل محمد زين الدين : الصناعة فى عهد إسـماعيل ١٨٦٣ - ١٨٧٦ ، المؤرخ المصرى ، المرجع السابق ، ص٢٣٨.

45- American Archive: Despatch from George H. Bulter to Hamlton Fish, Dec., 30, 1870, p. 69.

46- Vatikiotis, P. J.: op-cit., p. 80.

٤٧- إسماعيل محمد زين الـدين : الموظفـون الأجانـب ودورهـم فـى الإدارة المصرية، المرجع السابق ، ص١٣١.

48- Owen, E. R. J.: Cotton and Egyptian economy 1820-1914, oxford, 1969. P. 153.

٤٩- محمد فهمى لهيطة : المرجع السابق ، ص٣٠٠ ؛ محمد نور عبـدالرحمن : المرجع السابق ، ص٢٢٠.

٥٠- الكسندر شولش : ترجمة د. رؤوف عباس حامد ، مصر للمصريين أزمة مصر الاجتماعية والسياسية ١٨٧٨-١٨٨٢ ، دار الثقافة العربية ، القاهرة ١٩٨٣ ، ص٣٠.

٥١- عبدالرحمن الرافعي : عصر إسماعيل ، الجزء الثاني ، المرجع السابق ، ص٣٩.

٥٢- أحمد أحمد الحتة : تاريخ الزراعة المصرية من تولية عباس إلى الاحتلال البريطاني ١٨٤٨-١٨٨٢ ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ٢٠٠٢ ، ص٣٠٧ ؛ لطيفة محمد سالم : المرجع السابق ، ص٤٨.

٥٣- الدائرة السنية : تعبر كلمة الدائرة عن الأراضي الخديوية المختلفة ، وفي عهد الخديو إسماعيل كانت هناك سبع دوائر أكبرها وأهمها دائرتان ، الدائرة الخاصة والدائرة السنية ، وهي التي كانت تدير أراضي الخديو إسماعيل ، ومعظم أراضي الدائرة السنية كانت تقع في مصر العليا والوسطى ، ورهنت هذه الأراضي ضماناً لقرضين عقدهما الخديو إسماعيل في سنة ١٨٦٥ وسنة ١٨٧٠ نظير الديون التي عرفت بديون الدائرة السنية . جون مارلو : ترجمة د. عبدالعظيم رمضان ، تاريخ النهب الاستعماري لمصر ١٧٩٨-١٨٨٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٦ ، ص٢٦١ ؛ على بركات : تطور الملكية الزراعية في مصر ١٨١٣-١٩١٤ وأثره على الحركة السياسية، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ١٩٧٧ ، ص١١٩ ؛ عبدالله محمد عزباوي : عمد ومشايخ القرى ودورهم في المجتمع المصري في القرن التاسع عشر ، الطبعة الأولى ، دار الكتاب الجامعي ، القاهرة ١٩٨٤ ، ص٢٣.

٥٤- حافظ عفيفي : النهضة الصناعية ، إسماعيل بمناسبة مرور خمسين عاماً على وفاته ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٤٥ ، ص٣١.

55- Owen, E.R.J. : op-cit., p 154.

٥٦- عبدالرحمن الرافعي : عصر إسماعيل الجزء الثاني ، المرجع السابق ، ص٩ ؛ نوال قاسم : المرجع السابق ، ص١٠٠ ؛ بيير كرابيتس : ترجمة فؤاد

صروف ، إسماعيل المفترى عليه ، دار النشر الحديث ، القاهرة ١٩٣٣ ، ص١٨٠ ؛

Vatikiotis, P. J.: op-cit., p. 79. & Mc Coan, J.C.: Egypt as it is, London, 1876. P.246.

٥٧- جون مارلو: المرجع السابق ، ص١٦٣ ؛ على شلبى : المرجع السابق ، ص٣٠٦ ؛ Richards, A.: op-cit., p.30.

٥٨- ترعة الإبراهيمية : من أكبر مشاريع الرى فى عهد الخديوى إسماعيل ، يبلغ طولها ٢٦٧ متراً وعرضها ١٤ متراً ، استغرق حفرها ست سنوات من ١٨٦٧ إلى ١٨٧٢ ، وتبدأ من أسيوط وتنتهى عند أشمنت ببنى سويف ، وتروى مساحة من الأرض قدرها ٢١٣,٠٠٠ فدان من الأراضى المملوكة للدائرة السنية فى مديريات أسيوط والمنيا وبنى سويف ، ولقد سخر الأهالى فى حفر هذه الترعة التى كان يعمل فى حفرها ١٠٠,٠٠٠ فلاح مدة ٤ شهور فى كل سنة من السنوات الست التى استغرقها حفر هذه الترعة . محمد عبدالمنعم الشرقاوى ومصطفى محمود القونى : المرجع السابق ، ص١٦٠ ؛ محمد فهمى لهيطة : المرجع السابق ، ص٢٨٧ ؛ حسين خلاف : التجديد فى الاقتصاد المصرى الحديث ، الطبعة الأولى ، مطبعة دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٩٦٢ ، ص ص١٣٨ ، ١٣٩ ؛ أحمد أحمد الحتة : تاريخ مصر الاقتصادى فى القرن التاسع عشر ، المرجع السابق ، ص٥٨ ؛ على لطفى : المرجع السابق ، ص٢٤١ ؛ حازم سعيد عمر : المرجع السابق ، ص٣١ ؛ عبدالرحمن الرافعى : عصر إسماعيل ، الجزء الثانى ، المرجع السابق ، ص١٠ ؛ رؤوف عباس حامد : الملكيات الزراعية المصرية ودورها فى المجتمع المصرى ١٨٣٧-١٩١٤ ، الطبعة الثانية ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٨٣ ، ص٧٦ ؛ صالح رمضان : المرجع السابق ، ص١٥٩ ؛ على شلبى : المرجع السابق ، ص٣٠٧ ؛ محمد أنور توفيق أبو علم : السخرة فى الزراعة وأثرها على المجتمع المصرى فى القرن التاسع عشر ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب – جامعة القاهرة ١٩٨٥ ، ص٧١؛ Richards, A.: op-cit., p.30.

59- Radwan, S.: Capital formation in Egyptian industry & agriculture 1882-1967, London, 1974, p.22.

٦٠- عبدالرحمن الرافعي : عصر إسماعيل ، الجزء الثاني ، المرجع السابق ، ص١٠.

٦١- إسماعيل محمد زين الدين : الموظفون الأجانب ودورهم في الإدارة المصرية، المرجع السابق ، ص١٨؛ Crouchely, A.E.: op-cit., P. 132.

٦٢- حسين خلاف : المرجع السابق ، ص١٤٢.

٦٣- نوال قاسم : المرجع السابق ، ص١٠٢.

٦٤- راشد البراوى ومحمد حمزة عليش : التطور الاقتصادى فى مصر فى العصر الحديث ، الطبعة الخامسة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٤ ، ص١٠٠ ؛ رؤوف عباس حامد : المرجع السابق ، ص٥٥ ؛ محمد نور عبدالرحمن : المرجع السابق ، ص١١٠.

65- M[c] Coan, J. C.: op-cit., P. 199.

٦٦- محمد نور عبدالرحمن : المرجع السابق ، ص٢٢٤ .

٦٧- راشد البراوى ومحمد حمزة عليش : المرجع السابق ، ص١٠٠ ؛ رؤوف عباس حامد : المرجع السابق ، ص٥٥ .

٦٨- معية سنية عربى : دفتر ١٩٣٠ أوامر ، وثيقة رقم ٢٠ بتاريخ ٢٤ من رمضان ١٢٨٦ (٢٣ ديسمبر ١٨٦٩) أمر كريم إلى الدائرة السنية ، ص٤٠.

٦٩- جورج جندى وجاك تاجر : المرجع السابق ، ص١٦٦ .

(**) المشاركة : من أقدم أنواع الاستغلال فى الأراضى الزراعية ، ولا توجد قاعدة تحكم هذا الأسلوب من أساليب العلاقات الإنتاجية ، وإنما يحدد العرف نصيب المالك والمزارع وإن اختلف من مكان لآخر ومن محصول لمحصول. على شلبى : المرجع السابق ، ص٣٣٦.

٧٠- أحمد أحمد الحتة : تاريخ الزراعة المد ـية من تولية عباس إلى الاحتلال البريطانى ١٨٤٨-١٨٨٢ ، المرجع السابق ، ص٣٥٣.

٧١- أمين سامى : تقويم النيل وعصر إسماعيل باشا ، المجلد الثالث من الجزء الثالث ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٣٦ ، ص١٤٨.

٧٢- جابريل بير : ترجمة وتقديم د. عبدالخالق لاشين وعبدالحميد فهمى الجمال ، دراسة فى التاريخ الاجتماعى لمصر الحديثة ، الطبعة الأولى ، مكتبة الحرية الحديثة ، القاهرة ١٩٧٩ ، ص٣٢٣ ؛ على شلبى : المرجع السابق ، ص٣٣٨.

٧٣- صالح رمضان : المرجع السابق ، ص١٥٨.

٧٤- محمد أنور توفيق أبو علم : المرجع السابق ، ص١١٩.

75- Jerrold, p.: Egypt under Ismail pacha, London, 1879. P. 186.

٧٦- لطيفة محمد سالم : المرجع السابق ، ص٤٢.

٧٧- إسماعيل محمد زين الدين : الموظفون الأجانب ودورهم فى الإدارة المصرية، المرجع السابق ، ص١١٢.

٧٨- محمد أنور توفيق أبو علم : المرجع السابق ، ص ص١١٩ ، ١٢٠.

٧٩- صالح رمضان : المرجع السابق ، ص١٥٩.

٨٠- صالح رمضان : نفس المرجع ، نفس الصفحة ؛ محمد أنور توفيق أبو علم : المرجع السابق ، ص٧١.

٨١- معية سنية عربى : دفتر ١٩٤٢ أوامر ، وثيقة رقم ٧٤ بتاريخ ٢٢ من رجب ١٢٨٨ (١٧ أكتوبر ١٨٧١) أمر كريم إلى جهات سائرة ، ص٢٩.

٨٢- على مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها القديمة والشهيرة جـ١٣ ، بولاق ١٣٠٦هـ ، ص٢٧.

٨٣- محمد عبدالمنعم الشرقاوى ومصطفى محمود القونى : المرجع السابق ، ص١٦٠ ؛ حافظ عفيفى : المرجع السابق ، ص٣٢.

٨٤- على مبارك : المصدر السابق ، جـ٨ ، ص٢٦ ؛ جـ٨ ، ص٥٧ ؛ جـ١٣، ص٢٧ ؛ جـ١٥ ، ص٤٦.

٨٥- حسين على الرفاعى : الصناعة فى مصر ، مطبعة مصر ، القاهرة ١٩٣٥ ، ص٢٦٤ ؛ أحمد الشربينى : المرجع السابق ، ص٣١٣.

٨٦- ألبرت فرمان : ترجمة عبدالفتاح عنايت ، مصر وكيف غدر بها ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص٢٢٨.

٨٧- معية سنية عربى : دفتر ١٨٥٣ صادر ، وثيقة رقم ٨ بتاريخ ٦ من المحرم ١٢٨٩ (١٨ مارس ١٨٧٢) من المعية إلى وكيل تفتيش أقاليم قبلى ، ص٣٦. والشيخ فضل قرية صغيرة فى الشط الشرقى للنيل من مديرية المنيا تجاه بنى مزار ويزرع فى أرضها قصب السكر بكثرة للدائرة السنية . على مبارك : المصدر السابق ، جـ١٤ ، ص٧٧.

٨٨- مقدار التقاوى للفدان ثلاثة قراريط من القصب الجيد أو أربعة قراريط من القصب الخلفة ، وما يبقى من القصب كتقاوى يروى فى نصف طوبة حتى لا تكون تقاويه ضعيفة . أحمد أحمد الحتة : تاريخ الزراعة فى عهد محمد على الكبير ، المرجع السابق ، ص ص٢٠٧ ، ٢٠٨.

٨٩- على مبارك : المصدر السابق ، جـ٩ ، ص٣.

٩٠- معية سنية عربى : دفتر ١٩٣٢ أوامر ، وثيقة رقم ٧٧ بتاريخ غرة ذى القعدة ١٢٨٦ (٢ فبراير ١٨٧٠) أمر كريم إلى جهات سائرة ومفتش ملوى ، ص١٦.

٩١- معية سنية عربى : دفتر ١٩٤٢ أوامر ، وثيقة رقم ١٧٥ بتاريخ ٢ من ذى القعدة ١٢٨٠ (١٣ يناير ١٨٧٢) أمر كريم إلى جهات سائرة ومفتش ملوى ، ص٦٠.

٩٢- معية سنية عربى : دفتر ١٩٤٨ أوامر ، وثيقة رقم ٤ بتاريخ ١١ من شوال ١٢٩٠ (٢ ديسمبر ١٨٧٣) أمر كريم إلى مفتش جفالك سنية قبلى ، ص٧.

٩٣- راشد البراوى ومحمد حمزة عليش : المرجع السابق ، ص١٠٠.

٩٤- نوال قاسم : المرجع السابق ، ص١٥٩.

95- Owen, E. R. J. : op-cit., p.153.

96- Vatikiotis, P. J. : op-cit., p.80.

٩٧- جون مارلو : المرجع السابق ، ص ص١٨٠ ، ١٨١ ؛

Mc Coan, J.C.: op-cit., p.152.

٩٨- راشد البراوى ومحمد حمزة عليش : المرجع السابق ، ص١٠١ ؛ أحمد أحمد الحتة : تاريخ مصر الاقتصادى فى القرن التاسع عشر ، المرجع السابق ، ص١٨١ ؛ على لطفى : المرجع السابق ، ص٢٤٣ ؛ أحمد الشربيني : المرجع السابق ، ص٣١٣ ؛ صالح رمضان : المرجع السابق ، ص٢٠٧ ؛

Crouchely, A. E.: op-cit., P. 116 & Richards. A.: op-cit., P. 30.

٩٩- بيير كرابيتس : المرجع السابق ، ص ص١٣٤ ، ١٣٥.

١٠٠- على مبارك : المصدر السابق ، حـ٩ ، ص٣ وببا قرية من مديرية بنى سويف .

١٠١- راشد البراوى ومحمد حمزة عليش : المرجع السابق ، ص١٠١.

١٠٢- بيير كرابيتس : المرجع السابق ، ص١٢١ ؛ راشد البراوى ومحمد حمزة عليش : المرجع السابق ، ص١٠١ ؛ محمد فهمى لهيطة : المرجع السابق ، ٢٩٨ ؛ نوال قاسم : المرجع السابق ، ص ١٣٨ ؛ أحمد الشربينى : المرجع السابق ، ص٣١٣ ؛

Richards, A.: op-cit., p. 30. & M[c] Coan, J.C.: op-cit., P.153.

١٠٣- محمد فهمى لهيطة : المرجع السابق ، ص٢٩٧ ؛

Owen, E.R.J. : op-cit., pp.153-154.

١٠٤- إسماعيل محمد زين الدين : الموظفون الأجانب ودورهم فى الإدارة المصرية ، المرجع السابق ، ص١٣١.

١٠٥- على مبارك : المصدر السابق ، حـ١٥ ، ص٤٦.

١٠٦- أمين سامى : تقويم النيل وعصر إسماعيل باشا ، المجلد الثانى من الجزء الثالث ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٣٦ ، ص٧٨٧.

١٠٧- معية سنية عربى : دفتر ١٩٣٠ أوامر ، وثيقة رقم ٢٠٦ بتاريخ ٤ من ربيع الأخر ١٢٨٧ (٤ يوليو ١٨٧٠) أمر كريم إلى المالية ، ص١٥١.

١٠٨- على مبارك : المصدر السابق ، حـ١٤ ، ص٧٧.

١٠٩- حسين على الرفاعى : المرجع السابق ، ص٢٦٣.

١١٠- حافظ عفيفى : المرجع السابق ، ص٣٢ ؛ إسماعيل محمد زين الدين : الموظفون الأجانب ودورهم فى الإدارة المصرية ، المرجع السابق ، ص١٣١.

١١١- محمد فهمي لهيطة : المرجع السابق ، ص٢٩٧.

١١٢- أمين سامي : تقويم النيل وعصر إسماعيل باشا ، المجلد الثاني من الجزء الثالث ، المرجع السابق ، ص٩٦٢.

١١٣- معية سنية عربي : دفتر ١٨٥٢ صادر ، وثيقة رقم ١١ بتاريخ ٩ من صفر ١٢٨٩ (١٨ أبريل ١٨٧٢) من المعية إلى مصالح سنية بالإسكندرية ، ص٩٧.

١١٤- معية سنية عربي : دفتر ١٩٣٠ أوامر ، وثيقة رقم ٢٠٣ بتاريخ ٤ من ربيع الأخر ١٢٨٧ (٤ يوليو ١٨٧٠) أمر كريم إلى المالية ، ص١٤٨.

١١٥- أمين سامي : تقويم النيل وعصر إسماعيل باشا ، المجلد الثالث من الجزء الثالث ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٣٦ ، ص١٤٧٤.

(***) السلندرات : هي غرف حرق الوقود ويوجد بداخلها البساتم .

١١٦- معية سنية عربي : دفتر ١٩٣٦ أوامر ، وثيقة رقم ٣٤ بتاريخ ٢٥ من ربيع الأول ١٢٨٨ (١٦ يونية ١٨٧١) أمر كريم إلى الدائرة السنية ، ص٦.

١١٧- إسماعيل محمد زين الدين : الموظفون الأجانب ودورهم في الإدارة المصرية، المرجع السابق ، ص١٤٧.

١١٨- معية سنية عربي : دفتر ١٨٣٢ صادر ، وثيقة رقم ٦ بتاريخ ٢١ من ذى الحجة ١٢٨٦ (٢٤ مارس ١٨٧٠) من المعية السنية إلى ديوان إدارة زراعات قبلي ، ص٧٦.

١١٩- إسماعيل محمد زين الدين : الموظفون الأجانب ودورهم في الإدارة المصرية، المرجع السابق ، ص١٤٣.

١٢٠- معية سنية عربي : دفتر ١٨٣٢ صادر ، وثيقة رقم ٦ بتاريخ ٢١ من ذى الحجة ١٢٨٦ (٢٤ مارس ١٨٧٠) من المعية السنية إلى ديوان إدارة زراعات قبلي ، ص٧٦.

١٢١- الأسطى : في الفارسية أستا من الكلمة الفارسية المعربة أستاذ وفى التركية أوسته ، وهو الصانع الذى وقف على الصناعة ومهر فيها أو أجيز ليعمل مستقلا . احمد السعيد سليمان ، المرجع السابق ، ص١٥.

١٢٢- معية سنية عربى : دفتر ١٨٢٤ صادر ، وثيقة رقم ٦ بتاريخ غرة شـعبان ١٢٨٥ (١٧ نوفمبر ١٨٦٨) من المعية إلى ناظر الدائرة السنية ، ص٢٥.

١٢٣- معية تركى : محفظة ٤٧ وثيقة رقم ٦٩٣ بتاريخ ٩ من رمضان ١٢٨٧ (٣ ديسمبر ١٨٧٠) من مفتش بنى مزار إلى المعية .

١٢٤- معية سنية عربى : دفتر ١٩٤٢ أوامر ، وثيقة رقم ٧٨ بتاريخ ٢٤ من رجب ١٢٨٨ (٢٩ سبتمبر ١٨٧١) أمر كريم إلى مفـتش المنيـا وبنـى مـزار ، ص٣٠.

١٢٥- محمد فهمى لهيطة : المرجع السابق ، ص٢٩٧.

١٢٦- على بركات : المرجع السابق ، ص٥٠.

١٢٧- عبدالرحمن الرافعى : عصر إسماعيل ، المرجع السـابق ، ص٤٢ ؛ جـون مارلو : المرجع السابق ، ص٢٤١ ؛ نوال قاسم : المرجع السابق ، ص١٢٥.

Tood, J. A.: political economy, Cairo 1912, p.364 & Crouchely, A.E.: op-cit., p.120.

١٢٨- محمد فهمى لهيطة : المرجع السابق ، ص١٣٢١ ؛ عبـدالرحمن الرافعـى : عصر إسماعيل ، المرجع السابق ، ص ص٤٤ ، ٤٥ .

Tood, J. A.: op-cit. 364.

١٢٩- نوال قاسم : المرجع السابق ، ص١٣٨ ؛

Crouchely, A. E.: op-cit., P. 120.

١٣٠- لطيفة محمد سالم : المرجع السابق ، ص٥٧.

١٣١- عمر عبدالعزيز عمر : المرجع السابق ، ص٢٥٧.

١٣٢- حسين خلاف : المرجع السابق ، ص٢١٨.

١٣٣- مليكة عريان : مركز مصر الاقتصادى ، مطبعة رمسيس بالفجالـة بمصـر ١٩٢٣ ، ص٧٠.

١٣٤- أمين مصطفى عفيفى عبدالله : المرجع السابق ، ص١٠١.

١٣٥- إسماعيل محمد زين الـدين : الموظفـون الأجانـب ودورهـم فـى الإدارة المصرية، المرجع السابق ، ص١٣١.

136- M^c Coan, J. C.: op-cit., PP. 151-153.

١٣٧- معية سنية عربى : دفتر ١٩٤٧ أوامر ، وثيقة رقم ١٠ بتاريخ ٢٦ من شوال ١٢٩٠ (١٧ ديسمبر ١٨٧٣) أمر كريم إلى الدائرة السنية ، ص٢٣.

١٣٨- إسماعيل محمد زين الدين : الموظفون الأجانب ودورهم فى الإدارة المصرية، المرجع السابق ، ص ص١٤٦-١٤٧.

١٣٩- معية سنية عربى : دفتر ١٨٥٣ صادر ، وثيقة رقم ٦٥ بتاريخ ٦ من ذى الحجة ١٢٨٨ (١٦ فبراير ١٨٧٢) من المعية إلى مفتش طامية ، ص٣٠.

١٤٠- محمد نور عبدالرحمن : المرجع السابق ، ص٢٢٣.

١٤١- الفرنك : كان يعادل ٣,٨٥ قرشاً . إسماعيل محمد زين الدين : الصناعة فى عهد إسماعيل ١٨٦٣-١٨٧٩ ، المرجع السابق ، ص ٣٣٦.

١٤٢- معية سنية عربى : دفتر ١٩٤٧ أوامر ، وثيقة رقم ١١ بتاريخ ١٧ ذى القعدة ١٢٩٠ (٦ يناير ١٨٧٤) أمر كريم إلى الدائرة السنية ، ص٣٤.

١٤٣- معية سنية عربى : دفتر ١٩٤٧ أوامر ، وثيقة رقم ٨ بتاريخ ٨ من شوال ١٢٨٥ (٢٢ يناير ١٨٦٦) أمر كريم إلى الدائرة السنية ، ص٤٣.

١٤٤- معية سنية عربى : دفتر ١٨٣٢ صادر ، وثيقة رقم ١٥ بتاريخ ١٣ من المحرم ١٢٨٧ (١٥ أبريل ١٨٧٠) من المعية إلى ديوان زراعات قبلى ، ص١٠٢.

١٤٥- معية سنية عربى : دفتر ١٩٤٧ أوامر ، وثيقة رقم ١٢ بتاريخ ١٧ من ذى القعدة ١٢٩١ (٢٦ ديسمبر ١٨٧٤) أمر كريم إلى الدائرة السنية ، ص٣٤.

١٤٦- معية سنية عربى : دفتر ١٨٦٢ صادر ، وثيقة رقم ١٣٠ بتاريخ ٢٢ من صفر ١٢٩٠ (٢١ أبريل ١٨٧٣) من المعية إلى مفتش جفالك قبلى ، ص٢٨.

١٤٧- إسماعيل محمد زين الدين : الصناعة فى عهد إسماعيل ١٨٦٣-١٨٧٩ ، المرجع السابق ، ص٣٤١.

١٤٨- إسماعيل محمد زين الدين : الموظفون الأجانب ودورهم فى الإدارة المصرية ، المرجع السابق ، ص١٤٩.

١٤٩- بيير كرابيتس : المرجع السابق ، ص١٣٦.

١٥٠- إلياس الأيوبي : تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل باشا من ١٨٦٣ إلى سنة ١٨٧٩ ، المجلد الأول ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٢٣ ، ص١٢٨.

١٥١- على مبارك : المصدر السابق ، حـ١٥ ، ص٤٦.

١٥٢- معية سنية عربي : دفتر ١٩٣٦ أوامر ، وثيقة رقم ١٨٣ بتاريخ ٢٠ من جمادى الثانية ١٢٨٨ (٧ سبتمبر ١٨٧١) أمر كريم إلى مفتش المنيا وبني مزار ، ص٧٣.

١٥٣- أمين مصطفى عفيفى عبدالله : المرجع السابق ، ص١٠١.

١٥٤- معية سنية عربي : دفتر ١٩٣٠ أوامر ، وثيقة رقم ٢١ بتاريخ غاية رمضان ١٢٨٦ (٣ يناير ١٨٦٩) أمر كريم إلى الدائرة السنية ، ص٤٠.

١٥٥- معية سنية عربي : دفتر ١٩٣٦ أوامر ، وثيقة رقم ٣٥ بتاريخ ٢٥ من ربيع الأول ١٢٨٨ (١٤ يونية ١٨٧١) أمر كريم إلى الدائرة السنية ، ص٦.

١٥٦- محمد فهمى لهيطة : المرجع السابق ، ص٣٠٠.

١٥٧- لطيفة محمد سالم : المرجع السابق ، ص٥٧.

١٥٨- الكسندر شولش : المرجع السابق ، ص٨٢.

١٥٩- أحمد الشربيني : المرجع السابق ، ٣١٤.

١٦٠- جورج جندى وجاك تاجر : المرجع السابق ، ص١٧٥ ؛ صالح رمضان : المرجع السابق ، ص٢٠٧.

١٦١- أحمد أحمد الحتة : تاريخ مصر الاقتصادي في القرن التاسع عشر ، المرجع السابق ، ص٢٩١.

١٦٢- نول قاسم : المرجع السابق ، ص١٣٩ ؛ Owen, E. R. J.: op-cit., p.154.

١٦٣- جورج جندى وجاك تاجر : المرجع السابق ، ص١٧٨ ؛ أحمد أحمد الحتة : المرجع السابق ، ص١٨٣ ، أميل فهمى حنا شنودة : المرجع السابق ، ص١٦٣ ؛ صالح رمضان : المرجع السابق ، ص٢٠٨.

١٦٤- لطيفة محمد سالم : المرجع السابق ، ص٤٢.

١٦٥- معية تركى : محفظة ٤٧ مسلسل ٢١٢ ، بتاريخ ٩ من صفر ١٢٨٧ (١١مايو ١٨٧٠) من مفتش المنيا إلى رياض باشا .

١٦٦- معية تركى : دفتر ٥٣٩ ، وثيقة رقم ١٧٢ ، بتاريخ ٢٦ من صفر ١٢٨٢ (٢١ يوليو ١٨٦٥) أمر كريم إلى ناظر المالية ، ص٩٢.

١٦٧- معية تركى : محفظة ٤٨ مسلسل ٤٧٣ بتاريخ ١٩ من شوال ١٢٨٨ (١ يناير ١٨٧٢) من سليمان رحمى إلى المعية .

١٦٨- جورج جندى وجاك تاجر : المرجع السابق ، ص١٧٥ ؛ راشد البراوى ومحمد حمزة عليش : المرجع السابق ، ص١٠١ ؛ أحمد أحمد الحتة : تاريخ مصر الاقتصادى فى القرن التاسع عشر : المرجع السابق ، ص١٨٢ ؛ صالح رمضان : المرجع السابق ، ص٢٠٧ ؛

Crouchely, A. E.: op-cit., P.135.

١٦٩- القومبانية العزيزية : تأسست فى عهد الخديو إسماعيل سنة ١٨٦٣ شركة للملاحة البحرية بالبواخر ، عرفت باسم الشركة العزيزية ، نسبة إلى السلطان عبدالعزيز ، الذى تولى السلطنة فى الفترة من ١٨٦١ إلى ١٨٧٦ ، وذلك لنقل المسافرين والبضائع فى البحرين المتوسط والأحمر ، وكان لبواخرها فضل فى تنشيط حركة التجارة الخارجية المصرية ، وتسهيل مواصلاتها البحرية ، وفى سنة ١٨٧٣ ، حولها الخديو إسماعيل إلى إدارة حكومية عرفت بمصلحة وابورات البوسطة الخديوية وكان لها من البواخر الكبيرة ست وعشرون باخرة . محمد فهمى لهيطة : المرجع السابق ، ص٣٠٧ ؛ أمين مصطفى عفيفى عبدالله : المرجع السابق ، ص١٤٨ ؛ أحمد عبدالرحيم مصطفى : علاقات مصر بتركيا فى عهد الخديو إسماعيل ١٨٦٣-١٨٧٩ ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص١٦ ؛ صالح رمضان : المرجع السابق ، ص١٣١ ؛ خلف عبدالعظيم سيد الميرى : تاريخ البحرية التجارية المصرية ١٨٥٤-١٨٧٩ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٢ ، ص١٦٨ ؛ أحمد الشربينى : المرجع السابق ، ص٢٠٦.

١٧٠- معية سنية عربى : دفتر ١٨٠٦ صادر ، وثيقة رقم ٢ بتاريخ ٥ من رجب ١٢٨٣ (١٣ نوفمبر ١٨٦٦) من المعية إلى القومبانية العزيزية ، ص٦.

١٧١- معية تركى : محفظة ٤٦ وثيقة رقم ٤٦٠ بتاريخ ٢٦ من ذى العقـدة ١٢٨٦ (٢٧ فبراير ١٨٧٠) من سليمان رحمى إلى المعية .

١٧٢- معية تركى : محفظة ٤٦ وثيقة رقم ٤٧٥ بتاريخ ٧ من ذى الحجـة ١٢٨٦ (١٠ مارس ١٨٧٠) من سليمان رحمى إلى المعية .

١٧٣- إسماعيل محمد زين الدين : الصناعة فى عهـد إسـماعيل ١٨٦٣-١٨٧٩ ، المرجع السابق ، ص٣٥٢.

١٧٤- معية سنية عربى : دفتر ١٨٣٢ صادر ، وثيقة رقم ٩٣ بتاريخ ٢٢ من المحـرم ١٢٨٧ (٢٤ أبريل ١٨٧٠) من المعية إلى وكيل أشغال الخاصة ، ص٩٨.

١٧٥- بيير كرابيتس : المرجع السابق ، ص١٣٦.

١٧٦- محمود عمر : إسماعيل معيد عهد الصناعة ، إسماعيل بمناسبة مرور خمسين عاماً على وفاته ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٤٥ ، ص١٤١.

١٧٧- الأقة تساوى ٢,٧٥ رطلاً و ٤ دراهم . محمد فهمى لهيطة : المرجع السابق ، ص١٣٧.

١٧٨- شوقى عطاالله الجمل : الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى البحـر الأحمـر ١٨٦٣-١٨٧٩ ، مطبعة لجنة البيان العربى ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص٤٣١.

١٧٩- خلف عبدالعظيم سيد الميرى : المرجع السابق ، ص٥٩٣.

١٨٠- أحمد أحمد الحتة : تاريخ مصر الاقتصادى فى القرن التاسع عشر ، المرجع السابق ، ص١٨٢ ؛ صالح رمضان : المرجع السابق ، ص٢٠٨ ؛ محمد نور عبدالرحمن : المرجع السابق ، ص ص٢٢٠ ، ٢٢١.

١٨١- الوقائع المصرية : العدد ٥٢٧ بتاريخ ٣٠ سبتمبر ١٨٧٤ . كان عـدد هـذه الميداليات وشهادات التقدير ثمانية عشرة ميدالية وشهادة .

١٨٢- راشد البراوى ومحمد حمزة عليش : المرجع اسابق ، ص ص١٠٦ ، ١٠٧.

١٨٣- محمد نور عبدالرحمن : المرجع السـابق ، ص٢٢٤ ؛ صـالح رمضـان : المرجع السابق ، ص٢٠٨.

١٨٤- محمد فهمى لهيطة : المرجع السابق ، ص٣٠٠ ؛ أحمد الشربينى : المرجـع السابق ، ص٣١٤.

المصادر والمراجع

أولاً : وثائق غير منشورة باللغة العربية :

(أ) سجلات المعية سنية عربى ، وهذه السجلات تشمل الأوامر والإفادات الصادرة إلى الدواوين والأقاليم والمحافظات ، والدفاتر التى تم استخدامها:

١ – دفتر ١٨٠٦ صادر	٥ – دفتر ١٨٦٢ أوامر	٩ – دفتر ١٩٤٢ أوامر
٢ – دفتر ١٨٣٢ صادر	٦ – دفتر ١٩٣٠ أوامر	١٠– دفتر ١٩٤٧ أوامر
٣ – دفتر ١٨٥٢ صادر	٧ – دفتر ١٩٣٢ أوامر	١١ – دفتر ١٩٤٨ أوامر
٤ – دفتر ١٨٥٣ صادر	٨ – دفتر ١٩٣٦ أوامر	

(ب) سجلات المعية تركى دفاتر ، وهى مترجمة عن الوثائق المكتوبة بالتركية ، والدفاتر التى ورد استخدامها :

١ – دفتر ٥٣٩ .

(ج) سجلات المعية تركى محافظ ، والمحافظ التى ورد استخدامها :

١ – محفظة ٤٦.   ٢ – محفظة ٤٧.   ٣ – محفظة ٤٨.

ثانياً : وثائق منشورة :

١- تقرير بوالكمت Boislecomte ص ٢١٧ –٢٣٦ منشور لدى محمد فؤاد شكرى وآخرين : بناء دولة مصر محمد على ، السياسة الداخلية ، الطبعة الأولى ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٤٨ .

٢- تقرير دوهاميل Duhamel ص ٢٩١ – ٣٦٠ منشور لدى محمد فؤاد شكرى وآخرين: بناء دولة مصر محمد على، السياسة الداخلية ، الطبعة الأولى ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٤٨ .

٣- شوقى عطا الله الجمل : الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى البحر الأحمر ١٨٦٣- ١٨٧٩ ، مطبعة لجنة البيان العربى ، القاهرة ١٩٥٩ .

ثالثاً : الدوريات :

١- الوقائع المصرية ، العدد رقم ٥٢٧ بتاريخ ٣٠ سبتمبر ١٨٧٤ .

رابعاً : المقالات العربية :

١- إسماعيل محمد زين الدين : الصناعة في عهد إسماعيل ١٨٦٣- ١٨٧٩ ، المؤرخ المصري ، العدد الرابع ،كلية الآداب - جامعة القاهرة ١٩٨٩ . .

خامساً : الرسائل العلمية :

١- إسماعيل محمد زين الدين : الموظفون الأجانب ودورهم في الإدارة المصرية ١٨٢٠ - ١٨٨٢ ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب - جامعة القاهرة ١٩٨٣ .

٢- محمد أنور توفيق أبو علم : السخرة في الزراعة وأثرها على المجتمع المصري في القرن التاسع عشر ، رسالة دكتوراه غير منشورة ،كلية الآداب - جامعة القاهرة ١٩٨٥.

٣- محمد نور عبد الرحمن : تاريخ غزو رأس المال الأجنبي لمصر ١٨٥٤ - ١٨٨٢ ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب - جامعة المنيا ١٩٨٠ .

سادساً : المصادر والمراجع العربية :

١- أحمد أحمد الحتة : تاريخ الزراعة المصرية في عهد محمد على الكبير ، دار المعارف بمصر ١٩٥٠ .

٢- أحمد أحمد الحتة : تاريخ مصر الاقتصادي في القرن التاسع عشر ، مطبعة المصري ، القاهرة ١٩٦٧.

٣- أحمد أحمد الحته : تاريخ الزراعة المصرية من تولية عباس إلى الاحتلال البريطاني ١٨٤٨ - ١٨٨٢ ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ٢٠٠٢ .

٤- أحمد السعيد سليمان : تأصيل ما ورد في الجبرتي من الدخيل ، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٩ .

٥- أحمد الشربيني : تاريخ التجارة المصرية في عهد الحرية الاقتصادية ١٨٤٠ - ١٩١٤ ، تاريخ المصريين ، (٨٦) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٥ .

٦- أحمد عبد الرحيم مصطفى : علاقات مصر بتركيا فى عهد الخديو إسماعيل ١٨٦٣-١٨٧٩ ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٧ .

٧- البرت فرمان : ترجمة عبد الفتاح عنايت ، مصر وكيف غدر بها ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٦٤ .

٨- الكسندر شولش : ترجمة د. رؤوف عباس حامد ، مصر للمصريين أزمة مصر الاجتماعية والسياسية ١٨٧٨ - ١٨٨٢ ، دار الثقافة العربية ، القاهرة ١٩٨٣ .

٩- الياس الأيوبى : تاريخ مصر فى عهد إسماعيل باشا من ١٨٦٣-١٨٧٩ ، المجلد الثانى ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٢٣ .

١٠- أميل فهمى حنا شنودة : تاريخ التعليم الصناعى حتى ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، دار الكاتب العربى ، القاهرة ١٩٦٧ .

١١- أمين سامى : تقويم النيل ، الجزء الثانى، الطبعة الأولى ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٢٨ .

١٢- أمين سامى : تقويم النيل وعصر عباس باشا الأول ومحمد سعيد باشا ، المجلد الأول من الجزء الثالث ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٣٦.

١٣- أمين سامى : تقويم النيل وعصر إسماعيل باشا ، المجلد الثانى من الجزء الثالث ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٣٦ .

١٤- أمين سامى : تقويم النيل وعصر إسماعيل باشا ، المجلد الثالث من الجزء الثالث ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٣٦ .

١٥- أمين مصطفى عفيفى عبد الله : تاريخ مصر الاقتصادى والمالى فى العصر الحديث ، الطبعة الأولى ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٥٢ .

١٦- بيير رنوفان : تعريب د. جلال يحيى ، تاريخ العلاقات الدولية ، القرن التاسع عشر ١٨١٥- ١٩١٤ ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٠ .

١٧- بيير كرابيتس : ترجمة فؤاد صروف ، إسماعيل المفترى عليه ، دار النشر الحديث ، القاهرة ١٩٣٣ .

١٨- جابريل بير : ترجمة وتقديم د . عبد الخالق لاشين وعبد الحميد فهمى الجمال ، دراسة فى التاريخ الاجتماعى لمصر الحديثة ، الطبعة الأولى ، مكتبة الحرية الحديثة ، القاهرة ١٩٧٦.

١٩- جمال الدين محمد سعيد : اقتصاديات مصر ، الطبعة الأولى ، مطبعة لجنة البيان العربى، الإسكندرية ١٩٥٠ .

٢٠- جورج جندى وجاك تاجر : إسماعيل كما تصوره الوثائق الرسمية ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٤٧ .

٢١- جون مارلو : ترجمة د . عبد العظيم رمضان ، تاريخ النهب الاستعمارى لمصر من الحملة الفرنسية ١٧٩٨ إلى الاحتلال البريطانى ١٨٨٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٦ .

٢٢- حازم سعيد عمر : القطن فى الاقتصاد المصرى وتطور السياسة القطنية ، الهيئة المصرية للتأليف والنشر ، القاهرة ١٩٧٠ .

٢٣- حافظ عفيفى : النهضة الصناعية ، إسماعيل بمناسبة مرور خمسين عاماً على وفاته ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٤٥ .

٢٤- حسين خلاف : التجديد فى الاقتصاد المصرى الحديث ، الطبعة الأولى ، مطبعة دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٦٢ .

٢٥- حسين على الرفاعى : الصناعة فى مصر ، مطبعة مصر ، القاهرة ١٩٣٥ .

٢٦- خلف عبد العظيم سيد الميرى : تاريخ البحرية التجارية المصرية ١٨٥٤ – ١٨٧٩، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٢ .

٢٧- راشد البراوى ومحمد حمزة عليش : التطور الاقتصادى فى مصر فى العصر الحديث ، الطبعة الخامسة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٤ .

٢٨- رؤوف عباس حامد : الملكيات الزراعية المصرية ودورها فى المجتمع المصرى، الطبعة الثانية ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٨٣ .

٢٩- صالح رمضان : الحياة الاجتماعية فى مصر فى عصر إسماعيل ١٨٦٣- ١٨٧٩ منشأة المعارف ، الإسكندرية ١٩٧٧ .

٣٠- صلاح أحمد هريدى : الحرف والصناعات فـي عهـد محمـد علـى ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٥.
٣١- عبد الرحمن الرافعى : عصر محمد على ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٢ .
٣٢- عبد الرحمن الرافعى : عصر إسماعيل ، الجزء الثانى ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٢ .
٣٣- عبد الله محمد عزباوى : عمد ومشايخ القرى ودورهم فى المجتمع المصرى فى القرن التاسع عشر ، الطبعة الأولى ، دار الكتـاب الجـامعى ، القـاهرة ١٩٨٤ .
٣٤- على الجريتلى : تاريخ الصناعة المصرية فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، دار المعارف بمصر ١٩٥٢ .
٣٥- على بركات : تطور الملكية الزراعية فى مصر ١٨١٣-١٩١٤ وأثره علـى الحركة السياسية ، دار الثـقافة الجديدة ، القاهرة ١٩٧٧ .
٣٦- على شلبى : الريف المصرى فى النصف الثانى من القـرن التاسـع عشـر ١٨٤٧- ١٨٩١ الطبعة الأولى ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٣ .
٣٧- على لطفى : التطور الاقتصادى ، دراسة تحليلية لتـاريخ أوروبـا ومصـر الاقتصادى ، دار القرآن للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٦٧ .
٣٨- على مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها القديمة والشهيرة ٢٠ جزء ، بولاق ١٣٠٦هـ .
٣٩- عمر عبد العزيز عمر : دراسات فى تاريخ مصر الحـديث ، دار المعرفـة الجامعية ، الإسكندرية ١٩٨٣ .
٤٠- كلوت بك : تعريب محمد مسعود ، لمحة عامة إلى مصر ، الجزء الثـانى ، مطبعة أبى الهول ، بدون .
٤١- لطيفة محمد سالم : القوى الاجتماعية فى الثورة العرابية ، الهيئة المصـرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٦ .

٤٢- لينوار تشامبرز رايت : ترجمة د. فاطمة علم الدين عبد الواحد ، سياسة الولايات المتحدة الأمريكية إزاء مصر ١٨٣٠ -١٩٤١ سلسلة الألف كتاب الثاني ، (٤٢) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٧ .

٤٣- محمد أمين حسونة : كفاح الشعب من عمر مكرم إلى جمال عبد الناصر ، الوعي القومي، المجلد الأول ، القاهرة ١٩٥٥ .

٤٤- محمد عبد المنعم الشرقاوى ومصطفى محمود القونى: جغرافية مصر الاقتصادية ، المطبعة الأميرية ببولاق ، القاهرة ١٩٤٤ .

٤٥- محمد فهمى لهيطة : تاريخ مصر الاقتصادى فى العصور الحديثة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٤٤ .

٤٦- محمد فؤاد شكرى و أخرين : بناء دولة مصر محمد على السياسة الداخلية ، الطبعة الأولى ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٤٨ .

٤٧- محمود عمر : إسماعيل معيد عهد الصناعة ، إسماعيل بمناسبة مرور خمسين عاماً على وفاته ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٤٥ .

٤٨- مليكه عريان : مركز مصر الاقتصادى ، مطبعة رمسيس بالفجالة بمصر ١٩٢٣ .

٤٩- نوال قاسم : تطور الصناعة المصرية منذ عهد محمد على حتى عهد عبد الناصر ، الطبعة الأولى ، مكتبة مدبولى ، القاهرة ١٩٨٧ .

٥٠- هيلين أن ريفلين : ترجمة د . أحمد عبد الرحيم مصطفى ومصطفى الحسينى، الاقتصاد والإدارة فى مصر فى مستهل القرن التاسع عشر ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٦٧ .

سابعا : المراجع الأجنبية :

1- Crouchely, .A.E.: The economic development of modern Egypt, first published, London, 1938.

2- Jerrold, p. : Egypt under Ismail pacha, London, 1879 .

3- Marlowe, J .: Anglo Egyptian relations 1800-1935, London, 1954.

4- M^{c} coan, J. C. : Egypt as it is , London, 1876.

5- Owen, E. R. J. : Cotton and the Egyptian economy 1820 – 1914, oxford, 1969

6- Radwan, s.: Capital formation in Egyptian industry & Agriculture 1882 –1967, London, 1974 .

7- Radwan, s.: The industrialization of Egypt, 1939–1973, oxford, 1976.

8- Richards, A.: Egypt agricultural development, 1800- 1980, United States, of America, 1982.

9- Tood, J. A.: Political economy, Cairo, 1912.

10- Vatikiotis, P.J.: The history of Egypt from Muhammad Ali to Sadet, second edition, London, 1980.

نصوص التشريع السُريانية

رؤية وصفية لنماذج من تشريعات الميراث

د. صلاح عبدالعزيز محجوب

كلية الآداب – قسم اللغات الشرقية

كان للسريان تشريعات يطبقونها فى شؤون حياتهم فى البلاد المختلفة التى عاشوا بها سواء كان ذلك فى بلاد النهرين أو فى بلاد الشام أو فى بلاد فارس، إلا أنهم لم يتفقوا على نص تشريعى واحد خاصة وأن كتاب العهد الجديد خلا من تشريعات الأحكام المدنية والشخصية. وقد ذكر إيشوع بوخت فى القرن السادس اختلاف تشريعات السريان وخلو الأناجيل من التشريعات المدنية[١]. ويبدو أن هذا هو السبب الذى جعلهم ينقلون التشريعات الرومانية نقلا حرفيا إلى السريانية بغرض تطبيقها فى شؤون حياتهم. وقد نشر إدوارد ساخاو Eduard Sachau التشريعات الرومانية والتى نقلت إلى السريانية وطبعها فى دراسته الشهيرة عن كتاب القانون الرومانى السريانى. وتتناول تلك القوانين فى بدايتها تشريعات الميراث وشروط كتابة الوصية ومسائل تتعلق بأحكام الزواج إلى غير ذلك[٢]. ويبدو لنا أن السريان قد اجتهدوا فى وضع تشريعات خاصة بهم ولم يتبعوا شريعة العهد القديم، فعلى سبيل المثال توجب شريعة اليهود زواج زوجة الأخ المتوفى الذى مات ولم ينجب منها، أما السريان فقد حرموا ذلك وقال عبديشوع فى باب الزواج المحرم أنه لا يحل الزواج بإمرأة الأخ إن كان حيا أو ميتا[٣] ويبدو أن السريان فى العصر الإسلامى لجأوا أحيانا إلى التقاضى أمام القضاة المسلمين ولذلك نجد المشرع عبديشوع الصوباوى ينص على تحريم التقاضى أمام القضاة الأجانب من غير المسيحيين السريان، ويقول المشرع طيموتاوس الأول عن التقاضى أمام القضاة الأجانب "إن كان المتقاضين مسيحيين فكيف يقفون أمام الأجانب! [٤]. ويبدو أن المشرعين السريان قد سنّوا شروطاً لممارسة منصب

القضاء، وبحسب تقرير مجمع سنة ٥٧٦ ميلادية يجب أن يكون القاضي متعلم ومثقف ومطلع على تعاليم الكنيسة[٥].

ونظن أننا أول من يبحث في تشريعات السريان في الجامعات المصرية ولذلك نطمح من دراستنا هذه إلى تعريف التشريعات السريانية وخاصة تشريعات الميراث، ونستهل دراستنا بوصف نصوص التشريع عن السريان بحسب التتابع التاريخي للمشرعين، ثم نتناول بالبحث نماذجاً من تشريعات الإرث خاصة ونعلق على أوجه الإتفاق والاختلاف بين تلك النصوص. ونرجو أن نتمكن في المستقبل بإذن الله من دراسة هذا الموضوع دراسة مستفيضة تشمل نشأة التشريعات عند السريان وتأثرهم بالشرائع الأخرى، عندما نتمكن من جمع المادة العلمية اللازمة لذلك.

أولاً. وصف نصوص التشريع السريانية :

نستهل دراستنا بوصف نصوص التشريع السريانية ونرتبها بحسب مؤلفيها وتتابعهم الزمني.

إيشوبوخت (القرن السادس) :

وضع أيشوع بوخت مطران فارس أول بحث شامل في الحق المدني وقد تُرجم كتابه من البهلوية إلى السريانية في حوالي ٧٧٩ ميلادية. ويتكون كتاب إيشوبوخت من حوالي مائة صفحة ويحتوى ستة أقسام وهي:

القسم الأول:عن القانون المدني، ويعرف إيشوبوخت فيه معنى القضاء بقوله "هو العدل أو الاستقامة المقننة وفقاً للشرع والتي تعطي لكل إنسان حقه"[٦]. القسمين الثاني والثالث: عن قانون الزواج، ويفصل فيه المشرع الأحوال الشخصية وشروط الزواج والزواج المحرم والباطل وحقوق الزوجين. القسم الرابع: قانون الميراث، تناول فيه المشرع شرح درجات القرابة وتقسيم الميراث وميراث الزوجة الأرملة. القسمين الخامس والسادس: عن العقود وشروط البيع والشراء والربا والأمانات والهبات والوصية[٧].

الجاثليق حنانيشوع الأول (القرن السابع) :

ولد فى النصف الأول من القرن السابع، وانتخب جاثليقا حوالى ٦٨٥. وقد توفى حوالى ٧٠١ ميلادية. وقد ألف مجموعة من التراتيل والمواعظ وشرحا لكتاب أرسطو المعروف باسم التحليلات أو أنالوطيقا. وقد كتب عشرين تشريعا عرف باسم قانون المحاكمات أو أحكام القانون[٨]. وتتناول تشريعات حنانيشوع أحكاما تختص برجال الدين وبعض حالات الميراث.

الجاثليق طيموثاوس الأول (٧٨٠-٨٢٣) :

كتب طيموثاوس مجموعة من القوانين تبلغ حسب رأى ألبير أبونا حوالى ٩٩ قانونا. وتنقسم تلك القوانين إلى ثلاثة أقسام هى كما يلى:

أولا. قوانين الرئاسة الكنسية أى القوانين التى تنظم درجات رجال الكنيسة بالإضافة إلى تنظيم شؤون الكنيسة.

ثانيا. تشريعات الزواج والطلاق، وقد فصل المشرع فى هذا القسم شروط الزواج الصحيح والزواج المحرم.

ثالثا. تشريعات الميراث، وقد شرح طيموثاوس فى هذا القسم درجات القرابة وكيفية توزيع الميراث على الأبناء والزوجة وبقية الأقارب وشرح شروط الوصية والوصايا القانونية. وقد عرفت هذه القوانين واشتهرت بفضل أبى الفرج عبد الله بن الطيب الذى نقلها إلى العربية فى القرن الحادى عشر[٩].

إيشوع بن نون (٨٢٣-٨٢٨) :

ولد بقرية بيت كبارى بين نينوى والموصل. وعين مفسراً للكتب الدينية فى مدرسة المدائن (جنديسابور). عقد ايشوع بن نون مجمعا كنسيا وسنّ فيه ١٣٠ قانونا فى القوانين الدينية والأحكام المدنية[١٠]. وقوانين المشرع تشرح لنا حقوق الكنائس والأديرة والفصل فى النزاعات بين رجال الكنيسة بالإضافة إلى أحكام الزواج والطلاق والزواج المحرم وتحريم تعدد الزوجات وعقوبات السرقات وأعمال السحر كما فصل أحكام توزيع الميراث على أبناء الأسرة وكيفية توزيع ميراث الكهنة.

يوحنا بن أبجر بن عيسى بن الأعرج (المتوفى سنة ٩٠٥ ميلادية) :

عرف باسم يوحنا الخامس بن الاعرج. نشأ وعاش في بغداد، وقد رقى إلى رتبة الجثليق في سنة ٩٠٠ على النساطرة وتوفى حوالى ٩٠٥ ميلادية. كتب يوحنا ٢٨ قانونا لتنظيم وظائف رجال الدين، وقد نقلها أبو الفرج بن الطيب إلى العربية وضمها إلى موسوعته القانونية المعروفة باسم "فقه النصرانية". كما كتب يوحنا مجموعة قوانين لتنظيم المواريث والحقوق المدنية[١١]. وقد شرح المشرع درجات القرابة والورثة الشرعيين وغير الشرعيين، كما نقل بعض أحكام توزيع الميراث في الشريعة الإسلامية إلا أن المصدر الذى نقل عنه لم يذكره الناقل.

المطران إيليا بن السنى (٩٧٥- ١٠٤٦ ميلادية) :

ذكر ألفونس منجانا في فهرسه عن مخطوطات برمنجهام أن إيليا بن السنى، المعروف بإليا النصيبينى وإيليا بر شينايا بالسريانية، قد نقل كتابا في الميراث وفق الشريعة الإسلامية من العربية إلى السريانية[١٢].

عبديشوع بن بهريز (القرن الحادى عشر) :

عاش أبو سعيد عبديشوع بن بهريز في القرن الحادى عشر. وكان مطرانا على الموصل وأربيل حوالى ١٠٢٨ ميلادية. وقد رتب عبديشوع قوانين تقسيم الميراث، وهى عبارة عن مجموعة من القوانين والشرائع الخاصة بالميراث والتى قسمها إلى قسمين، حيث استعرض في القسم الأول نظرية تقسيم الميراث ثم تناول في القسم الثانى الحالات الخاصة الاستثنائية[١٣].

أبو الفرج عبد الله بن الطيب (المتوفى ١٠٤٣ ميلادية) :

ولد ابو الفرج عبد الله بن الطيب في بغداد في منتصف القرن العاشر الميلادى، وعاصر الخليفتين القادر (٩٩١-١٠٣١ ميلادية) والقائم (١٠٣١-١٠٧٥ ميلادية) استفاد أبو الفرج من نصوص المشرعين السابقين عليه ونقل عنها وألف مجموعة من القوانين اسماها بالعربية "فقة النصرانية[١٤].

إيليا الأول (المتوفى سنة ١٠٤٩ ميلادية) :

تلقى العلم فى مدرسة المدائن. كتب إيليا مقالات فى القانون المدنى والميراث وموانع الزواج بالإضافة إلى أثنين وعشرين فصلا فى أصول الدين.

غريغوريوس ابن العبرى (١٢٢٦-١٢٨٦ ميلادية) :

كتب ابو الفرج جمال الدين ابن الشماس تاج الدين هارون ابن توما الملطى المعروف باسم ابن العبرى موسوعة قانونية تعرف باسم ܟܬܒܐ ܕܗܘܕܝܐ "كتاب الهدايات". وهذه الموسوعة عبارة عن مجموعة تشريعات مدنية ودينية تقع فى حوالى ٥٤١ صفحة. تناول ابن العبرى فى موسوعته الضوابط القانونية لعديد من المسائل مثل الزواج والوصايا والارث والتجارة والبيع والشراء والشراكة والوقف والإجارة وعتق العبيد والشهادة كما فصل عدة مسائل قانونية أخرى[١٥].

عبديشوع الصوباوى (المتوفى ١٣١٨ ميلادية) :

ألف عبديشوع الصوباوى المعروف بابن المبارك مجموعة من القوانين تنقسم إلى قسمين. تناول المشرع عبديشوع فى القسم الأول الأحكام المدنية واشتمل على تشريعات الزواج والارث والدعاوى المدنية والكنسية. وتناول المشرع فى القسم الثانى القوانين الكنسية وتنظيم درجات رجال الدين وحقوق الكنائس[١٦]. ولعل أطرف ماجاء فى الموسوعة القانونية لعبديشوع الصوباوى وفق مفاهيمنا فى القرن الحادى والعشرين أن المشرع عبديشوع شرع طلاق الزوج لزوجته إن نامت خارج بيتها بدون إذن منه أو ذهبت إلى لمسرح[١٧].

ثانيا. نماذج من تشريعات الميراث عند السريان :

ونسوق فيما يلى بعض الأمثلة من نصوص التشريع السريانية والتى تتعلق بتقسيم الميراث وحقوق الوارثين وكيفية تقسيم الأنصبة القانونية لكل واحد منهم. ونستهل دراستنا بالاقتباس عن قوانين إيشوعبوخت فيما يتعلق بالميراث.

يبدأ إيشوعبوخت فى المقال الرابع من قوانيه بتقسيم حقوق الوارثين فى الأسرة بما فى ذلك الزوجة والأبناء والبنات والأخوة والأخوات والوصية القانونية، ويذكر المشرع أن درجات الأقارب ثمانية درجات هى:

لحا. إمإ. حطلا. أيحلا. حدا. حنا. أسا. سما. ەحكحمم حقمم أنم، حەوإنا وحم حنةوإ

إە لا حقمم. أنحبا ەحاحبا ابا. حبحدا وحسبه ەابحه حلە أيحلا. ەحدا ەحنا ەاحا ەإمإ ەابا

ەسجا. ەلا حقمم حبرم حلا حسبە. سنام حلە ايحلاە ەحمبەة. حكسەو. ايحلا حم حبحب

ەحدا. حكسبح حسەە، سبا حسجا. حنا ومم وحكبجا ەم ەلا بعبا لحد: حب إبحه حلە حبا.

حبه حلە حبجا حم حسه أحەە: [١٨] الأب، الأم، الزوج، الزوجة، الأبن، الأبنة، الأخ والأخت. وكلهم يرثون بالتساوى أو بدون مساواة. فإذا مات رجلٌ وكانت له زوجة وابن وبنت وأب وأم وأخ وأخت، ولم يترك وصية فى ماله، فيرثه أبناؤه وزوجته فقط. ويقسم الميراث كالتالى: يرثُ الأبن قسماً وترثُ الزوجة قسماً، وكذلك ابنته إذا كانت فى بيت أبيها ولم تخرج منه ترثُ قسماً مماثلاً لهما، أما إذا كان لها أبناء فلا ترث شيئاً من ميراث أبيها.

ويفسر إيشوبوخت سبب حرمان البنت المتزوجة من ميراث أبيها بقوله "لأنها أخذت من أبيها أثناء حياته مايريده (جهازها) وبذلك فقد أكرمها وأعطاها ما تستحقه وخرجت من بيته. وهكذا فقد أصبحت مستحقة للميراث من بيت آخر هو بيت زوجها، ولأنها لا تُعرف باسم أبيها بعد زواجها بل تعرف باسم زوجها فيقال زوجة فلان ولا يقال بنت فلان بعد زواجها[١٩].

ويقول إيشوبوخت أنه من الواجب تنفيذ وصية المتوفى أو أى اتفاق أبرمه إبان حياته، ويسوق مثالا على ذلك بقوله وإ، بعبا حبدا حب حبه حلە حم حدا ەابحه

حلە وم ايحلا ەحبجا ەاحبا ەابا. ې ەە حم وحمح حبرم إە حكحبا ەەا حلە إبە. حبرم

حاحبا وحەەإ حم إيحلە حلا حسبە. بحح أس حەحبە ەاس إبە. وحلە " رجل مات وليس له ابن وكان له زوجة وبنات وأبوان وأخوة، فإن كان قد أمر بشئ أو أبرم عقداً مع زوجته بخصوص ثروته، فيجب تنفيذ ما أمر به ووفق العقد الذى أبرمه فى حياته[٢٠].

وقد فصل الجاثليق طيموثاوس الأول حقوق الورثة وتناول بالأمثلة حالات كثيرة لكيفية توزيع الميراث. ونذكر بعض الأمثلة من قوانينه كالتالى:

[illegible]

[illegible] :(٢١) إن مات رجلٌ وتـــرك ابنـــا وبنتا وزوجة فكيف يكون توزيع ميراثه؟ الإجابة: يكون الأبن هو وريثه. أما البنت فترث ما أعطاها أياه أبوها مثل الهدية (نفقات جهازها للزواج)، فإن لم يعطها شيئا فليهبها أخوها ما يعينها على نفقات الحياة بحسب قدرته. أما الزوجـــة (الأرملـــة) فترث مايوازى نصيب الأبن مادامت أرملة، أما إذا ما رغبت في الـــزواج ثانيـــة فلتأخذ نفقات زواجها التي أعطاها أبوها أياها ومهرها من زوجها وعُشـــر تركـــة زوجها منذ دخولها بيت زوجها ولتذهب بسلام إلى حيث تريد.

وفي حالة أخرى يقول طيموثاوس:

[illegible] :(٢٢) إذا مات رجل وتـــرك ابنـــا وبنتا وأبا وأما وزوجة (فكيف يوزع ميراثه؟). الإجابة: يرثه الأبن الذكر وزوجته مادامت أرملة لم تتزوج. أما ابنته فترث ما تصدق به أبوها عليها. أما أم المتـــوفى وأبيه فيجب إعالتهم من تركة أبنهما المتوفى إذا كانا فقيرين، ومادام ابن المتـــوفى وزوجته على قيد الحياة. أما إذا مات ابن المتوفى وابنته وزوجته فيرثه أبوه وأمه.

ويذكر طيموثاوس عن الوصية القانونية أن على المسيحى أن يوكل مسيحى آخر قريب منه ويخاف الله على أولاده وعلى بيته، فإن لم يتثنى له ذلك فلا حـــرج من أن يوكل مسلماً أو أى شخص من دين آخر يخاف الله على بيته ويُنفذ أمره"[٢٣].

وقد تناول إيشوبرنون تقسيم الميراث فى قانونه وذكر كيفية التقسيم فى بعض الحالات ومنها مايلى:

[illegible] [٢٤]

لأننا ربما نشرع ونتأخذ قانونا يقول أن الأبنة لا ترث مع أخوتها الـــذكور. فالبعض يرى هذا والبعض الآخر لا يأخذ بهذا القانون، وعندهم ترث البنت أبيهـــا مع أخوتها الذكور. وربما تأتى النساء من ثم بهذا الميراث إلى بيت الزوجية. وهذا لا يؤثر فى العقيدة، مادام الامر يقتصر على توزيع تركة الأب فى القانون المدنى، ويجب اتباع القانون المعمول به فى كل بلد فى هذه الحالة. وربمـــا تـــرث البنـــت نصف نصيب أخيها الذكر.

ويقول إيشو برنون فى حالة أخرى :

[illegible] إذا مات رجل ولم يكن له أبناء ذكور سوى بنتا

متزوجة ولها أبناء، وأوصى الرجل بكل ماله للكنائس والأديرة والمساكين، فيجب تنفيذ وصيته. فإن كانت ابنته مسكينة تعطى نصيبا كاملاً من مال أبيها. فإن لم يترك وصية فكل ماله ترثه ابنته سواء كانت مسكينة أو غنية، فإن ماتت يقتسم أخوة أبيها وأبناؤها تركتها بالتساوى[٢٥].

ويذكر يوحنا بن أبجر فى القرن التاسع الورثة الشرعيين كالتالى:

lحا حلہ سناolاا سنا. وحدا وحما سنا. وحد حدا lوحدہ وحسد حدا. وlسا ادبعا وحدا

واسا ادبعا. ووا ادبعا وحد ووا ادبعا. وlحا واحا. وحب حلوم سناب سناolا: هؤلاء يرثون كلهم وهم الأب يرث كل الميراث، وكذلك الأبن. ويرث ابن الأبن (الحفيد) إذا لم يكن هناك ابن مطلقا. ويرث الأخ الشقيق وابنه. ويرث العم الشقيق وابنه. ويرث أبو الأب كذلك[٢٦].

ثم ذكر المشرع الأقارب الذين لا يرثون كالتالى:

ووحلب ولا سناب اسلحمم سعدا. ووا واحا لا سنا. سلا لا سنا. لا وحلب ولا

حسقوم لا سناب: خمسة هم من لا يرثون. عم الأم لا يرث والخال لا يرث ولا يرث أبناؤهم ايضا[٢٧].

ثم ذكر المشرع ميراث البنت كالتالى:

حدا وعلاا وحدہ حناا سبا. حدناا هحیا ولی لاقاس اسم لاوم لاوحلاا ولی لاحلہ

اسم لاحلہ lو حعا وووم وو وحما سلی لاوم لاوحلاا.

إذا مات رجل وترك بنتاً واحدة فلها النصف وإذا كن أثنتان فلهما الثلثين وإن كن ثلاثة بنات فلهن مايوازى الثلثين[٢٨].

أما عن ميراث الزوجة فيقول يوحنا بن أبجر:

ایلاا لا سناا مع حدنہ ولا زوحدا: lوحد وحسد حدہ حساً. وlوحد واسد حدہ سحا.

لاوحبا lو حووا ووحلب. حدا وعلاا وحدہ ایلاا والسآ ادبعاً وووا. سناا ایلاا زوحدا

وحدا اسقوم وبعد ووا حلحد محم. حدا وعلاا والسد حدہ ایلاا والسآ وحت اسا. لاایلاا

[illegible]

[illegible]: لا ترث المـــرأة من زوجها الربع إذا لم يكن له أولاد. وإن كان له ولد تـــرث زوجتـــه الـــثمن أو مايوازيه ويرث الأبن الباقى. الرجل الذى يموت ويترك زوجة وأخوة أشقاء وعما: ترث الزوجة الربع ويرث أخوته بقية الميراث ويخرج العم بدون شئ. الرجل الذى يموت وله زوجة وأخوة وأبناء أخوة: ترث زوجته الربع ويرث الأخوة الأشقاء بقية الميراث. الرجل الذى يموت وكان له زوجة وابن أخ شقيق وابن أخ من أبيه: ترث المرأة الربع ويرث ابناء الأخ الشقيق البقية وأبناء الأخ من الأب لا يرثون شيئا[٢٩].

أما عن ميراث الأم فيقول يوحنـــا: [illegible]: الرجل الذى يمـــوت ويترك أما وزوجة وأختين شقيقتين وأختين من أبيه وعما. ترث الأم السدس بواقع جزأين من اثنى عشر جزء وترث الزوجة الربع بواقع ثلاثة أجزاء وترث الأختان الشقيقتان الثلثين بواقع ثمانية أجزاء[٣٠].

ويحدد يوحنا بن أبجر حدود الوصية بقوله [illegible] "يجوز للإنسان أن يوصى إلا فى حدود الثلث من ثروته، فإن زاد على الثلث فلا يجوز له ذلك"[٣١]. ويقول فى حالة أخـــرى "إن أوصى إنسان لشخص ما بنصيب ابنه فإن وافق الأبن على هذه الوصية يتم تقســـيم التركة إلى قسمين"، فإن اعترض الأبن على هذه الوصية، يأخذ الأبن الثلثين ويأخذ الشخص الموصى له الثلث"[٣٢].

ونقتبس من قوانين عبديشوع بن بهريز فى القرن الحادى عشر بعض الأمثلة عن تقسيم الميراث وحقوق الورثة كمـــا يلـــى: [illegible]

ܠܐܚܐ ܕܩܪܝܒ ܠܗ ܘܢܐܪܬܘܗܝ. ܘܟܕ ܡܝܬ ܓܒܪܐ ܘܫܒܩ ܒܪܬܐ ܘܐܢܬܬܐ: ܐܝܟ ܕܒܢܡܘܣܐ ܕܐܢܫܝܢ ܕܒܪ

ܒܪܬܗ ܢܐܪܬܐ. ܡܟܝܠ ܠܒܪܬܗ ܘܠܐܢܬܬܐ ܦܠܓܐ ܦܠܓܐ ܢܫܩܠܢ ܫܘܝܐ ܠܐܢܬܬܐ ܥܡ

ܒܪܬܐ. ܘܐܚܪܢܐ ܬܘܒ ܕܗܘ ܕܟܕ ܡܝܬ ܓܒܪܐ ܘܫܒܩ ܐܒܗ̈ܐ ܘܠܐ ܫܒܩ ܒܢܝܐ ܘܠܐ ܒܢܬܐ ܠܒܢܝ ܕܒܪ

ܕܒܢܡܘܣܐ ܢܐܪܬܘܢ ܘܠܗ ܠܐܚܐ ܐܒܗܝ ܕܗܢܘܢ ܩܪܝܒܝܢ ܠܗ ܝܬܝܪ ܡܢ ܐܚܘܗܝ ܘܥܠܬܐ

ܐܢܘܢ ܕܝܠܕܬܐ ܕܝܠܗ. ܐܝܟ ܥܩܪܐ ܕܠܘܬ ܠܣܘܟܝܗܘܢ:[٣٣] إن مات رجل ولم يترك أولاد فاعطوا ميراثه لابنته. وإن لم يكن له بنت فاعطوا ميراثه لأخوته. وإن لم يكن لـــه أخ فاعطوا ميراثه لعمه، وإن لم يكن له عم فليرثه من هو قريـــب لـــه ويســـتحق ميراثه. وإن مات رجل وترك بنتاً وزوجة فالأولى أن ترث زوجته مع ابنته قسمة عادلة بينهما ونحن لا نمنع الزوجة في أيامنا من أن ترث زوجها. وأيضاً إذا مات رجل وترك أبويه ولم يكن له أبناء ذكور أو ابنة، استحق أبواه ميراثه وليس أخوته لأن أبواه أقرب إليه من أخوته. وهما علة وجوده وهما كالجذور بالنسبة للفروع.

وفي حالة أخرى يقول عبديشوع: ܓܒܪܐ ܡܝܬ ܘܫܒܩ ܒܪܐ ܘܒܪܬܐ ܘܐܢܬܬܐ. ܦܠܓܝܢ

ܬܬܦܠܓܘܢ ܢܐܪܬܘܬܗ ܠܬܠܬܥܣܪ ܡܢܘܢ. ܘܢܣܒ ܒܪܐ ܡܢ ܬܡܢܐ، ܠܒܪܬܐ ܕܝܢ ܐܪܒܥܐ ܘܐܢܬܬܐ

ܚܕܐ: مات رجل وترك بنتاً وابناً وزوجة. فتتوزع تركته ثلاثة عشرة قسماً، ويأخـــذ الأبن ثمانية أقسام والبنت أربعة أقسام والزوجة قسماً واحداً[٣٤].

ونقتبس الفقرات التالية من كتاب الهدايات لابن العبـــري: ܓܒܪܐ ܟܠ ܕܡ ܕܡܝܬ

ܘܫܒܩ ܠܗ ܒܪܐ ܘܒܪܬܐ ܢܐܪܬܘܢ ܠܒܢܝܐ. ܘܐܢ ܠܝܬ ܠܗ ܒܪܐ ܠܐܒܗܘܗܝ. ܘܐܢ ܠܝܬ ܠܗ ܐܚܐ

ܠܕܕܘܗܝ. ܘܐܢ ܠܝܬ ܠܗ ܩܪܝܒܐ ܕܡܢܟ ܠܗ ܡܢ ܫܪܒܬܗ ܢܐܪܬܘܗܝ.[٣٥] ܓܒܪܐ ܡܝܬ ܘܫܒܩ

ܒܪܐ ܘܐܢܬܬܐ. ܠܐܢܬܬܐ ܚܕܐ ܡܢ ܬܡܢܐ ܘܠܒܪܐ ܫܒܥܐ. ܐܢܬܬܐ ܡܝܬܬ ܘܫܒܩܬ ܒܥܠܐ ܘܒܪܐ. ܚܕܐ

ܡܢ ܬܡܢܐ ܠܒܥܠܐ ܘܠܒܪܐ ܫܒܥܐ. ܐܢܬܬܐ ܡܝܬܬ ܘܫܒܩܬ ܒܥܠܐ ܘܒܪܬܐ. ܚܕܐ ܡܢ ܐܪܒܥܐ

ܠܒܥܠܐ ܘܠܒܪܬܐ ܬܠܬ ܡܢܘܬܐ. ܓܒܪܐ ܡܝܬ ܘܫܒܩ ܐܢܬܬܐ ܘܒܪܐ ܘܒܪܬܐ. ܘܠܒܪܬܐ ܓܒܪܐ ܕܡܝܬ

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]:[٣٦] إذا مات رجل وليس له ولد فاعطوا ميراثه لابنته. وإن لم يكن له بنت فاعطوا ميراثه لأخوته. وإن لم يكن لـــه أخـــوة فاعطوا ميراثه لأعمامه وإن لم يكن له أعمام فاعطوا ميراثه لمن هو أقرب إليــه من أهله. وإن مات رجل وترك ابنة وزوجة فللزوجة الخمس وللبنت الربـــع. وإن ماتت الزوجة وتركت زوجاً وابناً فللزوج الخمس وللابن الربع. وإن ماتت الزوجة وتركت زوجاً وبنتاً فللزوج الثلث وللبنت الثلثين. إن مات رجل وترك زوجة وابناً وبنتاً وأبناء الأبن المتوفى وأبناء البنت المتوفاه وأباً وأماً وأخوة وأخوات. فللزوجة نصيب واحد من عشرين وللأبن ثمانية أنصبة وللبنت أربعة أنصبة ولأبناء الأبـــن المتوفى ثمانية أنصبة. فإن كانت البنت واحدة تأخذ ثمانية أنصبة أما أبنـــاء البنـــت المتوفاه والأب والأم والأخوة والأخوات فلا يرثون شيئاً من الميراث. فإن كانـــت الأم بمفردها بدون زوج فترث كل الميراث، وإن كان للميت أخوة أو أبناء أخوة وما يليهم من أبناء فترث الأم مثل حظ الأخ وترث مثل نصـــيب الأنثيـــين. وإن كـــان للمتوفى جد أو جدة مثل أب الأب أو أم الأم فترث الأم نصف الميراث ويرث الجد

أو الجدة النصف الآخر. فإن لم يكن للمتوفى جد أو جدة وكان له عم أو عمـــة او أبناء عم أو أبناء أبناء العم فترث الأم ثلثى الميراث ويوزع الثلث على الآخرين.

ويذكر ابن العبرى عن الوصية أن على الإنسان أن يأمر ويوصى فى حدود ثلث ماله وليس أكثر بقوله [illegible] من الأمور المقبولة أن يوصى الإنسان قبل موته ويدبر ماله. والوصـــية تكون حتى الثلث من التركة فقط ويبقى الثلثين للميراث.[٣٧]

وعندما نأتى إلى القرن الرابع عشر حيث وضع عبديشوع الصوباوى قوانين الحقوق المدنية فإننا نجده قد فصل الكلام فى الميراث وحقوق الورثة وقسم كلامــه عن الميراث فى المقال الثالث إلى خمسة وعشرين فصلاً تناول فيها هذا الموضوع تحت عنوان [illegible] "تقسيم الميراث"، وقد بدأ المشرع بالحــديث عـــن تقسيم الميراث وعدد الورثة الشرعيين وعدد الذين لا يرثون مطلقاً وميراث الزوج والزوجة من بعضهما البعض وميراث الأبناء والبنات من أبويهم وميراث الآباء من أبنائهم وميراث الأخوة والأخوات وميراث الجد والجدة وميراث الأعمام وميــراث رجال الدين وغير ذلك من حالات الميراث وأحكامه[٣٨]. ثم يذكر عبديشوع من لا يرثون مطلقاً وهم زوج الأم وزوجة الأب وابن الزوج وابن الزوجة وبنت الزوجة وأخو الأبن وأخته وأخو البنت وأختها وأبو الأخ وأبـــو البنـــت وأم الأخ والأخـــت وزوجة الأخ وزوج الأخت وحمو الزوجة وحماتها وأخوها وأخت الزوجة وأخـــو الزوج وأخته وزوجة الأبن وزوج البنت[٣٩].

ويحدد عبديشوع ميراث الأبناء كالتالى: [illegible][٤٠] يـــرث الأبن أبويه إذا لم يكن معه وريث آخر. وترث البنـــت أبويهـــا مادامـــت الوريثـــة

الوحيدة. فإذا كان هناك أولاد وبنات يرث كل منهم على حد سواء. ويرث الـذكر نصيبين وترث الأنثى نصيبا واحدا. فإذا مات أحدهما وكان له ولد ورث نصـيب أبيه أو أمه.

ثم يحدد عبديشوع ميراث الأب والأم كالتالي: ܐܒܐ ܡܢ ܕ ܒܠܚܘܕܘܗܝ ܐܚܝܕ ܚܕܐ ܟܠܗ ܝܪܬܘܬܐ ܡܢ ܒܪܗ ܐܘ ܡܢ ܒܪܬܗ. ܘܗܟܢܐ ܐܦ ܐܡܐ. ܐܢ ܕܝܢ ܐܒܐ ܘܐܡܐ ܐܝܬܝܗܘܢ ܡܩܒܠ ܚܕ ܡܢ ܐܒܐ ܬܪܝܢ ܡܢܘܢ ܐܡܐ ܕܝܢ ܚܕܐ ܡܢܬܐ ܘܐܢ ܚܕ ܡܢܗܘܢ ܡܝܬ ܒܢܘܗܝ ܐܘ ܒܢܬܗ ܢܩܒܠܘܢ ܝܪܬܘܬܗ:[41] إذا كان الاب بمفرده ورث كل ميراث ابنه أو ابنته، وكذلك الأم. فـإذا كان الأب والأم على قيد الحياة يرث الأب نصيبين وترث الأم نصيبا واحدا. فـإذا مات أحدهما ورثه أولاده أو بناته.

ثم يحدد عبديشوع ميراث الزوج والزوجة كما يلي: ܒܥܠܐ ܡܢ ܐܢܬܬܐ ܡܢ ܬܠܬܐ ܬܪܝܢ ܕ ܠܝܬ ܠܗ ܒܢܝܐ ܘܒܢܬܐ ܘܠܐ ܩܪܝܒܘܗܝ ܘܠܐ ܐܚܐ ܘܠܐ ܐܒܗܬܐ ܢܩܒܠ ܬܪܝܢ ܬܘܠܬܐ. ܘܬܘܠܬܐ ܕܝܢ ܠܥܕܬܐ. ܐܢܬܬܐ ܕܝܢ ܡܢ ܒܥܠܗ ܕ ܠܝܬ ܠܗ ܒܢܝܐ ܘܒܢܬܐ ܘܠܐ ܩܪܝܒܘܗܝ ܘܠܐ ܐܚܐ ܘܠܐ ܐܒܗܬܐ ܢܩܒܠܐ ܬܘܠܬܐ. ܬܪܝܢ ܬܘܠܬܐ ܕܝܢ ܠܥܕܬܐ. ܘܐܢ ܐܝܬ ܠܗ ܡܢ ܐܒܗܬܐ ܩܪܝܒܐ ܟܠ ܠܗ ܕܝܢ ܒܢܝܐ ܪܘܒܥܐ. ܘܐܢ ܒܪܬܐ ܠܗ ܡܢܗ ܗܝ ܐܘ ܡܢ ܐܢܬܬܐ ܐܚܪܬܐ ܚܡܫܐ:[42] يرث الزوج مـن زوجته الثلثين إذا لم يكن لها أقرباء أو أبناء وبنات ويـذهب الثلـث البـاقي إلـى الكنيسة. وترث الزوجة من زوجها الثلث إذا لم يكن له أولاد أو أبـوان أو أقربـاء ويذهب الثلثين إلى الكنيسة. فإذا لم يكن للزوج أبناء وكان له أقرباء ترث الزوجـة الربع، فإذا كانت للزوجة بنت منها أو كان للزوج بنت من إمـرأة أخـرى تـرث الزوجة الخمس.

أما عن الوصية فقد ذكر عبديشوع أن المبدأ فيها هـو العـدل وإلا يصـيب الورثة ظلما منها وقال في ܕܝܢ ܐܢܘܢ ܡܢ ܝܪܘܬܐ ܥܠܡ ܐܢܫ ܒܝܫܐ ܘܟܬܒ ܕܝܬܩܐ ܥܠܘܡܬܐ ܡܬܒܛܠܐ ܘܠܐ ܡܬܩܝܡܐ ܗܝ ܕܝܬܩܐ ܘܝܪܬܝܢ ܝܪܘܬܐ "إن ظلم المتوفى الورثة وكتـب وصـية ظالمة تبطل ولا تنفذ ويرث الورثة". ويذكر عبديشوع نقلا عـن طيموتـاوس أن

الطفل ابن الثانية عشرة تجوز وصيته فى ماله سـواء كانـت مكتوبـة أو غيـر مكتوبة"[٤٣]. ثم ذكر المشرع حالة أخرى عن الوصية الشفوية غير المكتوبة بقولـه "إن مات رجل ولم يكتب وصيته بل ذكرها قولاً فقط فيجب استدعاء مـن سـمعوا وصيته". وقد رأى المشرع أن المسيحى الذى يترك دينه لا يرث ولا يورث بقولـه

[illegible]

[illegible][٤٤] من يكفر بالإيمان المسيحى ويتركه ويدخل فـى عبادة أخرى أجنبية فلا يرث ولا يورث حتى يتوب ويعود إلى المسـيحية فيـرث ويورث.

ثالثاً. دراسة النصوص :

لاحظنا من قراءة نصوص التشريع السابقة والتى اهتمـت بمسـألة توزيـع الميراث، أنها تصف لنا درجات القرابة وتصف حالات كثيرة عند توزيع الميراث. فقد قسم إيشوعبوخت القرابة إلى ثمانية درجات وهم الأب والأم والزوج والزوجة والأبن والبنت والأخ والأخت. ويشرح المشرع سبب المساواة بين الأبن والزوجـة الأرمل فى الميراث بقوله "لماذا يتساوى الأبن والزوجة فى الميراث؟ لأن الزوجـه تتبع زوجها تبعية طبيعية وتصبح معه جسداً واحداً. أما الأبن فلأنه مثل الأب، وهو منه ويقوم مقامه، ولذلك يتساويان فى الميراث"[٤٥]. وهكذا يقرر المشرع إيشوبوخت مساواة الأبن والزوجة فى الميراث. بينما نجد المشرع طيموثـاوس يقـرر حـق الزوجة الأرملة فى الميراث مع الأبن مادامت أرملة، فقد ذكر أن على الأرملة تبقى فى بيت زوجها بوقار وهى سيدة البيت سواء كان لها أبنـاء أم لا. أمـا إذا أرادت العيش بمفردها فتعطى نفقات معيشتها على السعة. وإذا أرادت الزواج مرة أخـرى فتأخذ العُشر من تركة زوجها[٤٦]. وهنا نلاحظ أن نصيب الأرملة من الميراث يقل عمل قرره إيشوبخت من قبل. ويبدو أن هناك اتفاقاً فى مسألة حق الزوجة الأرملة فى إدارة المنزل بعد موت زوجها، فالمشرع إيشو برنون يقرر أيضاً أن للأرملـه الحق فى إدارة المنزل مادامت فى بيتها ولم تتزوج من رجـل آخـر[٤٧]. ويقـرر المشرع يوحنا بن أبجر أن ميراث الزوجة أقل من الربع إذا لم يكن للـزوج أولاد،

وللزوجة الأرملة الخمس إذا كان للزوج المتوفى أولاد. لكنه عاد وشرع الربع للزوجة الأرملة إذا كان للزوج المتوفى أخوة ذكور وأبناء أخوة. وقرر عبديشوع بر بهريز ميراث الأرملة بالخمس إذا كان للمتوفى أولاد وبنات، وإذا لم يكن له سوى بنتاً واحدة ترث الأرملة نصيباً كاملاً كالبنت. وهذا يعني أنه يقرر للزوجة الأرملة مايزيد عن الربع بخلاف المشرعين السابقين. وقرر أبو الفرج بن العبرى نصف تركة الزوج المتوفى، وللزوجة الأرملة ثمن نصيب الأبن الذكر إذا كان لها أبناء، ولها ربع نصيب البنت إذا كان لها بنات فقط. وربما ترث الثلث إذا لم يكن للمتوفى أقرباء. أما المشرع عبديشوع الصوباوى فيقرر أولاً أن الورثة سبعة درجات وهم الأبناء الذكور والإناث وأبنائهم وأبناء أبنائهم، والأبوان ثم الأخوة والأخوات وأبنائهم ثم الجد والجدة ثم الأعمام والعمات ثم الأخوال والخالات وأبنائهم ثم أباء وأمهات الجد والجدة ثم أعمام وعمات الأباء وأخوال وخالات الأباء وأبنائهم. ويرى عبديشوع أن الزوجة ترث الربع من زوجها مالم يكن له أبناء وكان له أقرباء، وقد ترث الثلث مالم يكن له أبناء أو بنات وترث الأرملة الخمس إذا كان لزوجها بنت، وإذا كان للزوج ولد منها أو من غيرها ترث العشر. وهكذا نجد أن المشرعين اختلفوا فى تشريع حصة الزوجة الأرملة ووضعوا أحياناً شرطاً لحصول المرأة على ميراثها وهو البقاء بدون زواج، وذهب البعض إلى حد توريث المرأة نصيباً كاملاً كالذكر. وقد رد ابن العبرى الخلاف بين المشرعين إلى سبب الاختلاف فى العادات والبلاد[٤٨].

أما ميراث الأبن الذكر والبنت فقد قرر ايشوبوخت أن الأبن الذكر يرث نصيباً كاملاً من أبيه، أما أخته فترث نصف نصيب أخيها الذكر وقد علل سبب لك بقوله " أما لماذا لا تتساوى البنت مع أخيها فى الأنصبة بالرغم من أنها من عصب الأب. والأبن له نصيبين من أبيه، أولاً لأنه أبنه وثانياً لأنه يحافظ على اسم أبيه. أما البنت فهى ابنته فقط ولا تحافظ على اسمه. ولهذا ترث البنت نصف نصيب أخيها[٤٩]. وذهب طيموتاوس إلى القول بأن البنت لا ترث شيئاً وعلى أخيها أن ينفق عليها. وقد ذكر طيموتاوس حالة أخرى عن ميراث البنت بقوله "إذا مات رجل وترك أبناء ذكور وبنات متزوجات ومنهن أرامل وزوجة، فكيف يوزع ميراثه؟ والإجابة: أن الأبناء الذكور يرثون أبيهم. أما البنات وقد جهزهم أبوهم وخرجن من

المنزل إلى بيت الزوجية فحسبهن ما أخذنه من أبيهم فى حياته، أما إذا كن فقيرات ويحتجن المال فمن يحفظ عليهن ماء وجههن سوى أخوتهن!" [٥٠]. ويفسر طيموثاوس سبب توريث الذكر النصيب الأكبر من الميراث بقوله "أما لماذا لا نورث الأنثى مطلقاً أو نورثها أقل من أخيها الذكر بالرغم من أنهما كيان واحد؟ والإجابة: أولاً لأن حواء خلقت من أجل ادم. والشئ الذى يخلق من أجل شئ آخر هو أقل منه، ولذلك فحواء في مرتبة أدنى من أدم، ولهذا تورث أقل منه" [٥١]. وهنا يتضح الأساس الذى يستند إليه المشرع السريانى فى توريث الأنثى أقل من الذكر، وهو قصة خلق أدم ثم حرمان أدم من الفردوس بسبب غواية الحية لحواء وهى القصة المذكورة فى سفر التكوين بالاصحاح الأول. وقد رأى المشرع إيشو برنون أن البعض يورث البنت بجانب أخيها والبعض الآخر يعطيها نصف نصيب الذكر. وقرر يوحنا بن أبجر أن للبنت نصف تركة أبيها إن كانت الوريثة الوحيدة له، فإن كان للمتوفى ابنتان أو أكثر يرثن الثلثين. وشرّع عبديشوع بر بهريز للذكر مثل حظ الأنثيين فعلى سبيل المثال يرث الذكر ثمانية أنصبة وترث البنت أربعة أنصبة فقط. وذهب ابن العبرى إلى القول بأن البنت ترث كل شئ إذا كانت وريثة أبيها الوحيدة أما إذا كان هناك آخرون ترث الربع. ويتفق عبديشوع الصوباوى فى توريث البنت كل تركة أبيها مادامت الوريثة الوحيدة له، أما إذا كان للمتوفى أولاد ذكور وبنات فللذكر نصيبين وللأنثى نصيب واحد، وهو هنا يتفق مع إيشوبوخت وعبديشوع بن بهريز. ويبدو أن التفسير المتفق عليه بين السريان والذى يفسر توريث الأبن مثل نصيب الأنثيين هو ماذكره ابن العبرى بقوله "لأن الأنثى خلقت معينة للذكر وهى ضلع من أضلعه وهى خاضعة للذكر وهى التى حرمته من ميراث الفردوس. أما الذكر فهو مكلف بحفظ الأشياء" [٥٢]. والواضح لنا من التفسير السابق والذى يتفق مع رؤية طيموثاوس التى أشرنا إليها آنفا، أن رؤية السريان للمرأة تستند إلى قصة خلق حواء في العهد القديم والتى وردت فى الفقرتين ٢٢ و٢٣ من الاصحاح الثانى من سفر التكوين كالتالى "فأوقع الرب الإله سباتاً على أدم فنام فأخذ واحدة من اضلاعه وملأ مكانها لحما، وبنى الرب الإله الضلع التى أخذها من أدم إمرأة وأحضرها إلى أدم فقال أدم هذه الأن عظم من عظامى ولحم من لحمى، هذه تدعى إمرأة لأنها من إمرء أخذت" [٥٣]. ثم ترد قصة غواية الحية لحواء

وعصيان الأمر الإلهي ثم تحديد علاقة آدم بحواء في الفقرتين ١٦ و ١٧ كالتالي "وأضع عداوة بينك وبين المرأة وبين نسلك ونسلها. هو يسحق رأسك وأنت تسحقين عقبه. وقال للمرأة تكثيراً أكثر أتعاب حبلك بالوجع تلدين أولاداً وإلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك"(٥٤).

أما بالنسبة لميراث الأبوين فقد حرمهما إيشوبوخت من ميراث الأبن المتوفى إذا كان له ولد وبنت وزوجة وأخ وأخت ولم يوصي بشئ. وقد ذكر في حالة أخرى أن الأب يرث أبنه إذا كان للأبن المتوفي بنت متزوجة، فإن لم يكن له أب ورثته أمه(٥٥). أما طيموتاوس فقد رأى ضرورة إعالة الأبوين من تركة الأبن المتوفى إن كان له أبناء وبنات وزوجة، فإن لم يكن للمتوفى سوى الأب والأم وأخوة من الذكور وأخوات ورثاهُ أبواه سوياً فإذا ماتا ورثهما أخوته وأخواته. وشرع يوحنا بر أبجر للأب ميراثاً مثل الأبن وذكر أن نصيب الأم لا يزيد عن الثلث ولا يقل عن السدس بقوله "ولتعلم أن الأم ترث على نحوين أثنين، فلا يزاد لها على الثلث أو ما يوازيه ولا يقل نصيبها عن السدس أو ما يوازيه"(٥٦). ويقول عبديشوع بن بهريز إذا مات رجل ولم يكن له ولد أو بنت وكان له أخوة وأب وأم فيجب أن تؤول تركته كلها إلى أبيه وأمه وليس إلى أخوته، وشرح سبب ذلك بقوله "لأن الأب والأم أقرب إلى المرء من أخوته، وهم سبب وجوده وهما كالجذر بالنسبة لفرع الشجرة(٥٧). وقد شرع ابن العبرى للأب وللأم كل تركة الأبن المتوفى وذكر أن ميراث الأب الثلثين والأم في حدود الثلث، فإن كان أحدهما على قيد الحياة ومات الأخر ورث كل التركة. وهكذا فإن ابن العبرى يسير وفق القاعدة التى تورث الذكر ضعف الأنثى. أما عبديشوع الصوباوى فقد شرع توريث الأب كل تركة ابنه أو ابنته إذا كان وريثهما الوحيد، أما إذا كان الأب والأم على قيد الحياة فيرث الأب نصيبين وترث الأم نصيباً واحداً، والمشرع هنا يسير على نفس القاعدة التى تورث الذكر نصيبين في مقابل نصيب واحد للمرأة.

ونتناول فيما يلى التعليق على موضوع حجب بعض الأفراد من الميراث والتى أشار إليها المشرعون السريان بقولهم فلان وفلان لا يرثون مطلقاً أو لا يرثون في وجود ورثة أخرين. ذكر يوحنا بر أبجر أن من لا يرثون من الرجال هم عم الأم والخال وأبنائهم، أما النساء اللاتى لا ترثن فهن العمات والخالات وابنة

البنت وابنة الأخ وابنة العم ولا يرث أبنائهن ايضا. وقد فصّل المشرع كيفية تطبيق ذلك بقوله في أمثلة عديدة "أعلم أنه لا يرث الأخ أو العم مع ابن الأبن، ولا يرث ابن العم مع أب الأب، فإنْ مات رجل وكان له ولد لا يرث معه الأخوة الأشقاء (أخوة المتوفى)، ولا يرث معهم الأخوة من الأب (أخوة المتوفى)، ولا يرث معهم الأخوة من الأم، ولا يرث العم أو ابنه مع الأخ الشقيق"[٥٨].

ومن هنا نتبين أن الأساس في توزيع الميراث يعتمد على القرابة المباشرة مع المتوفى، وهذا يتحدد بالقرابة الأصلية ثم القرابة الفرعية، فالأبن يحجب الأخ الشقيق للمتوفى من الميراث، والأخ الشقيق يحجب عم المتوفى من الميراث. والأقرباءُ من فرع الأب يحجبون الأقرباء من فرع الأم من الميراث. ومن خلال قراءتنا لقوانين ايشوبوخت وجدنا تفسيراً لهذا الحجب. فايشوبوخت يقول لماذا لا يرث الأب والأم أو الأخوة في وجود زوجة وأبناء وبنات المتوفى، ويعلل المشرع ذلك بقوله "إن الميراث يسير من الأعلى إلى الأسفل، ولا يسير من الأسفل إلى الأعلى. فهو كالماء يسير من الأعلى إلى الأسفل"[٥٩]. ويختلف عبديشوع بر بهريز مع هذا المبدأ عندما أشار إلى أن الأبوين يرثان ابنهما المتوفى وليس أخوته، لأنهما أقرب إليه من أخوته وهما كالجذر بالنسبة للفرع. وهكذا نستطيع القول أن الميراث لا يسير من الأعلى للأسفل كما ذكر ايشوبوخت، بل يسير أيضاً من الأسفل للأعلى. وقد أكد ابن العبري على هذا المبدأ بقوله "إذا مات رجل وكان له أم وجد أو جدة، فترث الأم النصف والجد يرث النصف الأخر فإن لم يكن له جد فترث الأم ثلثي الميراث والثلث الباقي يوزع على العم أو أبناء العم"[٦٠]. وقد ذكر عبديشوع الصوباوي أن الذين لا يرثون هم أربعة وعشرون شخصاً ومنهم زوج الأم وزوجة الأب وابن الزوج (من إمرأة أخرى) وابن الزوجة وبنت الزوجة. وقد لاحظنا من خلال قراءة النصوص أن التركة قد توزع على الورثة والكنيسة في أن واحد. فقد ذكر ابن العبري أن الأرمل في حالة عدم وجود أقرباء لزوجها المتوفى، ترث الثلث وتذهب بقية التركة وهي الثلثين إلى الكنيسة، ويتفق عبديشوع الصوباوي معه في هذا التشريع[٦١].

ويبدو أن اهتمام السريان بتشريعات الميراث على سبيل المثال كان سببه كثرة المنازعات والاختلافات حول الإرث ولذلك قال المشرع ايشوبخت عن سبب

وضع تلك التشريعات [illegible] ... [illegible]

[illegible] ... [illegible] "إذا ابتعد الناس عن الخطايا وأقروا بالحق لما كانوا فى حاجة إلى شرع مكتوب"[٦٢]. ويقول ابن العبرى عن نفس الموضوع "إن الآباء لما وجدوا الظلم قد انتشر فقد وضع المعلمين المقدسين شرائع دنيوية عن المواريث وغيرها بحسب العادات والمناطق[٦٣]. أما عن اعطاء الذكر مثل نصيب الأنثيين فقد استند المشرعين السريان إلى قصة خلق أدم وحواء فى كتاب العهد القديم وهى القصة التى تجعل حواء تابعة لأدم وتالية له. وقد ذكر ابن العبرى أن تشريعات السريان تختلف فى هذه المسألة وقال "إن من أباء الكنيسة الشرقيين جعلوا نصيب الأنثى مثل نصيب الذكر، وأورثوا أبناء البنت مثل نصيب الأولاد الذكور، وهكذا فعلوا مع أبناء العمات والخالات والأعمام والأخوة والأخوات. أما نحن فلا نميز بين أبناء الأبناء والأخوة والأعمام المتوفين فقط"[٦٤].

والجدير بالذكر أن المشرعين السريان قد اهتموا أيضا بمسألة الوصية التى يكتبها المتوفى، أو الوصية التى يذكرها على لسانه قبل موته ولا يدونها كتابة وهى تجوز عند عبديشوع الصوباوى مادام هناك شهود سمعوها من فمه. واشترط المشرع السريانى العدل فى الوصية لأجل تنفيذها والالتزام بها، كما يجب أن تتوفر فى من يقوم بدور القيم على الميراث أو الوصى أن يكون مسيحيا ويخاف الله ويجوز أن يكون من أتباع الأديان الأخرى إذا لم يتثنى للمتوفى غير ذلك بشرط أن يكون شخصا تقيا يخاف الله. كما أشار المشرع طيموتاوس واتفق معه عبديشوع الصوباوى إلى أن وصية الطفل فى الثانية عشرة تجوز كتابة أو شفاهة. وقد حدد كل من يوحنا بن أبجر وابن العبرى أن الوصية يجب أن تقتصر على ثلث التركة ولا تتجاوز ذلك بأى حال من الأحوال.

وفى ختام دراستنا نشير إلى اختلاف المشرعين السريان حول ميراث البنت فمنهم من ورثوها مثل أخيها الذكر من أمثال إيشوبوخت وإيشوع بن نون، ومنهم من جعل للأبن الذكر نصيبين وللبنت نصيبا واحدا مثل يوحنا بن أبجر وابن العبرى وعبديشوع الصوباوى. وقد اتفق معظمهم فى أن الهدية التى يقدمها الأب للبنت قبل

الزواج؛ والتى تشبه جهاز البنت فى أيامنا هذه، هى الحق المكتسب للبنت فى حياة أبيها ويماثل ميراثها بعد وفاته. ورأى المشرعون الســريان أمثــال طيموتــاوس ضرورة إعالة الأب والأم من تركة الأبن المتوفى، فى حين رأى يوحنا بن أبجر أن ميراث الأم يساوى سدس التركة. واتفق كل من ابن العبرى ويوحنا بن أبجر فى أن الوصية يجب إلا تتجاوز حدود ثلث التركة، ووضع عبديشوع شرطاً هاما لقبــول الوصية وهى أن تكون عادلة ولا تظلم الورثة الشرعيين.

الهوامش :

١- انظر إدوارد ساخاو, Eduard Sachau: Syrische Rechtsbuecher, Dritter Band, Corpus juris des persischen Erzbischofs Jesubocht, Erbrecht oder Canones des persischen Erzbischofs Simeon und Eherecht des Patriarchen Mar Abha. Berlin 1914, p. 15

2- Karl Georg Bruns & Eduard Sachau: Syrische Roemisches Rechtsbuch aus dem fuenften Jahrhundert. Leipzig 1880, p. 3, 68

٣- انظر حسن ظاظا: الفكر الدينى الإسرائيلى أطواره ومذاهبه. القاهرة ١٩٧٥، ص ٢٣٥ ومابعدها. وانظر موسوعة عبديشوع القانونية المنشورة بالسريانية بعنوان ܟܘܢܫܐ ܕܦܣܩ̈ܐ ܢܡܘܣ̈ܝܐ ܘܕܬܘܪ̈ܨ ܕܝ̈ܢܐ ܡܫܝܚ̈ܝܐ [illegible] فى A. Mai: Scriptorum Veterum Nova Collectio; Collectio Canonum Synodicorum. Roma 1838, p. 208

٤- انظر موسوعة عبديشوع القانونية ܟܘܢܫܐ ܕܦܣܩ̈ܐ ܢܡܘܣ̈ܝܐ ܘܕܬܘܪ̈ܨ ܕܝ̈ܢܐ ܡܫܝܚ̈ܝܐ [illegible] ص ٢٣١

٥- انظر Hubert Kaufhold: Der Richter in den syrischen Rechtsquellen. Oriens Christianus 68 Roma1984, p. 91ff

٦- انظر Eduard Sachau: Syrische Rechtsbuecher, Dritter Band, Corpus juris des persischen Erzbischofs Jesubocht, Erbrecht oder Canones des persischen Erzbischofs Simeon und Eherecht des Patriarchen Mar Abha. Berlin 1914, p 10

٧- انظر المرجع السابق عن ايشوبوخت ص ٤٤، يوسف حبى (ناشر ومترجم): فهرس المؤلفين لعبد يشوع الصوباوى، مطبعة المجمع العلمى العراقى، بغداد ١٩٨٦، ص ٢١٠

٨- انظر ألبير أبونا: تاريخ الكنيسة السُريانية الشرقية؛ من مجئ الإسلام حتى نهاية العصر العباسي. الجزء الثاني، بيروت ١٩٨٦، ص ٨٠، عمرو بن متى: أخبار بطاركة كرسى المشرق. روما ١٨٩٦، ص ٥٨ ومابعدها، يوسف حبى: فهرس المؤلفين لعبد يشوع الصوباوى، ص ١٩٢، مراد كامل وآخرون: تاريخ الأدب السريانى من نشأته إلى العصر الحاضر. القاهرة ١٩٧٩، ص ٢٩٤ ومابعدها

٩- انظر ألبير أبونا: تاريخ الكنيسة السُريانية الشرقية؛ من مجئ الإسلام حتى نهاية العصر العباسي، الجزء الثاني، بيروت ١٩٨٦، ص ١٣٥ ومابعدها، وانظر عن حياة طيموثاوس ومؤلفاته الجدلية: د. محمد حمدى البكرى، محاورة المهدى مع تيموثاوس، مجلة كلية الآداب-جامعة القاهرة، مجلد ١٢، القاهرة ١٩٥٠، ص ٤٧ ومابعدها ، وراجع النص العربى للحوار، الأب لويس شيخو، محاورات دينية ومجالس دينية ورسالة لاهوتية، بيروت ١٩٢٣ص ١-٤٠

١٠- ألبير أبونا: تاريخ الكنيسة السُريانية الشرقية، ص ١٦٥، يوسف حبى: فهرس المؤلفين لعبد يشوع الصوباوى، ص ٢٠٣

١١- انظر عن حياة يوحنا بن أبجر ومؤلفاته: Baumstark, Anton: Geschichte der syrischen Literartur. Bonn 1922, p. 235, Graf, G.: Geschichte der christlichen arabischen Literatur, Band I, Vatican 1944, band 2 p. 150ff, Hubert Kaufhold: Syrische Texte zum islamischen Recht. Muenchen 1971, p. 22ff

انظر مخطوط منجانا رقم ٥٨٧، وانظر فهرس منجانا عن مجموعة مخطوطات منجانا ببرمنجهام Mingana, A: Catalogue of The Mingana Collection of Manuscripts, vol :I, Christian Arabic Manuscripts. Cambridge 1963, p. 1122

١٢. ألبير أبونا: تاريخ الكنيسة السُريانية الشرقية، ص ٢٢٦، صلاح عبد العزيز محجوب إدريس: الجدل الدينى بين المطران إليا النصيبينى وبين الوزير أبى القاسم الحسين بن على المغربى؛ رؤية نقدية للنص السريانى. مجلة الدراسات الشرقية-جامعة القاهرة، عدد ١٩، ١٩٩٧، ص ٢٧٩-٣٢٣، اغناطيوس افرام الأول برصوم: اللؤلؤ المنثور، ص ٣١٠ ومابعدها. لويس شيخو: محاورات جدلية ومجالس دينية ورسالة لاهوتية، مطبعة الآباء اليسوعيين-بيروت ١٩٢٣، ص ٤٠ ومابعدها، يوسف حبى: فهرس المؤلفين لعبديشوع ص ١١١. الأب سمير خليل، (ناشر)، مقالة لإليا مطران نصيبين " فى نعيم الآخرة "، مجلة بين النهرين، عدد ١٧، بغداد ١٩٧٧، W. WRIGHT: A short History of Syriac Literature, London 1894, p. 238ff

١٣. ألبير أبونا: تاريخ الكنيسة السُريانية الشرقية، ص ١٣٦ و٢٢٤، يوسف حبى: فهرس المؤلفين لعبديشوع ص ٢٠١ ومابعدها، اغناطيوس افرام الأول برصوم: اللؤلؤ المنثور ص٦١، ١٥٩، ابن أبى أصيبعة: عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، تحقيق د. عامر النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠١، ج٢ ص ٢٤٢ ومابعدها. Graf, G.: Geschichte der christlichen arabische Literatur, I 105, 160ff

١٤. ألبير أبونا: تاريخ الكنيسة السُريانية الشرقية، ص ٢٢٣-٢٢٤

١٥. انظر كتاب الهدايات لابن العبرى ܟܬܒܐ ܕܗܘܕܝܐ، ١-٣، وانظر عن حياة بن العبرى: اغناطيوس افرام الأول برصوم: اللؤلؤ المنثور، الصفحات ١٥٩، و ٤١١ ومابعـــدها، Moritz Steinschneider, Geschichte der arabische Uebersetzung griech, 388, Baumstark, 316ff, Graf, G.: Geschichte der christlichen arabischen Literatur, I 20, 35, 238 II 186, 222, 272-281, III 211, 309, 353-360, IV 8 ff, Wliam Wright: A Short Histort of Syriac

Literature, Herman Teule: Gregory Barhebraeus, Scriptorum Christianorum Orientalium 535 Louvain 1993, 128ff, P. J. Bruns, Leipzig 1789, E. A. Budge, The Chronography of Bar Hebraeus, Oxford 1932, Joseph Khoury, Le Candelabre du Sanctuaire de Gregoire Aboulfaradj dit Barhebraeus, Syr. Text, Patrologia Orientalis ,Tome XXXI, Paris 1964, pp. 114-120

١٦- يوسف حبى، (ناشر ومترجم)، فهرس المؤلفين لعبد يشوع الصوباوى، ص ٧، البير ابونا، ادب اللغة الآرامية. بيروت ١٩٧٠،ص ٤٤٧، لويس شيخو، مقالات دينية قديمة لبعض مشاهير الكتبة النصارى من القرن التاسع إلى القرن الثالث عشر، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٠٦، ص ١٠٠ ومابعدها، Baumstark, Anton: Geschichte der syrischen Literartur, p. 323

١٧- موسوعة عبديشوع القانونية حوىعا ومىوىا ھەوبرىعا وححب لححبعەى ھھىعەحىھا ورەحا ەوااوصىا ص ٢١٦

18- Eduard Sachau: Syrische Rechtsbuecher, Dritter Band, Corpus juris des persischen Erzbischofs Jesubocht, Erbrecht oder Canones des persischen Erzbischofs Simeon und Eherecht des Patriarchen Mar Abha. Berlin 1914, p 94

١٩- المرجع السابق ص ٩٤-٩٥

٢٠- نفس المرجع ص ١٠٠ ومابعدها

21- Eduard Sachau: Syrische Rechtsbuecher, zweiter band 1908, p. 92

٢٢- انظر المرجع السابق

٢٣- نفس المرجع ص ١٠٦

٢٤- نفس المرجع ص ١٣٩

٢٥- نفس المرجع ص ١٤٠

26- Hubert Kaufhold: Syrische Texte zum islamischen Recht. P. 102

٢٧- المرجع السابق ص ١٠٢

٢٨- نفس المرجع ص ١٠٦

٢٩- نفس المرجع ص ١٠٨

٣٠- نفس المرجع ص ١١٦

٣١- نفس المرجع ص ١٢٤

٣٢- نفس المرجع ص ١٢٣-١٢٤[1]

٣٣- نفس المرجع ص ٤٣-٤٤

٣٤- نفس المرجع ص ٧٨

٣٥- انظر كتاب الهدايات لابن العبرى كثَبا دؤوديا ص ١٧٢

٣٦- المرجع السابق ص ١٧٦-١٧٧

٣٧- نفس المرجع ص ١٦١-١٦٢

٣٨- [illegible]
ص١٩٤-١٩٥

٣٩- المرجع السابق ص ٢١٣

٤٠- نفس المرجع ص ٢٢٤

٤١- نفس المرجع ص ٢٢٤

٤٢- نفس المرجع ص ٢٢٤

٤٣- نفس المرجع ص ٢٢٨

٤٤- نفس المرجع ص ٢٢٨

45- Eduard Sachau: Syrische Rechtsbuecher, Dritter Band, p.94
46- Eduard Sachau: Syrische Rechtsbuecher, zweiter Band, p.92
47- Eduard Sachau: Syrische Rechtsbuecher, zweiter Band, p.133

٤٨- كتاب الهدايات لابن العبرى ܟܬܒܐ ܕܗܘܕܝܐ ص ١٧٣

49- Eduard Sachau: Syrische Rechtsbuecher, Dritter Band, p.94
50- Eduard Sachau: Syrische Rechtsbuecher, zweiter Band, p.92

51- ibid p. 94

٥٢- كتاب الهدايات لابن العبري ܟܬܒܐ ܕܗܘܕܝܐ ص ١٧٣

٥٣- الكتاب المقدس، دار الكتاب المقدس (ب. ت) ص ٣-٦

٥٤- مرجع سابق ص ٦

55- Eduard Sachau: Syrische Rechtsbuecher, Dritter Band, p.104

٥٦- المرجع السابق ص ١١٤

57- Walter Selb: 'ABDISO BAR BAHRIZ; ordnung der Ehe und der Erbschaften. Wien 1970, syriac Text p. 44

58- Hubert Kaufhold: Syrische Texte zum islamischen Recht. P. 104

59- Eduard Sachau: Syrische Rechtsbuecher, Dritter Band, p.104

٦٠- كتاب الهدايات لابن العبري ܟܬܒܐ ܕܗܘܕܝܐ ص ١٧٣

٦١- كتاب الهدايات لابن العبري ܟܬܒܐ ܕܗܘܕܝܐ ص ١٧٤، ܟܘܢܫܐ ܕܩܢܘܢܐ ܣܘܢܗܕܝܩܝܐ ܕܥܒܝܕ ܠܥܒܕܝܫܘܥ ܡܝܛܪܦܘܠܝܛܐ ܕܨܘܒܐ ܘܐܪܡܢܝܐ ص ٢٢٤

62- Eduard Sachau: Syrische Rechtsbuecher, Dritter Band, p.44

٦٣- كتاب الهدايات لابن العبري ܟܬܒܐ ܕܗܘܕܝܐ ص ١٧٢ ومابعدها

٦٤- كتاب الهدايات لابن العبري ܟܬܒܐ ܕܗܘܕܝܐ ص ١٧٤-١٧٥

المراجع السريانية :

ܛܟܣܐ ܕܙܘܘܓܐ ܘܕܝܪܬܘܬܐ ܕܣܝܡܐ ܠܐܒܘܢ ܡܪܝ ܥܒܕܝܫܘܥ ܡܝܛܪܦܘܠܝܛܐ ܕܐܬܘܪ ܕܗܘ ܒܪ ܒܚܪܝܙ. Ed. Walter Selb, Wien 1970

ܟܘܢܫܐ ܕܩܢܘܢܐ ܣܘܢܗܕܝܩܝܐ ܕܥܒܝܕ ܠܥܒܕܝܫܘܥ ܡܝܛܪܦܘܠܝܛܐ ܕܨܘܒܐ ܘܐܪܡܢܝܐ. Ed. A. Mai, Roma 1838

ܟܬܒܐ ܕܗܘܕܝܐ ܡܢ ܣܝܡܐ ܕܒܪ ܥܒܪܝܐ. ܦܪܝܣ ١٨٩٨

المراجع العربية والمعربة :

١- أبونا، ألبير: أدب اللغة الآرامية. بيروت ١٩٧٠

٢- ______ : تاريخ الكنيسة السُريانية الشرقية؛ من مجئ الإسلام حتى نهاية العصر الغباسى، الجزء الثانى، بيروت ١٩٨٦

٣- ابن أبى أصيبعة: عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، تحقيق د. عامر النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠١، ج٢

٤- البكرى، محمد حمدى: محاورة المهدى مع تيموثاوس، مجلة كلية الآداب- جامعة القاهرة، مجلد ١٢، القاهرة ١٩٥٠

٥- برصوم، أفرام الأول:اللؤلؤ المنثور فى العلوم والآداب السريانية. هولنـــدا ١٩٨٧ (الطبعة الرابعة)

٦- خليل سمير خليل، (ناشر)، مقالة لإليا مطران نصيبين " فى نعيم الآخرة "، مجلة بين النهرين، عدد ١٧، بغداد ١٩٧٧

٧- شيخو، لويس: مقالات دينية قديمة لبعض مشاهير الكتبة النصـــارى مـــن القرن التاسع إلى القرن الثالث عشر، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٠٦

٨- ظاظا، حسن: الفكر الدينى الإسرائيلى أطواره ومذاهبه. القاهرة ١٩٧٥

٩- عمرو بن متى: أخبار بطاركة كرسى المشرق. روما ١٨٩٦

١٠- كامل، مراد: (وآخرون): تاريخ الأدب السرياني من نشأته إلـــى العصـــر الحاضر. القاهرة ١٩٧٩

١١- يوسف حبى، (ناشر ومترجم)، فهرس المؤلفين لعبد يشـــوع الصـــوباوى، مطبعة المجمع العلمى العراقى، بغداد ١٩٨٦

المراجع الأوربية

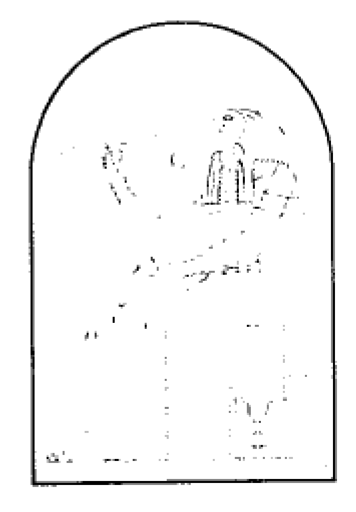
1. Baumstark, Anton: Geschichte der syrischen Literartur. Bonn 1922
2. Bruns, Karl Georg & Sachau, Eduard: Syrische Roemisches Rechtsbuch aus dem fuenften Jahrhundert. Leipzig 1880
3. Budge, E. A The Chronography of Bar Hebraeus, Oxford 1932,
4. Graf, G.: Geschichte der christlichen arabischen Literatur, Band I-5, Vatican 1944-1955
5. Teule, Herman: Gregory Barhebraeus. Scriptorum Christianorum Orientalium 535 Louvain 1993
6. Hoenerbach, W. und Spies. O.: IBN At-TAIYIB FIQH AN-NASRANIYA, corpus scriptorium christianorum orientalium vol. 167, Louvain 1957
7. Kaufhold, Hubert: Syrische Texte zum islamischen Recht. Muenchen 1971
8. Khoury, Joseph: Le Candelabre du Sanctuaire de Gregoire Aboulfaradj dit Barhebraeus, Syr. Text, Patrologia Orientalis ,Tome XXXI, Paris 1964
9. Mingana, A.: Catalogue of The Mingana Collection of Manuscripts, vol Christian Arabic Manuscripts. Cambridge 1963, p. 34-35
10. Steinschneider, Moritz: Geschichte der arabische Uebersetzung griech, 388,
11. Sachau, Eduard: Syrische Rechtsbuecher, zweiter Band, Richterliche Urteile des Patriarchen Chenanischo, Gesetzbuch des Patriarchen Timotheos und Gesetzbuch des Patriarchen Jesubarnun. Berlin 1908
12. ______________: Der Richter in den syrischen Rechtsquellen. Oriens Christianus 68 Roma1984
13. ______________: Syrische Rechtsbuecher, Dritter Band, Corpus juris des persischen Erzbischofs Jesubocht, Erbrecht oder Canones des persischen Erzbischofs Simeon und Eherecht des Patriarchen Mar Abha. Berlin 1914
14. Selb, Walter: 'ABDISO BAR BAHRIZ; ordnung der Ehe und der Erbschaften. Wien 1970
15. Wright, w.: A short History of Syriac Literature. London 1894.







CAIRO UNIVERSITY
FACULTY OF ARTS



THE EGYPTIAN HISTORIAN

STUDIES & RESEARCHES IN HISTORY & CIVILIZATION

A BIANNUAL PUBLICATION OF
THE DEPARTMENT OF HISTORY

Volume 26 (January 2003)